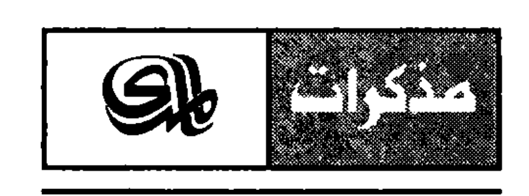
ستيفان تسفايج

عالم الأمس

مُذكّرات



ترجمة: عارف حديفة



Author: Stefan Zweig
Title: The World of Yesterday
Translator: Arif Hudaifa
Al- Mada P.C.
First Edition: 2007

المــــــؤلـــــف : ستيفان تسفايج
عنوان الكتـــاب : عالم الأمس
المتـــــــرجـم : عارف حديفة
الـنـاشـــــــر : المدى
الطبـعـة الأولى : ٢٠٠٧

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق ص. ب.: ٨٢٧٢ او٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ -٢٣٢٢٢٧٦-فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289
www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy

لبنان - بيروت-الحمراء-شارع ليون -بناية منصور-الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧
E-mail:al-madahouse@idm.net.lb

العراق - بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
تلفون: ٧١٧٠٣٩٥-٧١٧٠٥١٣ فاكس: ٧١٧٥٩٤٣
almadapaper.com
almada112@yahoo.com almada119@hotmail.com

تقديم

لم أعدّ نفسي في أي يوم شخصاً مهمّاً بحيث أُغرَى برواية قصة حياتي للآخرين. كان ينبغي أن تقع أشياء كثيرة، أن تمرّ أحداث وكوارث ومحن تتخطّى عادة حصة جيل واحد، قبل أن أتشجع للشروع في كتاب أكون فيه الشخصية الرئيسية، أو نقطة الارتكاز بالأحرى. لا شيء أبعد عن فكري من أخذ هذا الموقع البارز إلا من أجل أداء دور الراوية في محاضرةٍ موضّحةٍ بالصور. فالزمن يقدّم الصور، وأنا أنطق بالكلمات المرافقة لها ليس غير. وما أرويه، في واقع الأمر، ليس مجرى قَدَري الخاص، بقدْر ما هو قدر جيل كامل، جيل عصرنا الذي أثقله عبءُ مصيرٍ قلما أثقل جيلاً آخر في سياق التاريخ. فكل واحد منا، حتى أصغرنا، وأقلّنا شأناً، قد هزّت أعماق وجوده انفجارات بركانية متواصلة تقريباً في أرضنا الأوروبية. ولا أعرف تفوّقاً يمكن أن أدّعيه على الجمهور سوى أنني، كنمساوي، ويهودي، وكاتب، ومؤمن بالحركة الإنسانية، ونصير للسلم، قد وقفت على الدوام في المواضع التي ضربتها أعنف تلك الزلازل. لقد دمروا منزلي ووجودي ثلاث مرات، وفصلوني عن الماضي وكل ما كان، ثم قذفوا بي بغتة إلى الفراغ، إلى «حيث لا أعرف»، وأعرفه حق المعرفة. ولكني لا أتأسف على ذلك. فالإنسان الشريد يغدو حراً بمعنى جديد، إذ أن من يفقد صلاته كلها هو الوحيد الذي لا يلزمه أي تحفظ فكري. لذلك أتمنى أن أتمكن من تحقيق أحد أهم شروط التصوير المنصف للعصر، أي الصدق والحياد.

فُصلت حقاً عن كل الجذور، وعن التربة التي تغذيّها، كما لم يُفصل أحد في الماضي إلا نادراً. وكنت ولدت في عام ١٨٨١ في إمبراطورية عظيمة وقوية تحكمها سلالة هبسبورغ. ولكن لا تبحث عنها في الخارطة، فهي قد أُزيلت، وما بقي منها أثر. وفي فيينا، الحاضرة المتعددة القوميات، والتي يبلغ عمرها ألفي عام، نشأت، ثم

أرغمت على مغادرتها مثل مجرم قبل أن تنحدر من عاصمة إلى مدينة إقليمية في ألمانيا. وأما عملي الأدبي باللغة التي كتبته بها، فقد أحرق في البلاد ذاتها التي جعلت كتبي ملايينَ القراء أصدقاء لي. وهكذا فأنا لا أنتمي إلى أي بلاد، وحيثما حللت فأنا غريب، أو ضيف في أحسن الأحوال. فأوروبا التي اختارها قلبي موطناً قد أقدمت على الانتحار حين انقسمت مرة أخرى إلى جبهتين يحارب في «هما» الأخ أخيه. وشهدتُ رغماً عني أفظع هزيمة للعقل، وأشرس انتصار للوحشية في كل العصور. وأقول غير مفتخر، بل شاعراً بالعار: إن تجربة التردي الأخلاقي من ذلك السمو الروحي الذي تحلّى به جيلنا لم يعشها جيل من قبل. ففي الفترة الواقعة بين نموّ شعر لحيتي، والوقت الحاضر الذي أخذ يخطه فيه الشيب، في نصف القرن هذا، حدثت تغيرات وتحولات جذرية أكثر مما حدث في عشرة أجيال من البشر. وشعر كل واحد منا أن ما حدث قد بلغ الغاية أو كاد! إن حاضري، وكل يوم من ماضيٌّ، نهضاتي وعثراتي، هي من التنوع بحيث أشعر أحياناً كأني لم أعش حياةً واحدة، بل عدة حيوات إحداها مختلفة عن الأخرى. وكثيراً ما يحدث، حين أتحدث سهواً عن «حياتي»، أن أحمل على السؤال: «أي حياة ؟» - حياتي قبل الحرب الكبرى، أم حياتي بين الحربين، أم حياتي اليوم؟ أو أجد نفسي أقول: «منزلي»، ولا أدري للوهلة الأولى أي منزل من منازلي القديمة أقصد. هل أقصد منزلي في باث Bath، أم منزلي في سالزبورغ Salzburg، أم منزل أبويّ في فيينا ؟ أو أقول: «بين شعبنا»، ثم يتوجب على أن أعترف اعتراف المحبط بأنني لا أنتمي منذ وقت طويل إلى شعب بلدي أكثر مما أنتمي إلى الشعب الإنكليزي أو الأمريكي. وأنا غير مرتبط عضوياً بالأول الآن، ولم أصبح قط مرتبطاً تماماً بالثاني. إن ما أشعر به هو أن العالم الذي نشأت فيه، وعالم اليوم، والعالم الذي يتوسّطهما، هي عوالم منفصلة بالكلية. وكلما رويت، في الحديث مع أصدقاء أصغر مني سناً، بعضَ الحوادث التي وقعت قبل الحرب الأولى ألاحظ من أسئلتهم المندهشة كم أصبح الواقع الواضح لي واقعاً تاريخياً وغير مفهوم بالنسبة إليهم. وتخبرني غريزة خفيّة أنهم على حق. فكل الجسور بين يومنا وأمسنا قد أحرقت.

وأنا نفسي لا يسعني إلا أن أتعجب من الوفرة والتنوع اللذين ضغطناهما في حياة واحدة، رغم أنها حياة خطرة وقلقة للغاية، ويزداد تعجبي عندما أقارنها مع نمط عيش

أسلافنا. ماذا رأى والدي وجدي؟ كلاهما عاش حياة متسقة، حياة واحدة من البداية إلى النهاية، لا ارتفاع فيها ولا انخفاض، لا اضطراب ولا خطر، حياةَ الهموم الصغيرة، والتحولات التي لا تكاد تُلحظ. لقد حملهما تيار الزمن من المهد إلى اللحد في إيقاع منتظم هادئ بطيء. عاشا في البلاد ذاتها، وفي المدينة ذاتها، وفي المنزل ذاته على الدوام تقريباً. وما كان يجري في العالم لم يكن يجري إلا في الصحف، ولم يطرق الباب قط. في ذلك الزمان كانت تقع حرب في مكان ما، ولكنها لم تكن إلا حرباً صغيرة إذا ما قيست بالمقياس المعاصر. كانت تقع بعيداً عن الحدود، فلا يسمع أحد دويّ المدافع، وبعد ستة أشهر كانت تخمد، وتُنسى صفحة جافة من التاريخ، ثم تبدأ الحياة المعتادة القديمة من جديد . وأما في حياتنا فلا شيء يتكرر، لا شيء يبقى من الماضي، لا شيء يرجع. لقد خُصصت بالمشاركة الكاملة في ما كان التاريخ يوزّعه سابقاً باقتصاد، وبين حين وآخر، على بلد دون آخر ،وعلى قرن دون غيره. ففي حين كابد جيل مشقّات ثورة، وعاش آخر تجربة العصيان، وثالث تجربة الحرب، ورابع تجربة المجاعة، وخامس إفلاساً وطنياً، فإن بلداناً وأجيالاً عديدة محظوظة لم تكابد شيئاً من ذلك. أما نحن الذين بلغنا الستين اليوم، ومازال أمامنا متسع من الوقت، إذا أنصفنا، فما الذي ما رأيناه، وما كابدناه، وما بلوناه وبقينا أحياء؟ لقد شققنا طريقنا عبر كل الكوارث التي يمكن تخيّلها مرة بعد أخرى، ولم نصل بعد إلى الصفحة الأخيرة من القائمة. أنا نفسي عاصرت أعظم حربين خاضهما البشر، واجتزت كلاً منهما على جبهة مختلفة، الأولى على الجبهة الألمانية، والثانية على الجبهة المعادية للألمان. وقبل الحرب، عرفت أعلى درجات الحرية الفردية، وأرقى أشكالها. وفيما بعد عرفت أدنى مستوياتها خلال مئات السنين، فكُرِّمت واحتُقرت، ونعمت بالحرية وحرمت منها، وتمتعت بالغنى، وقاسيت العوز. لقد اجتاحت حياتنا جميع الخيول الضارية التي وصفها يوحنا في رؤياه ـ الثورة والمجاعة، التضخم والرعب، الأوبئة والهجرة. وشهدت الإيديولوجيات الشعبية الكبرى تنشأ وتنتشر أمام أعيننا ـ الفاشية في إيطاليا، والاشتراكية القومية (النازية) في ألمانيا، والبلشفية في روسيا، وفوق الكل التعصب القومي، هذا الوباء الأكبر الذي سمّم زهرة ثقافتنا الأوروبية. لقد أُرغمتُ على أن أكون شاهداً مكشوفاً ومخذولاً على انحطاط لا يصدق للإنسانية إلى البربرية المعادية للخير

العام، والتي اعتقدنا أننا قد نسيناها منذ أمد طويل. وتبقّى لنا بعد قرون أن نرى ثانية حروباً لا يعلن عنها، ومعسكرات اعتقال، واضطهاداً، ولصوصية جماعية، وغارات جوية على مدن عاجزة عن حماية نفسها، وكل الفظاعات التي لم تعرفها الأجيال الخمسون الماضية، أشياء نتمنّى أن تحُول الأجيال القادمة دون حدوثها. ولكن المفارقة هو أنني رأيت البشر أنفسهم في المرحلة ذاتها يرتقون تقنياً وفكرياً، ويحققون بخفقة جناحين عدة أشياء لم يُسمع بها قبلاً تتجاوز ما أُنجز في مليون سنة. لقد تمكنوا من إخضاع الجو بالطائرة، ونقل الكلام الإنساني في ثانية حول الكرة الأرضية، ومعه إخضاع الفضاء، وشطر الذرة، وقهر أفتك الأمراض، وتحويل ما كان في الماضي مستحيلاً إلى واقع كل يوم تقريباً. إن البشر لم يتصرفوا حتى عصرنا هذا التصرف الجهنمي، ولم ينجزوا هذا القدر من الإنجازات الخارقة في أي وقت مضى.

وأن أؤدي شهادة على هذه الحياة المتوترة المثيرة الحافلة بالمفاجآت أمر يبدو لي واجباً، لأن كل واحد كان شاهداً على هذا التحول الهائل، وكل واحد أُرغم على أن يكون شاهداً. فالفرار والحياد لم يكونا ممكنين بالنسبة إلى جيلنا. كنا منجذبين دوماً إلى عصرنا بفضل تنظيمنا الجديد للتزامن. فحين دمرت القنابل منازل شنغهاي، علمنا بذلك ونحن في غرفنا في أوروبا قبل أن يُنقل الجرحى من بيوتهم. وما كان يحدث على بعد آلاف الأميال كان يثب بالجملة أمام أنظارنا في الصور. لم يكن ثمة وقاية، ولا أمان من إدراك الأشياء على الدوام، والانجذاب إليها. لم يكن ثمة بلاد يمكن أن تهرب إليها، ولا راحة بال يمكن أن تشتريها، فلقد أمسكت بنا قبضة القدر دائماً وفي كل مكان، وجرّتنا إلى عبثها الذي لا يتوقف. كان على الناس أن يذعنوا لما تطلبه الدولة باستمرار، وأن يتحولوا إلى ضحايا أشد السياسات غباء، وأن يتكيفوا مع أكثر التغيرات خيالية. وكان الفرد مقيداً دوماً بالقَدَر العام، والانسياق معه بلا مقاومة. ومن كابد العيش في هذه المرحلة، أو بالأحرى تمّ اصطياده ودفعه إليها - لم نعرف إلا قليلاً من فترات التنفس - اختبر التاريخ أكثر من أي سلف من أسلافه. واليوم نقف مرة أخرى عند منعطف، عند نهاية وبداية جديدة. ولقد تعمدت أن أجعل هذا الاستعادة لحياتي تنتهي عند تاريخ محدد. ذلك أن ذلك اليوم من أيلول ١٩٣٩ قد كتب آخر ديباجة للمرحلة التي شكّلتنا وثقّفتنا، نحن البالغين الستين من العمر. ولكن إذا

استطاعت شهادتنا أن تنقل إلى الجيل التالي ذرة من الحقيقة عن هذا البنيان المتفسخ، فإن عملنا لن يذهب كله سدى.

أنا أدرك الظروف غير المواتية، والمميزة رغم ذلك لعصرنا ، والتي أحاول فيها أن أصوغ ذكرياتي. إنني أكتبها في بلد أجنبي، والحرب قائمة، ومن غير أن تتلقى ذاكرتي أقل مساعدة. فليس في غرفة الفندق الذي أقيم فيه أي من كتبي، أو مدوناتي، أو رسائل أصدقائي. ولا يسعني أن أبحث عن المعلومات في أي مكان، لأن البريد في العالم كله قد عُطّل أو أُعيق من الرقابة. نحن نعيش متقاطعين كما عشنا منذ مئات السنين، قبل أن تُخترع السفن والقطارات والطائرات والبريد. لا شيء معي من ماضيّ إلا ما احتفظ به عقلي، وما عدا ذلك فهو في هذه اللحظة إما مفقود وإما عصيّ المنال. ولكن جيلنا قد تعلم تماماً فناً مفيداً، وهو عدم التحسر على ما ضاع، ومن الممكن أن يكون الافتقار إلى الوثائق والتفاصيل مزيّة كتابي بالفعل. وذلك لأنني لا أعتبر ذاكرتنا عنصراً يحفظ وينسى اتفاقاً، بل قوة منظّمة عن وعي، ومُقْصِية عن حكمة. وكل ما ينساه المرء من حياته قد قضت غريزة باطنة أن يُنسى منذ وقت طويل. وما يستحق الحفظ للآخرين، هو ما يصرّ عل البقاء فقط. لذلك اختاري، يا ذكرياتي، وتكلمي نيابة عني، واعكسي بعضاً من حياتي على الأقل قبل أن تغرق في الظلام.

الفصل الأول
عالم الأمن

وأنا أحاول أن أجد صيغة بسيطة للفترة التي نشأت فيها قبل الحرب العالمية الأولى، آمل أن تكون تسميتي لها «عصر الأمن الذهبي» وافية بالغرض. كانت الأشياء في مملكتنا النمساوية البالغ عمرها نحو ألف عام قائمة على الديمومة، والدولة ذاتها كانت هي ضامنة هذا الاستقرار. فالحقوق الممنوحة للمواطنين كان يؤكدها برلمان ممثلي الشعب المنتخبين انتخاباً حراً، ويراعي الدقة في فرض الواجبات. وكانت عملتنا، الكراون Crown النمساوي، تتداولها الأيدي قطعاً ذهبية لامعة تأكيداً على أنها غير قابلة للتغير. وكل واحد كان يعرف كم يملك، وما هي مؤهلاته، ويعرف الممنوع والمسموح به. وكان لكل شيء معيار ووزن محددان. ومن ملك ثروة كان يستطيع أن يحسب فوائده السنوية على وجه الدقة. فالموظف، أو الضابط، مثلاً، كان في مقدوره أن ينظر إلى الروزنامة نظرة واثقة، ويعرف متى سيُرقّى، أو متى سيُحال على التقاعد. كان لكل أسرة ميزانية ثابتة تعرف كم يمكنها أن تنفق منها على أجرة السكن، والطعام، وأيام العطلة، والترفيه، إضافة إلى أن مبلغاً صغيراً من المال كان يُدّخر على الدوام بكل عناية للمرض، وفواتير الطبيب، وغير المتوقع. ومن امتلك منزلاً كان يراه مسكناً آمناً للأبناء والأحفاد الذين كانوا يتاورثون الأملاك والحرف والأعمال جيلاً عن جيل. وكلما وُلد طفلٌ، وُضعت في مصرفه أولى قطعه النقدية، أو أودعت في مصرف ادخار «احتياطاً» للمستقبل. في هذه الإمبراطورية الواسعة كان كل شيء يقف راسخاً ثابتاً في موضعه المحدد، وعلى رأسها كان الإمبراطور الطاعن في السن، ولئن دنا أجله، كان المرء يعرف (أو يعتقد) أن إمبراطوراً آخر سيأتي، ويحلّ محله، ولاشيء سوف يتغير في النظام الذي أُحسن تنظيمه. لا أحد كان يفكر في الحروب أو

الثورات أو الانتفاضات، إذ أن كل ما هو راديكالي أو عنيف كان يبدو مستحيلاً في عصر العقل.

إن هذا الشعور بالأمان، هذا المثل الأعلى العام للحياة، قد كان الثروة المطلوبة أكثر من أي شيء آخر. وهو الذي جعل الحياة تبدو ذات قيمة، وجعل الناس الراغبين في المشاركة في هذا الكنز النفيس متزايدين باستمرار. في البداية لم يتمتع بالامتياز هذا إلا الأثرياء، ولكن الجماهير الغفيرة أخذت تشق طريقها إليه شيئاً فشيئاً. لقد أصبح قرن الأمان العظيم قرنَ التأمين الذهبي. فالمنزل أُمِّن عليه ضد النار والسرقة، والحقل ضد البَردَ والعواصف، وحياة الشخص ضد الحوادث والمرض. كانت تُدفع مبالغ سنوية من أجل الشيخوخة، وتُوضع بوليصة تأمين في مهد الطفلة من أجل مهرها في المستقبل. وحتى العمال تنظموا أخيراً، ونالوا أجوراً عالية، وتعويض عمل. ووفّر الخدمُ المال للشيخوخة، ودفعوا مقدّماً إلى صندوق الوفاة من أجل دفنهم. لقد تمتع بالحاضر تماماً كل من حدّق في المستقبل بلا قلق.

ورغم ملاءمة هذه النظرة إلى الحياة وتواضعها، فإن الثقة البالغة بأننا قد حصّنّا كل الثغور التي قد يهاجمنا منها القدر قد انطوت على غرور خطر وخطير. فالمثالية الليبرالية في القرن التاسع عشر قد أقنعت الناس بأنهم ماضون في طريق مستقيم مطّرد إلى أفضل العوالم. أما العصور السابقة التي شهدت حروباً و مجاعات وثورات فقد استُنكرت كأزمنة كان البشر فيها مفتقرين إلى النضج والتنوير. والآن لم يبقَ إلا بضعة عقود من الزمن حتى يزول آخر أثر للشر والعنف. وهذا الإيمان بـ «التقدم» الذي لا يمكن قطعه أو مقاومته قد كان له قوة الدين بالنسبة إلى ذلك الجيل، بل غلب الإيمان به على الإيمان بالكتاب المقدس، وبدا إنجيله (بشارته) مطلقاً بسبب المعجزات اليومية الجديدة للعلم والتقنية. والحق هو أن هذا التقدم العام قد أصبح عند نهاية هذا القرن الهادئ ملحوظاً، وسريعاً، ومتنوعاً أكثر من أي وقت مضى. فالأنوار الكهربائية حلّت محل الإضاءة الضعيفة للشوارع في الليل، ونشرت الحوانيت وهجها الجذاب من شوارع المدينة إلى أطرافها. وبفضل الهاتف أمكن أن يتحادث شخصان متباعدان، و أخذ الناس ينتقلون من مكان إلى آخر في عربات بلا خيل وذات سرعة جديدة، وحلّقوا في الفضاء، محققين بذلك حلم إيكاروس Icarus. وأخذت أسباب الراحة في منازل الطبقة

الراقية سبيلها إلى منازل الطبقة الوسطى، فلم يعد أحد مضطراً إلى إحضار الماء من المضخة أو القناة، أو بذل الجهد بغية إشعال النار في الموقد. وانتشر الوعي الصحي، واختفت القذارة، ومن ممارسة الرياضة أصبح الناس أقوى وأصحّ وأوسم. ولم يعد يُشاهد في الشوارع إلا قليل من ذوي العاهات، والمشوّهين، ومتضخّمي الغدة الدرقية، وكل هذه المعجزات قد أنجزها العلم، ملاك التقدم الأكبر. وجرى تقدم أيضاً في القضايا الاجتماعية. إذ مُنح الفرد حقوقاً جديدة سنة بعد سنة، وأقيم العدل إقامة فيها رفق ورحمة. وحتى فقر الجماهير الغفيرة، مشكلة المشكلات، لم يعد يبدو أن التغلب عليه أمر مستحيل. وكانت فئات واسعة تنال حق الاقتراع، وتتمكن بالتالي من حماية مصالحها بالقانون. وتبارى علماء الاجتماع، وأساتذة الجامعات في خلق ظروف معيشة أسلم وأسعد للبروليتاريا. فلا عجب إذاً أن يفقد هذا القرن صوابه في غمرة ما أنجز، وأن يرى كل عقد ينتهي، يفضي إلى عقد أفضل. ولم يكن ليصدق أن حروباً بربرية كهذه يمكن أن تنشب بين شعوب أوروبا، مثلما لا يُصدق أن تنشب حروب بين الساحرات والأشباح. كان أباؤنا مطمئنين كل الاطمئنان إلى قوة التسامح والتصالح الثابتة المُلزمة. وكانوا صادقي الإيمان بأن التباينات والحدود بين الأمم والطوائف سوف تذوب بالتدريج في إنسانية مشتركة، وبأن بني الإنسان سوف يتشاطرون الكنزين الأنفسين: الأمن والسلام.

نحن الذين أسقطنا منذ وقت طويل لفظة «أمن» من مفرداتنا باعتبارها أسطورة، لا يسعنا إلا أن نشفق على الوهم المتفائل لذلك الجيل الذي أعْمته المثالية، وهو أن التقدم التقني للبشر لا بد أن يتضمن ارتقاء أخلاقياً لا حدَّ له، وسريعاً مثله. ونحن المنتمين إلى الجيل الجديد، والذين تعلموا ألاّ يفاجئهم أي اندلاع للوحشية، والذين يتوقعون أن يأتي غدهم بأسوأ مما أتى بهم أمسهم، تساورنا شكوك أكثر في إمكان هذا الارتقاء. علينا أن نتفق مع فرويد الذي رأى ثقافتنا وحضارتنا مجرد طبقة رقيقة يمكن أن تخترقها قوى «العالم السفليّ» المدمرة. كان علينا أن نتعود بالتدريج أن نعيش بلا أرض تحت أقدامنا، وبلا عدالة، ولا حرية، ولا أمن. وفيما يخصّ وجودنا، كنا أنكرنا منذ عهد بعيد دين آبائنا وإيمانهم في سياق نهوض الإنسانية السريع المتواصل. إن تلك التفاؤلية المتهورة تبدو لنا مبتذلة، نحن الذين تعلمنا في أجواء الرعب، وشهدنا كارثة

قذفت بنا إلى ما قبل ألف عام من عمر السعي الإنساني. ورغم أن ما عمل من أجله آباؤنا كان وهماً، إلا أنه كان وهماً رائعاً ونبيلاً، كان أجدى، وأكثر إنسانية من شعاراتنا اليوم. ولازال شيء في باطني يمنعني من التخلي عنه تماماً، على الرغم من معرفتي اللاحقة، وتجردي من الأوهام. فما يخالط دم الإنسان في طفولته من أثير الزمن لا يمكن أخذه منه. ورغم كل ما يُنفخ في أذنيّ كل يوم، وكل ما عانيته، أنا وآخرون لا حصر لهم، من المحن والمصائب، فإنني لا أستطيع أن أنكر إيماني وأنا شاب، بأن البشر سيشهدون نهضة أخرى ذات يوم لا محالة. وحتى في هاوية اليأس التي نتلمّس فيها طريقنا اليوم نصف عميان، وبأرواح مشوّهة ومحطّمة، أتطلع مرة بعد أخرى إلى تلك النجوم القديمة التي غمرت طفولتي بالضوء، وأواسي نفسي بالثقة الموروثة بأن هذا الانهيار سيبدو في قادم الأيام مجرد فاصل في إيقاع الزمن المتقدم أبداً.

والآن، وبعد أن دمّرت العاصفة الهائلة عالم الأمن ذاك، عرفنا أخيراً أنه لم يكن إلا أحلام يقظة عاش فيه أبواي وكأنه كان منزلاً من حجر. إن حياتهما الدافئة الخالية من المتاعب لم تقتحمها عاصفة قط، ولا حتى ريح شديدة. لقد وُقيا وقاية خاصة رياحَ الزمن، إذ أثريا على التدريج، بل أصبحا ثريّين جداً، وهذا سدّ شقوق الباب والنافذة في تلك الأيام. وتبدو لي طريقة عيشهم أنها نموذج لحياة ما يسمّى «البرجوازية اليهودية المقتدرة» التي كان تقديرها واضحاً للثقافة النمساوية، وكوفئت على ذلك باجتثاثها تماماً من أصولها، وحين أحكي عن حياتها الهادئة الخالية من المتاعب، فأنا أتجرد بالفعل من المشاعر الخاصة، إذ كانت عشرة آلاف أسرة، أو عشرون ألف أسرة مثل أسرتنا تعيش في فيينا في ذلك القرن المنصرم الثابت القيم.

إن أسرة والدي قد قدمت من مورافيا، حيث عاشت الجماعات اليهودية في قرى صغيرة على وفاق تام مع الفلاحين والبرجوازية الصغيرة، وكانت متحررة بالكلية من الشعور بالدونيّة والجزع الضاغط المتواصل اللذين كان يشعر بهما يهود غاليشيا Galicia، أو اليهود الشرقيون. وبما أن أفرادها عاشوا في الريف، فقد كانوا أقوياء بحيث مضوا في طرقهم بخطوات هادئة وثابتة مثل خطوات فلاحي موطنهم فوق الحقول. وبعد تحررهم المبكر من ديانتهم التقليدية، أصبحوا أنصاراً متحمسين للتقدم، دين العصر،

وفي عهد الليبرالية السياسي، دعموا أكثر ممثليها احتراماً في البرلمان. ولما انتقلوا من فيينا، سرعان ما تكيّفوا مع جوّها الثقافي الراقي، وارتبط ارتقاؤهم الخاص بالارتقاء العام الذي شهدته تلك الأوقات. وفي هذا التحول ذاته كانت أسرتنا نموذجية، إذ كان جدي تاجر أغذية جافة. وفي النصف الثاني من القرن، بدأ التحول الصناعي في النمسا، فاستُوردت الأنوال والمغازل الآلية. وهذا قد أدى بالطبع إلى انخفاض كبير في الأسعار مقارنة بأسعار المنسوجات اليدوية المألوفة. والبصيرة التجارية والنظرة العالمية اللتان اتصف بهما التجار اليهود، قد جعلتاهم أول من رأى في النمسا ضرورة التحول إلى الإنتاج الصناعي وأفضليته. كانت المصانع التي أسّسوها على عجل ذات رأسمال محدود عادة، وأداروها بالطاقة المائية في البداية. ولكنها تحولت بالتدريج إلى صناعة النسيج البوهيمية الكبرى التي هيمنت على كل النمسا والبلقان. وفي حين اشتغل جدي، وهو ممثل نموذجي للعهد السابق، بالاتجار بالبضائع الجاهزة، فإن والدي قد عزم على الانتقال إلى العهد الجديد، فأسس وهو في الثلاثين، مصنع نسيج صغيراً في بوهيميا الشمالية تطور مع الزمن في بطء واتساق إلى مشروع ضخم .

كان توسع والدي الحذر مجارياً للزمن على الرغم من التحولات المغرية، إضافة إلى أنه كان يشير إلى طبيعته المعتدلة البريئة من الجشع تماماً. كان مُشْرباً عقيدةَ المرحلة : «السلامة أولاً». وما بدا مهمّاً في نظره هو امتلاك مشروع «موثوق» (وهي كلمة أخرى مفضّلة آنذاك) يعتمد على رأسماله الخاص، وليس إنشاء مشروع ضخم بالاعتماد على أرصدة المصارف وعقود الرهن. وما كان يفخر به في حياته هو أن أحداً لم يشاهد اسمه على سند أو حوالة، وأن بيانات حسابه كانت دوماً في الجانب الدائن من سجل الحسابات الجارية في مصرف روتشيلد، kreditanstalt - أوثق المصارف طراً. كان أي ربح ينطوي على أدنى مغامرة يخالف مبادئه، كما أنه لم يشارك أحداً في عمل قط. ولئن تدرّج إلى الغنى، فمردّ ذلك لم يكن إلى مضاربات متهورة، أو عمليات بعيدة النظر، بل إلى تكيّفه مع النهج العام لذلك العهد الحذر، أي إنفاق قسم بسيط من الدخل، وبالتالي إضافة مبلغ أكبر إلى الرأسمال سنة بعد سنة. وشأن أكثر أبناء جيله، كان يعتبر من يستهلك نصف دخله من غير أن «يفكر في المستقبل» - وهذه عبارة أخرى من عبارات عصر الأمن - رجلاً مسرفاً يبعث على الريبة. وبفضل تراكم

الأرباح المستمرة في مرحلة ازدهار متزايد لم تأخذ فيها الدولة إلا نسبة مئوية زهيدة من الدخل حتى من أغنى مواطنيها، ومعدلات الفائدة العالية التي كانت تجنيها سندات الدين الصناعية وسندات الدولةٍ، فإن الإثراء لم يكن أكثر من نشاط سلبي للأثرياء، وكان ذلك جديراً بالعناء. لم يكن بعد قد سُرق المقتصدون، وسُلب رجال الأعمال الناجحون أموالَهم، في حين جنى الصابرون، وغير المضاربين أفضل الأرباح، كما حدث في فترة التضخم اللاحقة. ولأن والدي راعى النظام السائد في زمنه، فقد عُدَّ، وهو في الخمسين، من الأثرياء جداً حتى بالمعايير الدولية. ولكن ظروف عيش أسرتي لم تساير تزايد الثروة المتواصل السريع إلا مسايرة مترددة، فاقتنينا بعض وسائل الراحة على التدريج، وانتقلنا من منزل صغير إلى منزل أكبر، وفي الربيع كنا نستأجر عربة للخروج عصراً، وعند السفر نأخذ الدرجة الثانية في عربة النوم. لم يُجِزْ والدي لنفسه ترفَ قضاء شهر في الشتاء مع أمي في مدينة نيس Nice إلا حين بلغ الخمسين، إذ أن مبدأ التمتع بالثروة، التمتع بامتلاكها لا بإظهارها، لم يطرأ عليه أي تغيير. ومع أنه كان مليونيراً، فإن والدي لم يدّخن قط سيجاراً مستورداً، بل كان يدخن سيجار «فرجينيا» الشعبي الرخيص الذي كانت الدولة تحتكر إنتاجه،مثله في ذلك مثل الإمبراطور فرانسيس جوزيف. وحين كان يلعب الورق، لم يكن يراهن إلا على مبالغ زهيدة. لقد التزم بلا هوادة نمط عيشه المريح المتحرز المتحفظ. ورغم أنه كان أفضل تعليماً، ومقبولاً في المجتمع أكثر من معظم زملائه ـ كان يعزف البيانو جيداً، ويجيد الكتابة الواضحة، ويتكلم الفرنسية والإنكليزية ـ فقد أصرّ على رفض أي تكريم أو منصب، كما أنه لم يقبل أو ينشد أي لقب أو منزلة رفيعة، مع أن هذه الأشياء كثيراً ما كانت تُعرض عليه نظراً إلى موقعه بين كبار رجال الصناعة. كان اعتزازه الخفّي الذي عنى له أكثر من أي اعتراف خارجي، هو بأنه لم يطلب شيئاً من أحد، ولم يتوجب عليه أن يقول لأحد: «شكرا» أو «من فضلك».

وفي مواجهة وجودنا، لابد أن يحلّ في حياة كل واحد منا وقت يتلاقى فيه مع والده مرة أخرى. فما تميّز به والدي من تعلق بالخصوصية وعزوف عن الشهرة، قد أخذ يقوى في نفسي سنة بعد سنة، رغم أن ذلك يتباين تبايناً حاداً مع حرفتي التي تفرض اسمي وشخصي أمام أعين الناس إلى حد ما. وذلك الاعتزاز الخفّي ذاته هو الذي

جعلني أرفض أي تكريم خارجي، فلم أقبل أي وسام، أو لقب رفيع، أو رئاسة أي جمعية. ولم أنتسب إلى أي أكاديمية أو لجنة، أو هيئة تحكيم. إن مجرد الجلوس إلى مأدبة أمر يعذبني، وأن أطلب شيئاً من أحد -حتى لو كان باسم شخص ثالث - يجفّف شفتيّ قبل النطق بالكلمة الأولى. وأنا أعلم أن كبت الرغبات هذا لا يتماشى مع الزمن في عالم لا يبقى فيه الإنسان حراً إلا بالخداع والفرار، ولا «يقيه كثيراً من الدفع في الزحام إلا الأوسمة والألقاب»، كما يقول معلمنا الحكيم غوته. ولكن والدي الذي في داخلي، واعتزازه الخفّي، هما اللذان يصدّانني عن ذلك، فأنا قد لا أبدي معارضة، لذلك فأنا مدين له بما يمكن أن أعتبره ملكي الوحيد المحدد ـ الشعور بالحرية الداخلية .

أما أمي التي كان اسمها قبل الزواج Bretauer، فقد كانت من أصل مختلف، وأكثر عالمية. فهي قد وُلدت في أنكوتا Ancota في جنوبي إيطاليا، وكانت تتكلم الإيطالية والألمانية وهي بنت صغيرة. وكلما ناقشتْ مع جدتي، أو مع أختها، أمراً غير مخصص لآذان الخدم، كانت تلجأ إلى الإيطالية. ومنذ مطلع الشباب عرفتُ الأرز المطبوخ مع اللحم والجبن rosotto، والأرضي شوكي، وكانا من الوجبات النادرة يومئذ، إضافة إلى وجبات أخرى من المطبخ المتوسطي. وفيما بعد، كنت أشعر، كلما ذهبتُ إلى إيطاليا، بأنني في بيتي من اللحظة الأولى. ولكن أسرة أمي لم تكن قط إيطالية، بل كانت تعي أنها تتخطّى الانتماء القومي. وأهل أمي الذين كانوا يعملون بالأصل أعمالاً مصرفية ـ على منوال العائلات اليهودية الكبيرة، ولكن على نطاق أضيق بكثير ـ قد انتشروا في العالم من هوهينمز Hohenems، وهو إقليم صغير بالقرب من الحدود السويسرية. ذهب بعضهم إلى سان جال St.Gall، ومضى آخرون إلى فيينا وباريس، وجدي إلى إيطاليا، وخالي إلى نيويورك. و هذا الاحتكاك بالعالم قد منحهم حنكة أكثر، ورؤية أوسع، وشيئاً من الزهو العائلي. لم تعد تجد في العائلة تجاراً وسماسرة صغاراً، بل أصحاب مصارف، ومدراء، وأساتذة، ومحامين، وأطباء فقط. وكل واحد منهم كان يتكلم عدة لغات، ولازلت أذكر كم كان مألوفاً الانتقال من لغة إلى أخرى وهم في ضيافة خالتي في باريس. لقد كانوا عائلة تهتم بالتضامن كل الاهتمام. فحين كانت فتاة من الأقرباء الفقراء تبلغ سن الزواج، كانت العائلة تجمع لها مهراً يساعدها

على ألا تتزوج رجلاً «دونها». ومع أن أمي كانت سعيدة باقترانها بأبي، وأن أبي كان يحظى باحترام لأنه من رجال الصناعة، فإنها لم تكن تسمح لأقربائه بأن يعدّوا أنفسهم مساوين لها في المنزلة. وهذا الفخر بالانتساب إلى أسرة ذات «منزلة اجتماعية رفيعة» كان راسخاً في نفوس آل بريتاور. ففي أعوام لاحقة، حين كان أحدهم يرغب في أن يبدي لي حسن نية خاصاً، كان يقول: «أنت من صميم آل بريتاور حقاً»، وكأنه يقول: قد «سلكتَ جادة الصواب».

إن هذا النوع من النبالة التي ادعتها لنفسها عائلات يهودية كثيرة كانت مسليّة لي ولأخي أحياناً، ومزعجة أحياناً أخرى، حتى حين كنا ولديْن صغيرين. كان يقال لنا دائماً: هؤلاء «أعيان» وأولئك «ليسوا أعياناً»,وكان يتمّ تتبع أصول كل صديق، وأصول أقربائه، إضافة إلى ثروته، للتأكد من انتمائه إلى عائلة «رفيعة المنزلة». وهذا التصنيف المستمر الذي كان في الواقع موضوع الأحاديث الخاصة والعامة في ذلك الزمن، كان مستعلياً ومضحكاً للغاية، لأن الأسر اليهودية جميعها لم يكن قد مرّ على خروجها من الجيتو نفسه إلا خمسون سنة أو مئة سنة فقط. ولم أدرك إلا في وقت متأخر أن فكرة الأسرة «ذات المنزلة الرفيعة»، والتي بدت لنا نحن الأولاد، أرستقراطية منتحلة مثيرة للهزء قد كانت إحدى أعمق نزعات الحياة اليهودية وأخفاها. وثمة إقرار عام بأن الغاية الوحيدة التي يتميز بها اليهودي هي تحصيل الثروة، ولاشيء أبعد عن الحقيقة من ذلك. فالثروة بالنسبة إليه ليست إلا موطئ قدم، وسيلة للغاية الصحيحة، وليست الهدف الحقيقي بأي معنى من المعاني. فما يرمي إلى اليهودي هو الارتقاء في سلّم الثقافة. وحتى اليهود الشرقيون، حيث تجد مُثُل اليهود عموماً ومزاياهم أشدَّ تجلياتها، فإن الرغبة في تغليب الروحي على المادي يُعبَّر عنها تعبيراً يتصف بالمرونة. فالمتدين الذي يدرس الكتاب المقدس مقدّر عند الجماعة أكثر ألف مرة من الغني، وحتى أغنى الأغنياء يفضّل المثقف على التاجر زوجاً لابنته. وهذا الإعلاء للمثقف إلى أرقى الرتب أمر مشترك بين الطبقات كلها. فالمتسول الذي يحمل كشكوله في الريح والمطر يسعى إلى اختيار ولد للدراسة مهما كانت التضحية عظيمة، ويُعدُّ شرفاً للأسرة كلها أن يكون أحد أفرادها أستاذاً، أو عالماً، أو موسيقياً يؤدي دوراً في الوسط الثقافي، وكأنما منجزاته تشرّفهم جميعاً. ثمة شيء في وعي اليهودي الباطن ينشد

الخلاص من المريب أخلاقياً، من المنفّر والتافه وغير الروحي الملازم للتجارة كلها، من كل ما يخصّ عالم الأعمال فقط، والارتفاع إلى مجال الفكر الذي لامال فيه،وكأنه يرغب ـ بالمعنى الفاجنري ـ في تخليص نفسه وأبناء جلدته كلهم من لعنة المال. وهذا هو السبب الذي جعل الدافع إلى الإثراء يفقد قوته خلال جيلين، أو ثلاثة على الأكثر، في داخل الأسرة الواحدة، ووجدت أقوى الأسر أن أبناءها غير ميّالين إلى إدارة المصارف، والمصانع، وهي مهنة أبائهم القائمة والآمنة. وليس مصادفة أن يصبح لورد روتشليد عالم طيور،وفاربرغ مؤرخ فن، وكاسيرر فيلسوفاً، وساسون شاعراً. لقد أطاعوا جميعهم الدافع الباطن ذاته إلى التخلص من جمع المال البارد الذي يقيّد اليهود، هذا الدافع الذي يعبّر عن توق خفّي إلى إدماج ما هو يهودي بحت في الإنسانية عامة. لذلك فإن الأسرة «الرفيعة المنزلة» تعني أكثر من مجرد مظهر اجتماعي يسبغه هذا التصنيف عليها، بل تعني التخلص من النقائص والمحددات والتفاهة التي فرضها الجيتو على اليهود، وذلك بالتكيف مع ثقافة مغايرة، وربما ثقافة إنسانية أيضاً. وأن يصبح هذا الفرار إلى عالم الفكر وخيم العواقب بسبب الكثرة غير المتناسبة للمهن، مثله مثل الاهتمام المنحصر في القضايا المادية الخالصة سابقاً، أمر يتعلق بالمفارقات الأبدية للقدر المقدَّر على اليهود.

إن الدافع إلى المُثُل الثقافية لم يكن في أي مدينة أوروبية قوياً كما كان في مدينة فيينا. فلأن الملكيّة، لأن النمسا ذاتها لم تكن طوال قرون طامحة سياسياً، وعلى الأخص لم تكن ناجحة عسكرياً، فإن الكبرياء الوطنية قد استحوذت عليها الرغبة في التفوق الفني. فالأقاليم الأكثر أهمية والأعظم شأناً، أي الألماني والإيطالي والفلمنكي والوالوني Walloon، قد انفصلت منذ عهد بعيد عن إمبراطورية آل هبسبورغ القديمة التي حكمت ذات يوم أوروبا، وبقيت العاصمة، ذات الأمجاد القديمة الناصعة، كنز البلاط، وحافظة تراثٍ عمره ألف عام. لقد أسس الرومان هذه المدينة لتكون قلعة، موقعاً متقدماً يحمي الحضارة اللاتينية من البرابرة، وبعد أكثر من ألف سنة حطّم العثمانيون الذين هاجموا الغرب هذه الأسوار. ههنا ركب ملوك بورغوندي صهوات الخيل، وههنا أشرقت على الدنيا ثريّا الموسيقا: غلوك، وهايدن، وموزارت، وبيتهوفن،

وشوبيرت، وبرامز، وجوهان شتراوس، ههنا تلاقت كل تيّارات الثقافة الأوربية. وفي البلاط، وبين النبلاء والجمهور، تمازج الدم الألماني بالدم السلافي والهنغاري والإسباني والإيطالي والفرنسي والفلمنكي. وعبقرية مدينة الموسيقا هذه هي التي أذابت كل التباينات، وصنعت منها شيئاً جديداً وفريداً ومنسجماً عليه طابعها الخاص. وبما أنها كانت مضيافة، وتتمتع بموهبة التلقّي، فقد اجتذبت إليها أكثر القوى تنوعاً، وحررتها، واسترضتها، وهدأتها. كان العيش يحلو هنا، في هذا الجو من التوافق الذي تخطّى فيه المواطنون حدودهم وأحقادهم القومية، وصاروا مواطني العالم كله من غير أن يعوا ذلك تماماً.

إن هذا الاستعداد للتمثّل، للتحولات الموسيقية الهادئة، قد كان جليّاً في مظهر المدينة من الخارج. فخلال قرون نمت في بطء، وتوسعت دوائرها، وكان عدد سكانها البالغ مليونين كافياً ليسبغ عليها كل الترف وكل التنوع اللذين تتصف بهما حاضرة، على أن حجمها لم يتضخم إلى الحد الذي تنفصل معه عن الطبيعة مثل لندن ونيويورك. والمنازل الواقعة على أطرافها كانت تتمرأى في الدانوب العظيم، أو تطلّ على السهول الفسيحة، أو توغل في الحدائق والحقول، أو تتسلق الهضاب الواطئة في أسفل جبال الألب. كان من الصعب على المرء أن يشعر أين تبدأ المدينة، وأين تبدأ الطبيعة، إذ كانتا متداخلتين بلا تعارض أو تناقض. أما من الداخل، فقد كان المرء يشعر بأن المدينة قد تنامت مثل شجرةٍ حلقةً بعد أخرى، وبدلاً من أسوار التحصين القديمة، أحاط الشارع الدائري بالقلب المكنون ذي المنازل الفخمة، حيث قصور البلاط والنبلاء تنطق أحجارها بالتاريخ. ففي قصر الأمير ليشنوفسكي «عزف بيتهوفن»، وفي قصر الأمير إسترهازي حلّ هايدن ضيفاً، وفي الجامعة القديمة عُزفت أول مرة قطعته الدينية «الخليقة»، وشهد قصر هوفبرغ أجيالاً من الأباطرة، وشهد قصر شونبرون نابليون. وفي كاتدرائية القديس إسطفان صلّى أقطاب المسيحية المتحدين صلاة شكر بعد خلاص أوروبا من الأتراك، وداخل أسوار الجامعة كانت تُكتشف حقائق علمية لا حصر لها. وتجلّى زهو العمارة الجديدة وروعتها في ما شقّته من شوارع متألقة، وحوانيت متلألئة. ولكن القديم لم يتنازع مع الجديد إلا بقدر ما تنازع الحجر المسوّى بالإزميل مع الطبيعة البكر. كان العيش ههنا رائعاً، في هذه المدينة التي كانت

تتبنّى كل ما يَفِد إليها، وتسخو بما عندها بكل سرور، وفي جوها اللطيف، كان التمتع بالحياة أمراً يسيراً، كما في باريس. ونحن نعرف أن فيينا كانت مدينة مرهفة الذوق، متعلقة بالمتع الحسية، ولكن ما الثقافة إن لم تكن مخاتلة الحياة المادية الفظة، والحصول منها على الفن والحب، أرقّ ما فيها، وأبدعه، وأكثره سحراً وغموضاً؟ إن النبيذ الجيد، والبيرة الجديدة غير المحلاة، وأصناف الكعك والفطائر الفاخرة، هي ما كان يشغل اهتمام الخبراء في أمور الطهو، كما أن أهل المدينة كانوا كثيري المطالب فيما يخص مسرّات أرهف من ذلك. فالموسيقا، والرقص، والمسرح، والمحادثة، والسلوك المدني اللائق كانت مرعية هنا باعتبارها فنون شخصية. هاهي ذي الاهتمامات التي كانت طاغية على حياة الفرد والجمهور، وليس الاهتمام بالأمور العسكرية، أو السياسية، أو التجارية. والإنسان العادي في فينيا لم تكن أحداث البرلمان، أو شؤون العالم، أول ما ينظر إليه في صحيفة الصباح، بل عروض المسرح القادمة، المسرح الذي اتخذ دوراً مهماً في الحياة العامة كان من الصعب أن يتخذه في أي مدينة أخرى. فالمسرح الإمبراطوري، ومسرح المدينة، لم يكونا في نظر مواطني فيينا والنمسا مجرد منصّة يمثل عليها الممثلون أدوارهم، بل كانا العالم الأصغر الذي يعكس العالم الأكبر، الصورة المشرقة الألوان التي ترى المدينة فيها نفسها، المحفل الوحيد الذي ينمّ على الذوق الرفيع. كان المشاهد يرى في الممثل قدوة حسنة يتعلم منها كيف يلبس ثيابه، وكيف يدخل على الناس، وكيف يتحدث، وأي الكلمات يمكن أن يستخدمها كرجل رفيع الذوق، وأيها ينبغي أن يتفاداها. لم يكن المسرح مجرد مكان للترفيه، بل كان المرشد الشفويّ الموجّه للسلوك السليم، واللفظ الصحيح، وكانت هالة من الاحترام تحيط بكل شيء له أوهى علاقة بالمسرح الإمبراطوري. كان يمكن أن يسير في شوارع فيينا رئيس الوزراء، أو أحد كبار الأثرياء من غير أن يلتفت إليه أحد، أما الممثلون أو مغنو الأوبرا فقد كان يتعرفهم كل فتيات المتاجر، وسائقي المركبات، وكنا، نحن الأولاد، يخبر بعضنا بعضاً عندما نرى أحدهم ماراً (كنا نجمع صورهم وتواقيعهم). وهذا التعلق الذي كاد يبلغ حد العبادة قد شمل العالم المحيط بهم أيضاً. فحلاّق سوننثال، وسائق جوزيف كينز كانا من الشخصيات المحترمة والمحسودة، والشباب المولعون بالأناقة كانوا يفتخرون بأن ملابسهم قد فصّلها خياط أحد الممثلين. كانت يوبيلات كبار

الممثلين، ومآتمهم، تتحول إلى حدث يلقي ظله على كل الأحداث السياسية. وأعظم ما كان يحلم به كاتب في فيينا هو أن يقدم مسرح المدينة إحدى مسرحياته، لأن ذلك كان يعني ضرباً من النبالة الدائمة التي تجلب معها سلسلة من التكريمات من مثل بطاقات مجانية مدى الحياة، ودعوات إلى كل الحفلات الرسمية. وفي واقع الأمر، كان الكاتب هذا يصبح ضيفاً عند أسرة الإمبراطور. ومازلت أذكر الطريقة المهيبة التي جرى بها تقديمي للجمهور. دعاني مدير مسرح المدينة إلى مكتبه صباحاً، وأخبرني ـ بعد أن هنأني ـ أنهم قد قبلوا مسرحيتي، ولما وصلت إلى المنزل ليلاً، وجدت بطاقة زيارته في غرفتي. لقد زارني زيارة رسمية، وأنا في السادسة والعشرين، لأن مجرد قبولي مؤلفاً للمسرح الإمبراطوري قد حوّلني إلى «جنتلمان» على مدير المؤسسة أن يعاملني كما يُعامل نبيلاً. وما كان يحدث في المسرح كان يؤثر في الناس جميعاً، حتى أولئك الذين ليس لهم صلة مباشرة به. فأنا أتذكر، مثلاً، وأنا طفل صغير، أن طاهيتنا دخلت ذات يوم إلى الغرفة مسرعة والدمع في عينيها. كانت قد أُخبرت بأن شارلوت فولتر ـ أبرز ممثلات مسرح المدينة ـ قد ماتت. والغرابة في هذا التفجع هو أن هذه الطاهية العجوز شبه الأميّة لم ترَ قط فولتر على خشبة المسرح ولا في أي مكان آخر، ولكن الممثلة الوطنية الكبيرة قد كانت تخصّ مدينة فيينا كلها، وحتى الغريب شعر بأن موتها كارثة. إن رحيل أي مغنٍ، أو فنان محبوب كان يتحول على الفور إلى حداد وطني. ولما هُدّم مسرح المدينة «القديم» الذي قُدّمت فيه أوبرا موزارت «زواج فيجارو» أول مرة، تجمّع أهل فيينا كلهم هناك متأسفين، ولم يكد يسقط الستار، حتى اندفعوا إلى خشبة المسرح لكي يأخذ كل واحد منهم مزقة على الأقل تذكاراً من المكان الذي وطئته أقدام الفنانين المحبوبين، وبعد عشرات السنين، كان يمكن أن تُشاهد هذه المزق التافهة في كثير من منازل البرجوازيين محفوظةً في علب نفيسة كما تحفظ قطع الصليب في الكنائس. ونحن أنفسنا لم نكن متعقّلين كثيراً عندما هُدمت صالة بوسيندورفر. وهذه القاعة الصغيرة التي أُستخدمت من أجل موسيقا الحجرة فقط قد كانت مبنى لا فن في عمارته ولا فخامة، إذ كانت سابقاً أكاديمية للفروسية أنشأها كونت ليختنشتاين، ثم جُدّد بناؤها، وكُسيت بالخشب حتى تصلح للموسيقا. ولكن كان لها رنين كمانٍ قديم، وكانت ملاذ عشاق الموسيقا، لأن شوبان وبرامز وليست liszt وروبنشتاين قد قدموا

حفلات فيها، ولأن كثيراً من الرباعيات الشهيرة قد عزفت أول مرة هناك، والآن عليها أن تتنحّى من أجل مبنى له وظيفة. ونحن الذين عشنا فيها ساعات لا تُنسى لم نتقبل هذه الفكرة. فلما تلاشى أخر ألحان بيتهوفن، والذي عزفه الرباعي الوردي أجمل عزف على الإطلاق، لم يغادر أحد مقعده. صحنا وصفقنا، وغصّت بالبكاء عدة نساء. إن أحداً لم يُرد أن يصدق أن ذلك اللحن كان وداعاً. أُطفئت الأنوار في القاعة لكي نغادرها، غير أن أحداً من الأربعمائة، أو الخمسمائة متحمس لم يتزحزح من مكانه. بقينا نصف ساعة، ساعة كاملة، وكأن حضورنا يمكن أن ينقذ المكان المقدس القديم. ولكم قدّمنا عرائض ونحن طلاب، وكم تظاهرنا، وكتبنا مقالات، للمحافظة على المنزل الذي مات فيه بيتهوفن! لقد كان كل واحد من هذه المباني التاريخية فلذة تُنتزع من روحنا.

إن هذا التعصب للفن، ولاسيما فن المسرح، كان يحرك مشاعر كل الطبقات في فيينا. ومن خلال تقاليدها العريقة، كانت فيينا نفسها واضحة التنظيم، ومنسقة مثل الأوركسترا، كما قلت ذات مرة. فالأسرة الإمبراطورية لم تزل تضبط وتيرة الحركة. فالقصر ذاته كان مركز العائلة المالكة المختلطة الأعراق، لا بالمعنى المكاني فقط، بل بالمعنى الثقافي أيضاً. وحول القصر، كانت قصور النبلاء النمساويين والبولنديين، والتشيك، والهنغار تشكل ما يشبه الطوق، ويليها «المجتمع الراقي» المؤلف من النبلاء الأقل درجة، والموظفين الكبار، و «العائلات القديمة»، ثم البرجوازية الصغيرة والبروليتاريا. وكل واحدة من هذه الطبقات الاجتماعية كانت تسكن في دائرتها، بل في منطقتها الخاصة، فالنبلاء في قصورهم الواقعة في قلب المدينة، والدبلوماسيون في المنطقة الثالثة، ورجال الصناعة والتجارة في جوار الشارع الدائري، والبرجوازية الصغيرة في المناطق الداخلية ـ من الثانية حتى التاسعة ـ والبروليتاريا في الدائرة الخارجية. ولكنهم كانوا يلتقون جميعاً في المسرح وفي الاحتفالات الكبرى من مثل موكب الزهور في شارع بريتر Prater الذي يصفق فيه ثلاثمئة ألف إنسان تصفيقاً حاراً حتى يمر «العشرة آلاف من علِية القوم» في عرباتهم ذات الزينات الجميلة. إن كل شيء في فيينا ـ المواكب الدينية في عيد القربان، والاستعراضات العسكرية، وموسيقا «المدينة» ـ كان يخلق مناسبة للاحتفال بقدر ما كان الأمر يتعلق باللون والموسيقا.

وحتى الجنائز كانت تجد جمهوراً متحمساً، وكل واحد من أبناء فيينا الأصلاء كان يطمح إلى أن يموت «ميتة جميلة» مع موكب مهيب ومشيعين كثار، وبذلك يحوّل حتى موته إلى مشهد لافت للأنظار. وفي هذا التقبل لكل ما هو ملوّن وبهيج وصاخب، وفي هذا الإقبال على ما هو مسرحي، سواء أكان على خشبة المسرح أم في الواقع، كمسرح وكمرآة للحياة معاً، كانت المدينة منسجمة كل الانسجام .

كان من الصعب على المرء أن يسخر من هذا «الهوس المسرحي» عند أهل فيينا، فكثيراً ما كان تتبعهم أدق التفاصيل عن حياة محبوبيهم أكثر من مستغرب. وبالفعل، فإن تراخينا، نحن النمساويين، في القضايا السياسية، وتخلفنا في الاقتصاد مقارنة بالجارة الحازمة ألمانيا، قد يُعزيان جزئياً إلى انغماسنا المفرط في المتع الحسية. ولكن هذه المغالاة في الأحداث الفنية قد أدّت من الناحية الثقافية إلى بلوغ حالة فريدة من النضج، احترام غير عادي لكل أداء فني أولاً، ثم خبرة فنية منقطعة النظير من خلال تجربة قرون، وأخيراً شيوع مستوى رفيع في كل حقول الثقافة بفضل تلك الخبرة. فالفنان يشعر على الدوام بأنه أحسن حالاً، وأكثر إلهاماً حيث يحظى بالتقدير، أو حتى بالتقدير المبالغ فيه. والفن يبلغ أوْجه على الدوام حيث يغدو اهتمام العمر بالنسبة إلى شعب من الشعوب. وكما جذبت فلورنسا وروما في عصر النهضة الفنانين، وصيّرتهم عظماء يشعر كل واحد منهم بأنه في منافسة دائمة، وعليه أن يتجاوز الآخرين، ويتجاوز نفسه في عيون الناس، فإن موسيقيي فيينا وممثليها كانوا يدركون خطورة شأنهم في المدينة. إن شيئاً في دار الأوبرا ومسرح المدينة لم يكن يتم التغاضي عنه. فكانت تُلاحظ كل نغمة خفيضة، ويُنتقد كل تنغيم غير صحيح، وكل قطْع. وهذا الضبط لم يكن يمارسه النقاد والمحترفون عند العرض الأول فقط، بل كان يمارسه الجمهور يوماً بعد يوم، هذا الجمهور الذي أرهفت سمعه المقارنة المتواصلة. أما في السياسة، أو الإدارة، أو الأخلاق، فقد كانت الأمور تسير بلا عسر، فيتمّ التسامح مع كل إهمال، والتغاضي عن كثير من الانتهاكات، في حين لم يكن يُعذر شيء في القضايا الفنية، إذ كان شرف المدينة عرضة للخطر هنا. كان على كل مغنٍ وممثل وموسيقي أن يقدّم أفضل ما عنده أو يضيع. فأن تصبح محبوب فيينا كان أمراً رائعاً، ولكن البقاء في ذلك الموقع لم يكن بالأمر السهل، إذ أن أي توانٍ كان غير مغتفر.

وهذه المعرفة، والمراقبة المتواصلة التي لا ترحم، قد أرغمتا كل فنان في فيينا على تقديم أفضل ما عنده، ومنحتا الجميع مستوى رائعاً. إن كل واحد منا قد تبنّى منذ أيام الشباب معياراً صارماً ومتشدداً للأداء الموسيقي. ومن عرف في الأوبرا انضباط جوستاف مولر الحديدي الذي كان يشمل أدق التفاصيل، أو استوعب دقة الجمعية الموسيقية العملية الفعّالة، من النادر أن يرضيه اليوم أي أداء موسيقي أو مسرحي. وتعلمنا أيضاً أن نكون صارمين مع أنفسنا عند كل أداء فني. كان هناك مستوى معين اعتُبر نموذجاً، وبقي كذلك، وهذا لم ينطبع في ذهن الفنان المتطور إلى هذا الحد إلا في مدن قليلة في العالم. ولكن هذه المعرفة بالإيقاع والحيوية تعمقت في عقول الناس، لذلك كان حتى البرجوازي الصغير يطلب من الفرقة موسيقا جيدة، كما يطلب نبيذاً جيداً من صاحب النُزُل. وفي شارع بريتر مرة أخرى، كان الجمهور يعرف على وجه الدقة أي الفرق العسكرية تعزف أفضل «إيقاع» سواء أكانت ألمانية أم هنغارية. إن كل من عاش في فيينا كان يستشعر الإيقاع من الهواء. وكما أن هذه المَلَكَة الموسيقية قد عبّرنا عنها، نحن الكتاب، في نثرنا المكتوب بكل عناية، فإن الإحساس بالإيقاع قد دخل في سلوك الآخرين الاجتماعي، وحياتهم اليومية.

إن تكيّف اليهود مع البيئات الاجتماعية التي يعيشون فيها ليس إجراءاً وقائياً خارجياً، بل رغبة داخلية عميقة. وإن توقهم إلى الاستقرار والأمن والصداقة يحثّهم على الارتباط بالثقافة المحيطة بهم ارتباطاً عميقاً. ولم يكن هذا الارتباط فعّالاً وناجحاً ومجدياً في أي بلد أكثر منه في النمسا ـ باستثناء إسبانيا في القرن الخامس عشر. فبعد أن أقام اليهود مئتي سنة ونيف في عاصمة الإمبراطورية، وجدوا هناك شعباً متساهلاً، ومیالاً إلى المصالحة، وتراخيه الظاهر كان ينطوي على ميل مماثل عميق إلى القيم الجمالية والثقافية التي كانت ذات أهمية بالنسبة إلى اليهود. وفي فيينا وجدوا إضافة إلى ذلك مهمة خاصة. ففي القرن الماضي فقد المهتمون بالفن في النمسا حماتهم ورعاتهم القدامى، أي العائلة المالكة، والأرستقراطية. ففي حين أن ماريا تيريزا في القرن الثامن عشر قد طلبت من غلوك Gluck تعليم بناتها الموسيقا، وناقش جوزيف الثاني باقتدار أعماله الأوبرالية مع موزارت، وليوبولد الثالث نفسه ألّف أعمالاً موسيقية، فإن الإمبراطوريْن اللاحقين، فرانسيس الثاني وفرديناند، لم يهتما أي اهتمام

بالأمور الفنية. وإمبراطورنا فرانسيس جوزيف الذي ما قرأ خلال أعوامه الثمانين كتاباً قط، ولا حتى تناول واحداً إلا سجلات الجيش، قد أظهر إضافة إلى ذلك نفوراً من الموسيقا. وتخلّت طبقة النبلاء أيضاً عن دورها السابق في الرعاية، وانقضت الأيام المجيدة التي كان فيها آل إسترهيزي يُؤْون هايدن، ويتنافس آل لوبكوفتز، وكينسكي، وفالدشتاين على أن يقدّم بيتهوفن عرضه الأول في قصورهم، وتجثو الكونتيسة ثون Thun أمام شبه الإله مناشدةً إياه ألا يسحب «فيدليو» من دار الأوبرا. غير أن فاجنر، وبرامز، وجوهان شتراوس، وهوجو ولف لم يتلقوا أي دعم منهم. وحتى تبقى الجمعية الموسيقية على مستواها المعهود، ويتمكّن الرسامون والنحاتون من كسب عيشهم، كان لابد أن يمدّ الناس يد المساعدة، وكان فخر اليهود وطموحهم أن يكونوا في مقدمة المشاركين في المحافظة على ثقافة فيينا المجيدة السابقة. فلقد أحبّوا دائماً هذه المدينة، واندمجوا في حياتها اندماجاً صادقاً، إلا أن حبهم للفن هو الذي أهّلهم قبل أي شيء آخر للمواطنة الكاملة، وأصبحوا بالتالي من صميم أهلها. لم يكن لهم في الحياة العامة إلا تأثير ضئيل، إذ أن عظمة العائلة المالكة قد رجح على الأقدار الخاصة كلها، فالمناصب العليا في إدارة الدولة كانت تُشغل بالوراثة، والدبلوماسية كانت تخصص للأرستقراطية، والجيش والوظائف الرفيعة للعائلات القديمة، ولم يكن اليهود يسعون أو يتطلعون إلى ولوج دوائر الامتيازات هذه. لقد احترموا هذه الحقوق التقليدية بكل لباقة معتبرين إياها أمراً واقعاً. وأذكر، مثلاً، أن أبي تجنّب طيلة حياته تناول الغذاء في فندق ساشر Sacher، لا لأسباب اقتصادية ـ الفرق في الأسعار بينه وبين الفنادق الأخرى الكبيرة كان زهيداً ـ بل لأسباب تتعلق باحترام الذات، ذلك أن الجلوس إلى طاولة قريبة من طاولة أمير من آل شفارزنبرغ أو آل لوبكوفتز كان أمراً مُكْرِباً وغير لائق. كان الناس لا يشعرون بالمساواة إلا في حضرة الفن، لأن حب الفن كان واجباً جماعياً في فيينا، ومساهمة البرجوازية اليهودية في ثقافة فيينا كانت لا حد لها، وذلك من خلال التعاون والتشجيع. كان اليهود هم الجمهور الذي يملأ المسارح، وقاعات حفلات الموسيقا، ويشتري الكتب واللوحات، ويرتاد المعارض، كما أن فهمهم المتحرك الذي لم تكن تقيّده تقاليد قديمة قد جعلهم يؤيدون ويناصرون كل جديد. هم الذين نظموا مجموعات القرن التاسع عشر الفنية العظيمة، وهم الذين جعلوا كل المساعي الفنية

تقريباً ممكنةً، ولولا الاهتمام المحفّز المتواصل لهم، لتخلفت فيينا عن برلين في مجال الفن كما تخلفت النمسا عن الرايخ الألماني في الأمور السياسية، ولاسيما أن البلاط تراخى، والطبقة الأرستقراطية، والأثرياء المسيحيين، آثروا دعم اسطبلات خيول السباق والصيد على رعاية الفن. وكل من كان يرغب في إنجاز عمل في فيينا، أو يقصد فيينا ضيفاً من الخارج، ويبحث عن تقدير وجمهور، كان يعتمد على البرجوازية اليهودية. ولما كان أحدهم يسعى في فترة معاداة السامية إلى إنشاء مسرح «قومي»، لم يكن يلقى تعاوناً من المؤلفين والممثلين والجمهور، لذلك كان المسرح ينهار بعد بضعة أشهر. ومن هذا المثال أصبح واضحاً أول مرة أن تسعة أعشار ما يحتفي به العالم من ثقافة فيينا في القرن التاسع عشر قد شجّعه، أو قوّاه، أو حتى أبدعه يهود فيينا.

إن الأعوام الأخيرة من ذلك القرن هي التي أصبح فيها اليهود منتجين للفن ـ كما كان الحال في إسبانيا قبل الانحطاط المأساوي المماثل ـ ولكن ليس على طريقة يهودية محددة، بل من خلال تفهمهم الخصوصية النمساوية، وإعطائها أقوى تعبير. أصبح جولد مارك، وجوستاف مولر، وشونبرغ، شخصيات عالمية في إبداع الموسيقا. ودفع أوسكار شتراوس، وليو فول، وكالمن، تراث الفالس والأوبريت إلى ازدهار جديد، وأوصل هوفمنزثال، وآرثر شنتسلر، وبير هوفمان، وبيتر ألتنبرغ، أدب فيينا إلى موقع بين الآدات الأوروبية لم يوصله إليه جريل بارسر، وستفتر، وجدّد سوننثال وماكس راينهارت شهرة المدينة في العالم كموطن للمسرح، ولفت فرويد وغيره من كبار العلماء الانتباه إلى الجامعة ذات الشهرة القديمة ـ كان لا يزاحمهم أحد على المواقع العليا التي شغلوها في حياة فيينا الفكرية كأساتذة جامعة، ومحبين للفن، ورسامين، ومخرجي مسرح، ومعماريين، وصحفيين. ولأنهم أحبوا المدينة حباً جماً، ولأنهم كانوا شديدي الرغبة في التمثّل، تكيفوا معها تماماً، وكانوا سعداء في خدمة مجد فيينا. لقد شعروا بأن كونهم نمساويين رسالة إلى العالم. والأمانة تقتضي أن أكرر أن كثيراً، إن لم يكن معظم ما تُعجب به أمريكا وأوروبا في ثقافة النمسا الجديدة والمجددة في مجال الأدب والمسرح، والفن والحرف، قد كان من إبداع يهود فيينا، وبذلك حققوا هم الآخرون أرفع أداء فني في تاريخ نشاطهم الروحي. إن قروناً من الطاقة الفكرية قد اتحدت هنا مع تراث ضعيف بعض الشيء، ورعته، وأحيته، ونمته، وجددته بقوة جديدة، واهتمام دؤوب. والعقود اللاحقة هي التي أظهرت الجريمة التي ارتكبها هتلر ضد فيينا عندما

سعى إلى إسباغ الطابع القومي والمحلي على المدينة التي قام معناها وثقافتها على أساس التقاء أكثر العناصر تنوعاً، وأكثرها تخطّياً للروح القومية. إن عبقرية فيينا ـ وهي عبقرية موسيقية بالتحديد ـ قد خلقت على الدوام انسجاماً بين كل التباينات القومية واللغوية، وكانت ثقافتها تركيباً من ثقافات الغرب قاطبة. فكل من عاش وعمل هناك شعر بأنه متحرر من كل تقييد وانحياز، وأن يصبح أوروبياً فيها كان أسهل عليه من أي مكان آخر. وأنا أعرف أن عليّ أن أشكر أجزل الشكر هذه المدينة التي حمت في عهد ماركوس أوريليوس الروح الرومانية العالمية، أنني تعلمت فيها في سن مبكرة أن أحبّ الرفقة حباً ملك عليّ فؤادي.

كان العيش في فيينا القديمة طيباً ويسيراً، وكان الألمان في الشمال ينظرون بشيء من الانزعاج والازدراء إلى جيرانهم على الدانوب. فبدلاً من أن يكون هؤلاء الجيران «ماهرين»، ويقيموا نظاماً صارماً، انغمسوا في متع الحياة، فأكلوا الطيبات، وسعدوا بالأعياد والمسارح، إضافة إلى أنهم ألّفوا موسيقا ممتازة. وبدلاً من «المهارة» الألمانية التي عكّرت صفو حياة الشعوب الأخرى، ومن الاندفاع السريع، والرغبة الجامحة في سبق الآخرين، كان المرء في فيينا يحب التبسط في الحديث، ويرعى الصداقات المنسجمة، ويجيز بكل غبطة وتساهل أن ينال كل واحد نصيبه بلا حسد. كان شعار فيينا الشهير: «عش ودع غيرك يعيش»، وهذا الشعار مازال يبدو لي اليوم أكثر إنسانية من كل «الواجبات المطلقة»، وهو يؤكد نفسه عند كل الطبقات . لقد تعايش الفقراء والأغنياء، والتشيك والألمان، واليهود والمسيحيون متسالمين على الرغم من الاحتكاك بين الحين والآخر، وحتى الحركات السياسية والاجتماعية كانت متحررة من الكراهية الرهيبة التي سرت في شرايين عصرنا كبقيا سامة من بقايا الحرب العالمية الأولى. كان أهل النمسا القديمة تحكم صراعاتهم تقاليد الفروسية، فهم يتشاتمون في الصحف والبرلمان، ويجلس النواب أنفسهم معاً بعد الانتهاء من الشتائم الشيشرونية، ويشربون كأصدقاء كأس بيرة، أو فنجان قهوة، وينادي بعضهم بعضاً «يا ألماني». وحتى عندما أصبح لوجر Lueger، قائد الحزب المعادي للسامية، عمدة المدينة لم يطرأ أي تغيير على الشؤون الخاصة. وعليّ أن أعترف أنني لا في المدرسة ولا في الجامعة ولا في الوسط الأدبي واجهت أي قمع أو إهانة كيهودي. فالكراهية بين البلدان والأمم

وموائد الطعام لم تكن قد أخذت بعد تثب يومياً من الصحف، وتوقع الشقاق بين الشعوب والأمم، وتقوّي مشاعر القطيع عند العوام إلى هذا الحد المقزز في الحياة العامة، كما تصنع في هذه الأيام. والحرية الشخصية التي لم تعد مفهومة الآن كانت من المسلمات، وما من أحد كان يزدري التسامح كما يُزدَرى اليوم باعتباره ضعفاً وليونة، بل كان يمدحه باعتباره قوة أخلاقية.

إن القرن الذي عشت وتعلمت فيه لم يكن قرن معاناة. كان عالمنا منظماً، طبقاته محددة، وتحولاته هادئة، كان عالماً خالياً من الكراهية. وإيقاع السرعة الجديدة لم يكن قد انتقل بعد من الآلات والسيارات والهاتف والمذياع والطائرة إلى البشر، فالزمن والعمر كان لهما مقياس آخر. كانت حياة الإنسان أكثر راحة، وحين أحاول تذكر أصحابي في الطفولة أتفاجأ بأن كثيرين منهم قد كانوا يتصفون بالبدانة في سن مبكرة. ووالدي، وعمي، وأستاذي، والباعة في الحوانيت، وعازفو الجمعية الموسيقية، كانوا جميعاً رجالاً مكتنزين و «وجديرين بالاحترام» وهم في الأربعين. كانوا يمشون في بطء، ويتكلمون كلاماً منتظم اللهجة، وفي أثناء أحاديثهم، يمسّدون لحاهم المهندمة التي وخطها الشيب في الغالب. ولكن الشيب كان مجرد علامة جديدة من علامات الوقار، وكان الرجل الرزين يتفادى عن وعي إشارات الشباب المرحة لكونها غير لائقة. ولا أذكر أبداً أنني رأيت والدي يرتقي أو يهبط الدرج ركضاً، أو يتعجل في عمل شيء. فالعجلة لم تكن تعتبر سلوكاً غير مهذب فقط، بل غير لازمة بالفعل. فذلك العالم البرجوازي المستقر، والمسيّج بالضمانات العديدة الضئيلة، لم يكن يحدث فيه أمر غير متوقع. والكوارث التي كانت تقع في خارج ذلك العالم لم تكن لتخترق الجدران القوية للعيش «الآمن». فحرب البوير Boer، والحرب الروسية اليابانية، وحرب البلقان ذاتها لم تنفذ إلى حياة أبويّ. كان يمرّان على تقارير الحرب في الصحف كما يمرّان على أخبار الرياضة. وبالفعل، ما أهمية ما كان يحدث خارج النمسا بالنسبة إليهما؟ ما الذي غيّرته في حياتهما؟ فالنمسا في تلك المرحلة الهادئة لم تشهد ثورات عامة، ولا دماراً تاماً للقيم، وإن هبطت الأسهم في البورصة عدة نقاط، اعتُبر ذلك «انهياراً»، وتحدث الناس، وجباههم متغضنة، حديثاً جاداً عن «كارثة». كان الاستياء من الضرائب «العالية» عادةً أكثر منه اقتناعاً بأنها كذلك، لأنها لم تكن إلا منَحاً زهيدة للدولة بالفعل مقارنة بضرائب الفترة التي سبقت الحرب. وكان يُشترط أن تنصّ

الوصايا على حماية الأحفاد وأبناء الأحفاد من فقدان الثروة، وكأنما الضمان كان يكفله نوع من السندات غير المرئية من قبل قوى أبدية. وفي أثناء ذلك كان المرء يعيش عيشة لينة، ويداعب همومه الصغيرة كأنها حيوانات أليفة مطيعة ووفيّة لا يخشى منها على الأقل. ولذلك عندما تضع المصادفة إحدى صحف تلك الأيام في يديّ، وأقرأ المقالات الحامية حول انتخابات جماعة صغيرة، وعندما أتذكر ما كان يعرضه مسرح المدينة من مسرحيات ذات مشكلات تافهة، أو الانفعال غير المتكافئ الذي كانت تتصف به مناقشاتنا لأشياء غير مهمة على الإطلاق، أرغم على الابتسام. كم كانت تلك الهموم صغيرة! وكم كانت رياح الزمن ساكنة! كان حظ أبويّ أفضل، فلقد عاش أبناء جيلهم حياة هادئة، مستقيمة، واضحة من أولها إلى آخرها. ولكن لا أدري إن كنت أحسدهم على ذلك. لكم أسعدهم جهل الحقائق المريرة، ومكر الأقدار! وكم كانوا منعزلين عن كل هذه الأزمات والمشكلات التي تسحق القلب، وتسمو به سمواً عجيباً في الوقت ذاته! وفي تقلّبهم في الأمن والراحة والمقتنيات، قلما كانوا يعرفون أن الحياة يمكن أن تكون أيضاً توتراً وإسرافاً، وحالة مستمرة من المفاجآت. وبما أنهم تعالوا عما حولهم، واعتنقوا ليبرالية وتفاؤلية مثيرتين للشفقة، لم يخطر لهم أن الحياة يمكن أن تُدمَّر في أي نهار يطلع خارج نافذتنا.. وحتى في أحلك لياليهم، كان من المستحيل أن يتخيلوا الخطر الممكن في الإنسان، والقوة التي يمتلكها للتصدي للأخطار، والتغلب على المحن. ونحن الذين طوردنا عبر منحدرات الحياة كلها، واستُؤصلنا من جذورنا كلها، وكنا نبدأ دوماً من جديد كلما دُفعنا إلى النهاية، نحن ضحايا المجهول، والقوى الغامضة، وخدمها المريدين في آن معاً، والذين أصبحت الراحة بالنسبة إليهم ملحمة، والأمن حلم طفولة، شعرنا بالتوتر من القطب إلى القطب، وبالرعب الأبدي من الجديد الأبدي في كل عرق من عروق حياتنا. كانت كل ساعة من أعوامنا وثيقة الارتباط بمصير العالم. وفي حين كان الجيل السابق حبيس وجوده، فقد عشنا الزمن والتاريخ فرحاً ومكابدةً تجاوزا وجودنا الصغير. لذلك فإن كل واحد منا، وحتى أصغر أبناء جيلنا، يعلم اليوم عن الواقع أكثر ألف مرة مما علمه أعقل أسلافنا. ولكننا لم نُعطَ شيئاً، بل دفعنا ثمن كل شيء كاملاً لا لبس فيه.

الفصل الثاني

المدرسة في القرن الماضي

بعد أن أنهيت مرحلة التعليم الابتدائي، أُرسلت ـ كما جرت العادة ـ إلى مدرسة ثانوية. كانت العائلات الميسورة جميعها تهتم اهتماماً كبيراً بأن «تعلّم» أبنائها، ولو لأسباب اجتماعية بحتة. وكان هؤلاء يتعلمون الإنكليزية والفرنسية، ويطّلعون على الموسيقا. في البداية كان يُجلب لهم مربّيات إلى المنزل، ثم معلمون خاصون بغية تلقينهم حسن السلوك. ولكن لم يكتسب قيمة كاملة في أيام الليبرالية المستنيرة تلك إلا ما يُدعى التعليم «الأكاديمي» الذي يفضي إلى الجامعة، ولذلك كان طموح كل أسرة «كريمة» أن يوضع لقب دكتور أمام اسم أحد أبنائها على الأقل. غير أن الطريق إلى الجامعة كان طويلاً بعض الشيء، وغير وردي على الإطلاق. إن خمسة أعوام في المدرسة الابتدائية، وثمانية أعوام في المدرسة الثانوية، كانت تُقضى على المقاعد الخشبية، وكان الطالب يُمضي من خمس ساعات إلى ست ساعات في المدرسة كل يوم، وفي الوقت المتبقي كان عليه أن يفهم الفروض المترتبة عليه فهماً تاماً. والأكثر من ذلك هو أن الفرنسية والإنكليزية والإيطالية ـ اللغات «الحية» ـ كانت مطلوبة في «التعليم العام» مع الإغريقية واللاتينية إضافة إلى الأعمال المدرسية المنتظمة ـ أي خمس لغات مضافاً إليها الهندسة والفيزياء والمواد الأخرى. وكان هذا أكثر من كثير، فهو لم يكد يترك وقتاً للرياضة والنزهات فضلاً عن الاستجمام والمرح. وأذكر أنه كان يتعينّ علينا ونحن في السابعة أن نحفظ عن ظهر قلب أغنية عن «الطفولة الهانئة السعيدة»، وننشدها معاً. ومازال لحن تلك الأغنية البسيطة الساذجة في سمعي، ولكن حتى في ذلك الوقت كان التفوه بالكلمات شاقاً عليّ، وتأثيرها في نفسي ضعيفاً جداً أيضاً. وتحرّياً للصدق أقول: إن فترة تعليمي كلها لم تكن إلا سأماً

موصولاً مرهقاً صاحبه تلهّف متزايد سنة بعد سنة إلى الفرار من هذا الرتابة المضجرة. ولا أذكر أنني كنت في أي وقت «هانئاً»، أو «سعيداً» خلال فترة تعليمي الغليظة الخاملة التي أفسدت تماماً أفضل مراحل العمر وأكثرها انطلاقاً. وينبغي أن أعترف أنني لا أملك نفسي عن حسد الأطفال في العصر الحاضر على ما يُتاح لهم في نموّهم من حرية وسعادة واستقلال. وأكاد لا أصدق عندما أراهم اليوم يتبسّطون في الكلام مع أساتذتهم كأنهم أنداد، وكيف يخفّون إلى المدرسة خالين من الهم، في حين كنا نشعر نحن بانعدام التلاؤم، وكيف يعبرون بلا تحفظ عما يجيش في نفوسهم الشابة المستطلعة من رغبات وميول، سواء في البيت أو في المدرسة كائنات طبيعية ومستقلة وحرة، أما نحن فقد كنا نرغم على الانحناء تذللاً لئلا يصدم جباهنا نير غير منظور كلما دخلنا إلى المبنى الكريه. كانت المدرسة بالنسبة إلينا إكراهاً، وبرماً، وانقباضاً، مكاناً نضطر فيه إلى «تعلم ما لا يستحق التعلم» بمقادير دقيقة، أي مادة مدرسية، أو مفبركة مدرسياً كنا نشعر بأنها لا علاقة لها بالواقع أو باهتماماتنا الشخصية. إن ما فرضه علينا علم التربية القديم كان تعليماً مملاً غير طائل، تعليماً من أجل التعلم لا من أجل الحياة. ولحظة السعادة الوحيدة التي ينبغي أن أشكرها لمدرستي هي اليوم التي أغلقت فيه الباب عليها إلى الأبد.

إن هذا لا يعني أن مدارسنا النمساوية كانت سيئة في ذاتها، بل على العكس، فبعد مئة عام من التجربة، وُضع منهاج بكل عناية، ولو نُفخ فيه أي حياة، لكان يمكن أن يكون أساساً لتعليم مثمر وشامل إلى حد بعيد. ولكن بسبب التنظيم الدقيق، والصيغ الجافة، فإن دروسنا قد كانت عقيمةً لا حياة فيها، وجهازَ تعليمنا بارداً لم يتكيف مع الفرد، بل كان يسجّل من تلقاء ذاته الدرجات: «جيد» و«كافٍ» و«غير كافٍ»، وهذا كان يتوقف على مدى تطابقنا مع متطلبات منهاج الدراسة. وما أشعرنا بالمرارة هو على وجه الدقة الافتقار إلى العاطفة الإنسانية، وهذه الموضوعية الخاوية، واتسام بيئتنا بما يشبه الثكنة. كان علينا أن نتعلم دروسنا، وكان يتمّ فحص ما تعلمناه. إن معلماً لم يسألنا ولو مرة واحدة طيلة ثماني سنوات عما نرغب في تعلمه، وهذا الحافز المشجّع الذي يضمر التوق إليه كل ناشئ كان منعدماً تماماً.

كان مبنى المدرسة هو التعبير الخارجي عن هذه الرزانة، وهو مبنى وظيفي قد أقيم

منذ خمسين سنة على عجل وبأقل التكاليف. ثم أن جدرانه الباردة السيئة التكليس، وغرفه الواطئة الخالية من الصور أو الزينات التي قد تسرّ النظر، ومراحيضه المنتشرة رائحتها في المبنى كله، قد جعلت طاحونة التعليم هذه أشبه بالفندق القديم الذي استخدمته أعداد لا تُحصى قبلنا، وسوف يستخدمه كثيرون أيضاً لا يقلّون عنا نفوراً ولا مبالاة. ولا أستطيع أن أنسى حتى الآن رائحة العفونة والنتونة المستقرة في ذلك المبنى كما في كل المباني الرسمية في النمسا. كنا نسمّيها رائحة «المخزن». لقد كانت رائحة غرف مفرطة الاكتظاظ والحرارة، ومفتقرة إلى التهوية المناسبة، فغمّت ملابسنا أولاً ثم أرواحنا. كنا نجلس اثنين اثنين مثل عبيد السفن القديمة على مقاعد خشبية واطئة تلوي عمودنا الفقري، نجلس عليها حتى توجعنا عظامنا. وفي الشتاء، كان الضوء الضارب إلى الزرقة ،والمنبعث من أنابيب الغاز يخفق فوق كتبنا، في حين كانت النوافذ في الصيف تُستر باعتناء بحيث نُحرم من متعة النظر الحالم إلى بقعة صغيرة من السماء الزرقاء. إن ذلك القرن لم يكن قد اكتشف بعد أن الأجساد الشابة غير المكتملة التكوين تحتاج إلى الهواء والتمرين الجسدي. إن التوقف عشر دقائق في القاعات الباردة الضيقة قد كان يُظنّ كافياً خلال فترة أربع ساعات أو خمس من الجلوس بلا حراك. كانوا يأخذوننا مرتين في الأسبوع إلى حجرة الألعاب الرياضية ذات النوافذ المحكمة الإغلاق، وهناك كنا ندور كالبلهاء حول أرضية خشبية، وتثير كل خطوة من خطواتنا الغبار في الهواء. وبذلك كانت تُلبّى متطلبات علم الصحة، وتؤدي الدولة «واجبها » نحونا بقدر ما يخصّ الأمر فكرة العقل السليم في الجسم السليم. وبعد أعوام على ذلك، كلما مررت بذلك المبنى الكالح الكئيب، أحسست بالراحة لأنني لم أعد أرغم على ولوج ذلك المكان الذي حُبس فيه شبابنا. ولما احُتفل بالذكرى الخمسين لهذه المؤسسة الممجّدة، وطُلب مني، باعتباري نجم المدرسة سابقاً، أن ألقي خطاباً في المناسبة التي حضرها رئيس الوزراء، وعمدة المدينة، رفضت الطلب بكل تهذيب، لم يكن عندي سبب لشكر هذه المدرسة، ولو ألقيت خطاباً، لكانت كلماته كلها أكاذيب.

وبالطبع لم يكن معلمونا مسؤولين عن وحشة المؤسسة، فهم لم يكونوا صالحين ولا فاسدين، ولم يكونوا ظالمين، كما لم يكونوا من ناحية أخرى رفاقاً مساعدين، بل

أشخاصاً يائسين خانعين للبرنامج أو المنهاج الرسمي. كانوا مضطرين إلى إنجاز مهمتهم مثلما كنا مضطرين إلى إنجاز مهمتنا، وكان يسعدهم مثلنا سماع جرس المدرسة يُدق بعد الظهر، ويمنحهم ويمنحنا الحرية. ولم يحبونا، ولم يكرهونا، وما الداعي إلى ذلك؟ فهم لم يعرفوا شيئاً عنا، وحتى بعد سنة أو سنتين لم يعرفوا إلا أسماء عدد قليل منا. وبحسب مناهج التعليم في تلك الأيام، كان عملهم ينحصر في تحديد عدد الأخطاء التي ارتكبناها في آخر درس. كانوا يجلسون إلى مناضد أعلى من مقاعدنا، ويسألون وعلينا أن نجيب، ولم يكن بيننا أي علاقة أخرى. فما بين المعلم والتلميذ، ومنضدة المعلم ومقعد الطالب، والمرئي من الأعلى والمرئي من الأسفل، كان ينتصب حاجز «السلطة» المحجوب الذي يمنع أي احتكاك. واعتبار التلميذ فرداً لم يكن يتجاوز في ذلك الوقت سلطة المعلم فقط، بل قدراته أيضا، إذ كان هذا يتطلب اهتماماً بالصفات المميزة للتلميذ، أو إعداد «التقارير»، أو كتابة الملاحظات عنه، كما يجري اليوم عادة. ومن جهة أخرى، كان من شأن الأحاديث الخاصة مع التلاميذ أن يضعه على سويّة واحد معهم، وهو الأرفع مقاماً. وفي رأيي لاشيء يدلّ على انعدام العلاقة الروحية والفكرية الكامل بين المعلمين وبيننا أكثر من نسياني أسماءهم ووجوههم كلها. ومازالت ترتسم في ذاكرتي مثل صورة فوتوغرافية منضدة المعلم، ودفتر الصف الذي كنا نختلس النظر إليه دائماً لاحتوائه على علاماتنا. مازلت أذكر الدفتر الأحمر الصغير الذي كانت تُسجّل فيه الدرجات، وقلم الرصاص الأسود القصير الذي كانت تُدوّن به العلامات، وكتابي الذي غطّته تصحيحات المعلم بالحبر الأحمر، ولكني لا أستطيع أن أتذكر وجه معلم، ربما لأننا كنا دائماً نقف أمام المعلمين وعيوننا غير مبالية أو منكسرة.

إن هذا الاستياء من المدرسة لم يكن بأي حال من الأحوال موقفاً شخصياً. فأنا لا أعرف واحداً من زملائي يمكن أن يأنف من الاعتراف بأن اهتمامنا ونوايانا الطيبة قد أرهقت وأُعيقت وقُمعت في هذا الرتابة المضجرة. ولم ندرك إلا بعد وقت طويل أن منهج التعليم المتحجر الذي خضعنا له في صبانا لم يكن نتيجة إهمال السلطات، بل كان محدد الهدف، وهذا الهدف كان محاطاً بالكتمان. فالعالم الذي حولنا وفوقنا، والذي وجّه تفكيره كله إلى صنم الأمن فقط، كان ينفر من الشباب،أو بالأحرى كان لا يثق بهم. كان المجتمع البرجوازي المُفاخر بـ «تقدمه» المطرد، ونظامه، يعلن أن الاعتدال

والتفرغ هما فضيلتا الإنسان الوحيدتان المؤثّرتان في أنماط عيشه كافة، وأن كل المساعي المتسرعة من الارتقاء ينبغي تفاديها. كانت النمسا دولة عجوزاً يهيمن عليها إمبراطور طاعن في السن، ويحكمها وزراء مسنّون، كانت دولة بلا طموح تأمل في حماية نفسها في المجال الأوربي بالوقوف ضد كل تغيير جذري. ولذلك فإن الشباب الميّالين بالفطرة إلى التغيرات السريعة والجذرية كانوا يُعتبرون عنصراً مريباً لابد من قمعه، أو تعطيله مدة طويلة قدر المستطاع، وهكذا كان جعل أعوام الدراسة ممتعةً أمراً لا داعي له، وكان علينا أن نتحلّى بالصبر في انتظار ارتقائنا من درجة إلى أخرى. وبما أننا كنا نُدفع إلى الوراء على هذا النحو، فإن الفئات العمرية المتنوعة كانت تُقوّم تقويماً مختلفاً عن تقويمها في الوقت الحاضر. فالطالب الثانوي البالغ من العمر ثمانية عشر عاماً كان يُعامل كما يعامل صبيّ صغير، فيعاقب إذا قُبض عليه وهو يدّخن، ويُفرض عليه أن يرفع يده صاغراً إن أراد مغادرة غرفة الصف. ومَن بلغ الثلاثين كان يُعتبر أيضاً شخصاً غير ناضج، وحتى من بلغ الأربعين قلما كان يُحسب أهلاً لاحتلال موقع من مواقع المسؤولية. وذات مرة، عندما حدث استثناء مباغت، وعُيّن غوستاف ماهلر مديراً للأوبرا الإمبراطورية وهو في الثامنة والثلاثين، تهامس الناس في فيينا، وغمغموا باندهاش وفزع وهم يناقشون بالتفصيل تولّي «رجل صغير السن» إدارة أول مؤسسة فنية في المدينة، ناسين تماماً أن شوبيرت قد أنهى عمل العمر في الواحدة والثلاثين، وموزارت في السادسة والثلاثين. وهذا الموقف الذي اعتبر الشباب «ليس عليهم معوّل» كان سائداً في كل الأوساط الاجتماعية. وإن والدي لم يكن ليقبل أن يعمل معه أي شاب، و من كان سيء الطالع بحيث يبدو شاباً، تعيّن عليه أن يتغلب على هذا الارتياب من كل الجوانب. وهكذا نشأ وضع غير مفهوم اليوم كانت فيه سن الشباب تقف عائقاً أمام تقدم الإنسان في مجال العمل، إذ كان امتياز السن هو الامتياز الوحيد. وفي حين أن الذين بلغوا الأربعين في وقتنا الحاضر يتظاهرون بأنهم في الثلاثين، والذين بلغوا الستين يتمنون أن يظهروا أنهم في سن الأربعين، وأن الشباب، والقوة، والعزيمة، والثقة بالنفس محبذة، وتدفع الإنسان إلى الأمام، فإن كل من رغب في عصرنا الآمن في إحراز تقدم كان يُرغم على محاولة كل ما يمكن تصوره من أساليب التنكر لكي يظهر كبير السن. كانت الصحف تصف مستحضرات طبية

تسرّع نمو شعر اللحية، والأطباء الذي أنهوا امتحاناتهم وهم في الرابعة والعشرين و الخامسة والعشرين كانوا يرخون لحى عظيمة، ويضعون على عيونهم نظارات ذهبية حتى ولو لم يكونوا محتاجين إليها، وذلك حتى يوقعوا في أنفس مرضاهم الأوائل أنهم «أصحاب خبرة ». وكان الرجال يرتدون معاطف سوداً طويلة، ويمشون باتئاد ،ويكسبون شيئاً من البدانة كلما أتيح لهم ذلك، لكي يجسدوا الرزانة المطلوبة، أما أصحاب الطموح فكانوا يبذلوا جهدهم في تزييف شبابهم ،بما أن الشبان يُراب منهم تقلّبهم. حتى ونحن في السنة الدراسية السادسة والسابعة رفضنا حمل حقائب المدرسة. واستخدمنا بدلاً منها محفظة مسطحة لكي لا يعرف أحد أننا طلاب في المدرسة الثانوية. إن كل الصفات التي تعدّ اليوم مستحبة ـ النضارة، وتوكيد الذات، والجرأة، وحب الاستطلاع، وتشهّي الحياة ـ كانت تُعتبر مريبة في تلك الأيام التي لم تكن تقدر إلا «الثروة ».

ومن هذا الموقف غير العادي وحده نستطيع أن نفهم كيف استغلت الدولة المدارس كوسيلة تدعم بها سلطتها. فأهم ما كان علينا أن نتعلمه هو احترام الموجود بوصفه كاملاً، ورأي معلمنا بوصفه معصوماً، وكلمات والدنا بوصفها غير متناقضة، وتدابير الدولة بوصفها مطلقة وصحيحة إلى أبد الآبدين. والمبدأ الثاني الرئيسي في تربية تلك الأيام، والذي كان يُطَبق داخل الأسرة، يقضي بأن لا يتيسّر للصغار نيل الأشياء. فقبل منحهم أي حقوق، يجب أن يتعلموا أن عليهم واجبات، وأول هذه الواجبات الالتزام بالطاعة التامة. كان يرسخ في أذهاننا منذ البداية، نحن الذين لم نكن قد أنجزنا شيئاً في الحياة، وكنا مفتقرين إلى تجربة تماماً، بأن علينا أن نشكر للآخرين ما يتفضلون به علينا، ولا يحق لنا أن نسأل أو نطلب شيئاً. وفي زماني كانت هذه الطريقة الغبيّة في التخويف تُمارس منذ الطفولة الباكرة. كانت الخادمات والأمهات الجاهلات يهددن الصغار باستدعاء «الشرطي» إن لم يكفّوا عن الشغب في الحال. ولما كنا في الثانوية، كنا نُهدَّد، عند نيل علامات قليلة في مادة غير مهمة، بإخراجنا من المدرسة، وتعليمنا مهنة ـ كان أسوأ ما يهدّد الطبقة الوسطى هو العودة إلى البروليتاريا. وحين كان الشباب الراغبون رغبة صادقة في التعلم يطلبون من الكبار توضيح مشكلة راهنة وملحة، كان الطلب يُقابل بالصدود المترفع: «لا يمكن أن تفهموا ذلك الآن». وهذا

الأسلوب كان يستخدم في كل مكان: في البيت، وفي المدرسة، وفي الدولة. ولم يفتروا عن إقناع الشاب بأنه لم «ينضج» بعد، وأنه لا يفهم شيئاً، وأن عليه أن يصدّق ما يسمع، وألا يدخل في محادثة أو يعارض. ولهذا السبب كان يتعيّن على المعلم المسكين الجالس إلى منضدته أن يبقى صنماً لا يدنو منه أحد، وأن يحصر مشاعرنا وسلوكنا في المنهاج. ولم يكن مهماً أن نكون سعداء في المدرسة أو غير سعداء، إذ أن رسالتها في تلك الأوقات لم تكن في الحقيقة أن تسهم في تقدمنا بل في تأخير نموّنا، وألا تصوغنا من الداخل، بل أن تعدّنا بأقل ما يمكن من التعارض مع الخطة المرسومة، وألا تزيد مقْدراتنا ،بل أن تخضعها للتحكم وتسطّحها.

إن مثل هذا الضغط النفسي، أو بالأحرى غير النفسي، على الشباب لا يمكن أن يكون له إلا أثر، أو أثران هما الشلل أو التحفيز. ويمكننا أن ننظر في سجلات المحللين النفسيين لنرى كم «عقدة نقص» سببّها هذا المنهج التربوي غير المعقول. ولعل اكتشاف هذه العقدة من قبل رجال عانوا من مدارسنا النمساوية القديمة لم يكن مصادفة. وأنا شخصياً أشكر لهذا الضغط الانبعاثَ المبكر للشغف بالحرية ـ كانت شغفاً بلغ من الشدة مالا يعرفه شباب اليوم إلا نادراًـ وكراهيةً لكل أشكال السلطة، ولكل أنواع «الكلام من فوق»، وهو ما لازمني طيلة حياتي. وهذه الكراهية لكل ما هو قاطع ومتصلب قد تحولت مع الأعوام إلى فطرة، وطوى أصلها النسيان. وذات مرة اختاروا قاعة الجامعة الكبيرة لألقي فيها إحدى محاضراتي، ولما اكتشفت فجأة أنني سأتحدث من على منبر بينما يجلس المستمعون على مقاعد في الأسفل مثل طلاب المدارس الجيدين الذين لا يتكلمون ولا يعارضون، انتابني شعور مفاجئ بالضيق. تذكرت معاناتي من هذا «الكلام» الرسمي النظري الجافي «من فوق»، وقلقت للغاية مخافة أن تكون محاضرتي الملقاة من على المنبر عديمة التأثير الشخصي مثل محاضرات معلمينا. وبسبب هذا الحائل، فإن تلك المحاضرة كانت الأسوأ في حياتي.

كنا حتى سن الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة نشعر بأن المدرسة مكان مألوف، فنسخر من أساتذتنا، ونتعلم دروسنا باستعداد فاتر للتعلم. ولكن ما لبث أن جاء وقت بدأت فيه المدرسة تضجرنا وتزعجنا. والأمر غير العادي هو أننا، نحن الذين

دخلنا الثانوية في سن العاشرة، وجدنا أنفسنا متجاوزين في نموّنا العقلي مدرستنا في الأعوام الأربعة الأولى من أعوامنا الثمانية. لقد شعرنا بأننا لن نتعلم شيئاً مهمّاً منها، وأن كثيراً من المواد التي تهمنا كانت معرفتنا بها تفوق معرفة معلمينا المساكين الذين لم تحملهم رغبة شخصية على فتح كتاب منذ أعوام التلمذة. ولكن التباين الآخر الذي أخذ يتضح يوماً بعد يوم هو أن المقاعد لم يكن جالساً عليها منا إلا بناطيلنا القصيرة. فنحن لم نسمع شيئاً جديداً، ولا شيئاً جديراً بأن نعرفه، وأما خارج المدرسة فكان هناك مدينة فيها آلاف الأشياء الجذابة، مدينة فيها مسارح، ومتاحف، ومكاتب، وجامعات، وموسيقا، مدينة حافلة كل يوم بالمفاجآت. ولذلك فإن تعطشنا المكبوت إلى المعرفة، وتطلعنا الفكري والفني والحسي، اللذين لم يتغذيا في المدرسة، قد تاقا إلى كل ما هو خارجها. وفي البداية لم يكتشف إلا اثنان أو ثلاثة منا هذه الاهتمامات الموسيقية والأدبية والفنية في أنفسهم، ثم اكتشفها عشرة، وأخيراً اكتشفناها كلنا تقريباً.

إن الحماسة ظاهرة معْدية بين الشباب، وفي المدرسة تنتقل عدوى هذه الظاهرة من واحد إلى آخر مثل الحمى القرمزية، أو مرض الحصبة. وفي حين يحاول المبتدئون محاولة صبيانية عابثة أن يفوق بعضهم بعضاً بالمعرفة بأسرع ما يمكن، فإن بعضهم لايلبث أن يضلّ بعضهم الآخر عن القصد. لذلك فإن الاتجاه الذي تتخذه هذه الميول مجرد مصادفة. فإذا كان في أحد الصفوف جامع طوابع، فإن بعض الحمقى سوف يحتذون حذوه، وإذا هذى ثلاثة في كلامهم على الرقص، وقف الآخرون كل يوم أمام مدخل دار الأوبرا. وقد استحوذ على صف بعدنا حب كرة القدم، وتحمس قبلنا صف كل الحماسة للاشتراكية وتولستوي. وبالمصادفة دخلت أنا صفاً كان فيه زملائي متحمسين للفن، ولربما كان هذا الأمر حاسماً في مجرى حياتي - وهذه الحماسة للمسرح والأدب والفن كانت طبيعية تماماً في فيينا. كانت الصحف تفرد حيزاً خاصاً لكل الأحداث الثقافية في المدينة، وأينما ذهبنا، كنا نسمع الكبار يناقشون عروض دار الأوبرا، ومسرح المدينة. وكانت صور كبار الممثلين معروضة في كل المحلات التي تبيع أدوات الكتابة. أما الرياضة فقد كانت تُعتبر حتى ذلك الوقت نشاطاً فظاً ينبغي أن يتحاشاه طالب الثانوية، كما أن السينما ذات الأهداف الشعبية لم تكن قد اختُرعت بعد. وفي المنزل لم تكن تُخشى أي معارضة، فالأدب والمسرح ينتميان إلى الميول «البريئة» في مقابل

لعب الورق، ومصادقة البنات. وأخيراً فإن والدي قد كان، مثل كل الآباء في فيينا، يهيم بالمسرح، وقد حضر أداء لونجرين lohengrin تحت إشراف ريتشارد فاجنر بالحماسة ذاتها التي شعرنا بها عند حضور عروض شتراوس وهوبتمان الأولى. كان من المتوقع أن نحتشد، نحن طلاب الثانوية، لكل عرض أول. ولكم كان يخجلنا أمام زملائنا الأوفر حظاً ألا نتمكن في اليوم التالي من نقل كل التفاصيل! ولو لم يكن معلمونا غير مكترثين تماماً، لخطر لهم أن ثلثي الطلاب يصيبهم مرض غامض عصر كل عرض أول مهمّ - كنا نضطر إلى الاصطفاف في الساعة الثالثة حتى نضمن أمكنة للوقوف، وكانت الوحيدة المتاحة لنا. ولو تحلّوا بانتباه دقيق، لاكتشفوا أيضاً أن قصائد ريلكه قد وُضعت على عجل في أضعاف كتاب النحو اللاتيني،وأننا نسخنا على دفاتر الرياضيات أجمل القصائد من كتب مستعارة. كنا نخترع كل يوم وسائل جديدة لاستغلال ساعات المدرسة من أجل القراءة. وفي حين كان المعلم يلقي محاضراته التي أبلاها الزمن عن شعر شيلر «الساذج المفرط العاطفة»، كنا نحن نقرأ تحت مقاعدنا نيتشه وسترندبرغ اللذين لم يسمع شيخنا الطيب باسميهما قط. لقد أصابتنا حمى معرفة كل شيء، والاطلاع على كل الأحداث في مجالات الفن والعلم . فبعد الظهر كنا نندسّ بين طلاب الجامعة للاستماع إلى المحاضرات، ونزور المعارض الفنية، وندخل إلى غرف التشريح لكي نراقب ما يجري هناك. وكنا نستاف بأنوفنا المستطلعة كل شيء، فننسلّ إلى حيث تجري تدريبات الجمعية الموسيقية، ونجوس خلال حوانيت التحف، ونتفحص عروض باعة الكتب كل يوم علّنا نعرف في الحال ما استجد منذ اليوم الفائت، وقبل كل شيء كنا نقرأ! كنا نقرأ كل ما يقع في يدنا، ونأتي بالكتب من المكاتب العامة كلها، ويعير بعضنا بعضاً أي شيء نتمكن من اكتشافه، على أن المقهى كان خير مكان من أجل متابعة المستجدات.

ولكي نفهم هذا الأمر، لا بد من القول: إن المقهى في فيينا مؤسسة خاصة لا مثيل لها في العالم، إذ أنه في الواقع أشبه بالنادي الديمقراطي لا يكلّف دخوله إلا ثمن فنجان قهوة. وبعد دفع هذا الثمن البخس، يستطيع الزائر أن يجلس ساعات طويلة، يناقش، ويكتب، ويلعب الورق، ويتسلم رسائله، والأهم من ذلك، يستطيع أن يقرأ عدداً لا حد له من الصحف والمجلات. وفي مقاهي فيينا الراقية لم تكن جميع صحف

فيينا فقط في متناول اليد، بل جميع الصحف الألمانية، والفرنسية، والإنكليزية، والإيطالية، والأمريكية، إضافة إلى كل المجلات الأدبية والفنية المهمة في العالم، من مثل Revue de France، وNeue Rundschau، وStudio، وBurlington Magazine. ولذلك كنا نعرف كل ما يجري في العالم مباشرة، ونعلم بكل الكتب المنشورة، وبكل إنتاج أينما ظهر، ونقارن بين مراجعات الكتب في الصحف جميعها. وربما لم يسهم شيء في تكيّف الإنسان النمساوي الفكري، وتوجهه العالمي مثلما أسهمت قدرته على مجاراة أحداث العالم في المقهى، ومناقشتها في الوقت ذاته في حلقة أصدقائه. وبفضل جماعية اهتماماتنا، فإن مدار الأحداث الفنية لم تتابعه عينان فقط، بل عشرون وأربعون عيناً، وما كان يغفل عنه أحدنا كان ينتبه له آخر. وبما أن طموحنا الدائم كان بريئاً ومتباهياً، ورياضياً إلى حد ما، ورغبنا في مباراة بعضنا بعضاً في معرفة أحدث الأشياء، فقد وجدنا أنفسنا بالفعل داخلين في ضرب من المنافسة المتواصلة في الأشياء المثيرة. فإن ناقشنا، مثلاً، نيتشه الذي كان مزدرىً آنذاك، ثم قال أحدنا فجأة باستعلاء متكلّف: «ولكن كيركيجارد يتفوق عليه في فرط الإحساس بالذات»، اعترانا قلق في الحال: «من هو كيركيجارد الذي يعرفه فلان ولا نعرف عنه شيئاً؟». وفي اليوم التالي، كنا نندفع إلى مكتبة للبحث عن كتب هذا الفيلسوف الدنماركي المغمور، فألا نعرف شيئاً أجنبياً يعرفه شخص آخر كان علامة من علامات الدونية. كان عندنا شغف بأن نكون أول من يكتشف الأحدث والأجدّ والأكثر تطرفاً وغرابة، والذي لم يتم تناوله بالتفصيل بعد، ولاسيما من قبل النقاد الأدبيين الرسميين للصحف اليومية. وهذا الهوس قد استعبدني، أنا شخصياً، سنين عديدة. لقد استحثت الأوقات الجديدة الراديكالية حبنا المتميز هذا لكل شيء لم يحظَ باعتراف عام بعد، أو كان سامياً تحول المشقّات دون بلوغه. لا شيء كان خفيّاً أو نائياً إلى حد لم يستطع معه تلهفنا الجماعي التنافسي إلى المعرفة أن يأتي به من مخبئه. وحين كنا في الثانوية، صدرت أعمال ستيفان جورج، أو ريلكه، مثلاً، في طبعات نسخها لم تزد على المئتين أو الثلاثمئة، ووجد بعض هذه المئات من النسخ سبيلها إلى فيينا، إلا أن أحداً من باعة الكتب لم يعرضها للبيع، كما أن أحداً من النقاد الرسميين لم يذكر اسم ريلكه، غير أن عزيمتنا المعجزة جعلتنا نعرف كل قصيدة وكل بيت. ونحن الفتيان المُرْد الأغرار الذين

أُرغمنا على الجلوس طويلاً على مقاعد المدرسة كنا في واقع الأمر أفضل جمهور يمكن أن يحلم به شاعر شاب بما اتصفنا به من فضول، وفهم نقدي، وسرعة انتشاء. كانت طاقة الحماسة لا حد لها عندنا، فخلال ساعات الدوام في المدرسة، وفي طريقنا إلى المدرسة ومنها، وفي المقهى والمسرح، وفي أثناء نزهاتنا سيراً على الأقدام، كنا، نحن الفتيان الأغرار، نناقش الكتب، واللوحات، والموسيقا، والفلسفة. كان نجماً في سمائنا كل من اعتبره الناس ممثلاً أو قائد أوركسترا، وكل من نشر كتاباً أو كتب في صحيفة. وكدت أرتعب عندما وجدت بعد أعوام عديدة هذه الجملة التي يصف بها بلزاك شبابه: «كان أصحاب الشهرة في نظري آلهة لا يتكلمون ولا يأكلون كالآخرين.» لقد كنا نشعر هكذا تماماً. فأن نرى غوستاف ماهلر في الشارع كان حادثة نتباهى بها كانتصار شخصي عندما نرويها لرفاقنا في صباح اليوم التالي. ولما كنت صبياً قُدِّمت إلى جوهانز برامز، فربّتني بكل مودة، وهذه التجربة المدهشة أبقتني في حالة ذهول عدة أيام، ومع أنني لم أكن، وأنا في الثانية عشرة، أدرك ما أنجز، فإن حقيقة شهرته فقط، أو هالة الإبداع، كانت بالغة التأثير في نفسي. ولما عُرضت إحدى مسرحيات جيرهارت هوبتمان أول مرة في مسرح المدينة، بقي صفنا كله متوتر الأعصاب عدة أسابيع قبل أن بدأت التدريبات. تسللنا إلى الممثلين، وسعينا إلى استباق الآخرين في معرفة الحبكة وشخصيات المسرحية. وحتى نجمع معلومات سرية عن فولتر، أو سوننثال، قصصنا شعرنا عند حلاق مسرح المدينة (لا بأس أن أذكر السخافات)، وأفسدنا، نحن الأولاد الكبار، أحد تلاميذ الصفوف الدنيا بكل أنواع الملاحظات فقط لأنه ابن أخ أحد مراقبي الإضاءة في دار الأوبرا، واستعنا به على الدخول خلسة إلى خشبة المسرح خلال التدريبات - كان وطء خشبة المسرح صدمة فاقت صدمة فيرجيل الذي صعد إلى دوائر الفردوس المقدسة. إن ألق الشهرة كان من القوة بحيث أُرغمنا على احترامها حتى لو كانت بعيدة عنا. فامرأة عجوز مسكينة كانت تبدو لنا خالدة لأنها حفيدة فرانز شوبيرت، وفي الشارع كنا نديم النظر باحترام إلى خادم جوزيف كينز لأن حظه الطيب قد أتاح له أن يكون قريباً من أحب الممثلين وألطفهم.

وبالطبع فأنا أعرف اليوم حق المعرفة كم في هذه الحماسة الاعتباطية من سخافة، وكم كانت مجرد تقليد متبادل، ومجرد رغبة مغامرة في المزايدة، وكم كان في تعالينا

على عـالم الأقـربـاء والمعلمين المألوف المحيط بنا من زهو صبـيـاني. ومع ذلك مـازال يدهشني حتى الوقت الحاضر كم تعلمنا، نحن الفتيان الصغار، من هذا الشغف الأدبي المبالغ فيه، وكيف اكتسبنا قبل الأوان ملكة النقد الصائب من خلال مناقشاتنا وتحليلاتنا التي لم تنقطع.

فأنا لم أعرف، وأنا في السابعة عشرة، كل قصائد بودلير و والت ويتمان فقط، بل حفظت أهم تلك القصائد عن ظهر قلب أيضاً. وأظن أنني لم أقرأ في أعوامي اللاحقة قراءة مركزة كما فعلت خلال أعوام المدرسة والجامعة. وفي واقع الأمر، كنا نعرف أسماء لم تنل تكريماً عاماً إلا بعد عشر سنوات، وحتى الأسماء العابرة أبقتها في ذاكرتنا تلك الحماسة. وذات مرة أخبرت صديقي الموقر بول فاليري أنني قد عرفت بعض أشعاره وأحببتها منذ ثلاثين عاماً خلت، وهذا عمر معرفتي الأدبية به. فضحك مني ضحكة لطيفة وقال: «أتحاول أن تخدعني، يا صديقي العزيز؟ فإن أشعاري لم تنشر إلا عام ١٩١٦.» و دُهش حين وصفت له بالتفصيل لون المجلة الأدبية الصغيرة وشكلها، والتي وجدنا فيها أشعاره الأولى عام ١٨٩٨. فقال متعجباً: «ولكن لم يعرفها في باريس إلا القلة، فكيف تمكنت من الحصول عليها في فيينا؟» وكان جوابي: «مثلما استطعت، وأنت طالب في الثانوية،أن تجد قصائد مالارميه في مدينتك الإقليمية، حين لم يكن يعرفه إلا قلة أيضاً.» واتفق معي على أن «الشباب يكتشفون شعراءهم لأنهم يرغبون في اكتشافهم.» كنا نستاف الريح قبل أن تجتاز الحدود، لأننا عشنا وأنوفنا مرتعشة باستمرار. لقد وجدنا الجديد لأننا رغبنا فيه، لأننا جعنا إلى شيء يخّصنا نحن فقط، ولا يخصّ عالم آبائنا، أو العالم المحيط بنا. إن الشباب، شأنهم شأن بعض الحيوانات، تتحسس غريزتهم الفائقة تغيّر الجو، وهكذا أحسّ جيلنا، قبل معلمينا وجامعاتنا، أن شيئاً في مجال الفن قد بلغ الغاية مع القرن الماضي، وأن ثورة، أو تغيّراً في القيم على الأقل يوشك أن يقع. كان أعلام الثقافة الثقات في زمن آبائنا ـ جوتغريد كيلر في الأدب، وإبسن في الدراما، وجوهانز برامز في الموسيقا، ولايبل Leibl في الرسم، وإدوارد فون هارتمان في الفلسفة ـ مشكوكاً فيهم مثل سائر عالمهم الآمن. لقد كفّوا عن إثارة اهتمامنا على الرغم من براعتهم الفكرية والفنية الفائقة. وشعرنا بالفطرة بأن إيقاعهم الهادئ المعتدل غريب عن دمنا المضطرب،

ولم يعد يجاري وتيرة عصرنا المتسارعة. وفي ذلك الوقت بالذات كان يعيش في فيينا أكثر شخصيات الجيل الألماني الشاب يقظة، وهو هيرمان باهلر الذي كافح كفاحاً باسلاً كمثقف مناصر لكل ما كان يتشكل ولم يولد بعد. وبدعم منه افتُتح في فيينا معرض «الانشقاق» Secession، وهال المدرسةَ القديمة أن تُعرض أعمال الانطباعيين، والتنقيطيين الباريسيين، وأعمال مونك Munch النرويجي، وروبز Rops البلجيكي، وكل المتطرفين الذين يمكن تصورهم. وبذلك انفتح الطريق أمام أسلافهم المهملين: غرونفولد، وإلغريكو، وغويا، وفجأة تعلم المرء طريقة جديدة للرؤية، وتعلم في الوقت ذاته إيقاعاً وتنغيماً جديدين من خلال موسورجسكي، وديبوسيه، وشتراوس، وشونبرغ، وفي الأدب برزت الواقعية مع زولا، وسترندبرغ، وهويتمان، والعبقرية السلافية مع دوستويفسكي، وتسامي فن الكلام الغنائي وتحسينه غير المعروفين حتى ذلك الوقت مع فيرلين، ورامبو، ومالارميه. وثوّر نيتشه الفلسفة، وأعلن البناء الوظيفي غير المزخرف قيام عمارة أجرأ وأكثر تحرراً بدلاً من العمارة الكلاسيكية المسرفة الزخرفة. فاضطرب النظام القديم المريح فجأة، ووُضعت معاييره الجمالية السابقة المعصومة موضع تساؤل. وفي حين أصاب الهلعُ نقادَ صحفنا البرجوازية السديدة من التجارب الجريئة في الغالب، وسعوا إلى سدّ الطريق على التيار الجارف ناعتين إياه بالتيار «المنحط» و«الفوضوي»، اندفعنا نحن الشباب بكل حماسة إلى حيث ترتفع الأمواج مزبدةً أشد إزبادها. كنا نشعر بأن زمناً هو زمننا قد ابتدأ، وأنجز فيه الشباب حقوقهم أخيراً. وفجأة اكتسب شغفنا القلق الباحث الحادّ معنى، وهو أن الصراع العنيف السريع من أجل فن جديد سيكون لنا فيه دور، نحن الناشئين الجالسين على مقاعد المدرسة. كنا نخفّ إلى حيث يُقدّم عرض، أو تُلقى قصائد غنائية جديدة، لا بكل قوة أرواحنا فقط، بل بكل قوة أيدينا أيضاً. فحين حضرت أول تقديم لأحد أعمال آرنولد شونبرغ المبكرة المخالفة للأصول الموسيقية التقليدية،أعرب أحد الحاضرين عن استهجانه بالصفير الشديد، فصفع صديقي بوشبيك وجهه صفعة مماثلة في الشدة. كنا الطليعة في كل مكان، وجند المصادمة لكل فن جديد لأنه جديد فقط، ولأنه كان يرمي إلى تغيير العالم من أجلنا، نحن الذين جاء دورنا لكي نعيش حياتنا، ولأننا شعرنا بأن قضيتنا هي التحريض.

ولكن هذا الفن الجديد كان فيه شيء آخر أثار اهتمامنا وأعجبنا، وهو مساهمات

الشباب في هذا الفن. كان الشاعر، أو الموسيقي، أو الناقد على عهد أبائنا لا يُعترف به إلا عندما «يُختبر»، ويتكيف مع ذوق المجتمع البرجوازي المجرّب المتروّي. والذين تعلمنا احترامهم كان سلوكهم يتصف بالتهذيب. كان ويلبرانت، وإيبرز، وفيلكس دان، وبول هايزه، ولينباخ الذين آثرتهم المرحلة، وطواهم النسيان الآن، يرْخون لحاهم الأنيقة التي وخطها الشيب فوق ستراتهم المخملة اللائقة بالشعراء. وكانوا يُصوَّرون وهم مستغرقون في التأمل، ومتخذون وضعاً «شاعرياً» و «جديراً بالاحترام»، ويتصرفون مثل أعضاء المجالس المحلية، وأصحاب السعادة، ومثلهم يغطّون صدورهم بالأوسمة. أما الشعراء والموسيقيون والفنانون الشباب، فقد كانوا يوصفون بأنهم «مواهب واعدة»، ويوضع الاعتراف الصريح بهم على الجليد مؤقتاً، كان ذلك العصر الحذر لا يحابي أحداً قبل أن توطّد مكانته أعوام طويلة من المنجزات «المتماسكة». ولكن الشعراء والموسيقيين والرسامين الجدد كانوا جميعهم شباباً. فلقد هيمن جيرهارت هويتمان الذي برز فجأة من لا مكان على المسرح الألماني وهو في الثلاثين من العمر، وحقق ستيفان جورج،وريلكه شهرة أدبية، واكتسبا أشياءً في سن الثالثة والعشرين، أي قبل أن يبلغا سن الرشد بحسب القانون النمساوي. وحتى في مدينتنا نحن ظهر بين ليلة وضحاها. جماعة عرفت باسم «فيينا الفتاة»، وضمّت آرثر شنتزلر، وهيرمان بار، وريتشارد بير - هوفمان، وبيتر ألتنبرغ الذين اكتسبت بهم الثقافة النمساوية ملامح أوروبية من خلال صقلهم كل الوسائل الفنية. والأهم من ذلك هو أن شخصاً واحداً قد فتننا وأغرانا وأثارنا وأسرنا، وهذا الشخص هو هوجو فون هوفمنزثال، تلك الظاهرة الفريدة العجيبة، والذي لم يرَ فيه شبابنا أسمى مطامحه فقط، بل تحققاً للكمال الشعري المطلق في أحد أبناء عصرهم.

إن بروز الشاب هوفمنزثال سيبقى جديراً بالملاحظة باعتباره معجزة من المعجزات العظيمة للكمال المبكر. وسوى كيتس ورامبو، لا أعرف في الأدب العالمي أحداً بلغ في مثل سنه المبكرة تمكّناً من الكلام، ورفعة في الغايات، وتشبعاً بالمادة الشعرية حتى في أبياته التي كتبها على غير تدبر، ما بلغه هذا العبقري العظيم الذي نقش اسمه وهو في السادسة عشر والسابعة عشرة على صحائف اللغة الألمانية بما أبدعه من شعر لا

يموت، ونثر لم يتفوق عليه أحد حتى اليوم. إن بدايته المفاجئة، واكتماله الفوري قد شكلا ظاهرة قلما تقع مرتين في الجيل الواحد. كان ظهوره خارقاً، والذين سمعوا به أول مرة أصيبوا بالذهول. وكثيراً ما حكى لي هيرمان بار عن اندهاشه عندما تلقّى مقالة من شخص يُدعى «لوريس» (كانت المدرسة الثانوية لا تجيز لنا أن ننشر شيئاً بأسمائنا) مرسلة من فيينا إلى مجلته. فرغم أن المساهمات كانت تأتيه من أنحاء العالم كافة، فإنه لم يتلقَ قط قطعة من النثر الرائع المجنّح الغني بالأفكار مثل تلك المقالة. وتساءلنا: من عسى أن يكون «لوريس» هذا؟ لاشك في أنه كان رجلاً كبير السن قد قطّر أفكاره في صمت طيلة أعوام وأعوام، وفي صومعة منعزلة حولّ جوهر اللغة الأسمى إلى ما يقارب السحر الحسي، وأن رجلاً حكيماً وشاعراً محظوظاً مثل هيرمان، قد عاش في المدينة ذاتها، ولم يسمع به قط! كتب هيرمان بار على الفور إلى الشخص المجهول، ورتّب معه لقاء في مقهى غرينستادل المشهور، أهم ملتقى للأدباء الشباب. وفي الموعد المحدد اقترب من طاولته طالب ثانوي خفيف الخطا، مرتدياً بنطالاً قصيراً، وفي صوت عالٍ لم يخشن بعد، قال رأساً وباختصار: «هوفمنزثال! أنا لوريس.» ولما كان بار يتحدث عن المفاجئة بعد أعوام، كانت الذكرى تهزّ عواطفه. لم يصدق في البداية أن طالباً ثانوياً قد وُهب مثل هذا الفن، وهذه الرؤيا الواسعة العميقة، وهذه المعرفة الهائلة بالحياة، والحياة لما تزل أمامه! وسمعت الشيء ذاته تقريباً من آرثر شنتزلر. كان عندئذ ما يزال يمارس الطب بما أن نجاحاته الأدبية الأولى لم تكن قد ضمنت له ما يعيش به، على أنه حتى في ذلك الوقت كان يُعتبر رئيس «فيينا الفتاة»، وكان يسرُّ الشباب أن يلجؤوا إليه طلباً للنصيحة وإبداء الرأي. واتفق أن التقى ذلك الطالبَ الثانوي الطويل النحيف من خلال بعض معارفه، ولفت نظره ذكاؤه الحاد. ولما طلب منه الطالب الشاب أن يستمع منه إلى مسرحية شعرية قصيرة، دعاه إلى مسكنه من غير أن يتوقع شيئاً مهمّاً في ظاهر الأمر. ظن أنها لن تكون إلا مسرحية طالب ثانوي مسرفة العاطفة، أو كلاسيكية زائفة. طلب من عدة أصدقاء أن ينظموا إليهما. ولما جاء هوفمنزثال في بنطاله القصير، بدا متوتراً وقلقاً بعض الشيء، ثم أخذ يقرأ. قال لي شنتزلر: «بعد دقائق قليلة، انجذب انتباهنا إليه، وتبادلنا نظرات مندهشة ومرتاعة تقريباً. لم نسمع قط من أي كائن حي شعراً بمثل هذا الكمال، وبمثل

تلك الطواعية التي لا عيب فيها، وبمثل ذلك الإحساس الموسيقي، ولم يخطر لنا أيضاً أن ذلك أمر ممكن منذ غوته. والأعجب من ذلك التمكن الفريد من الشكل (الذي لم يحققه أحد في اللغة الألمانية) هو معرفة العالم التي لا يمكن أن تكون قد أتت إلا من حدس سحري في طالب أمضى أيامه على مقعد المدرسة.» وبعد أن أنهى هوفمنزثال قراءته بقي الجميع صامتين. قال شنتزلر: «انتابني شعور بأنني أواجه عبقرياً أول مرة في حياتي، وفيما تبقّى من أعوام العمر لم يعاودني ذلك الشعور الكاسح بالارتباك.» ومن بدأ البداية وهو في السادسة عشر - أو بالأحرى لم يبدأ، بل اكتمل في البداية - من شأنه أن يصبح بالفعل شقيق غوته وشكسبير. والحقيقة هي أن هذا الكمال قد بدا أنه يزداد كمالاً. فبعد قصيدته الأولى «الأمس»، جاءت القطعة الرائعة «موت تيشان» التي ارتفعت فيها اللغة الألمانية إلى تناغم اللغة الإيطالية، ثم تلتها القصائد التي كانت كل واحدة منها حدثاً بالنسبة لنا - مازلت أحفظها عن ظهر قلب بيتاً بيتاً - ثم المسرحيات القصيرة، وتلك المقالات التي اختصرت اختصاراً ساحراً في صفحات قليلة رائعة التنظيم ثراء معرفته، وفهمه التام للفن، ورؤاه للعالم. كان كل ما كتبه هذا الطالب في المدرسة الثانوية، وفي الجامعة، يشبه الكريستال المشع من الداخل، الكريستال العاتم والمتألق في آن معاً. كان النثر والشعر طيعين في يديه مثل شمع هيميتوس Hymettus المطيّب. كانت معجزة لا تتكرر تحدد دوماً حجم كل قصيدة بحيث لا يكون كبيراً ولا صغيراً. وشعرنا دائماً بأن شيئاً مجهولاً، أو سراً غامضاً، قد ساقه إلى أرض لم تطأها قدم حتى ذلك الوقت.

أكاد أعجز عن وصف هذه الظاهرة، وكيف خلبتنا، نحن الذين تعلمنا الإحساس بالقيم. فما الذي يمكن أن ينتشي به جيل شاب أكثر من أن يدرك أن شاعراً مطبوعاً ونقياً وسامياً يحيا بينهم؟ الشاعر الذي لم يتصوروه إلا على هيئة هولدرين وكيتس وليوباردي الأسطورية، أي لا سبيل إليه لأن نصفه حلم ونصفه رؤيا. ولذلك أستطيع أن أتذكر اليوم الذي رأيت فيه هوفمنزثال رأي العين. كنت في السادسة عشرة من العمر. وبما أننا كنا نتتبع كل ما يفعله معلمنا الكامل، فقد أثارني إعلان صغير محتجب في صحيفة عن محاضرة له عن غوته في النادي العلمي. ولم نكن لنفهم كيف يتحدث مثل هذا العبقري في مثل هذا المكان المتواضع، إذ كنا نتوقع أن يكتظ الناس في أكبر

قاعة عندما يَقْبل شخص يعبده الطلبة مثل هوفمنزثال بأن يُرى بين الناس. وفي هذه المناسبة أدركت مرة أخرى كم كنا، نحن طلاب الثانوية الصغار، نتقدم الجمهور عموماً، والنقاد الرسميين، في تقويمنا للأشياء الباقية، وميلنا إليها، وهو ما تأكدت صحته هنا وفي مكان آخر. تجمع في القاعة الضيقة نحو مئتي شخص، لذلك فإن انطلاقي نافد الصبر قبل الموعد بنصف ساعة من أجل تأمين مقعد لا ضرورة له. انتظرنا قليلاً، وما لبث أن سار بين المقاعد نحو الطاولة شاب نحيف لا يلفت النظر، وبدأ على نحو غير متوقع قبل أن أتمكن من إنعام النظر إليه. بدا هوفمنزثال بشاربه الطريّ وقامته المرنة أصغر سناً حتى مما توقعت. كان التوتر بادياً على وجهه الأسمر ذي الملامح الحادة، والإيطالية بعض الشيء، وما قوّى هذا الانطباع عن توتره اضطرابُ عينيه الداكنتين الوطفاوين المصابتين بالحسر إصابة واضحة. سرعان ما اندفع في الكلام سبّاح في نهر مألوف. وكلما تحدث أصبحت إشاراته أكثر طلاقة، وسلوكه أكثر اطمئناناً. و كما لاحظت فيما بعد في أحديثنا الخاصة، فإن توتره في البداية كان يعقبه رشاقة مذهلة، وكلام محلّق، حالما يدخل في المجال الفكري الملائم له، كما هي الحال دائماً مع الملْهمين. كنت لا أشعر إلا في جمله الأولى بأن صوته غير مستحب، وكثيراً ما يعتريه تقطع وتغير، ولكن لم يلبث أن ينطلق بنا عالياً بحيث لا نكاد ندرك صوته أو وجهه. تحدّث من غير نص مكتوب، ومن غير ملاحظات مكتوبة، وربما من دون عناية بالتحضير، غير أن إحساسه الطبيعي بالشكل كان يضفي على كل جملة طابع الكمال. كانت أكثر التناقضات تحدّياً تنجلي انجلاء رائعاً ثم تنحلّ في صياغات واضحة ولكنها مذهلة. شعرنا بالوفرة الغامرة، وأدركنا أن ما يُقدّم لنا بالمصادفة ليس إلا قطراً من بحر، وأن حالة الإلهام والتسامي كانت تمكنه من مواصلة الكلام ساعات متواصلة من غير أن يفتقر إلى شيء أو ينحدر من مستواه. وفي ما بعد، وفي أحاديثنا الخاصة، اكتشفت بالتجربة القوة السحرية التي يتمتع بها هذا «المبدع للكلام المتموج»، كما دعاه ستيفان جورج. كان قلقاً، وناريا، وحسّاساً ومعرّضاً لكل هبات الهواء، وكثيراً ما كان يخفي عصبيته، وتقلب مزاجه، لذلك لم يكن التقرب منه بالأمر السهل، ولكن حين كانت تثير اهتمامه مشكلة، كان يرتفع بالمناقشة عالياً مثل شرارة وامضة متألقة منطلقة كالصاروخ، ويبلغها المجال الخاص به، والذي لا يبلغه إلاه. وباستثناء بعض المحاورات

مع فاليري الذي كان أوضح تفكيراً، وأكثر تروياً، ومع كايزرلنغ المفعم بالحيوية، فأنا لم أشترك قط في محاورة على هذا المستوى الفكري الرفيع. وفي تلك اللحظات الملهمة حقاً، كان كل شيء في متناول وعيه الخارق، كل كتاب كان قرأه، وكل لوحة كان رآها، وكل منظر طبيعي. كانت الاستعارات ترتبط بعضها ببعض ارتباطاً طبيعياً، والمنظورات تظهر للعيان مثل مسرح يقوم وراء الأفق، مسرح غير متوقع يخال المرء أنه قد رآه. لقد شعرت عند إلقاء تلك المحاضرة، وفي لقاءات شخصية لاحقة، بالإلهام الحقيقي، والروح المبهج المحيي الذي لا يقبل القياس، ذلك الشيء الذي لا يمكن استيعابه تماماً بالعقل وحده.

إن المعجزة الفريدة التي كانها هوفمنزثال ما بين السادسة عشر والرابعة والعشرين من عمره لم يتجاوزها قط بمعنى ما. فأنا لست أقل إعجاباً بأعماله اللاحقة: المقالات البديعة، و «أندرياس»، ذلك العمل غير المنجز الذي ربما يكون أجمل رواية في اللغة الألمانية، وبعض الأجزاء المفردة من مسرحياته، ولكن صلاته القوية بالمسرح الفعلي وباهتمامات عصره قد اختفت، واختفى معها وعيه المحدد، وخططه الطامحة، اختفى شيء شبيه بالسير في الأحلام، شيء هو الإلهام الخالص في قصائد الصبا المبكرة التي كانت نشوة فتوّتنا وبهجتها. وبعد تلك المعرفة السحرية المميزة للشباب الذين لا خبرة لهم، عرفنا مقدّما أن معجزة شبابنا هذه كانت فريدة، ولن تتكرر في حياتنا.

وصف بلزاك وصفاً لا مثيل له كيف كهْرب مثال نابليون جيلاً كاملاً في فرنسا. لقد رأى أن الارتقاء الرائع الذي ارتقاه الملازم الأول التافه إلى رتبة إمبراطور العالم لم يكن يعني فوز الفرد فقط، بل انتصار فكرة الشباب أيضاً. كان يعني أن المرء لا يجب عليه أن يولد أميراً أو دوقاً حتى يكتسب النفوذ في سن مبكرة، بل يمكن أن يكون ابن أسرة متواضعة، وحتى فقيرة، ومع ذلك يصبح جنرالاً في الرابعة والعشرين، وحاكم فرنسا في الثلاثين، ثم حاكم العالم كله. إن هذا الانتصار المنقطع النظير قد دفع المئات إلى التخلي عن حرفهم الصغيرة، ومساكنهم الإقليمية. لقد ألهب نابليون بونابرت عقول جيل كامل من الشباب، وساقهم إلى التطلع إلى معالي الأمور فجعل جنرالات «الجيش العظيم» أبطالَ «الكوميديا الإنسانية» والمترقّين فيها. إن من يحرز أول مرة

ما لا يمكن إحرازه في أي ميدان هو شاب على الدوام، وحقيقة انتصاره البحتة تشجّع الشباب حوله، أو الذين يأتون بعده. وبهذا المعنى، فإن هوفمنزثال وريلكه قد شكلا حافزاً غير عادي لقوانا التي لم تختمر بعد. ومع أن أحداً منا لم يأمل أن يكرر معجزة هوفمنزثال، فإن وجوده المادي البحت قد قوّانا، إذ كان دليلاً ملموساً على أن وجود شاعر أمر ممكن في عصرنا، وفي مدينتنا، وفي وسطنا، فرغم كل شيء، فإن والده، هو صاحب مصرف، كان ينتمي مثل بقيتنا إلى الطبقة الوسطى اليهودية ذاتها. وهذا العبقري نشأ في منزل يشبه منازلنا، ذات الأثاث والعادات المتماثلة، ودرس الكتب المقررة ذاتها، وجلس ثماني سنوات على المقاعد الخشبية نفسها، ونفد صبره مثلنا، وشُغف بالقيم الفكرية كما شغفنا. وبينما كان يبلي بنطاله على المقاعد، ويُرغم على الدوران في المدرسة الثانوية، نجح في التسامي على المكان وحدوده، والمدينة والعائلة، بالطيران في اللامحدود. إن تجربة هوفمنزثال قد أثبتت بالبيّنة أن إبداع الشعر، وحتى خلق الكمال، ممكن من حيث المبدأ حتى في سن الحداثة، وفي جو السجن الذي ران على المدرسة الثانوية النمساوية. وكان ممكناً أيضاً ـ وهذا إغراء هائل للشاب ـ أن ينشر، وأن يُعرف، ويصبح مشهوراً، في حين أنه لما يزل في البيت وفي المدرسة يُعتبر كائناً غير مكتمل النمو، ولا شأن له.

وأما ريلكه فقد مثّل نوعاً آخر من التشجيع، وأكمل تشجيع هوفمنزثال إكمالاً مريحاً. فلو حاول حتى أجرؤنا أن ينافس هوفمنزثال لبدا ذلك تجديفاً. فلقد كنا نعرف أنه كان معجزة فريدة للكمال السابق لأوانه، والذي لا يتكرر أبداً. ولما أجرينا، ونحن في السادسة عشر، مقارنة بين قصائدنا والقصائد التامة التصور التي كتبها في السن ذاتها، ارتعدنا خجلاً. وشعرنا أيضاً بأننا لا نعرف إلا القليل عن تحليقه كالنسر في الفضاء الرحب عندما كان في الثانوية. ومن ناحية أخرى، كان ريلكه قد بدأ يكتب وينشر قصائده وهو حديث السن مثل هوفمنزثال ـ حين كان في السابعة عشرة. غير أن أشعار ريلكه المبكرة كانت ساذجة وغير ناضجة بالمقارنة مع أشعار هوفمنزثال، وحتى بالمعنى المطلق، وبالتذرع بالصبر وحده كان يمكن العثور على آثار طفيفة للموهبة فيها. إن شخصية هذا الشاعر الرائع الذي أحببناه حباً لا حد له لم تبدأ بالبروز إلا بالتدريج، حين بلغ الثانية والعشرين والثالثة والعشرين من العمر، وهذا كان عزاء هائلاً لنا. لذلك

انتفت الضرورة إلى بلوغ الكمال ونحن في الثانوية كما فعل هوفمنزثال، وصار باستطاعتنا أن نتلمس طريقنا مثل ريلكه، ونجرب ما يناسبنا، ونصعد السلم. لم نعد نضطر إلى الإقلاع عن الكتابة يأساً إن كانت في حينها غير ناضجة، وغير مسؤولة، وغير ملائمة، فبدلاً من معجزة هوفمنزثال، كان في وسعنا أن نكرر في أنفسنا صعود ريلكه الهادئ السويّ.

وكما كان متوقعاً، أخذنا منذ وقت طويل نكتب النثر أو الشعر، أو نلقيهما، ونؤلف موسيقا. وكل موقف عاطفي منفعل هو بالنسبة إلى الشباب غير عادي، لأن تكوينهم ليس مطبوعاً على تلقي الانطباعات فقط، بل على استنساخها بكل حيوية. فأن يحب شاب المسرح يعني أن يرغب، أو يحلم على الأقل بالعمل له أو فيه. وأن تبهره موهبة بكل صورها حالةٌ تفضي به لا محالة إلى الاستبطان، إلى محاولة استكشاف آثار تلك الجواهر النادرة، أو إمكان وجودها في جسده غير المستكشف، أو في روحه التي مازالت الغيوم تحجبها. وهكذا فإن ما حدث في صفنا تماشياً مع جو فينا، ومحددات الزمن الخاصة، هو أن الدافع إلى الإنتاج الإبداعي قد أصبح وباء سارياً بالفعل. فكل واحد منا بحث عن موهبة ما في نفسه، وبادر إلى استجلائها. رغب بعضنا في أن يكونوا ممثلين، فقلدوا أسلوب ممثلي المسرح الإمبراطوري، وواظبوا على إلقاء المقاطع والخطب، وأخذوا دروساً في التمثيل سراً، ووزعوا الأدوار خلال فترات الراحة، وارتجلوا مشاهد كاملة من الأعمال الكلاسيكية، في حين شكّل الباقون جمهوراً متطلّباً ومحباً للمعرفة. كان اثنان أو ثلاثة منا موسيقيين ذوي براعة باهرة، إلا أنهم لم يكونوا قد قرروا بعد أن يصبحوا مؤلفين، أم متخصصين، أم قادة أوركسترا. وأنا مدين لهم باطلاعي الأول على الموسيقا الجديدة التي كانت حتى ذلك الوقت مزدراة في قاعات الموسيقا الرسمية، في حين لجؤوا هم إلينا طالبين كلمات لأغانيهم وكوارسهم. وكان طالب آخر، وهو ابن رسام حديث واسع الشهرة في ذلك الوقت، يقضي ساعات في المدرسة في ملء دفاترنا بالرسوم المجملة، والصور الشخصية لكل عباقرة الصف في المستقبل. ولكن المبادرات الأدبية كانت هي الأقوى، إذ أن تحفيزنا المتبادل إلى كمال أسرع باستمرار، وتبادل النقد لكل قصيدة، قد أدّيا إلى بلوغنا، ونحن في السابعة عشرة، مستوى أعلى من مستوى هواة، وفي بعض الحالات، قاربنا بالفعل

براعة كافية حقاً. وما أثبت ذلك هو أن إنتاجنا لم تقبله صحف إقليمية مغمورة، بل المجلات النقدية المهمة للجيل الجديد. لقد قُبل، ونُشر، وكوفئ، وهذا أكثر البراهين إقناعاً. إن أحد زملائي، وهو .ph.A الذي كنت شديد الإعجاب به كنابغة، قد لمع اسمه في مجلة pan الفاخرة. وثمة زميل آخر هو .A.M، واسمه المستعار هو أوغست أوهلر، قد نال القبول في أكثر المجلات الألمانية اصطفاءً، وأصعبها بلوغاً، وهي مجلة Blutter fur die kunst التي خصّ بها ستيفان جورج حلقته المقدسة حصراً. وكتب زميل ثالث شجعه هوفمنزثال دراما عن نابليون، وكتب رابع نظرية جمالية جديدة وعدة قصائد قصيرة. أما أنا فقد قُبلت في مجلة «أنصار الحداثة» الرائدة Gessellschaft (المجتمع)، وفي مجلة ماكسمليان هاردن Zukunft (المستقبل) الأسبوعية التي كانت أكثر المجلات تحديداً للتاريخ السياسي والثقافي في ألمانيا الجديدة. وإذا التفت إلى الوراء اليوم، عليّ أن أعترف بكل موضوعية أن ما بلغناه من المعرفة، ومن تفنن في أسلوبنا الأدبي، ومن مستوى فني، قد كان في الحقيقة مذهلاً قياساً إلى سن السابعة عشرة، ولا يفسره إلا المثال الملهم لنضوج هوفمنزثال المبكر الغريب الذي دفعنا إلى بذل غاية الجهد في تقديم الأفضل من أجل الإبقاء على مظهر الاحترام في عيون بعضنا بعضاً. لقد أجدنا أفانين اللغة ومبالغاتها ومغامراتها، وعرفنا تقنيات أشكال الشعر كلها، وفي محاولات لا حصر لها جربنا كل الأساليب، من أسلوب بندار المثير للعواطف إلى أسلوب الأغنية الشعبية. وفي كل يوم كنا نشاهد أعمال بعضنا بعضاً، ونتبادل الإشارات إلى أقل النواقص، ونناقش كل تفاصيل العَرُوض. كان معلمونا الطيبون يصححون بلا ارتياب علامات الترقيم في مقالاتنا بالحبر الأحمر، وكنا نحن ينتقد بعضنا بعضاً انتقاداً يتصف بالشدة، والمعرفة الفنية، والدقة التي لم يطبقها كهنة الأدب الرسميون على روائع الأدب الكلاسيكي. وفي أعوام دراستنا الأخيرة، تجاوزنا النقاد الموظفين المشهورين في التقويم المحترف، والقدرة على التعبير الأدبي.

إن هذا الوصف الواقعي الأمين لنضوجنا الأدبي المبكر قد يحمل على الظن أن صفنا كان معجزة من المعجزات. لا، أبداً! ففي ذلك الوقت كان يمكن أن يرى المرء الظاهرة ذاتها، والتشدد ذاته، ونضوج الموهبة قبل الأوان ذاته، في مدارس عديدة في فيينا. وهذا لم يكن مصادفة على الإطلاق، بل حصيلة جو مؤاتٍ على نحو خاص،

مشروط بالتربة الفنية للمدينة، والمرحلة غير السياسية، وبروز كوكبة من المواهب الفكرية، والتوجه الأدبي الجديد عند منعطف القرن، إضافة إلى ارتباطه الوثيق بإرادة الإبداع المتأصلة فينا، والتي تختص بها تلك المرحلة من العمر. إن الشعر، أو الميل إلى الشعر يستحوذ على البالغين، وبالطبع يكون مثل موجة عابرة عادةً، ولا يستمر مثل هذا الميل بعد سن الشباب إلا نادراً، بما أنه في ذاته ليس إلا فيضاً من فيوض تلك السن. إن أحداً من ممثلي صفنا الخمسة لم يصبح ممثلاً بالفعل، وشعراء مجلتي pan و Blutter fur die kunst قد أصبحوا بعد بداياتهم المدهشة محامين أو موظفين ذوي وقار، ولعلهم اليوم يبتسمون ساخرين أو مكتئبين من مطامحهم السابقة. ومن الجماعة كلها، أنا الوحيد الذي بقي الميل إلى الإبداع فيه، وأصبح معنى حياته وجوهرها. ولكن كم أنا شاكر تلك الصحبة! كم مرّنت يدي وعصبي تلك المناقشاتُ النارية، وتلك المنافسة العنيفة، وذانك الإعجاب والنقد المتبادلان! كم وسّعت وعمّقت رؤيتي لعالم الفكر! وكم منحتنا كلنا أجنحة للارتفاع فوق خواء مدرستنا وبؤسها! كم ترددت أغنية شوبيرت الخالدة: «أيها الفن النبيل! كم مرة عندما يهزّني الأسى...» تخيلت تلك الصحبة على مقاعد مدرستنا البائسة متهدلي الأكتاف. ثم عائدين منها بوجوه منفعلة متوهجة ونحن ننتقد القصائد ونلقيها، ناسين تماماً قيود الزمان والمكان جميعاً «في عالم أفضل لم يولد بعد» حقاً.

إن هذا الولع المفرط التركيز بالفن، وهذه التقويم المغالى فيه للجمال، واللذين بلغا درجة السخف، لم يكن ممكناً أن يوجدا على حساب اهتمامات عمرنا العادية. وحين أتساءل اليوم: متى أتيحت لنا قراءة كل تلك الكتب في الوقت الذي كانت فيه أيامنا مكتظة بالواجبات المدرسية والدروس الخاصة، يتضح لي أنها كانت على حساب نومنا، وبالتالي على حساب قوتنا البدنية. فرغم اضطراري إلى الاستيقاظ في السابعة، كنت لا ألقي كتابي قبل الساعة الواحدة أو الثانية صباحاً. إن اعتيادي السيئ أن أقرأ ساعة أو ساعتين مهما تأخرت في النوم قد لازمني منذ ذلك الزمن. ولا أذكر أنني انطلقت مسرعاً إلى المدرسة إلا بنوم قليل، ووجه لم يغسل تماماً، ألتهم لفيفة الفطور وأنا راكض، فلا عجب أن نبدو رغم اهتماماتنا الثقافية منهكين شاحبين مثل ثمرة غير

ناضجة. والأكثر من ذلك هو أن ثيابنا كانت رثة بعض الشيء، لأن مصروف الجيب كنا ننفقه كله على المسرح، أو حفلات الموسيقا، أو الكتب. ومن ناحية أخرى لم نكن نقيم وزناً للفتيات وإرضائهن، بما أننا كنا نفكر في استرضاء المحاكم العليا. كان يبدو لنا أن السير مع فتاة مضيعة للوقت، لأننا منذ البداية اعتبرنا الجنس الآخر أدنى منا عقلياً، ولم نرغب في تبديد ساعاتنا النفيسة في محاورات عقيمة. واليوم لا يتيسر إفهام الشباب ما بلغه تجاهلنا للرياضة، وحتى ازدراؤها، على أن نهاية القرن لم تكن قد شهدت بعد وصول الموجة الرياضية إلى قارتنا من إنكلترا، ولم تكن قد أُنشئت بعد ملاعب يتحمس فيها مئات آلاف من الناس ويبتهجون عندما يضرب ملاكم ذقن ملاكم آخر. كما أن الصحف لم تكن تبعث مراسلين لكي يملؤوا أعمدتها بالتقارير الهوميرية Homeric الجذلة عن لعبة هوكي. كانت المصارعة، والنوادي الرياضية والأرقام القياسية للملاكمين من الوزن الثقيل مازالت تعتبر في زماننا شيئاً يخصّ المدينة البعيدة، وكان جمهورها يتألف في الحقيقة من اللحّامين والحمّالين. وفي أحسن الأحوال، كانت رياضة السباق الرائعة والأكثر أرستقراطية تجتذب ما كان يسمى «أعيان المجتمع» إلى المضمار عدة مرات في السنة، ولكنها لم تقدر على اجتذابنا، نحن الذين ازدرينا كل نشاط جسدي على أنه تبديداً للوقت. وحين أصابتني هذه العدوى الفكرية الأدبية وأنا في الثالثة عشرة من عمري، توقفت عن التزلج، وأخذت أشتري كتباً بالمال الذي خصصه والدي لدروس الرقص. وفي سن الثامنة عشرة، لم أكن قد أجدت بعد السباحة أو الرقص، أو لعب التنس ـ ولا أزال حتى اليوم لا أستطيع أن أركب دراجة، أو أسوق سيارة ـ وكان أي ولد في العاشرة من عمره يستطيع أن يجعلني أخجل في كل أنواع الرياضة. وحتى الآن (١٩٤١) ما زال يلتبس علي الفرق بين البيسبول، وكرة القدم، والهوكي، والبولو، وتبدو لي صفحة الرياضة في الصحيفة المبهمة الأرقام كأنها مكتوبة بالصينية. وفيما يتعلق بالأرقام القياسية للسرعة والقدرة كان لي على الدوام رأي يشبه رأي شاه إيران الذي ردّ رداً فيه حكمة الشرق عندما دُعي إلى حضور سباق الخيل في ديربي Derby: «لماذا؟ أعلم أن الخيول تتفاوت في سرعة العدو، ولا يهمني أيها أسرع.» كنا نزدري قضاء الوقت في الألعاب، وفي تدريب أجسادنا، على السواء، ولم يجد حظوة عندنا إلا الشطرنج لأنه يتطلب جهداً ذهنياً. و الأسخف من ذلك هو أننا لم

نهتم إلا قليلاً بالطبيعة مع أننا كنا نشعر أننا شعراء المستقبل. ففي أعوامي العشرين الأولى لم أشاهد عملياً أياً من الأماكن الرائعة حول فيينا، كانت تستهوينا على نحو خاص أيام الصيف الدافئة الرائعة، وذلك لأن المدينة في تلك الأيام كانت تغدو خالية، فنحصل على مزيد من الصحف والمجلات في المقاهي. ويكون الحصول عليها أسرع. إن أعواماً وعقوداً قد انقضت قبل أن أصل إلى اتزان في انفعالي المتلهف الساذج، وأن أتغلب على افتقاري إلى الرشاقة الجسدية. ولكن الأمر البالغ الأهمية هو أنني لم أندم قط على تشددي في المرحلة الثانوية ـ العيش حسبما ترتئي، وعلى أعصابك. لقد أشربتني تلك المرحلة شغفاً بالفكر لا أرغب أبداً في افتقاده، فعلى أساس تلك الأعوام يقوم كل ما قرأته وتعلمته منذ ذلك الوقت. إن ما يفوت عضلات المرء يمكن تعويضه فيما بعد، أما الإقبال على الفكر، وطاقة الروح على الاستيعاب، فإنهما يشرعان في التحرك في تلك السنوات الحاسمة المكوِّنة، وليس إلا من تعلم أن ينشر روحه على نطاق واسع يمكن أن ينطوي فيه العالم كله.

كان كل شيء جديد يتهيأ في الفنون، شيء أشد عاطفة، وأكثر إشكالاً، وأقوى إغراء من كل ما أرضى آباءنا والعالم المحيط بنا، وذلك الشيء هو التجربة الخاصة التي عشناها في أعوام الصبا. وبما أن هذا الوجه من وجوه الحياة قد فتننا، فإننا لم نلحظ أن هذه التحولات في الحقل الجمالي لم تكن إلا اتجاهات تؤذن بتغيرات بعيدة الأثر ستهزّ عالم آبائنا الآمن، ثم تدمره أخيراً. إن تحولاً ملحوظاً قد أخذ يتهيأ في النمسا، بلدنا القديم الغافي. فالجماهير التي أقرّت في صمت وانصياع للطبقات الوسطى الليبرالية بالقيادة عقوداً من الزمن، بدأت تتململ فجأة، وتنظِّم نفسها، وتطالب بحقوقها. والسياسة لم تقتحم هبّاتها الشديدة المفاجئة عيشنا الليّن الهادئ إلا في العقد الأخير فقط. كان القرن الجديد يحتاج إلى نظام جديد، إلى عهد جديد.

كانت الحركة الاشتراكية أولى هذه الحركات الشعبية الكبيرة في النمسا. فحتى ذلك الوقت كان ما يُسمّى خطأ «الاقتراع العام» غير متاح إلا للأغنياء الذين كان عليهم أن يثبتوا قدرتهم على رفع الحد الأدنى المقرر للضريبة. والمحامون ومالكو الأرض المختارون من هذه الطبقة كانوا لا يرتابون في صحة تمثيلهم «الشعب» في البرلمان، والنطق باسمه. كانوا يتباهون بأنهم متعلمون ـ بعضهم تلقّى تدريباً أكاديمياً ـ

ويقيمون وزناً للكرامة واللياقة والبيان الجديد، ولذلك فإن جلسات البرلمان كانت أشبه بالمناقشات المسائية في نادٍ حديث. وبسبب الإيمان الليبرالي بالتقدم المستمر للعالم على قاعدة العقل والتسامح، فإن ديمقراطيي الطبقة الوسطى هؤلاء قد اعتقدوا اعتقاداً صادقاً أن التنازلات القليلة والتحسينات المتدرجة من شأنها أن تزيد من رفاهية الرعايا جميعاً على أفضل نحو ممكن. ولكنهم نسوا تماماً أنهم لم يكونوا يمثلون إلا خمسين ألف، أو مئة ألف من سكان المدن الكبيرة ذوي الأوضاع الحسنة، وليس مئات الألوف والملايين من سكان البلاد كلها: كانت الآلة في أثناء ذلك قد فعلت فعلها، وجمعت العمال المتفرقين سابقاً حول الصناعة. وتحت قيادة رجل بارز هو الدكتور فيكتور أدلر أنشئ حزب اشتراكي في النمسا من أجل تقوية مطالب البروليتاريا التي طالبت باقتراع عام حقاً. ولم يُمنح حق التصويت لكل الناس، أو بالأحرى أُحرز بالقوة، حتى اتضح كم كانت طبقة الليبرالية رقيقة رغم قيمتها العالية. ومع اتضاح ذلك اختفى التوافق من الحياة السياسية العامة وتصادمت المصالح، ثم ابتدأ الصراع.

ولا أزال أذكر من طفولتي المبكرة ذلك اليوم الذي حدّد نقطة التحول في صعود الحزب الاشتراكي في النمسا. فمن أجل أن يظهر العمال قوتهم وعددهم أول مرة، صرحوا أن الأول من أيار سوف يُعلن يوم عطلة للعمال، وأنهم سوف يسيرون أنساقاً متقاربة في بريتر، الشارع العريض الجميل الذي تصطف على جانبيه أشجار الكستناء، ولا تظهر فيه إلا عربات الأرستقراطية، والطبقات الوسطى الغنية. كان لهذا الإعلان وقع الصاعقة على هذه الطبقات. اشتراكيون! كان للكلمة مذاق متميز، مذاق الدم والرعب في ألمانيا والنمسا يوم ذاك مثل مذاق كلمة «يعقوبي» سابقاً، و«بلشفي» منذ ذلك الحين. كان الاعتقاد في البداية أن هؤلاء الرعاع الآتين من الضواحي لا يمكن أن ينفذّوا مسيرتهم من غير أن يشعلوا النار في المنازل، وينهبوا الحوانيت، ويرتكبوا كل أنواع الفظاعات المتخيلة. عمّ الذعر، فاتخذت شرطة المدينة وما جاورها مواقعها في شارع بريتر، واحتياطاً للأمر جيء بالجند متأهبين لإطلاق النار. لم تجرؤ أي عربة على الاقتراب، والتجار أنزلوا مصاريع الحديد أمام دكاكينهم، وأذكر أن آباءنا منعونا منعاً باتاً من الخروج إلى الشوارع في ذلك اليوم الرهيب الذي ربما يشهد اشتعال فيينا. ولكن لم يحدث شيء. سار العمال في بريتر مع زوجاتهم وأولادهم في صفوف متقاربة

أربعة أربعة بانضباط مثالي، وقد وضع كل واحد منهم زهرة قرنفل في فتحة زره رمزاً للحزب. وغنوا في أثناء سيرهم «النشيد الأممي»، والأولاد الذي كانت أقدامهم تطأ مرج نوبيلاي Nobelallee الجميل، أنشدوا الأغاني المدرسية السعيدة. لم يتأذَ أو يُضرب أحد، ولم تنطبق كف، وابتسم الجنود والشرطة لهم كرفاق. وبفضل هذا السلوك الواعي، لم تعد الطبقات الوسطى قادرة على وسم العمال بالرعاع الثوريين، ثم توصلوا إلى تنازلات متبادلة كما هي الحال دائماً في النمسا القديمة الحكيمة. إن نظام القمع والاستئصال في الوقت الحاضر لم يكن قد اكتشف بعد، والمثل الأعلى الإنساني كان حياً حتى بين القادة السياسيين، مع أنه كان قد أخذ يتلاشى.

ولم تكد زهرة القرنفل الحمراء تظهر كرمز لحزب، حتى أخذت زهرة أخرى تظهر في فتحات الأزرار هي زهرة القرنفل البيضاء، علامة العضوية في الحزب المسيحي الاجتماعي! (ألا يؤثّر في النفس أن الأزهار مازالت في ذلك الوقت تُختار شعارات للأحزاب بدلاً من الجزمات، والخناجر، والجماجم؟). لم يكن الحزب المسيحي الاجتماعي الذي كان يمثل الفئات الدنيا من الطبقة الوسطى إلا نظيراً عضوياً للحركة العمالية في واقع الأمر، فهو قد كان مثلها في جوهر الأمر نتاج انتصار الآلة على الحرف اليدوية. ففي الوقت الذي جمعت فيه الآلة أعداد كبيرة من العمال في المصانع، وجعلتهم قوة اجتماعية صاعدة، فإنها قد هددت بالخطر الحرف اليدوية الصغيرة. كانت المتاجر المتنوعة الأقسام، والإنتاج الكبير دماراً للبرجوازية، وأرباب العمل الصغار، والصناعة اليدوية. والدكتور كارل لوجر، القائد الشعبي القدير الذي سيطر على الاضطراب والتململ، ورفع شعار: «يجب مساعدة الإنسان الصغير»، ضمّ إليه كل البرجوازية الصغيرة، والطبقة الوسطى الساخطة، اللتين كان حسدهما للأغنياء أقل وضوحاً من خوفهما من الانحدار إلى مواقع البروليتاريا. وهذه الجماعات القلقة هي نفسها التي جمع أدولف هتلر منها أنصاره الأقوياء في البداية. وكان كارل لوجر نموذجه الأصلي أيضاً في أمر آخر، فهو قد علّمه فائدة شعار معاداة السامية الذي وضع عدواً أمام عيون الطبقات البرجوازية العريضة، وفي الوقت ذاته صرف كراهيتها من غير أن تعي ذلك عن كبار ملاكي الأراضي، والإقطاعيين الأغنياء. وابتذال السياسة الحاضرة وفظاظتها توضحهما المقارنة بين هاتين الشخصين تماماً. كان كارل لوجر بلحيته الشقراء

الناعمة شخصاً مهيباً ـ سمّاه أهل فيينا «كارل الوسيم». وكان قد تعلم في الجامعة في عصر كان يضع الثقافة الفكرية فوق كل شيء، وذهابه إلى المدرسة لم يكن بلا جدوى. كان يحسن الكلام المؤثر في الناس، ويتصف بالحماسة وحضور البديهة. ولكن حتى في أكثر الخطب انفعالاً ـ أو تلك التي كان يُعتقد أنها حادة آنذاك على الأقل ـ لم يكن يتعدّى حدود اللياقة. أما منتدبه شنايدر، الميكانيكي الذي قام بالجرائم الطقسية وغيرها من الأعمال الفظيعة، فقد كان خاضعاً للرقابة. كان لوجر متواضعاً، ولم يفعل في حياته الخاصة ما استحق عليه اللوم. واحتفظ دائماً بنوع من الشهامة حيال خصومه، ومعاداته الرسمية للسامية لم تمنعه من مدّ يد العون لأصدقائه السابقين من اليهود. ولما استولت حركته على مدينة فيينا، وعُيّن عمدة، بعد أن رفض الإمبراطور فرانسيس جوزيف الموافقة على ذلك مرتين (كان ينفر من الميول المعادية للسامية)، بقيت إدارته للمدينة عادلة تماماً، وحتى نموذجية في ديمقراطيتها. واليهود الذين أقلقهم هذا الانتصار للحزب المعادي للسامية، واصلوا حياتهم متمتعين بما تمتعوا به حتى ذلك الوقت من تقدير وحقوق. إن سموم الكراهية، والرغبة في التدمير المتبادل الفظيع، لم تكن قد جرت بعد في عروق العصر.

ولكن ما لبثت أن ظهرت زهرة ثالثة هي زهرة القنطريون الزرقاء، زهرة بسمارك المفضلة، وشعار الحزب القومي الألماني الذي كان حزباً ثورياً ـ مع أنه لم يتميز بذلك حينئذ ـ وعمل بكل قوة وقسوة من أجل تدمير النظام الملكي النمساوي، وقيام ألمانية العظمى تحت قيادة بروسية بروتستانتية كالتي حلم بها هتلر. وفي حين رسا الحزب المسيحي الاجتماعي في المراكز الصناعية في فيينا وسائر أنحاء البلاد، فإن الحزب القومي الألماني كسب أنصاراً في بوهيميا، ومناطق الألب الحدودية، ولجأ إلى الاعتداء العنيف، والوحشية المنفلتة تعويضاً عن ضعفه العددي، وانعدام الأهمية. وممثلوه القلائل أصبحوا رعب البرلمان النمساوي وعاره (بالمعنى القديم). وهتلر الذي كان من منطقة حدود أيضاً قد نشأ في بيئة أفكارهم وأساليبهم. فقد اقتبس من جورج شونرر صيحة: «انطلقوا من روما!» وفي ذلك الوقت، احتذى آلاف القوميين الألمان بانصياع ألماني حذوه بالتحول من الكاثوليكية إلى البروتستانتية إزعاجاً للإمبراطور ورجال الدين. وأخذ هتلر عنه النظرية العنصرية المعادية للسامية أيضاً. قال نموذجه الأصلي

الشهير: «في ذلك العرق تكمن القذارة.» ولكن الأهم من كل ذلك هو أنه أخذ عن القوميين الألمان إنشاء جند العاصفة القساة الذين كانوا يضربون ضربات عمياء في كل الاتجاهات، ومعهم بدأت مجموعة صغيرة تمارس الإرهاب على أغلبية أكثر عدداً، وأكثر سلبية من الناحية الإنسانية. إن ما أنجزه للاشتراكيين القوميين «جند العاصفة» الذين فضّوا الاجتماعات بهراوات مطاطية، وانقضوا على خصومهم ليلاً، وألقوهم على الأرض، قد كفلته للقوميين الألمان روابط الطلبة (نوادٍ وجمعيات ذات ألوان وشعارات متمايزة من مثل القبعات والشرائط) التي شنّت حملة من العنف لا نظير لها تحت غطاء الحصانة الجامعية، وانتظمت في ميليشيات جاهزة للمسير عند كل واقعة سياسية. وبعد أن تشكلوا جماعات من ذوي الوجوه المندّبة و السكارى والأفظاظ، سيطروا على قاعة الجامعة الكبيرة من غير أن يلبسوا قبعات وشرائط كالآخرين، إنما كانوا مسلحين بعصيّ صلبة ثقيلة.وبما أن عدوانهم لم يتوقف، فقد هاجموا الطلاب السلافيين و اليهود و الكاثوليك و الإيطاليين بالتناوب، وأخرجوهم من الجامعة من غير أن يدافع عنهم أحد. كان الدم يراق في كل مرة يخرج فيها الطلاب للتسكع (كما دُعي صخبهم يوم السبت). ولأن الجامعة قد تمتعت بامتياز قديم، فإن رجال الشرطة لم يُسمح لهم بالدخول إلى القاعة كبيرة، فاضطروا إلى مراقبة التخريب الذي كان يقوم به أولئك المشاكسون الجبناء، وإسعاف الجرحى الذين كان يُرمى بهم على الدرج ثم إلى الشارع. كان حزب القوميين الألمان، هذا الحزب الصغير المرتفع الصوت، يرسل هؤلاء الطلاب من قوات العاصفة إلى أي مكان في النمسا. كلما رغب في الحصول على شيء بالقوة. ولما أعدّ الكونت باديني بعد موافقة الإمبراطور والبرلمان مرسوماً للغة يرمي إلى إقامة السلام بين الجماعات القومية في النمسا ،هذا المرسوم الذي كان من الممكن أن يطيل عمر الملكية عقوداً من الزمن، احتلت هذه الحفنة من الشباب المتهورين الشارع الدائري، فاستدعيت قوات الفرسان، واستُلت السيوف وأُطلقت النار. ولكن ذلك العهد الذي اتصف بالضعف المأساوي، والعطف الإنساني، كان شديد الكراهية لأي اضطراب عنيف، أو سفك دماء، بحيث أن الحكومة قد استقالت في وجه الإرهاب الألماني القومي، واستقال رئيس الوزراء، ثم أُلغي مرسوم اللغة الجديد بكل ثناء. وهكذا أحرز اجتياح العنف للسياسة أول انتصاراته، وانفتحت واتسعت مرة أخرى الصدوع والشروخ

المتوارية بين الطبقات والأعراق، والتي عمل عهد التوافق على ترميمها، وتحولت إلى مهاوٍ وفجوات عميقة. إن حرب الجميع ضد الجميع قد ابتدأ في الحقيقة خلال العقد الأخير الذي سبق القرن الجديد.

وبما أن المطامح الأدبية كانت تشغلنا تماماً، نحن الشباب، فإننا لم نلحظ إلا القليل من هذه التغيرات الخطرة في بلادنا. كنا لا نرى إلا الكتب واللوحات، ولا نهتم بالسياسة والمشكلات الاجتماعية أقل اهتمام. ما الذي كانت تعنيه في حياتنا هذه المشاجرات العنيفة؟ كانت المدينة تستيقظ عند إجراء الانتخابات، ونمضي نحن إلى دور الكتب، وتستفيق الجماهير ونحن نكتب الشعر ونناقشه. لم نشاهد أي علامات نارية على الجدار، و مثل الملك بلشصّر في غابر الزمان، ألهتنا أطباق الفن الفاخرة عن النظر القلق إلى المستقبل. ولم ندرك إلا بعد عقود، وحين تهاوى السطح والجدران علينا، أن الأسس قد نُسفت منذ أمد طويل، وأن انحطاط الحرية الفردية قد ابتدأ في أوروبا مع حلول القرن الجديد.

الفصل الثالث

أول الشباب

خلال الأعوام الثمانية التي قضيناها في المدرسة الثانوية، طرأ علينا أمر ذو أهمية شخصية بالغة، وهو أننا بلغنا، نحن الذين كنا في العاشرة من عمرنا، سن السادسة عشرة، والسابعة عشرة، والثامنة عشرة، أي أصبحنا شباناً مكتملي الرجولة، وبالتالي أخذت «الطبيعة» التي جُبلنا عليها تؤكد حقوقها. إن صحوة سن البلوغ تبدو شأناً خاصاً تماماً على كل بالغ أن يتعامل معه على طريقته، ويبدو للوهلة الأولى أنه لا يصلح للمناقشة العامة مطلقاً. وبقدر ما تعلق الأمر بنا، فإن تلك الأزمة قد تعدّت مجالها الخاص، إذ أنها أدّت في الوقت ذاته إلى صحوة ذات معنى آخر. فلقد علّمتنا أول مرة أن نكون أكثر انتقاداً للمجتمع وتقاليده. والصغار ميّالون في البداية إلى التكيف مع قوانين بيئتهم احتراماً لها، ولكن امتثالهم المطلوب للتقاليد لا يدوم إلا إذا رأوا كل واحد غيرهم يراعيها مراعاة صادقة. وأي كذب من جانب المعلمين أو الآباء يدفع الشاب إلى النظر إلى محيطه نظراً مرتاباً، وبالتالي أكثر حدة. ولم نلبث نحن أن اكتشفنا أن السلطات التي وثقنا بها سابقاً ـ المدرسة، والأسرة، والأخلاق العامة ـ تبدي نفاقاً مدهشاً في مسألة الجنس، إضافة إلى أنها كانت تطلب منا أن نكتم هذا الأمر، ونتحفظ منه.

كان رأي الناس منذ ثلاثين، أو أربعين سنة، مختلفاً عن رأيهم الآن في هذه الأشياء. ومن الممكن تماماً ألا يكون مجال من مجالات الحياة العامة قد أحدثت مجموعة عوامل تغيراً كاملاً فيه خلال جيل واحد كالذي أحدثه في مجال العلاقة بين الجنسين تحريرُ المرأة، وتحليلُ فرويد النفسي، والثقافةُ البدنية، واستقلالُ الشباب. وإذ حاولنا التفريق بين أخلاق الطبقة الوسطى في القرن التاسع عشر، والتي كانت

فيكتورية في جوهرها، والآراء المعاصرة الأكثر تحرراً وبساطة، فقد نكون أكثر دقة إذا قلنا: إن تلك المرحلة قد تحاشت المشكلة الجنسية لانعدام اليقين. والعصور الدينية السابقة التي مازالت محترمة، ولاسيما عصر مذهب التطهر الصارم، قد يسّرت هذه المسألة على الناس. أما في العصور الوسطى، فإن السلطات الراسخة الإيمان بأن الرغبة الحسية هي لسعة الشيطان، وأن الشهوة الجسدية خاطئة وغير طاهرة، قد عالجت هذه المشكلة بالتحريم الصريح، وفرضت أخلاقها المتزمتة وعقوباتها القاسية، ولاسيما في فيينا الكالفينية Calvinist. وبما أن عصرنا لم يعد يؤمن بالشيطان، ولا يؤمن بالله إلا قليلاً، فقد كان غير ميّال إلى إجراءات الحِرْم المتطرفة تلك، واعتبر النشاط الجنسي عنصراً فوضوياً، وبالتالي مزعجاً، لذلك لم يشغل مكاناً في نظامه الأخلاقي، ولم يُسمح له بأن يرى ضوء النهار، لأن كل أشكال الحب الحر الذي يتمّ خارج الزواج كان متعارضاً مع «احتشام» الطبقة الوسطى. وتفادى العصر هذه المعضلة بابتكار تسوية لافتة للنظر. فهو لم يمنع الشاب من ممارسة حياته الجنسية، بل طلب منه أن يحرص على ستر هذا الموضوع المزعج قدر المستطاع. فإذا كان التخلص من الطاقة الجنسية أمْراً غير معقول، فلابد إذاً من حجبها عن عالم الأخلاق. وهكذا تم التوصل إلى اتفاق غير معلن على عدم ذكر هذه القضية المزعجة في المدرسة، أو في الأسرة، أو أمام الناس، وعلى كبت كل ما يخطر بالبال.

ومنذ زمن فرويد، عرفنا نحن أن من يكبت وعي الرغبات الطبيعية لا يخفق فقط في التخلص منها، بل يزيحها إزاحة خطرة إلى الوعي الباطن، لذلك يسهل علينا أن نضحك من ذلك الاستتار الساذج الدالّ على جهل. ولكن القرن التاسع عشر توهّم أن كل التناقضات ممكنة الحل بالعقلنة، وأننا كلما أخفينا طبائعنا، زادت قدرتنا على تلطيف طاقاتنا الجامحة. ولذلك، فإن الشباب سوف ينسون دوافعهم الجنسية، إذا لم يتم تنوير وجود هذه القوى لهم. فالمدرسة، والكنيسة، والصالون والقصر، والصحف والكتب، والعادات وأنماط العيش، قد تنكّبت من حيث المبدأ عن أي ذكر للمشكلة. وحتى العلم الذي كان ينبغي أن تكون مهمته الحقيقية مقاربة كل المشكلات مقاربة غير متحيزة، أقرّ إقراراً مخجلاً بأن «الطبيعة خسيسة». وسوّغ العلم هذا الاستسلام بأن معالجة مثل هذه الموضوعات غير اللائقة لا ترقى إلى اهتماماته السامية. ولو

استعرضنا كتب تلك الأوقات لوجدنا أن الكتب الفلسفية والقانونية وحتى الطبية تحاشت أي تلميح إلى الموضوع تحاشياً متسقاً وكثير الوساوس. ولما كان أساتذة القانون الجنائي يتحاورون في اجتماعاتهم حول طرائق أكثر إنسانية في السجون، وحول الآثار الأخلاقية المؤذية للحجز هناك، كانوا يمرّون على أهم مشكلة باستحياء. كما أن أطباء الأعصاب لم يجرؤوا على الاعتراف بالأوضاع القائمة مع أنهم كانوا في أحوال كثيرة مطلعين تماماً على أسباب بعض الاضطرابات العصبية. وقد كتب فرويد أن معلمه شاركو Charcot قد أسرّ إليه بأنه لم يتكلم علناً قط عن السبب الصحيح رغم علمه به. وكان الأجدر بما يسمى «الآداب الجميلة» على الأقل أن تجرؤ على تصوير هذه الأشياء تصويراً صادقاً، وذلك لأن المجال الذي خُصص لها هو الجمال الفني وحده. ففي حين أن الكاتب في القرون السابقة كان لايخشى تقديم صورة ثقافية صادقة وشاملة عن عصره، وأننا مازلنا نلاقي في كتابات ديفو، والأب بريفو، وفيلدلنغ، ورتيف دو لابريتون وصفاً صريحاً للظروف كما كانت بالفعل، فإن مرحلتنا اعتقدت أنها لا تستطيع أن تصور إلا «المفرط العاطفة» و«السامي» وليس المؤلم والصحيح. لذلك لا نجد في أدب القرن التاسع عشر شيئاً ذا قيمة عن مخاطرات شباب المدن وظلالهم وارتباكاتهم. فلئن تجاسر كاتب على ذكر البغاء، ظنّ أنه محتاج إلى تفخيمه، وإلى تعطير البطلة وكأنها كاميليا حقيقة. وهكذا تواجهنا واقعة مذهلة وهي أن الشاب يرغب الآن في أن يعرف كيف شق الشباب طريقهم في الحياة في القرن الماضي، وحتى في القرن الذي قبله، فيتناول روايات كبار الكتاب في تلك الأزمان من مثل ديكنز، وثاكري، وجوتغريد كيلر، وبيارسون ـ مع استثناء تولستوي ودوستويفسكي اللذين يقفان خارج المثالية الأوروبية الزائفة ـ لن يجد في تلك الروايات إلا وصفاً لأحداث مصعّدة وملطفّة، لأن ضغوط العصر قد حرمت ذلك الجيل كله من حرية التعبير. ولا شيء يبيّن فرط حساسية نظام أخلاق أجدادنا، وجوّه المستغرب، أكثر من اعتباره حتى هذا التحفظ الأدبي ليس كافياً. هل يمكن أن نفهم حظر القضاء الفرنسي رواية موضوعية مثل «مدام بوفاري» لاعتبارات الحشمة، واعتبار روايات زولا ماجنة أيام كنا شباباً، وإثارة حتى كاتب هادئ وملحمي مثل توماس هاردي عواصف من الغضب في إنكلترا وأمريكا؟ إن أعمال أولئك الكتاب قد كشف جوانب كثيرة من الواقع على الرغم من تحفظها.

ولكننا نشأنا في هذا الجو الدبق المعطّر الخانق غير الصحي. وهذا الجو الزائف المفتقر إلى المعرفة النفسية قد ران علينا كالكابوس. وبما أن الوثائق الأدبية والثقافية غير متوافرة بسبب شمولية هذا الاستتار، ربما يصعب علينا إعادة تجميع ما أصبح الآن غير مفهوم. ومع ذلك يوجد مفتاح للمسألة. علينا أن ننظر إلى الأزياء ليس غير. لأن أزياء أي عصر تكشف لنا أخلاقه أيضاً عن غير قصد من خلال اتجاهات ذوقها البصري. وليس بالمصادفة اليوم،أي في عام ١٩٤١، أن يستغرق في الضحك جمهور المدن والقرى في أوروبا وأمريكا عندما يشاهد أزياء الناس في عام ١٩٠٠ على شاشة السينما. و حتى السذّج في هذه الأيام يضحكون منها كما يضحكون على صور كاريكاتيرية. و تلك الأشكال الغريبة للناس في الماضي تجعلهم يبدون كالبلهاء الذين ارتدوا ملابس غير طبيعية، وغير مريحة، وغير صحية، وغير عملية. و حتى نحن الذين رأينا أمهاتنا وعماتنا وأصدقاءنا في تلك الأزياء المضحكة (فضلاً عن أننا نحن أنفسنا كانت ثيابنا مدعاة للضحك) يبدو لنا إذعان جيل كامل لمثل تلك الأزياء السخيفة بلا تذمر مثل حلم شبحي. إن أزياء الذكور وحدها ـ الياقة العالية المنشّاة، هذه «الخانقة» التي تجعل كل حركة سهلة غير ممكنة، والسترة السوداء الطويلة المزررة ذات الحواشي المرفرفة، والقبعات العالية مثل أنبوب المدفأة- هي باعثة على المرح، فضلاً عن «سيدة» ذلك الماضي في ثيابها المتحرّزة المعقّدة التي تنتهك «الطبيعة» في كل تفاصيلها! كان جسمها مخصّر الوسط مثل دبور،ومنتفخاً تحت الخصر مثل جرس هائل، وكان عنقها ملفوفاً حتى الذقن، وساقاها مستورين حتى أصابع القدمين ،وخصلات شعرها وضفائرها العديدة تحت قبعة هائلة مهيبة التمايل، ويداها مغلّفتين في قفّازين حتى في أشد أيام الصيف حرارة. إن هذه «السيدة» التي مضى على وجودها زمن طويل قد كانت إنسانة تعيسة، وضعيفة ضعفاً مثيراً للشفقة على الرغم من الحلي التي تزيّنت بها، والعطر الذي أحاط بها، والشرائط والكشاكش و غيرها من الزينات الثمينة. ويدرك المرء من النظرة الأولى أن هذه المرأة التي التفّت في هذه الحُلّة مثل فارس مدرع لم تعد تستطيع أن تتحرك حركة حرة وخفيفة ورشيقة، فاتسمت بالتكلف والتصنع كل حركة من حركاتها، وكل إشارة من إشاراتها، وبالتالي مجمل سلوكها. وإن مجرد تبرج هذه «السيدة» ـ فضلاً عن تربيتها الاجتماعية ـ أي لبس هذه

الأثواب وخلعها، كان إجراء مزعجاً، ومستحيلاً من دون عون الآخرين. كان لا بد في البداية من تثبيت عدد كبير من الأزرار والعرى على ظهرها من الخصر حتى العنق، وإحكام الوصيفة سحب المشدّ بكل قوتها. أما شعرها الطويل (هل لي أن أذكّر الشباب أن النساء في أوروبا كن منذ ثلاثين سنة خلت يرسلن شعورهن حتى الخصر باستثناء عشرات الطالبات الروسيات؟) فقد كان يمشّط، وينظّف بالفرشاة، ويسبل، ويكدّس بالاستعانة بالكثير من الدبابيس والمشابك والأمشاط، إضافة إلى مكواة المزّين و معاقصه التي كان يأتي بها كل يوم، كل ذلك كان يتم قبل أن تشتمل بالتنانير والأثواب، والسترات والصدرات مثل صحائف متباينة من الورق، إلى أن يختفي تماماً كل شكلها الأنثوي والشخصي. ولكن هذا العمل الأحمق كان له سبب خفيّ. كان ينبغي إخفاء خطوط جسد المرأة تماماً بحيث لا يستطيع عريسها في وليمة العرس أن يعرف إن كانت شريكة حياته في المستقبل حدباء أم منتصبة القامة، سمينة أم نحيفة، وذات ساقين قصيرتين أم متقوستين، أم طويلتين. ولم تكن هذه المرحلة «الأخلاقية» لتعتبر أمراً غير جائز إبراز الصدر والشعر واستعمال الحركة الخفيفة للخداع، أو للتكيف مع المثل الأعلى الشائع للجمال. كانت هيئة المرأة الطبيعية تحتجب كلما اتخذت هيئة «سيدة». وبحسب هذا الدافع الظاهر، فإن الزيّ الدارج كان بالأساس يمتثل للنزعة الأخلاقية العامة للعصر الذي كان الاستتار والتنكّر شغله الشاغل.

ولكن هذا النظام الأخلاقي السديد قد نسي تماماً أننا إذا أغلقنا الباب دون الشيطان، فإنه يقتحم المنزل عادة من المدخنة أو الباب الخلفي. ومن ينظر اليوم نظرة أكثر تجرداً إلى هذه الأزياء التي سعت يائسة إلى ستر كل ما يُرى من الجسم لا يلفته احتشامها، بل كشفها المستفز للفرق الجذري بين الجنسين. ففي حين أن الشاب والشابة كليهما الآن طويل ونحيف، وبلا لحية، ولا شعر طويل، ومتشابه مع الآخر في المظهر إلى حد ما، فإن الجنسين في تلك الأيام كانا يتمايزان قدر المستطاع. فالرجال كانوا يرخون لحى طويلة، أو يفتلون على الأقل شارباً عظيماً، بحيث تظهر رجولتهم حتى من مسافة بعيدة، أما النساء فقد كان المشدّ الذي يبرز الصدر إبرازاً لافتاً للنظر أهم ما يميز جنسهن. كان الأقوى منهما يؤكد تفوقه على الأضعف بالمظهر المطلوب من كل منهما. فالرجل قوي وشهم، ومهاجم، والمرأة خجلة ووجلة ومدافعة، هو الصياد وهي الفريسة

بدلاً من كونهما متساويين. و هذا التمايز غير الطبيعي في العادات الخارجية قوّى التوتر الداخلي بين القطبين بالضرورة، وبالتالي فإن مجتمع ذلك الزمن قد حققت طريقته في الاستتار المفتقرة إلى المعرفة النفسية نتائج معاكسة تماماً. ففي حين أنه كان في خوفه وتظاهره بالحشمة يتعقب باستمرار البذاءة في كل أساليب الحياة والأدب والفن واللباس تفادياً لأي إثارة ممكنة، فقد حُمل في الواقع على التفكير المتواصل في الفواحش. و بما أنه بحث بلا انقطاع عن كل ما كان «غير لائق»، فقد وجد نفسه في حالة تأهب دائمة، إذ أن عالم ذلك الزمن كان يرى أن الحشمة يهددها خطر مهلك على الدوام في كل كلمة، وكل إشارة. ربما نفهم الآن أن ارتداء امرأة بنطالاً أثناء اللعب كان يُعدّ حماقة في تلك الأيام. أما إمكان تنزّه شاب وشابة من منشأ اجتماعي واحد من غير مراقبة مناسبة فقد كان أمراً لا يخطر على بال أحد، أو بالأحرى، أول ما يُخطِر في البال هو أن «شيئاً ما قد يحدث». ومثل هذه المصاحبة لم يكن مسموحاً بها إلا إذا تبعت الشابين خطوةً خطوةً وصيفةٌ، أمّاً كانت أم مربية. وحتى في أيام الصيف الشديدة الحر كان لعب الفتيات كرة المضرب في ملابس تكشف سواعدهن، وتحرر حركة أرجلهن، يُعّد فضيحة، ولما كانت سيدة مهذبة تصالب ساقيها في المجامع، كان التقليد يجد في ذلك سلوكاً غير لائق بتاتاً، لأن رسغيْ رجليها قد ينكشفان تحت حاشية ثوبها. وحتى العناصر الطبيعية: الشمس، والماء، والهواء، لم يكن يُسمح لها بأن تمسّ جلد المرأة. ففي البحر المفتوح كانت النساء تعنّيهن السباحة وهن لابسات ثياباً تغطيهن من الرأس إلى القدمين، وفي المدارس الداخلية والأديرة كان الفتيات يُرغمن على الاستحمام في قمصان بيضاء طويلة حتى ينسين أن لهن أجساداً. وليس من الأساطير ولا من المبالغات أن نقول: إن العجائز كن يمتن من غير أن يكون قد رأى أكتافهن أو رُكَبهن أحد إلا القابلة والزوج ومتولّي الدفن. وبعد أربعين سنة لا بد أن يظهر كل ذلك إما حكاية من حكايات الجن، وإما مبالغة مضحكة. ولكن هذا الخوف من كل ما هو جسدي وطبيعي قد هيمن على الناس جميعاً من أعلاهم إلى أدناهم، مع اضطراب عصبي شديد. هل مازال ممكن التصور اليوم أن النساء الجريئات اللواتي جازفن أول مرة عند منعطف القرن في امتطاء دراجة، أو حصان، قد قذفهن الفلاحون بالحجارة؟ أو أن صحف فيينا قد نشرت، وأنا طالب، مساجلات حول بدعة مقترحة بالغة الفحش، وهي

أن الراقصات في الأوبرا الإمبراطورية سوف يرقصن بلا جوارب؟ أو أن خطباً عظيماً قد وقع حين أظهرت الراقصة الكلاسيكية الممتازة إسادورا دنكان أخمصيْ قدميها أول مرة من تحت تنورتها البيضاء (التي بقيت منسدلة من حسن الحظ!) بدلاً من انتعال خفّ الحرير المعتاد؟ والآن فكّرْ في الشباب الذين ترعرعوا في هذه المرحلة وعيونهم مفتوحة، وكم بدت لهم مضحكة هذه المخاوف على الحشمة التي يهددها خطر دائم حالما اكتشفوا أن قناع نظام الأخلاق الذي ظُنّ أنه يستر كل هذه الأشياء قد كان بالياً مليئاً بالخروق، فرغم كل شيء، كان يتعذر على واحد من طلاب الثانوية الخمسين ألا يلتقي بين الحين والحين أستاذه في شارع خلفي ضعيف الإنارة، أو أن يسمع الأسرة تتحدث عن زلاّت هذا أو ذاك من الذين يتظاهرون أمامنا بالترفع. وفي واقع الأمر، لا شيء زاد من حبنا للمعرفة وأزعجه بقدر ما زادته وأزعجته مهمة الاستتار الخرقاء هذه. وبما أن كلّ ما كان طبيعياً لم يكن متاحاً له أن يأخذ سبيله في جو من الحرية والصراحة، فإن حب المعرفة في مدينة كبيرة قد أوجد مخارج له تحت الأرض ليست نظيفة تماماً. إن هذا الكبت للشباب قد أدّى إلى اشتداد الإثارة عند طبقات المجتمع كافة، وإلى استعلائها على نحو بائس وسخيف. كان من النادر أن تجد مرحاضاً أو سياجاً غير ملّوث بالكلمات والرسوم البذيئة، أو مسبحاً لم يمتلئ حائط جناح النساء فيه بالثقوب لاختلاس النظر. وازدهرت في الخفاء صناعات كاملة، ولكنها اندثرت الآن بعد أن أصبح التعامل مع المتاجر أكثر طبيعية. لقد كانت الصور «الفنية» والعارية يبيعها الباعة المتجولون في المقاهي للناشئة من تحت الطاولة. وبما أن الأدب الجاد أُرغم على أن يكون حذراً ومثالياً، فإن أدباً ماجناً من أسوأ الأنواع سُمّي «تحت المعطف» قد طُبع على ورق رديء، وكتب بأسلوب ركيك، ومع ذلك وجد جمهوراً هائلاً شأنه شأن المجلات الفاحشة. و لا يمكن اليوم أن نجد شيئاً مخزياً ومقززاً مثل ذلك الأدب وتلك المجلات. وفي مقابل المسرح الإمبراطوري الذي كان عليه أن يخدم مُثُل العصر العليا بكل نبل أهدافه، ونقائه الناصع البياض، كان هناك مسارح وملاهٍ تخصصت بالفحش حصراً. كان المكبوتون في كل مكان يبحثون عن المسالك المجهولة، وكوى الجدران، والطرق المعتسفة. وفي التحليل الأخير، فإن ذلك الجيل الذي حرمه تكلّف الحشمة من أي تنوير، ومن أي ارتباط بريء بالجنس الآخر قد كان أشد ميلاً إلى الجنس من الجيل

الشاب في هذه الأيام التي أتاحت للمحبين مزيداً من الحرية. فالممنوع وحده هو الذي يشغل الحواس، ويثير الرغبة. و كلما قلّ ما ترى العين، وما تسمعه الأذن، زاد ما يُرى في المنام. وبقدر ما يحرم الجسد من الهواء والضوء والشمس، يزداد اضطراب الحواس. وباختصار، فإن ضغط المجتمع على شبابنا لم ينجم عنه أخلاق رفيعة، بل شعوراً بالمرارة والارتياب نحو كل السلطات. فمنذ أول أيام صحوتنا، شعرنا بالفطرة بأن هذه الأخلاق المخادعة، باستتارها وتحفظها، كانت ترغب في سلبنا شيئاً يخصّنا، وإرادة الصدق عندنا قد ضُحّي بها في سبيل عرف أصبح زائفاً منذ عهد بعيد.

إن هذا «النظام الأخلاقي الاجتماعي» الذي افترض في سرّه وجود الرغبة الجنسية، ومجراها الطبيعي من جهة، ومن جهة أخرى لم يعترف بها علناً مهما كلف الأمر، قد كان مزدوج المخاتلة. ففي حين كان يغمز الشاب بالعين، وحتى يشجعه مع غيره على «بذر شوفانه البريّ»، كما كانت لغة المنزل اللطيفة تعبر عن انغماس الشاب في الملذات، فإن الشابة كانت تجهد في إغماض عينيها، وتتصرف كأنها عمياء. كان العرف يجيز للرجل معاناة الرغبات واختبارها، أما الإقرار صراحةً بأن المرأة يمكن أن تكون عرضة لرغبات مماثلة، أو بأن الخليقة تقتضي قطباً أنثوياً من أجل غاياتها الأبدية، فقد كان ينتهك «حرمة الأنوثة». ولذلك فإن الفترة التي سبقت فرويد، كانت الحقيقة المسلّم بها هي أن الأنثى ليس عندها رغبات جسدية إلا حين يوقظها الرجل، ومن الواضح أن ذلك لم يكن جائزاً إلا في الزواج. ولكن حتى في تلك الأزمنة الأخلاقية، ولاسيما في فيينا، كان الجو مفعماً بالعدوى الجنسية الخطرة، إذ كان على الفتاة ذات الحسب أن تعيش في جو عقيم تماماً من يوم ولادتها إلى اليوم الذي تغادر فيه الكنيسة مع زوجها. وحمايةً للفتيات الصغار، كن لا يتركن وحدهن لحظة واحدة، وكان واجب المربية ألا تسمح لهن بالخروج من المنزل منفردات، وأن تأخذهن إلى المدرسة، وإلى دروس الرقص، والموسيقا، وأن تعود بهن على المنزل على النحو ذاته. إن كل كتاب كن يقرأنه كان يخضع للمراقبة، والأهم من ذلك هو إبقاؤهن منشغلات على الدوام بغية إلهائهن عن أي خواطر ممكنة. كان عليهن أن يعزفن على البيانو، ويتعلمن الغناء، والرسم، واللغات الأجنبية، وتاريخ الأدب والفن. كن يتعلمن ما لا طاقة لهم

به. ولكن في حين أن الغاية كانت تربيتهم تربية اجتماعية صحيحة قدر المستطاع، فإن المجتمع كان يبذل قصاراه من أجل إبقائهن بريئات من كل الأشياء الفطرية إلى درجة لا تخطر اليوم على بال أحد. إن بنات الأسر المحترمة لم يكن يسمح لهن بأن يعرفن شيئاً عن تكوين جسد الرجل، أو كيف يولد الأطفال، لأن الملاك لا يشارك في الزواج دون تماسّ جسدي فقط، بكل يكون روحياً «خالصاً» تماماً أيضاً. كانت «التربية السليمة» في نظر فتاة ذلك الزمن متطابقة مع جهل الحياة. ومازلت أذكر قصة طريفة عن إحدى خالاتي. وهي أنها اندفعت ليلة زواجها من منزل والديها في الساعة الواحدة صباحاً. تمنّت ألا ترى مرة أخرى ذلك الشخص الفظيع الذي تزوجها. لقد كان مجنوناً وفظاً، إذ حاول أن ينزع عنها ثيابها بالقوة، ولم تستطع إلا بشق النفس أن تنجو من تلك الرغبة الواضحة الانحراف.

والآن لا أستطيع أن أكتم حقيقة، وهي أن هذه البراءة قد أسبغت على صبايا تلك الأيام سحراً خفيّاً. فأولئك الكائنات الغريرات قد أحسسن أن هناك، إلى جانب عالمهن، عالماً لا يعلمن عنه شيئاً، وغير مسموح لهن بأن يعلمن شيئاً، وهذا ما جعلهن محبات للاستطلاع، وحالمات، وتوّاقات، وغمرهن باضطراب فاتن. ولما كنا نحييهن في الشارع كانت وجوههن تحمرّ حياءً ـ أتوجد الآن صبايا تتورد خدودهن؟ وحين كنّ يجتمعن، كنّ يتضاحكن ويتهامسن بلا انقطاع وكأنهن ثملات قليلاً. وبما أنهن كن ممتلئات توقعاً لكل هذه التجربة المجهولة التي حيل بينهن وبينها، فقد كانت حياتهن مفعمة بالأحلام الرومانسية، ولكن كنّ في الوقت ذاته خجلات مخافة أن يكتشف أحدهم كم كانت أجسادهن تصبو إلى الرقة التي لم يعرفوا عنها شيئاً. كان نوعاً من التشويش الخفيف يشوب سلوكهن دائماً. كانت مشيتهن مختلفة عن مشية فتيات اليوم اللواتي صلّبت أجسامهن الرياضة، ويسرن مع أقرانهن من الشباب بلا تحفظ. وفي تلك الأيام كان يسهل على المرء أن يميّز من بعيد الشابة من المرأة التي عرفت رجلاً من طريقة سيرها فقط. كن أكثر شبهاً بالبنات، وأقل شبهاً بالنساء من صبايا اليوم. وطبيعتهن كانت تشبه رهافة النبتة الغريبة التي جرت تنميتها تحت الزجاج في جو مصطنع مفرط الحرارة، وجرت حمايتها من هبات الريح، فكانت حصيلة ثقافة وتربية محددتين عُني بها عناية بارعة.

هكذا أراد مجتمع ذلك الزمن أن تكون البنات: بلهاوات وغير متعلمات، ذوات تربية حسنة وبريئات، محبّات للاستطلاع وحييّات، غير جديرات بالثقة وغير عمليّات. وتقبلُهن هذه التربية من غير معرفة العالم منذ البداية، كان ينتهي بانقيادهن للزوج مسلوبات الإرادة. ويبدو أن التقاليد كانت تحتفظ بهن رمزاً لأكثر المثل العليا انكتاماً: العفة، والبكارة، والسذاجة. ولكن يا للمأساة التي كانت تحلّ بالفتاة التي يفوتها الوقت فلا تتزوج وهي في الخامسة والعشرين أو الثلاثين من العمر! فمن أجل «الأسرة» و«الأخلاق»، كان العرف يقضي بلا رحمة بأن تبقى هذه الفتاة على سذاجتها، وافتقارها إلى التجربة، وتحررها من الرغبات، مع أن ذلك كله لم يعد متلائماً مع سنّها. بيد أن هذه الصورة الأثيرة كانت تنقلب عادة إلى كاريكاتير جارح وقاسٍ. كانت الفتاة غير المتزوجة تنتهي إلى أداة ملقاة على الرف، وهذه الباقية تتحول إلى عانس، و إلى موضوع للهزء التافه في الصحف الساخرة. وكل من يعثر على مجلد مجلة Fliegende Blatter، أو أي من المجلات الساخرة في تلك المرحلة، يرتعد من هزئها السخيف من البنات المسنّات اللواتي لم يعرفن كيف يخفين رغبتهن الفطرية في الحب بسبب اضطراب أعصابهن. وبدلاً من الاعتراف بالمأساة التي أصابت هؤلاء الضحايا اللواتي أرغمتهن أسباب تتعلق بالأسرة، والسمعة الطيبة، على كبت مطالب الفطرة، والرغبة في الحب والأمومة، فإن الناس قد استهزؤوا منهن استهزاء مفتقراً إلى التفهم، ومثيراً لاشمئزازنا اليوم. فالمجتمع هو دائماً أشد قسوة على أولئك الذين يكشفون ويفضحون خفاياه عندما يكون المجتمع نفسه قد أساء بالتضليل إلى فطرة الإنسان.

ومع أن الطبقة الوسطى قد اصطلحت على أن المرأة ذات الحسب ليس لها غرائز جنسية، وغير مسموح بأن يكون لها مادامت غير متزوجة ـ وخلاف ذلك كان يجعلها «عديمة الأخلاق» ومنبوذة من الأسرة ـ فقد أُرغمت على الاعتراف بأن الشاب عنده مثل هذه الغرائز. وبما أن التجربة قد أفادت أن الذين بلغوا سن الرجولة لا يمكن منعهم من ممارسة حياتهم الجنسية، فإن التقييد الوحيد كان الرغبة المتواضعة في نِشْدان ملذاتهم التافهة خارج أسوار الأخلاق المقدسة. ومثلما تختبئ شبكة صرف القاذورات تحت المدن ذات الشوارع النظيفة، والمتاجر الفاخرة، والمتنزهات الرائعة، كان يفترض أن تجري حياة

الشباب الجنسية كلها تحت السطح الأخلاقي للمجتمع. وكانت المخاطر المعرّض لها الشاب، والصحبة المنضم إليها، مسألة عديمة الأهمية تتجنب الأسرة والمدرسة تنويرها له. وفي الأعوام التالية، كان هناك أحياناً آباء حذرون، أو «متنورون»، حسب تسمية تلك الأيام، رغبوا في إرشاد أبنائهم إلى جادة الصواب منذ أن لاحظوا نموّ شعر لحاهم. كان طبيب الأسرة يُستدعى عندئذ، ويطلب من الشاب الدخول إلى الغرفة في الوقت المناسب، وقبل أن يبدأ محاضرته عن أخطار الأمراض التناسلية، كان يمسح زجاج نظارته من غير أن يكون لذلك ضرورة، ثم ينصح الشاب الذي يكون قد ألمّ بالموضوع منذ وقت طويل أن يلتزم الاعتدال، وألا يهمل بعض تدابير الوقاية. واستخدم آباء آخرون طريقة أكثر غرابة، إذ أنهم شغّلوا خادمة حلوة في المنزل وظيفتها منح الشاب بعض التجارب العملية. كان من الأفضل في رأيهم أن ينكبّ الشاب على هذا الأمر المزعج تحت سقفهم، لأن ذلك لا يحافظ على ظاهر اللياقة فقط، بل يجنبه خطر الوقوع في أيدي أصحاب المكائد أيضاً. أما طريقة التنوير، الطريقة الصريحة والمستقيمة، فقد كانت تقابلها كل السلطات بالتجهم.

ما هي الإمكانات المتوافرة بالفعل للشاب المنتمي إلى الطبقة الوسطى؟ إن المشكلة لم تكن مشكلة على الإطلاق عند الآخرين جميعاً، عند ما يسمّى بالطبقات الدنيا. كان عامل المزرعة في الريف ينام مع إحدى البنات حين يبلغ السابعة عشرة، وكان ذلك لا يكتسب أي أهمية أخرى حتى لو كان له عواقب. كان عدد الأطفال غير الشرعيين في قرى كثيرة يربو كثيراً على عدد الأطفال الشرعيين. وبين البروليتاريا، كان العامل والعاملة يعيشان حباً حراً قبل أن يتمكنا من الزواج. وبين يهود غاليشيا الشرقيين، كان الشاب يتزوج في سن السابعة عشرة، أي في سن النضوج العادي، ولذلك كان يمكن أن يصبح جَداً وهو في الأربعين من العمر. إن هذا الزواج المبكر لم يكن موضع ازدراء إلا عند الطبقة الوسطى. فما من ربّ أسرة كان يسلّم ابنته إلى شاب في العشرين أو الثانية والعشرين، بما أن هذا الشاب لم يكن يعتبر ناضجاً بما فيه الكفاية. وبقدر ما كان الأمر يتعلق بالمجتمع، فإن الشاب لم يكن يبلغ سن الرجولة حتى يكتسب «مكانة اجتماعية»، أي ليس قبل أن يصبح في الخامسة والعشرين أو

السادسة والعشرين. ولذلك كانت هناك فترة مصطنعة من أعوام ستةٍ أو ثمانية أو عشرة بين الرجولة الفعلية، والرجولة المقبولة في المجتمع، وفي هذه الفترة كان على الشاب أن يتولّى «شؤونه» أو مغامراته.

إن تلك الأيام لم تُتِحْ للشاب فرصاً كثيرة، ولم يستطع أن ينعم باتخاذ خليلة إلا قلة من الشباب الأغنياء، أي القدرة على استئجار شقة، ودفع النفقات. ولم يتمكن إلا قلة قليلة من الشباب المحظوظين من تحقيق المثل الأعلى الأدبي للحب في ذلك الزمان ـ الحب الوحيد الذي أجيز وصفه في الروايات ـ وهو العلاقة مع امرأة متزوجة. أما الآخرون فقد أقاموا علاقات مع البائعات والنادلات، وهي علاقات لم تكن مرضية إلا قليلاً.

ففي ذلك الزمن الذي استبق تحرر النساء، ومشاركتهن الفعّالة في الحياة العامة. كانت الفتيات المنحدرات من أفقر أوساط البروليتاريا هن وحدهن المطواعات من جهة، ولديهن الحرية كافية من جهة أخرى من أجل إقامة علاقات عابرة من غير التفكير الجاد في الزواج. وبما أن أولاء الكائنات البائسات كن سيئات اللباس، ومتعبات بعد عمل اثنتي عشرة ساعة في اليوم بأجر زهيد، وغير مهندمات (كان الحمّام في تلك الأيام امتيازاً مقتصراً على الأغنياء)، فقد كن أدنى مكانة من عشاقهن الذين كانوا يخجلون من أن يراهم الناس معهم. غير أن العرف المحترس دائماً قد ابتكر تدابيره الخاصة من أجل هذا الوضع المؤلم، أي الحجرات المنفصلة حيث يستطيع الشاب أن يتعشىً مع فتاة من دون أن يراهما أحد،والباقي كان ينجز في الشوارع الجانبية المظلمة، وفي الفنادق الصغيرة المعدّة لهذه الأغراض على وجه الحصر. ولكن هذه اللقاءات كلها كانت بالضرورة على عجل، وخالية من الجمال، ودافع الجنس غالب فيها على دافع الحب، لأنها كانت دوماً مستعجلة وفي الخفاء مثل كل الممنوعات. ومع ذلك كان من الممكن بالطبع إقامة علاقة مع واحدة من تلك المخلوقات البرمائية اللواتي كن داخل المجتمع وخارجه في آن معاً ـ الممثلات والراقصات والفنانات، نساء العصر الوحيدات المتحررات. ولكن على العموم بقي البغاء مؤسسة الحياة الجنسية خارج الزواج، وشكلت هذه المؤسسة بمعنى ما القبو السفلي الذي نهض عليه بنيان مجتمع الطبقة الوسطى الفخم بواجهته المتألقة التي لا عيب فيها.

يكاد لا يكون عند الجيل الحالي فكرة عن الانتشار الهائل للبغاء في أوروبا قبل الحرب العالمية الأولى. ففي حين أن لقاء بغّي في شوارع مدينة أمر نادر اليوم ندرة لقاء عربة في الشارع، فقد كانت الأرصفة آنذاك تنبتّ فيها نساء للبيع بحيث كان تفاديهن أصعب من العثور عليهن. أضفْ إلى ذلك عدداً لا يُحصى من «البيوت المغلقة»، والنوادي الليلية، والملاهي،وصالات الرقص والغناء، والبارات ذات الفتيات المغويات. و في ذلك الوقت كانت السلع الأنثوية تباع في كل ساعة وبأي ثمن، لذلك فإن ابتياع امرأة مدة ربع ساعة، أو ساعة، أو ليلة. لم يكن يكلّف المرء من الوقت والمشقة إلا بقدر ما يكلّفه ابتياع علبة سجائر أو صحيفة. ويبدو لي أن لا شيء يؤكد صدق حياتنا وأشكال حبنا وبساطتها من أن المؤسسة التي كان الشاب لا يستغني عنها في الماضي أصبح استغناؤه عنها الآن أمراً ممكناً، ويكاد يكون عادياً. إن البغاء في عالمنا لم يحدّ منه البوليس والقوانين، بل إن قلة الطلب قد أدت إلى تصفية هذا النتاج المأساوي للأخلاق الزائفة إلا بقيا قليلة منه.

إن موقف الدولة الرسمي والأخلاقي من هذا الأمر الملتبس لم يكن مرْضياً قط. فمن وجهة النظر الأخلاقية، لم تجرؤ الدولة على الاعتراف بحق المرأة في بيع نفسها، ومن الناحية الصحية، كان من الصعب التفريط به لأنه كان متنفساً للنشاط الجنسي المزعج خارج الزواج. لذلك سعت السلطات إلى الاستفادة من هذا الالتباس، وذلك بالتمييز بين البغاء السريّ الذي حاكمته باعتباره خَطِراً وغير أخلاقي، والبغاء المشروع الذي منحته ترخيصاً، وفرضت عليه ضريبة. والفتاة التي قررت أن تصبح بغيّاً كان البوليس يمنحها حقاً خاصاً، وتتسلّم منه دفترها الخاص كشهادة تأهيل. وهذا الحق المهني في تأجير جسدها بأي ثمن تراه ملائماً كانت تُعطاه طالما أذعنت للرقابة، واستجابت للفحص الطبي مرتين في الأسبوع. وهكذا جرى الاعتراف بالبغاء كمهنة بين سائر المهن، ولكن عقبة أخلاقية حالت دون الاعتراف به تماماً. فعلى سبيل المثال إن باعت بغيّ بضاعتها، أي جسدها، إلى رجل، ولم تأخذ الثمن المتفق عليه، فقدت حقها في مقاضاته، لأن دعواها تتحول فجأة بعد ذلك إلى دعوى لا أخلاقية لا يسندها القانون.

وفي مثل هذه الأمور كان المرء يشعر بازدواج الفكرة التي ما فتئت تعتبر تلك الفتيات منبوذات خارج القانون رغم أنها أدمجتهن في مهنة يجيزها القانون، ولكن

خداع هذه الفكرة كان يكمن في أن هذه القيود لم تكن تطبّق إلا على الطبقات الفقيرة. كان واضحاً أن راقصة الباليه التي كانت في متناول أي رجل وفي أي ساعة في فيينا مقابل مئتي كراون، مثلما كانت فتاة الشوارع متاحة مقابل كراونين، لم تكن تحتاج إلى رخصة عمل. وكانت المشبوهات الكبيرات يُذكرن أيضاً في الصحف بين الحاضرين في مدينة ديربي، أو سباقات الخيل، لأنهن أصبحن جزءاً من «المجتمع». إضافة إلى ذلك، كان أكثر الوسطاء تأنقاً يزوّدون البلاط، والأرستقراطية، والأثرياء بالسلع الفاخرة، وكانوا فوق القانون مع أن القوادة كان فاعلها يُحكم عليه بالسجن مدة طويلة. كان الانضباط الصارم، والمراقبة العديمة الرحمة، والنبذ الاجتماعي، لا تُطبّق إلا على جيش من آلاف النساء اللواتي قاومن بأجسادهن وأرواحهن الذليلة تحاملاً أخلاقياً قديماً مندرساً على الحب الحر الطبيعي.

إن هذا الجيش الكبير من البغايا قد كان مثل الجيش الحقيقي مؤلفاً من عدة فروع: الفرسان، والمدفعية، والمشاة، ومدفعية الحصار. فالبغايا اللواتي أقمن في شوارع معينة في المدينة كن مدفعية الحصار في قوات البغاء. فهناك كانت تنتصب المشانق في أغلب الأحوال في العصور الوسطى، أو يقوم مشفى للمصابين بالجذام، أو تقع مقبرة، أو يجد «الأحرار»، و منبوذون آخرون ملاذاً. وبكلمات أخرى، كانت تلك المناطق المجاورة يفضّل المواطنون تجنب الإقامة فيها. وهناك أنشأت السلطات شوارع معينة أسواقاً للحب، الباب حذاء الباب، في القرن العشرين، و مئات النساء كن يجلسن، كما في يوشيوارا Yoshiwara في اليابان، أو سوق السمك في القاهرة، الواحدة تلو الأخرى، ويعرضن أنفسهن من نوافذهن المسوّاة بالشارع - بضائع رخيصة يتناوبن العمل في الليل والنهار.

وكانت قوات الفرسان أو المشاة تتألف من البغايا الكثيرات المتجولات في الشوارع بحثاً عن الزبائن. وفي فيينا كان يطلق عليهن اسم «فتيات الخطوط»، لأن البوليس كان يحدد خطاً غير مرئي يفصل بين الأرصفة التي يمكنهن مزاولة عملهن عليها. كن يجررن أناقتهن الزائفة الغالية الثمن في الشوارع ليل نهار، وفي المطر والثلج، ويرغمن على الدوام على تكلف ابتسامة مغرية لكل عابر على وجوههن المتعبة السيئة الدهن. والآن تبدو لي كل مدينة أجمل وأكثر إنسانية بما أن تلك الجموع الجائعة

البائسة لم تعد تزحم الشوارع، وتعرض المتع للبيع، ثم بعد تجوالها الطويل تسلك أخيراً طريقاً واحداً محتوماً هو الطريق إلى مشفى العناية المتخصصة.

ولكن حتى هذه الجموع لم تكن كافية للطلب المطرد. كان هناك من آثروا الراحة والتحفظ على تعقب تلك الخفافيش المرفرفة، أو طيور الفردوس الحزينة، في الشوارع. لقد أرادوا حباً يسير المنال، مع ضوء ودفء، ومع موسيقا ورقص، ومظاهر ترف. وكان لأولئك الزبائن «بيوتهم المغلقة»، أو مواخيرهم. وهناك كانت الفتيات يتجمعن فيما سُمّي «الصالون» مزوّدات بالترف الكاذب،بعضهن في أثواب السهرة ، وبعضهن في مباذل الخلاعة. كان يتحفهم بالموسيقا عازف بيانو، وكان هناك شرب ورقص وحديث قبل أن يأوي المتغازلون إلى غرف النوم. وفي بعض البيوت الراقية، ولاسيما في باريس وميلان، والتي لها نوع من الشهرة الدولية، كان يمكن أن يزعم أحدهم أنه مدعوّ إلى بيت خاص مع بعض سيدات المجتمع المرحات. كانت فتيات تلك البيوت أحسن مظهراً من فتيات الشوارع المتجولات. إذ كنّ غير مضطرات إلى التجوال في أزقة قذرة أيام الريح والمطر، بل كن يجلسن في غرف دافئة، وتُقدّم لهن ثياب جيدة، ويوفّر لهن ما لذّ وطاب، ولا سيما الشراب. ولكن في المقابل كن سجينات صاحبات البيوت اللواتي كن يفرضن عليهن ارتداء ملابس باهضة الثمن، ويستعملن الحيل السحرية في حساب أجرة السكن، وكلفة الطعام بحيث أن أكثر الفتيات اجتهاداً ومواظبة كانت تبقى مديونة، ولا تستطيع أن تغادر البيت من تلقاء نفسها.

ولو كُتب تاريخ بعض تلك البيوت بالتفصيل لكان عملاً شائقاً، و توثيقاً مهماً لثقافة تلك المرحلة، لأن تلك البيوت كانت تخفي أسراراً غريبة، ومعروفة من السلطات من ناحية أخرى. كان هناك أبواب خفيّة، ودرج خاص يرتقيه زوّار من الطبقة الراقية ـ ومن البلاط أيضاً، كما تهامس الناس ـ دون أن يراهم الآخرون. وكان هناك غرف ذات مرايا، وغرف يمكن منها اختلاس النظر إلى الغرف المجاورة التي يتمتع فيها إثنان بلا أي ريبة. وإرضاءً للذين تستثيرهم أجزاء معينة من جسد المرأة، كانت الخزائن مقفلة على أغرب ألوان الملابس،من رداء الراهبة إلى ثوب راقصة الباليه. وفي هذه المدينة ذاتها، والمجتمع ذاته، ونظام الأخلاق ذاته، تذمّر الناس عندما ركبت فتاة درّاجة، وأعلنوا أن فرويد ألحق العار بالعلم عندما أكّد على طريقته الهادئة والواضحة والثاقبة

حقائق لم يتمنوا أن تكون صحيحة. والعالم نفسه الذي دافع دفاعاً محزناً عن طهر الأنوثة قد أجاز هذا البيع الفظ للنساء، ونظّمه، واستفاد منه أيضاً.

يجب ألا نسمح للروايات والقصص العاطفية التي ظهرت في تلك المرحلة أن تضللنا. لقد كانت مرحلة رديئة بالنسبة إلى الشباب. فالفتيات كن محتجزات داخل البيت تحت سيطرة الأسرة، وممنوعات من التطور الحر جسدياً، وفكرياً أيضاً. والشباب أرغمتهم على اتخاذ الحيطة والتخفي منظومةُ الأخلاق التي لم يؤمن بها ولم يذعن لها أحد. أما العلاقات الحرة الصادقة ـ أي كل ما يسعد الشباب ويبهجهم وفق قانون الطبيعة ـ فلم يسمح بها إلا للقلة القليلة. وكل من يرغب من ذلك الجيل في استعادة لقاءاته الأولى سوف لن يذكر إلا حوادث قليلة يمكن أن تثير في نفسه غبطة خالصة. ففضلاً عن الضغط الاجتماعي الذي فرض الاحتياط والكتمان على الدوام، كان هناك عنصر آخر يلقي ظله آنذاك على أسعد اللحظات، وهو الخوف من العدوى. ههنا أيضاً كان شباب تلك الفترة مهملين بالمقارنة مع شباب هذه الأيام، لأننا ينبغي لنا ألا ننسى أن الأمراض الجنسية منذ أربعين عاماً كانت منتشرة مئة مرة أكثر منها اليوم، وأنها كانت مئة مرة أخطر وأرعب مفعولاً، إذ أن الطب لم يكن قد عرف بعد كيف يقاربها عملياً. والعلم لم يكن قادراً بعد على علاجها علاجاً سريعاً وكاملاً كما يفعل اليوم ،ويجعلها بالتالي مجرد أحداث صغيرة . والآن، وبفضل علاج بول إيرلك، كثيراً ما تمرّ أسابيع في عيادات الجامعات الصغيرة والمتوسطة لا يتمكن فيها الأستاذ من عرض حالة سفلس جديدة على طلابه، في حين أن الإحصائيات في تلك الأيام تظهر أن شاباً أو شابين من كل عشرة شبان في الجيش وفي المدن الكبيرة قد وقعا ضحية العدوى. كان الشباب يُذكرّون بالخطر باستمرار. ومن سار في شوارع فيينا، كان يمكنه أن يقرأ على باب منزل من كل ستة منازل أو سبعة: «اختصاصي في الأمراض الجلدية والتناسلية». وإلى الخوف من العدوى، أُضيف الرعب من أشكال العلاج المقززة المهينة التي لا يعرف عالم اليوم عنها شيئاً. كان جسم المصاب بالسفلس يُدلك كله بالزئبق طيلة أسابيع، وهذا كان يؤدي إلى تساقط الأسنان، وأضرار صحية أخرى. والضحية البائسة في هذه المواجهة القاسية لم يكن يشعر بأنه ملوّث جسدياً فقط، بل روحياً أيضاً، وحتى بعد ذلك العلاج المرعب، لم يكن على يقين أن ذلك الفيروس لن يتحرر

من أسره، ويشلّ الأطراف من العمود الفقري، أو يليّن الدماغ. ولا عجب إذن أن يمدّ كثير من الشباب أيديهم إلى المسدسات بعد انتهاء التشخيص لأنهم لم يستطيعوا أن يتحملوا الشعور بأن الشفاء من دائهم مشكوك فيه. ويلي ذلك معاناة أخرى، هي متابعة الحياة الجنسية في الخفاء. ومع أنني أبذل قصاري في التذكر، فأنا لا أذكر زميلاً واحداً من زملائي لم يأتني شاحباً مضطرباً، هذا لأنه مريض أو يخشى المرض، وذاك لأنه يُبتزّ بسبب عملية إجهاض، وثالث لأنه لا يملك المال اللازم للعلاج من غير أن تعلم أسرته، ورابع لا يعرف كيف يُسكت بالرشوة النادلةَ التي تزعم أنها حملت منه، وخامس لأن محفظة نقوده سُرقت في الماخور ولا يجرؤ على إبلاغ البوليس. إن شباب تلك الأوقات الزائفة الأخلاق قد كانوا أكثر رومانسية وأقوى عاطفة، ومع ذلك أشد تلوثاً وأعمق اكتئاباً مما صورتهم روايات كتابهم الرسميين و مسرحياتهم. ففي مجال الحب، كان الشباب نادراً ما يمنحون في البيت وفي المدرسة ما تؤهلهم له أعمارهم من حرية وسعادة.

لابد من تسجيل ذلك كله إذا شئنا صورة صادقة للعصر. فحين أتحدث إلى زملائي الشباب من جيل بعد الحرب، فكثيراً ما يتوجب عليّ إقناعهم بالقوة تقريباً بأن أوضاعنا أيام الشباب لم تكن أفضل من أوضاعهم على الإطلاق. صحيح أننا كنا أكثر حرية بالمعنى السياسي من الجيل الحالي، فهو قد أُجبر على الخضوع للخدمة العسكرية، والعمل الإجباري، والإيديولوجيات الشعبية في عديد من البلدان، وسُلّم بلا ظهير في كل البلدان تقريباً إلى سلطة عالم السياسة الاعتباطية. أما نحن فقد كنا قادرين على الانكباب على فننا، وميولنا الفكرية، وكنا قادرين على صياغة وجودنا الخاص مع شخصية أكثر فردية. واستطعنا أن نعيش حياة كان فيها العالم كله مفتوحاً لنا. كان في وسعنا السفر بلا جوازات سفر، ومن دون إذْن، حيث شئنا. لا أحد كان يسأل عن معتقداتنا، ولا عن أصلنا، أو جنسنا، أو ديننا. أنا لا أنكر أننا كنا أكثر حرية فردية بما لا يقاس. ونحن لم نتعلق بها فقط، بل استفدنا منها أيضاً. ولكن كما قال فريديك هيبل ذات مرة: «نفتقر في البداية إلى خمرة، ثم نفتقر إلى الكأس». من النادر أن يحظى جيل واحد بالاثنين معاً. فإذا منحه النظام الأخلاقي الحرية، فإن الدولة تحددها، وإذا أجازتها الدولة له، حاول النظام الأخلاقي أن يسترقّه. لقد عشنا حياة أفضل من

حياة الشباب في الوقت الحاضر، واختبرنا طعم العالم أكثر منهم، غير أنهم أكثر وعياً منا فيما يعيشونه من تجارب. عندما أرى اليوم الشباب يخرجون من مدارسهم مرفوعي الهامات، ومتهللي الوجوه، وعندما أرى الفتيان والفتيات تجمعهم صحبة حرة غير مكدّرة، لا يعتريها احتشام زائف ولا خجل زائف، سواء في أماكن الدراسة أو الرياضة أو اللعب، أو أثناء التزلج على الثلج،أو الانطلاق بالسيارات أزواجاً عبر الريف، متماثلين في كل صور الحياة الخليّة المعافاة من غير أي عبء داخلي أو خارجي، عندما أرى كل ذلك يبدو لي وكأن ألف سنة، لا أربعين سنة. تفصلنا عنهم، نحن الذين كنا دائماً نبحث عن ظلال ومخابئ لكي نحصل على حب أو نتلقّاه. وأنني لسعيد حقاً أن أرى عِظَم الثورة الأخلاقية التي حصلت في صالح الشباب، وكم نالوا من حرية الحب والعيش، وكم تعافوا جسدياً وروحياً في هذه الحرية. ومنذ أن سُمح للنساء أن يبرزن قَوامهن، صرن أجمل، وصارت مشيتهن أقوم، وعيونهن أصفى، وحديثهن أقل تكلفاً. يا للطمأنينة المختلفة التي يحظى بها هذا الجيل الجديد! إن أفراده غير مضطرين إلى تقديم بيان عن سلوكهم إلى أحد إلا أنفسهم، وبعد أن انتزعوا السلطة من الأمهات والآباء، والأقرباء والمعلمين، وتخلصوا من أحلام الكبت والتخويف والتوتر التي كنا نعانيها، لم يعودوا يعرفون شيئاً عن التكتم والطرق غير المسلوكة التي كنا نحصل بها على الممنوع الذي يرون رؤية صحيحة أنه حقهم. ومن حسن الحظ أن هذا الجيل يتمتع بالحيوية، والنضارة، والرخاء، وخلوّ البال، أي كل ما يناسب سنه. ولكن أجمل ما في هذه السعادة هي أنها غير مضطرة إلى الكذب على الآخرين، ويمكن أن تكون صادقة مع نفسها، وصادقة مع مشاعرها ورغباتها الطبيعية. ولعل هذا التحرر من الهم الذي عاشه هؤلاء الشباب ربما جعلهم يفتقرون إلى شيء من ذلك الاحترام للقضايا الثقافية التي أفعمتنا بالحيوية. وقد يبدو أن هذا التبادل الطبيعي الحديث يفتقد شيئاً كنا نعزّه، ونفتتن به في الحب ـ تكتّم الاحتشام والحياء، وبعض الرقة واللطافة. وربما لا يتوقع هؤلاء الشباب أن رهبة الممنوع، و نكران الذات، يزيدان المتعة على غير علم منهم. لكن هذا كله لا أراه مهمّاً مقارنة بالتغير المنقذ الوحيد، وهو أن شباب اليوم متحررون من الخوف والغمّ، ويتمتعون كل التمتع بما حُرمنا منه في زماننا، أي الصراحة والثقة بالنفس.

الفصل الرابع
الحياة الجامعية

مع آخر أعوام القرن التاسع عشر، جاءت أخيراً اللحظة المنتظرة، واستطعنا أن نصْفق باب الثانوية الكريه خلفنا. وكنا بعد أن اجتزنا امتحاناً عسيراً ـ ما الذي فهمناه من الرياضيات، والفيزياء، ومواد الدراسة الأخرى؟ـ قد ارتدينا سترات سوداء وطويلة للمناسبة، واستمعنا إلى خطبة مثيرة آثرنا بها المدير. لقد كبرنا الآن، وعلينا أن نرفع من شأن أرض الأجداد باجتهادنا وحماستنا. وهكذا انقطعت صحبة ثماني سنوات، ومنذ ذلك الوقت لم أرَ إلا قلة من أصحابي المجدّين. انتسب معظمنا إلى الجامعة، أما الذين اختاروا مهناً وأشغالاً أخرى، وقنعوا بها، فقد كانوا ينظرون إلينا نظر الحاسدين.

في تلك الأزمنة المنسية، كانت هالة رومانسية ما تزال تحيط بالجامعة في النمسا. فالأكاديمي الشاب كان يُمنح حقوقاً معينة، ويُنعم عليه بامتيازات لا يُنعم بها على أترابه الآخرين. وهذا التقليد القديم الغريب ربما لا يعرفه إلا قليلون في البلدان غير الألمانية. و ربما تحتاج السخافة المتقادمة إلى بعض التفسير. كانت الجامعات قد أُنشئت في العصور الوسطى، أي في زمن كان الاشتغال فيه بالعلوم أمراً غير عادي. ومن أجل اجتذاب الشباب إلى الدراسة، كان يُنعم عليهم بامتيازات معينة. كان الطلاب آنذاك لا يخضعون للمقاضاة في محاكم عادية، ولا تستطيع سلطة القضاء استدعاءهم من كلياتهم، ومضايقتهم. كانوا يرتدون زياً خاصاً، ويحق لهم الدخول في مبارزات من دون تعرض للقصاص، وينتسبون إلى رابطة معترف بها تحدّد لهم قواعدها السلوك المستقيم وغير المستقيم. ولكن هذه الامتيازات الأكاديمية أُلغيت في أوروبا كلها مع انتشار الديمقراطية في الحياة العامة، وانحلال نقابات العصور الوسطى ومجالسها الأخرى. وفي ألمانيا والنمسا الألمانية وحدهما ،حيث كان الوعي الطبقي

يطغى دائماً على الفكرة الديمقراطية لم يتمسك الطلاب بهذه الامتيازات التي مضى على وجودها زمن طويل فقط، بل طوّروا دستور رابطتهم أيضاً. و الأهم من ذلك هو أن الطالب الألماني اتخذ «امتيازاً خاصاً» إضافة إلى دستور الشرف المدني والعام. فمن يُسيءْ له يُرغم على مبارزته، على أن يكون «مؤهلاً» لذلك. ولكن بحسب هذا التقدير المفترض للذات، فإن صفة «مؤهل» لا تنطبق على التجار أو أصحاب المصارف، مثلاً، بل على الذين نالوا تعليماً أكاديمياً، أي الخريجين والموظفين. ومن الملايين الأخرى لا أحد كان يجوز له أن يشارك في شرف المسايفة الخاص مع شاب أحمق وأجرد. ومن جهة أخرى، فأن تكون طالباً حقاً كان معناه تقديم البرهان على الرجولة بالمشاركة في أكثر ما يمكن من المبارزات، وإظهار الدليل على مثل هذه المآثر البطولية بما على الوجه من ندوب، فالخدان الناعمان، والأنف غير المشوّه، لم تكن لائقة بالأكاديمي الألماني الحقيقي. وطلاب الشارة، أي أولئك الذين كانوا منتسبين إلى جمعية ذات علامة، كانوا يُحمَلون على استفزاز بعضهم بعضاً، إضافة إلى استفزاز طلاب وموظفين آخرين مسالمين تماماً، من أجل مبارزة خصوم جدد. وفي كل جمعية طلابية، كان كل طالب جديد يُدرّب في غرفة مبارزة على هذا النشاط الرئيسي، ويُلقّن عادات اتحاد الشباب الأخرى. وهذا المبتدئ كان يُخصَّص له عضو من الرابطة عليه أن ينقاد له صاغراً، وبالمقابل يلقّنه كل الأنظمة السائدة بين الطلاب: أن يشرب حتى يمرض، وأن يجترع إبريق جعة حتى الثمالة، وأن يتعود احتمال المشاق، وأن يرفع صوته عند الغناء مع الطلاب، وأن يفتعل العراك مع الناس في الشوارع ليلاً، وأن يمشي مشية الإوزة ويطلق صيحات الاستهزاء من البوليس. إن كل هذا كان يتعلمه الطالب في السنة الأولى حتى يصبح «متصفاً بالرجولة»، و «أكاديمياً» و «ألمانياً». ولما كان أعضاء اتحاد الطلبة يتجمهرون يوم السبت للقيام بالشغب والصخب بأعلامهم المرفرفة وقبعاتهم وشرائطهم الملونة، كان هؤلاء الحمقى الذين يأخذهم عُجْب فارغ بما يفعلون، يشعرون بأنهم الممثلون الحقيقيون للمثقفين الشباب. كانوا يزدرون «الرعاع» الذين لم يستطيعوا أن يقدروا هذه الثقافة الأكاديمية، والرجولة الألمانية حق قدرهما.

لا شك في أن هذه الحياة الطلابية البهيجة العارمة قد بدت أنها جوهر كل المغامرات للطالب الساذج الآتي إلى فيينا من مدارس الأقاليم الثانوية. وبعد أعوام

كان المحامون والأطباء يجلسون في قراهم، و أعينهم الدامعة محدّقة في السيوف المتصالبة، والشرائط الملونة المعلقة في غرفهم، وآثار الجراح باقية على وجوههم تشير إلى مكانتهم الأكاديمية. ولكن تأثير هذا النشاط الفظ التافه كان منفّراً للغاية. وكلما التقينا هذه الشراذم المزينة بالشرائط، كنا نتحايدهم. فنحن الذين كانت حرية الفرد عندنا أقدس الأشياء، كنا نرى أن ذلك النزوع إلى العدوان، والذي كان خضوعاً لحكم الغوغاء أيضاً، تتجلى فيه أسوأ عناصر الروح الألمانية وأخطرها. و الأكثر من ذلك هو أننا علمنا أن هذه الشعائر السخيفة كان تخفي أهدافاً عملية ومدروسة. فالعضوية في رابطة الطلبة المبارزين كانت تكفل للأعضاء حماية «الأولاد الكبار» في المراكز العليا، وتسهيل أسباب المعيشة عليهم في المستقبل. والانتساب إلى رابطة بوراشا Borussia في بون كان السبيل الوحيد الأكيد إلى الدبلوماسية الألمانية، والأخويات الكاثوليكية في النمسا كانت تتزعم الوظائف الممتازة التي لا عمل لها للحزب الاجتماعي المسيحي الحاكم. و معظم هؤلاء «الأبطال» كانوا يعرفون حق المعرفة أن شرائطهم الملونة ستثبت في المستقبل أنها بديل مما أهملوه في دراستهم، وأنهم عندما يطلبون التوظيف، فإن ندوباً قليلة على الجبين يمكن أن تكون مفيدةً أكثر من المتواري وراءها. إن مجرد رؤية هذه الزمر الفظة المعسكَّرة، وهذه الوجوه المشطّبة الوقحة المزعجة، كانت تفسد زياراتي إلى غرف الجامعة. وكل الطلاب الآخرين الذين كانوا عاقدي العزم على التعلم، كانوا يتجنبون قاعة الجامعة الكبرى كلما قصدوا المكتبة، ويفضلون الباب الخلفي البسيط حتى يتحاشوا أي لقاء ممكن مع هؤلاء الأبطال التافهين.

إن دراستي في الجامعة كان قد قررها من البداية مجلس الأسرة. ولكن أي كلية أختار؟ لقد منحتني أسرتي كامل الحرية في ذلك. كان شقيقي الأكبر قد انخرط في أعمال والدي، لذلك انعدمت الحاجة إلى ابن ثانٍ. فرغم كل شيء، كانت المسألة تنحصر في نيل درجة دكتوراه تؤكد رفعة الأسرة، وأي دكتوراه تفي بالغرض. وما يدعو إلى الدهشة هو أن الاختيارات كانت سواء عندي. ولأنني وقفت نفسي على الأدب منذ وقت طويل، فإن أياً من مناهج الجامعة المعتمدة لم يثر اهتمامي، وكان عندي على كل حال، ارتياب خفي في كل النشاطات الأكاديمية، وهو ارتياب لم يفارقني حتى هذا

اليوم. إن قول كارليل: إن الجامعة هي مجموعة جيدة من الكتب، ما يزال صحيحاً بقدر ما يتعلق الأمر بي، وحتى في الوقت الحاضر أنا مقتنع أن المرء يمكن أن يصبح فيلسوفاً، أو مؤرخاً، أو عالما لغوياً، أو محامياً ممتازاً، أو ما شاء، من غير أن يدرس في جامعة أو حتى ثانوية. ولقد تأكد عندي مرات عديدة أن بائع كتب مستعملة يعرف عن الكتب أكثر من أساتذة الأدب، وأن معرفة باعة اللوحات الفنية تفوق معرفة مؤرخي الفن، وأن قسماً ليس بالقليل من الاكتشافات والإلهامات في المجالات كافة قد قام بها أشخاص من خارجها. ومع أن الدراسة الأكاديمية قد تكون عملية ومفيدة وناجعة للمواهب المتوسطة، فإنها فائضة بالنسبة إلى الطبائع ذات الإنتاج الفردي، وربما تتحول إلى عائق لها. وفي جامعة مثل جامعتنا في فيينا، والتي ازدحم فيها نحو سبعة آلاف طالب، وكانت عراقيل متقادمة أبقتها شدة التمسك بالتقاليد تعترض الاتصال الشخصي المثمر بين الدارس و الأستاذ، في هذه الجامعة خاصةً لم أجد أستاذاً تمكّن أن يجعل فرع تعليمه شيئاً لا يُقاوم بالنسبة لي. لذلك عندما اخترت لم أختر فرع المعرفة المثير لاهتمامي أكثر من غيره، بل على العكس، اخترت النوع الأقل إزعاجاً ومضايقة لي، والذي يمنحني الحد الأقصى من الوقت والحرية من أجل هوايتي الحقيقية.
وأخيراً عزمت على دراسة الفلسفة ـ أو الفلسفة «الدقيقة»، كما كانت تدعى في المنهاج القديم ـ ولكن من المؤكد أن هذا العزم لا يرجع إلى نداء داخلي، إذ أن قدرتي على التفكير الخالص التجريد كانت قليلة. إن أفكاري كلها قد طوّرتها الأشياءُ والأحداث والأشخاص، وبقي النظري والغيبي الخالصان خارج نطاق معرفتي. ورغم ذلك فإن الأداء الفعلي المطلوب في هذا المجال كان الأقل احتمالاً، والاستماع إلى محاضرات في الفلسفة الدقيقة كان الأسهل اجتناباً. وكل ما كان مطلوباً من الدارس هو تقديم أطروحة، والخضوع لامتحان في نهاية ثمانية فصول دراسية. وهكذا شرعت في تنظيم جدول زمني، ولكن ليس من أجل إعنات نفسي بالدراسة في الجامعة ثلاث سنوات، ثم بذل الجهد في السنة الأخيرة، والتمكن من الدراسة والإسراع في تقديم أطروحة ما! ولو حدث ذلك لمنحتني الجامعة الشيء الوحيد الذي كنت أبتغيه: عدة أعوام من الحرية التامة من أجل حياتي الخاصة، ومحاولاتي في الفن، أي الحياة الجامعية.

عندما ألتفت إلى حياتي الماضية، لا أتذكر إلا لحظات قليلة سعيدة سعادة تلك الأعوام الأولى التي كنت فيها طالباً جامعياً من غير جامعة. كنت شاباً، ولذلك لم يكن عندي أي شعور بعد بواجب تحقيق الكمال. و كنت مستقلاً إلى حد بعيد، وساعات اليوم كلها كانت لي. كان باستطاعتي أن أقرأ وأدرس ما أشاء من دون أن أضطر إلى تعليل ذلك لأي واحد. إن غيمة الامتحان الأكاديمي لم تكن قد ظهرت بعد في الأفق الصافي. كم يمكن أن تطول ثلاث سنوات بالمقارنة مع تسع عشرة سنة من العمر! وكم يمكن أن يجعلها المرء غنية وممتلئة وحافلة بالمفاجآت والهبات!

كان أول شيء عملته هو إعداد مجموعة مختارة من أشعاري إعداداً ظننت أنه لا رحمة فيه. ولا أخجل من الاعتراف بأن رائحة حبر المطبعة هي أطيب رائحة على وجه الأرض بالنسبة إلى شاب أنهى دراسته في الثانوية، وأطيب من زيت ورد شيراز. كان نشر أي قصيدة من قصائدي في صحيفة يزيدني ثقة بالنفس، وهي ثقة كانت مضطربة بالفطرة. هل لي أن أكزّ على أسناني الآن، وأحاول نشر مجلد كامل؟ إن تشجيع زملائي الذين كانوا يثقون بي أكثر مني، حملني أخيراً على اتخاذ قرار. أرسلت المخطوطة غير مبالٍ إلى نفس دار النشر التي كانت الأكثر تمثيلاً للشعر الألماني، وهي دار نشر شوستر و لوفلر التي نشرت أعمال ليلينكرون، ودهمل، وبيربوم، وموميرت الذين أبدعوا مع ريلكه وهوفمنزثال الشعر الألماني الغنائي الجديد. ولم تلبث - والعجائب متواصلة أن جاءت إحدى تلك اللحظات السعيدة التي لا تُنسى في حياة الكاتب، والتي لا تتكرر أبداً حتى بعد نجاحاته الكبيرة، حين وصلت رسالة مختومة من الناشر، وحملتها مرتجف اليدين، غير مجترئ على فضّها. حانت اللحظة التي قرأت فيها وأنا منقطع النفس أن الدار قررت نشر كتابي، واشترطت أيضاً أن أقدّم لها مختارات شعرية أخرى. ثم إن الطبعة التجريبية الأولى وصلتني في طرد فضضته بانفعال شديد، لكي أرى الكلمات المطبوعة، ونوع الصفحة، والكتاب الجنين بالذات، ثم وصل الكتاب نفسه، النسخ الأولى منه، بعد عدة أسابيع. إن المرء لا يملّ من النظر إليها، وتلمسها، والمقارنة بينها مراراً وتكراراً. و بعد ذلك تأتي الزيارات الساذجة للمكاتب لترى أين عُرضت النسخ، أفي صدر المكتبة، أم أُخفيت خجلاً في أحد أركانها. ويلي ذلك انتظار الرسائل الأولى، والملاحظات الأولى، والردود الأولى من

المجهولين الكثار. وإني لأضمر حسداً للشاب الذي يرمي كتابه الأول إلى العالم على ترقبه وانفعاله وحماسته! ولكن فرحي كان مجرد افتتان باللحظة الأولى وليس رضا عن النفس على الإطلاق. ورأيي في تلك الأشعار المبكرة تظهره حقيقة بسيطة وهي أنني لم أحُل فقط دون إعادة طباعة «أوتار فضية» (عنوان باكورتي المنسيّ الآن)، بل لم أدرج أياً من قصائدها في «الأعمال الشعرية الكاملة». كانت تلك القصائد تعبر عن هواجس غامضة، ومشاعر فطرية، ولم تكن وليدة تجربتي الخاصة، بل وليدة شغف باللغة. ومع ذلك كان فيها من الموسيقية والإحساس بالشكل ما لفت انتباه المعنيين بالشعر، ولذلك لم أفتقر إلى التشجيع. فالشاعران ليلينكرون ودهمل اللذان كانا آنذاك أبرز الشعراء الغنائيين، قد منحا الشاعر الذي كان في التاسعة عشرة من العمر اعترافاً أخوياً صادقاً. وريلكه الذي كنت أعبده أهداني مقابل «الكتاب الحسن التقديم» نسخة من الطبعة الخاصة لآخر أشعاره كتب عليها «مع الشكر»، وقد أنقذت هذه النسخة التي كانت إحدى أغلى ذكريات الشباب من أنقاض النمسا، وأخذتها معي إلى إنكلترا. أين هي اليوم؟ الأمر العجيب حقاً هو أن هذه الهدية الأولى من هدايا ريلكه العديدة عمرها الآن أربعون سنة، وأن الكتابة الأليفة عليها تعيدني إلى الحياة من عالم الموتى. ولكن ما فاجأني أكثر من أي أمر آخر هو أن ماكس رجنر، أعظم الموسيقيين بعد شتراوس آنذاك، قد طلب مني الموافقة على تلحين ست قصائد من الكتاب. ومنذ ذلك الوقت كم مرة سمعت هذه القصيدة أو تلك في الحفلات الموسيقية ـ إن أشعاري المهملة المنسية منذ عهد بعيد قد حملتها عبر الزمن موسيقا فنان كبير.

إن هذا الاستحسان غير المتوقع الذي رافقه نشر ملاحظات ودية أيضاً قد شجعني على اتخاذ خطوة ما كنت بسبب ارتيابي العضال لأتخذها، أو ما كنت لأتخذها في سن مبكرة إلى هذا الحد على الأقل. فلقد نشرت حتى وأنا في المدرسة الثانوية قصصاً قصيرة ومقالات إضافة إلى القصائد في منشورات «المُحْدثين» الأدبية، غير أني لم أجرؤ قط على تقديم أي من محاولاتي إلى صحيفة ذات نفوذ أو واسعة الانتشار. كان في فيينا صحيفة واحدة في الحقيقة رفيعة المستوى هي Neue Freie Presse التي جعلتها مبادئها الجليلة، ومساعيها الثقافية، وسمعتها السياسية، تتخذ دور The times في

إنكلترا، أو Temps في فرنسا. و ما من صحيفة حتى في الرايخ الألماني كانت مثلها شديدة التدقيق في مستواها الفكري. فالمحرر مورتس بنيديكت، وهو رجل ذو قدرات تنظيمية هائلة، ومثابر لا يكلّ، قد كرّس كامل طاقته العظيمة ابتغاء التفوق على كل الصحف الألمانية في حقليْ الثقافة والأدب. لم يكن يدخر مالاً إن أراد شيئاً من كاتب بارز. كان يرسل برقيات متتالية، ويوافق مقدّماً على أي مكافأة. وكانت أعداد العطلة في عيد الميلاد والعام الجديد تشكل ملاحقها الأدبية كتباً كاملة، وتضمّ أشهر الأسماء في ذلك الزمن. إن أناتول فرانس، وجيرهارت هويتمان، وإبسن، وزولا، وسترندبرغ، وبرناردشو قد وجدوا أنفسهم منضوين إلى هذه الصحيفة التي كانت بالغة التأثير في التوجهات الأدبية في المدينة والبلاد كلها. لقد كانت هذه الصحيفة في حقيقة الأمر تقدمية، وليبرالية في آرائها، ومتعلقة وحذرة في سياستها، وممثلة تمثيلاً نموذجياً للتطلعات الأدبية السامية للنمسا القديمة.

إن معبد التقدم هذا قد احتفظ بأثر مقدس آخر في ما سُمّي Feuilleton (سلسلة)، أي كانت تنشر، شأن صحف باريس الكبرى من مثل Temps وJournal des Debats، مقالات رائعة ومعتمَدة عن الشعر والمسرح والموسيقا والفن في النصف الأسفل من الصفحة الأولى، وهذه المقالات يفصلها فصلاً حاداً عن أخبار السياسة العابرة خط متصل يمتد من الهامش إلى الهامش. وفي هذا الحيّز لم يسمح إلا للثقات بالتعبير عن أنفسهم. فالتقويم السديد، وتجربة الأعوام النسبية، والشكل الفني المكتمل، هي وحدها ما كان يدعو كاتباً إلى هذا المكان المقدس بعد فترة اختبار طويلة. كان لودفيغ سبايدل، سيد القلم، وإدوارد هانزلك، يتمتعان في مجاليْ المسرح و الموسيقا بالسلطة البابوية ذاتها التي تمتع بها سانت بيف في باريس. ولفظ نعم أو لا منهما كان يقرر في فيينا نجاح عمل أو مسرحية أو كتاب، وبالتالي نجاح الكاتب. و كل مقالة من تلك المقالات كانت حديث اليوم في حلقات المثقفين. كانت تُناقش، وتُنتقد، وتُستحسن أو تُستنكر. كان بروز اسم جديد بين أولئك الأعلام المشاركين في السلسلة حادثة هامة. ومن الجيل الأصغر لم ينل القبول إلا هوفمنزثال بما كتبه من مقالات قليلة ممتازة. واضطر كتاب شباب آخرون إلى الرضا بالتسلل إلى الصحيفة. واللجوء إلى القسم الأدبي في آخرها. وأما من كان يظهر في الصفحة الأولى فقد كان اسمه ينحت في الرخام بقدر ما كان الأمر يخص فيينا.

من الصعب عليّ الآن أن أتفهم كيف تشجعتُ على تقديم مقالة قصيرة عن الشعر إلى صحيفة Neue Freie Presse ، عرّافة آبائي، ومعبد كبار الكهنة. و لكن رغم كل شيء لم يكن ممكناً أن يحدث شيء أسوأ من رفضها.

إن مغزى الموافقة على نشر مقالتي في سلسلة الصحيفة كان يكمن في أثره على حياتي. لقد كفل لي ذلك علاقة آمنة غير متوقعة مع أسرتي. فوالداي لم يشغلا نفسيهما بالأدب إلا قليلاً، ولم يدّعيا القدرة على التمييز. فالأمر المهم في نظرهما، مثلهم مثل برجوازية فيينا كلها، هو ما كانت تُطريه الصحيفة، والأمر غير المهم هو ما كانت تتجاهله أو تنتقده. وكل ما كان يظهر في السلسلة كان يبدو أن السلطة العليا تكفله، لأن مجرد الموقع الذي شغله القادرون على الحكم قد جعلهم جديرين بالاحترام. تخيّلْ أسرة تنظر كل يوم إلى الصفحة الأولى من الصحيفة نظرة الهائب المتوقع، وذات صباح تكتشف فجأة أن ابنها البالغ التاسعة عشرة من العمر، والذي يهمل آداب المائدة،ولم يكن جيداً جداً في المدرسة، وكانوا يعتبرون خربشاته لعباً غير مضرّ (آمنُ من لعب الورق والمغازلات)، سمح له بالتعبير عن رأيه (الذي لم يلقَ إلا اهتماماً قليلاً في البيت حتى ذلك الوقت) في هذه السلسلة من أصحاب الخبرة والشهرة. ولو كتبت أجمل قصائد كيتس أو هولدرلن أو شيللي، لما أحدثت ذلك التحول الكامل في محيطي. فكلما دخلت إلى المسرح، أشار الناس إلى هذا الشاب الغريب الذي اخترق حرم الكبار المشهورين اختراقاً مكتنفاً بالغموض. بعد أن نشرت مقالتي في السلسلة، أصبح خطر التحول إلى شخص مشهور يتهددني بانتظام تقريباً، وهو خطر تمكنت من النجاة منه في الوقت المناسب، وذلك حين فاجأت أبويّ بالإعلان أنني راغب في الدراسة في برلين خلال الفصل التالي. كانت أسرتي تكنّ لي من الاحترام، أو بالأحرى لصحيفة Neue Freie Presse، ما جعلها عاجزة عن رفض رغبتي.

وبالطبع لم أكن أنوي «الدراسة» في برلين. ففي فيينا كنت أذهب إلى الجامعة مرتين خلال الفصل، مرة لأدرج اسمي في سجل المحاضرات، و مرة للحصول على وثيقة حضوري المفترض، وما نشدته في برلين ليس الكليات و لا الأساتذة، بل حرية أفضل

وأكمل. ففي فيينا كنت أشعر بأنني مرتبط بالمحيط الذي أنتمي إليه، فزملائي الأدباء كانوا كلهم مثلي تقريباً من الطبقة البرجوازية اليهودية في تلك المدينة الضيقة التي يعرف أهلها بعضهم بعضاً. لقد كنت دوماً ابن أسرة «راقية»، وكنت بَرِماً بما يدعى المجتمع «الراقي»، و كنت أتوق إلى مجتمع «سيىء»، إلى حياة لا تحكُّمَ فيها ولا إكراه. وفي جامعة برلين لم أحاول معرفة من يدّرس الفلسفة، كان يكفي أن أعرف أن الأدب هناك أكثر اندفاعاً ونشاطاً منه في فيينا، وأن من الممكن لقاء دهمل و شعراء آخرين من الجيل الشاب، وأن المجلات والملاهي والمسارح شغّالة على الدوام، أي أن «شيئاً ما يجري».

لقد ذهبت إلى برلين في لحظة تاريخية مثيرة في واقع الأمر. فمنذ ١٨٧٠، حين تحولت برلين، عاصمة مملكة بروسيا الهادئة، والصغيرة بعض الشيء وغير الغنية على الإطلاق، إلى مقر للإمبراطور الألماني، فإن المدينة الواقعة على نهر سبري Spree قد شهدت حركة ناشطة وصاعدة. ولكن القيادة في القضايا الفنية والثقافية لم تكن قد تولّتها بعد، إذ كانت مونيخ بفنانيها وشعرائها تُعتبر المركز الفعلي للفن، وأوبرا دريسدن تهيمن على المجال الموسيقي، وعواصم الأقاليم تجذب إليها عناصر ذات شأن. ومع أن فيينا قد بقيت مهيمنة على برلين بما لها من تراث عمره قرن، وسلطة مركزّة، وموهبة نظرية، فإن صفحة قد طويت بعد النهوض الاقتصادي السريع الذي شهدته برلين في الأعوام الأخيرة. وانتقلت الشركات الكبيرة، والأسر الثرية، إلى برلين، وأتاحت الثروة الجديدة المقترنة بالجرأة الشديدة فرصاً للمسرح والعمارة أعظم مما أتاحته أي مدينة ألمانية أخرى. واغتنت المتاحف تحت رعاية الإمبراطور ويلهم، ووجد المسرح في أوتو برام مديراً قدوةً.ولأن المدينة لا تراث حقيقياً لها، و لا ثقافة عمرها قرن، أغري الشباب باجتراح المحاولة. وفي حين أن فيينا المتشبثة بالقديم، والعابدة ماضيها، كانت متحفظة، وغير ملتزمة احترام الشباب، والتجارب الجريئة، فإن السعي إلى التجديد كان جارياً في برلين الراغبة في التعجيل في تكوين ذاتها بذاتها. لذلك كان من الطبيعي أن يؤمّ برلين شباب الرايخ كله، وحتى شباب النمسا، وأثبتت النتائج للموهبين منهم أنهم كانوا على حق. فلو بقي ماكس راينهارت في فيينا، لكان عليه أن ينتظر عقدين من الزمن حتى يحرز الموقع الذي أحرز في برلين في عامين.

لقد ذهبتُ إلى برلين في هذه المرحلة بالذات، مرحلة تحوّلها من مجرد عاصمة إلى مدينة عالمية. كان الانطباع الأول مخيّباً للأمل إلى حد ما بعد جمال فيينا المترف المتوارث كابراً عن كابر. كان النزوح قد بدأ إلى ويست إند، حيث أخذت تظهر العمارة الجديدة في مقابل منازل حي تيرجارتن المتسمة بالفخفخة، وكان شارع فريدريك، وشارع لايبزغ، مازالا مركز المدينة بطرازهما المعماري الرتيب، وتظاهرهما الأخرق بالفخامة. ولم يكن المرء يصل إلى ضواحٍ من مثل ولمرسدورف ونيكولاسي، وستجلتس إلا بعد رحلة شاقة بالترامات. وفي تلك الأيام كان بلوغ بحيرات مارك ذات الجمال الحاد ضرباً من السفر الطويل.وسوى أنتر دن ليندن لم يكن هناك أي مركز للبيع والشراء، ولا متنزه مثل جرابن، وبفضل اقتصاد بروسيا العريق في الإنفاق لم يقترح أي اقتراح يتعلق بالأناقة العامة. كانت النساء تذهبن إلى المسرح في أثواب غير جذّابة من صنع أيديهن، وفي كل مكان كان المرء يفتقد الأعمال اليدوية الخفيفة الماهرة السخية التي كانت تبتكر في فيينا، كما في باريس، وفرةً ساحرة من أشياء قليلة. وفي كل تفصيل كان المرء يشعر بانقباض الكف الذي تميّز به اقتصاد فريدريك. كانت القهوة رقيقة ورديئة لأن كل حبة كانت تؤخذ بالحسبان، وكان الطعام تَفِهاً بلا طعم ولا نكهة طيبة. وبدلاً من إيقاع حياتنا الموسيقي، كانت النظافة، والنظام الصارم الدقيق، سائدين في كل مكان. لاشيء بدا لي صفة مميزة أكثر من التباين بين مؤجّرات المنازل في فيينا وبرلين. ففي فيينا كانت صاحبة المنزل امرأة مرحة متبسطة في الحديث، لا تحافظ كثيراً على نظافة الأشياء، وسرعان ما تنسى هذا الشيء أو ذاك، ولكنها متحمسة للخدمة. و أما نظيرتها في برلين فكانت مراعية للأصول، وتنظيم الأشياء تنظيماً دقيقاً، ولكني وجدت في الحساب الشهري الأول أن كل خدمة قدمتها لي قد سُجّلت في قائمة أنيقة: ثلاث بفنغات Pfennigs أجرة خياطة زر بنطال، وعشرون أجرة إزالة بقعة حبر عن غطاء الطاولة، وهكذا حتى آخر القائمة، حيث بلغ مجمل أتعابها ٦٧ بفنغاً. في البداية ضحكت من هذا التصرف، غير أن اللياقة جعلتني بعد بضعة أيام أمتثل للنظام البروسي، وأحتفظ للمرة الأولى والأخيرة في حياتي بحساب دقيق لكل نفقاتي.

كان أصدقائي في فيينا قد كتبوا لي سلسلة كاملة من المقدّمات، ولم أكتب أنا

مقدمة واحدة لأي منهم. ورغم كل شيء فإن الغاية من مغامرتي قد كانت في الحقيقة تحاشي أي جو برجوازي مطمئن، والاعتماد، بعد التحرر منه، على نفسي بالكلية. أردت أن ألقى الناس عن طريق جهودي الأدبية الخاصة حصراً، وألا ألتقي إلا أكثر الناس إثارة للاهتمام. فأنا لم أقرأ «البوهيمي» في العشرين من العمر عبثاً، أي من غير نزوع إلى حياة مماثلة.

ولم يطل الوقت حتى عثرت على جماعة غير مبالية تشكّلت عرضاً. وكنت و أنا في فيينا قد تعاونت مع صحيفة «المُحْدثَين» في برلين، والتي سُمّيت تهكماً «المجتمع»، وكان يديرها لودفيغ جاكوبوفسكي. كان هذا الشاعر قد أسس قبل وفاته المبكرة بقليل نادياً حمل اسماً جذاباً هو «القادمون»، وكان أعضاؤه يلتقون مرة كل أسبوع في الطابق الثاني لمقهى في نولندورف بلاتس. وفي هذه الحلقة الكبيرة المشكلة على غرار Closerie des lilas الباريسية، حيث كان يحتشد خليط من الشعراء، والمعماريين، والصحفيين، والنفّاجين، والصبايا اللواتي يلقّبن أنفسهن نحّاتات أو خبيرات في الفن، والطلاب الروس، والسكاندينافيين ذوي الشعر الأبيض كالثلج، والراغبين في تحسين لغتهم الألمانية. كانت ألمانيا نفسها ممثلة في هذا النادي بكل أقاليمها، فكان هناك فستفاليون أشداء، وبافاريون ذو وقار، ويهود من سيليسيا، وهؤلاء جميعهم كانوا متورطين في جدال صاخب حرّ تماماً. ومع أنهم كانوا يقرؤون أحياناً قصائد ومسرحيات، فإن التعارف كان غاية الجميع. كان يجالس هؤلاء الشباب المتشبهّين بالبوهيميين رجل مسنّ أشيب اللحية يشبه بابا نويل، ويحظى باحترام الجميع وحبهم لأنه كان شاعراً وبوهيمياً، وهذا الرجل هو بيتر هيل. كانت عينا هذا السبعيني الزرقاوان القلقتان تنظران إلى هذا الحشد المذهل من الأولاد في رفق وبراءة، وهو ملتفّ على الدوام في معطفه الرمادي السميك الذي يغطي بذلة بالية، وملابس كتانية متسخة. وبابتهاج كان يلبّي ترجيّاتنا، ويخرج مخطوطات مجعدة من جيب معطفه، ويقرأ قصائده. كانت قصائد متفاوتة الجودة، ارتجالات عبقرية غنائية في الواقع، ولكنها مفتقرة إلى النظام والتماسك. كان يدوّنها بقلم الرصاص في الترامات أو المقاهي، ثم ينساها، وعند إلقائها كان يجد صعوبة في العثور ثانية على الكلمات على قصاصات الورق المبقعّة المشوّشة. و مع أنه كان صفر اليد، فقد كان لا يبالي. كان عادة

ينام حيث يُدعى، وكان نسيانه الدنيا، وافتقاره المطلق إلى الطموح، يتصفان بالصدق المثير للشفقة. لم نفهم تماماً متى وكيف اتفق أن كان رجل الغابة الطيب هذا في مدينة كبيرة مثل برلين، وما الذي يبتغيه هناك. لم يكن يبتغي شيئاً، لم يكن يرغب في أن يكون مشهوراً أو معروفاً بين الناس، وأحلامه الشاعرية قد جعلته أكثر من عرفت في ما بعد تحرراً من العلاقات. وأخلاهم من الهم. كان أصحاب الطموح يتناقشون ويتصايحون حوله، وكان هو يخلد إلى الصمت لا يجادل أحداً، ويرفع كأسه أحياناً، ويشرب نخب أحدهم، إلا أنه قلما كان يخوض في الحديث. وفي أثناء ذلك العياط الصاخب، تشكل عندنا انطباع أن الكلمات و المقاطع الشعرية كانت تبحث عن بعضها بعضاً في رأسه المتعب المشعّث الشعر من غير أن تتلامس أو تتلاقى مطلقاً.

إن هذه السجيّة الصادقة البريئة التي تحلّى بها هذا الشاعر البسيط الذي يكاد يكون منسياً اليوم في ألمانيا، ربما صرفت انتباهي عن رئيس نادي «القادمون» المنتخب، و مع ذلك كان لكلمات هذا الرجل وأفكاره أثر فعّال في تكوين حياة ناس كثيرين. وفي شخص رودولف شتاينر الذي أنشأ تلاميذه فيما بعد مدارس وأكاديميات رائعة من أجل نشر تعاليم هذا المؤسس للأنثروبوصوفية Anthropsophy، لقيت أول مرة رجلاً قُدّر له أن يؤثر في ملايين البشر. كان في عينيه الداكنتين طاقة مغناطيسية، وكنتُ أحسنَ إصغاءً إليه، و أكثر انتقاداً له عند عدم النظر إليه، لأن وجهه النحيل الذي يشبه وجه زاهد، والذي نحتته المعاناة الروحية، قد طُبع على الإقناع - ليس على إقناع النساء فقط. وفي ذلك الوقت لم يكن شتاينر قد صاغ بعد نظرياته، بل كان يسعى في طلب العلم. وفي بعض الأحيان كان يتلو علينا تعليقات على نظريات اللون عند غوته تظهر فيها صورة هذا الشاعر أقرب إلى صورة فاوست، والعالِم باراسلسوس Paracelsus منها إلى صورة أي شخص آخر. كان الإصغاء إليه تجربة مثيرة، وذلك لأن ثقافته كانت هائلة ومختلفة عن ثقافتنا المقتصرة على الأدب فقط. وكنت أعود دائماً إلى المنزل بعد محاضراته، وبعد كثير من الحوارات الخاصة، نشوان وكئيباً بعض الشيء. وعليّ أن أعترف اعترافاً يشعرني بالخجل، وهو أنني لم أتنبأ بما سيكون لذلك الشاب من تأثير فلسفي وأخلاقي عظيم في الجمهور. لقد توقعت من عقله الباحث أشياء كبيرة، ولم يكن ليدهشني على الإطلاق أن أسمع عن اكتشاف بيولوجي مهمّ

أنجزته روحه النزاعة إلى الحدس، ولكن عندما رأيت بعد أعوام عديدة معهد غوته الفخم في دورناخ، «مدرسة الحكمة» هذه التي أسسها تلاميذه كأكاديمية أفلاطونية للأنثروبوصوفية، شعرت بالحزن لأن طاقته قد اتخذت منحى مادياً، وأحياناً منحى عادياً أيضاً. أنا لا أزعم أنني قادر على تقويم الأنثروبوصوفية، لأنني حتى اليوم لست على بينة مما تسعى إليه أو تعنيه، وأظن أن قوتها المغْرية كلها غير مرتبطة بفكرة ،بل بما في شخصية شتاينر من سحر. ومع ذلك ، فإن لقاء رجل له هذه الشخصية الجذابة في مرحلة مبكرة، حين كان يجود بما عنده على الشباب المحيطين به بكل مودة، ومن غير جزم واستعلاء، قد كان كسباً عظيماً لي. إن معرفته الغريبة والعميقة في آن معاً قد جعلتني أدرك أن العالمية التي اعتقدنا أننا تمكّنا منها، نحن طلاب الثانوية المزهوين بأنفسهم زهواً مفرطاً، لم تكن لتُكتسب بالقراءة والمناقشة المستعجلة، بل بأعوام من الجهد المضني.

وفي تلك المرحلة المتفتحة التي كان يسهل فيها إقامة الصداقات، ولم تكن الفروق الاجتماعية والسياسية قد تحجرت بعد، كان تعلم الشاب أهم الأمور من الذين يكافحون معه خير من تعلمها من الذين يكبرونه. وشعرت أيضاً ـ ولكن على مستوى أعلى وأشمل من المدرسة الثانوية ـ كم يمكن أن تكون الحماسة الجماعية مثمرة. ففي حين أن معظم أصدقائي في فيينا كانوا ينتمون إلى الطبقات الوسطى، وتسعة أعشارهم من البرجوازية اليهودية، أي أن ميولنا كانت متناسخة أو متضاعفة، فإن الشباب في هذا العالم الجديد كانوا ينتمون إلى طبقات متناقضة تماماً، سواء أكانوا من فوق أم من تحت، إذ كنت تجد الأرستقراطي البروسي، وابن عامل الشحن من هامبورغ، وابن الفلاح من فستفاليا. ووجدت نفسي على حين غرة في حلقة من الفقراء ذوي الملابس البالية، والأحذية المهترئة، وهذا جو لم ألمسه في فيينا قط. جلست إلى الطاولة ذاتها مع مولعين بالشراب، ولوطيين، ومدمني مورفين. و صافحت ـ بكل فخر ـ محتالاً معروفاً جداً كان في السجن، وأصبح واحداً منا لأنه صاحب مذكرات منشورة. إن كل شخصيات الأدب الواقعي البغيضة في ظاهر الأمر قد اندفعت واحتشدت في المقاهي والحانات الصغيرة التي أُدخلتُ إليها، وكنت أميل إلى لقاء أسوأ تلك الشخصيات سمعةً. وهذا الميل أو الرغبة في معرفة الذين يعيشون حياة خطرة قد لازمني طيلة

حياتي. وحتى في السنوات التي كان مناسباً أن أكون فيها أكثر تدقيقاً في الاختبار، لامني أصدقائي على الارتباط بمثل هذه الشخصيات الخليعة المريبة. ولعل الجو الموسر الذي أتيت منه، وشعوري بأنني مثقل إلى حد ما بعبء عقدة «الأمان»، قد جعلني مفتوناً بأولئك الذين كانوا يبددون ويزدرون حياتهم، ووقتهم، ومالهم، وصحتهم، وسمعتهم، أولئك الأفراد ذوي القلوب الوقّادة، والذي كان هوسهم الوحيد مجرد الوجود من دون هدف، ولعلك تلاحظ في رواياتي وقصصي ميلي إلى الطبائع العنيفة الجامحة، إضافة إلى افتتاني بالغرائب. إن كل واحد منهم تقريباً قد أسهم من عالمه الغريب في شغفي هذا. فلقد واجهت أول مرة يهودياً شرقياً في شخص الفنان إي.م.ليليان، وهو ابن خراّط خشب فقير متشدد من دروهوبكس، ووقفت على اليهودية المتعصبة العنيدة التي لم أعرفها من قبل. وواجهت شاباً روسياً ترجم أجمل أجزاء «الأخوة كرامازوف» التي كانت مجهولة في ألمانيا حينئذٍ، وأرتني شابة سويدية أول صوري التي رسمها مونك، وترددت إلى مراسم فنانين فقراء للاطلاع على أساليبهم، وأخذني أحد المؤمنين إلى جلسة استحضار أرواح - لقد عشت تجارب متعددة الوجوه والأشكال، ولم أبلغ ما يكفيني. إن الجهد الذي استنفد ذاته في المدرسة الثانوية في القوافي والأشعار والكلمات قد قذف بنفسه الآن ضد التيار. ففي برلين كنت ألتقي دوماً بشراً جدداً ومختلفين أُسرّ بهم للغاية، ويخيبّون أملي، ويخدعونني أيضاً. وأعتقد أن الصحبة الفكرية التي تمتعت بها في ذلك الفصل القصير في برلين، حيث نلت حرية تامة أول مرة، لم أتمتع بها قط خلال عشر سنوات.

ولقد يبدو معقولاً تماماً أن يؤدي هذا التحفيز المتنوع غير العادي إلى زيادة غير عادية في رغبتي في الإنتاج. وما حدث بالفعل هو عكس ذلك تماماً. إذ أن ثقتي بنفسي التي قوّاها الإطراء المفرط المتبادل بيننا في الثانوية قد تضاءلت تضاؤلاً ملحوظاً. وبعد ذلك بأربعة أشهر، لم أعد أفهم من أين واتتني الشجاعة على نشر ذلك الكتاب الذي ضمّ أشعاراً غير ناضجة. ومازلت أعتقد أن القصائد جيدة وجديرة بالنشر، ويمكن اعتبارها أعمالاً رائعة أيضاً دفعني إلى إبداعها فرح اللعب بالأشكال، ولكن عاطفتها المفرطة لم تكن واقعية. لقد حدست رائحة ورق معطّر في قصصي الأولى التي كتبتها من غير علم بالواقع، واتبعت فيها أسلوباً متبعاً. والرواية غير

المنتهية التي أحضرتها معي إلى برلين، وظننت أنها ستسعد الناشر، ما لبثت أن أججت النار في المدفأة، لأن ثقتي بكفاءة صفي الثانوي تلقّت ضربة شديدة مع نظرتي الخاطفة الأولى إلى واقع الحياة. وشعرت كأنني أُعدتُ إلى المدرسة عدة أعوام. والحقيقة هي أن ستة أعوام قد انقضت قبل أن أنشر مجموعتي الشعرية الثانية، ولم يظهر كتابي النثري الأول إلا بعد ثلاثة أعوام أو أربعة. وبعد أن نصحني دهمل الذي أنا شاكر له نصيحته حتى هذا اليوم، انكببت على الترجمة من اللغات الأجنبية، وأنا أعتبر الترجمة حتى الآن أفضل طريقة يتبعها الشاعر الشاب حتى يفهم روح لغته فهماً عميقاً و خلاّقاً. ترجمت أشعار بودلير، وبعض أشعار فيرلين، وكيتس، ووليام موريس، ومسرحية قصيرة للكاتب شارلز فان ليربيرغيهن، ورواية pour me Faire la main للكاتب ليمونير. ولأن كل لغة أجنبية تبدي أخصُّ صياغتها مقاومة في البداية لأولئك الذين يحاولون نسْخها، فإنها تستدعي طاقات التعبير التي إن لم يُبحث عنها لا تظهر، وهذا الجهد الرامي إلى بلوغ كنه اللغة الأجنبية، وصياغته بالمرونة ذاتها في لغة المترجم، قد كان على الدوام رغبة فنية تتصف عندي بالخصوصية. ولأن هذا العمل الصامت، وغير المشكور في الواقع، يتطلب صبراً ومثابرة، وهما فضيلتان قد أهملتُهما في المدرسة الثانوية إهمال المطمئن الجريء، فقد أصبح أثيراً عندي. وإن هذا النشاط المتواضع في نقل نفائس الفن قد اختبرت فيه أول مرة التثبت من عمل شيء مفيد حقاً يسوّغ لي وجودي.

في الأعوام التالية، أصبح الطريق واضحاً أمامي تماماً. عليّ أن أرى كثيراً وأتعلم كثيراً، وبعد ذلك أبدأ. عليّ أولاً أن أتعلم مبادئ العالم لا أن أخطو أمامه ومعي منشورات غير ناضجة. و برلين ذات الماء المالح قد زادتني ظمأ. نظرت حولي بحثاً عن بلد أسافر إليه في الصيف، ووقع اختياري على بلجيكا. فعند منعطف القرن شعر ذلك البلد بحافز فني غير عادي، وبمعنى ما كسف حتى فرنسا في قوته. إن معياراً رفيعاً للقوة الجديدة في أوروبا قد قدمه كنويف و روبس في الرسم، وقسطنطين مونيير، ومين Minne في الفنون التشكيلية، و فان در فيلده في الفنون التطبيقية، وميترلنك وإكهود و ليمونير في الشعر. ولكن الذي فتن الجميع قبل أي واحد آخر هو إميل فيرهارن،

وذلك لأنه أشار إلى طريق جديد تماماً إلى عروس الشعر الغنائي. لقد اكتشفته سراً، إن صحت العبارة، إذ كان آنذاك مجهولاً تماماً في ألمانيا، وفي الأدب الرسمي التبس اسمه باسم فيرلين، كما التبس اسم رولان باسم روستان. و إذا أحببت أحداً وحدك، تضاعف حبه له.

قد يلزمنا التوقف هنا قليلاً. إن سرعة الزمن الذي نعيش فيه، وكثرة تجاربه، تضعفا ذاكرته. وأنا لا أدري إذ كان اسم إميل فيرهارن يعني شيئاً في هذه الأيام. كان فيرهارن أول شاعر فرنسي حاول أن يعطي أوروبا ما أعطاه والت ويتمان لأمريكا، أي حرفة الإيمان بالزمن، بالمستقبل. كان قد بدأ يحب العالم الحديث، وأراد أن يفتحه من أجل الشعر، ففي حين أن آخرين قد رأوا الآلة شراً، والمدن قبيحة، والحاضر غير شاعري، فقد تحمس هو لكل اختراع جديد، ولكل إنجاز تقني، وفرح به فرحاً خاصاً. وهو قد فعل ذلك متعمداً حتى يتعمق في هذا الشغف. فتحولت قصائده الصغيرة الأولى إلى ترانيم عظيمة متدفقة. و نصح أمم أوروبا أن «يستحسن بعضها بعضاً». ووجدت فيه تفاؤلية جيلنا، هذه التفاؤلية التي لم تعد مفهومة في وقتنا الحاضر مع انحطاطنا المريع، وجدت تعبيرها الشعري الأول، وإن بعض قصائده ستظل مدة طويلة تعطي الدليل على أوروبا والإنسانية التي حلمنا بهما آنذاك.

لقد قصدت بروكسل من أجل التعرف إلى فيرهارن في الحقيقة. ولكن كاميل لومونير، ذلك الشاعر القوي المنسي في هذه الأيام ظلماً، والذي ترجمتُ إحدى رواياته إلى الألمانية، قال لي آسفاً: إن فيرهارن لا يأتي إلى بروكسل من قريته الصغيرة إلا نادراً، وفي ذلك الوقت كان غائباً. وتعويضاً من خيبتي قدّمني ألطف تقديم إلى فنانين بلجيكيين آخرين. التقيت الفنان الطاعن في السن قسطنطين مونير، ذلك العامل الباسل، وأقوى مصوري الطبقة العاملة، ثم التقيت فان در ستابن الذي يكاد يكون اليوم منسيّاً في سجلات الفن. ولكن كم كان هذا الفلمنكي الصغير اللحيم الوجه لطيفاً! وكم كان استقبالهما لي، هو وزوجته الهولندية الضخمة العريضة المرحة، حاراً! أراني أعماله، وتحدثنا طويلاً في ذلك الصباح الساطع عن الفن والأدب، و ما لبث لطف هذين الزوجين أن خلّصني من اضطرابي. وصارحتهم بما في نفسي من أسف على عدم لقاء الشخص الذي جئت إلى بروكسل لألقاه - فيرهارن.

هل تكلمت كثيراً؟ هل قلت شيئاً سخيفاً؟ على أي حال، لاحظت أن فان در ستابن و زوجته قد أخذا يبتسمان، و يتخالسان النظر. أحسست أن كلماتي قد فهماها فهماً خافياً عليّ، فاضطربت، واستأذنت، غير أنهما أصرّا على أن أتناول طعام الغداء معهما. على أن تلك البسمة الغريبة عادت إلى الانتقال من واحد إلى الآخر. شعرت بأن السر، إن وجد، فهو بين صديقين، لذلك أقلعت عن سفري المزمع إلى واترلو.

وسرعان ما انتصف النهار، وجلسنا في غرفة الطعام ـ كانت على مستوى الأرض كما في كل المنازل البلجيكية، وتتيح للمرء النظر إلى الشوارع من خلال زجاج النوافذ الملون ـ عندما توقف ظل فجأة أمام النافذة. نقرت إصبع على الزجاج الملون، وأخذ الجرس يرن رنيناً حاداً في آن معاً. قالت السيدة فان در ستابن: «هوذا!» ثم نهضت. لم أعرف ما قصدتْ، ولكن الباب قد فُتح، ودخل منه رجل قويّ الخطوات: كان الداخل فيرهارن. تعرفت الوجه من النظرة الأولى، إذ كان مألوفاً عندي من الصور. ضافهم فيرهارن، كما هي عادته من قبل، ولما سمعا بأنني قد بحثت عنه بلا طائل في الجوار كله، اتفقا بتبادل نظرة خاطفة على كتمان الأمر، ومفاجأتي به. وقف مواجهاً لي، مبتسماً للحيلة الناجحة التي سرعان ما استوعبها. شعرت أول مرة بقبضة يده القوية، ورأيت أول مرة نظرته الصافية اللطيفة. لقد عاد إلى المنزل مثقلاً كالعادة بالمغامرات والحماسة. وأخذ يتكلم وهو يُغِير على الطعام. كان قد عرّج على أصدقاء، وزار معرضاً، وما زالت نار تلك الساعة ملتهبة فيه. هكذا كان يرجع إلى المنزل دائماً، مبتهجاً بأي شيء، وكل شيء حتى الحادثة العارضة. وهذه الحماسة قد تحولت إلى عادة مقدسة، وكانت تنبعث من فمه مرة بعد أخرى مثل اللهب. كان يعرف على نحو مدهش كيف يختصر كلماته في إشارات مؤثرة. ومن الكلمة الأولى يستحوذ على مستمعيه، لأنه كان منفتحاً تماماً، ومتقبّلاً لكل جديد، غير رافض شيئاً، ومستعداً لكل شيء. كان يخرج نفسه من نفسه، إن صحت العبارة، ويلقي بها إلى الآخر بكل كيانه. ولقد سعدت مئات المرات، كما في هذه الساعة الأولى، بالاحتكاك العاصف الطاغي بوجوده. كان لا يعرف شيئاً عني حتى ذلك الوقت، ومع ذلك منحني ثقته لأنه سمع بأنني قريب من عمله ليس غير.

وبعد الغداء توالت المفاجآت. كان فان در ستابن قد تمنّى أن يحقق رغبته ورغبة فيرهارن في عمل تمثال نصفي للأخير، و كانت الجلسة الأخيرة مقررة في ذلك الوقت.

قال ستابن: إن حضوري هبة من هبات القدر اللطيفة، لأنه كان محتاجاً إلى من يتحدث إلى هذا الموديل الجموح في أثناء الجلسة لعل التكلم والاستماع يبعث الحيوية في وجهه. وهكذا حدّقت ساعتين في ذلك الوجه، و ذلك الجبين العالي الذي لا يُنسى، والذي شقّته أثلام السنين المشؤومة، وتلك الوفرة من خصل الشعر البني. كان وجهه قوي التكوين أحكمت تغطيته بشرة لفحتها الريح. وذقنه ناتئاً مثل صخرة. وفوق شفتيه الدقيقتين تدلّى شاربه العظيم. وتوتره كانت تشي به يداه، تانك اليدان النحيلتان الناعمتان، والقويتان مع ذلك، واللتان تنبض العروق فيهما نبضاً قوياً تحت بشرة رقيقة. كانت قوة إرادته كلها تنبعث من كتفيه الفلاحيّين العريضين اللذين كاد رأسه الصغير القوي العظم يبدو بالنسبة إليهما صغيراً جداً. لم يكن المرء يرى قوته إلا عندما ينهض. والآن عندما أنظر إلى التمثال ـ إن عملاً من أعمال ستابن لم يثبت في النهاية أنه أفضل من عمل تلك الساعة ـ أعرف مقدار صدقه، ومقدار اشتماله على طبيعة فيرهارن. إنه وثيقة عظمته الشعرية، ونُصُبُ قوةٍ خالدة.

تعلمت في تلك الساعات الثلاث أن أحب الرجل كما أحببته طيلة أعوام العمر. كانت ثقته بنفسه لا تبدو ولو لحظة واحدة أنها رضاً عن النفس. لقد بقي مستغنياً عن المال، وآثر العيش في الريف على كتابة سطر واحد. وبقي مستغنياً عن النجاح، ولم يحاول كسب مزيد منه بالتنازلات أو بالمحاباة أو بالولائم ـ لقد اكتفى بأصدقائه وولائهم المخلص له. كما بقي متحرراً من إغراءات شخصيته الخطرة عندما جاءته الشهرة وهو في ذروة العمر. وبقي منفتحاً بكل المعاني، لا يثقله أي كبت، ولا يربكه أي تفاخر. وهذه الشخصية الحرة المرحة الميالة إلى كل ألوان البهجة كان إقبالها على الحياة يشعر جليسها بالحيوية والنشاط. وهكذا وقف أمامي ـ أنا الذي كنت شاباً ـ شاعر متجسم كما تمنيت، وكما حلمت أن يقف. و بعد ساعة من لقائنا وصلت إلى قرار، وهو أن أخدم هذا الرجل، وأن أخدم عمله. كان القرار جريئاً، لأن كاتب الترانيم الأوروبي هذا لم يكن يعرفه إلا القلة آنذاك، وعرفت سلفاً أن ترجمة عمله الشعري العظيم، ومسرحياته الشعرية الثلاث سوف تصرفني عن عملي سنتين أو ثلاثاً. و لكن عزمي على تكريس كل طاقتي ووقتي وعاطفتي لترجمة عمل أجنبي، أي تولّي مهمة معنوية، قد أفادني فوائد جلّى. لقد أخذ بحثي وجهدي الملتبسان يكتسبان معنى. ولو

أردت اليوم أن أنصح كاتباً شاباً ما زال مرتاباً في طريقه، لحاولت إقناعه بأن يعدّل أو يترجم عملاً كبيراً. ففي التضحية إجمالاً ضمان أكثر للمبتدىء مما في إبداعه، ولا شيء يتفانى المرء في إنجازه يذهب سدى.

خلال العامين اللذين خصصتهما على وجه الحصر تقريباً من أجل ترجمة أعمال فيرهارن الشعرية، والتحضير لكتابة سيرته، سافرت كثيراً، وألقيت محاضرات عامة أحياناً. ولم ألبث أن تلقيت شكراً غير متوقع لانكبابي على هذا العمل غير المشكور في ظاهر الأمر، إذ تنبّه لي أصدقاؤه في الخارج، ثم أصدقائي أيضاً. وذات يوم زارتني إلين كي. كانت امرأة سويدية رائعة ناضلت بجرأة منقطعة النظير من أجل تحرير النساء في تلك الأيام المظلمة الحافلة بالمعارضة، وأشارت قبل فرويد إلى قابلية الشباب للانجراح في كتابها «قرن الطفل». ومن خلالها تعرفت إلى جيوفاني جينا، وحلقته الشعرية في إيطاليا، و اكتسب صديقاً مهمّاً هو النرويجي جوهان بوجر. وأبدى جورج براندز، المؤرخ الدولي للأدب، اهتماماً لطيفاً بي. وسرعان ما أصبح فيرهارن معروفاً في ألمانيا أكثر منه في لغته الوطنية. ألقى كينز، أعظم الممثلين، وموسيي Moissi شعره على الجمهور مستخدميْن ترجمتي، وقدّم ماكس راينهارت مسرحيته «الرواق» على خشبة المسرح الألماني. لقد حدث ما يسوّغ شعوري بالرضا.

ولكن حان الوقت الآن لأذكر أنني قد باشرت مهمة أخرى إلى جانب مهمة فيرهارن. كنت مضطراً إلى إنهاء حياتي الجامعية، والعودة إلى البيت معتمراً قلنسوة الدكتور. كان عليّ أن أتوفّر في بضعة أشهر على مواد الدراسة التي اشتغل بها الطلاب الأكثر استقراراً زهاء أربعة أعوام. وسهرت الليالي أحشو رأسي بالمعلومات مع إروين كولبنهور، أحد الأصدقاء الأدباء أيام الشباب، والذي ربما لا يحب الآن أن يُذكَر بذلك لأنه أصبح أحد شعراء ألمانيا الهتلرية وأكاديمييها المشهورين. ولكن الامتحان لم يُصعَّب عليّ. فالأستاذ اللطيف الذي كان يعرف كثيراً عن نشاطي الأدبي العام بحيث أنه لم يضايقني بالتفاصيل الصغيرة، قال لي في حديث خاص قبل الامتحان وهو يبتسم: «أنت تفضل ألا تُمتحن في علم المنطق»، ثم اصطحبني إلى الحقول حيث زاد إحساسي بالطمأنينة.كان أول امتحان اجتازه بامتياز، وآخر امتحان. ها أنذا قد أصبحت حراً «في الظاهر»، والأعوام التالية كلها كرّستها من أجل نضال واحد هدفه البقاء حراً «في الباطن» أيضاً، وهذا النضال تزداد مشقاته في زماننا على الدوام.

الفصل الخامس

باريس مدينة الشباب الأبدي

وعدت نفسي بباريس كهدية للعام الأول من حريتي الجديدة. وكنت قد عرفت هذه المدينة التي لا تتعب معرفة طفيفة من خلال زيارتين سابقتين، وكنت أعلم أن من يعيش فيها عامين وهو شاب يحمل معه ذكرى سعيدة لا ينساها أبداً. فما من مكان آخر يتنشق فيه الشاب جو الشباب كما يفعل في هذه المدينة التي تسلم نفسها للجميع، ومع ذلك لا تتيح لأحد أن يسبر غورها.

أنا أعرف أن باريس شبابي المبتهجة المبْهجة لم تعد موجودة، ومن الممكن ألا تستعاد تلك اللامبالاة العجيبة، بما أن أقسى يد على الأرض تكويها بالحديد المحمّى. ففي الساعة التي شرعت فيها في كتابة هذه السطور، بدأت الجيوش الألمانية والدبابات الألمانية تندفع مثل جموع النمل الأبيض لاستئصال الحيوية الرائعة، والروح المبتهجة، والتفتح المتورد الدائم لهذه المدينة الأكثر تناغماً من كل المدن. وهذا ما حدث، إذ أن راية الصليب المعقوف ترفرف على برج إيفل، وقوات العاصفة السوداء تستعرض قوتها استعراض المتحدي في شانزيليزيه نابليون. ومن بعيد أتعاطف مع القلوب المضطربة النبض في البيوت، ومع النظرات الذليلة المحدّقة للمواطنين الطيبين الذين يخبط الغزاة بجزماتهم أرض مطاعمهم ومقاهيهم الأثيرة. إن محنة أخرى قلما مسّتني، وهزّتني، وآلمتني كما فعل الهوان الذي أصاب هذه المدينة التي كانت فضيلتها الخاصة منح السعادة لكل من يدنو منها. هل ستقدر على منح الأجيال القادمة ما منحته لنا من درس بالغ الحكمة، ومثال بالغ الروعة على اقتران الحرية بالإبداع، والسخاء والإسراف المحبب بالاغتناء على الدوام؟

أنا أدري، أدري أن باريس لا تتعذب وحدها اليوم، فإن سائر أوروبا لن تكون

طيلة عقود قادمة ما كانته قبل الحرب العالمية الأولى. ثمة ظل لم ينحسر تماماً عن أفقها الذي كان ذات يوم وضّاء. فالشعور بالمرارة، والارتياب المتبادل بين أممها وشعوبها، قد بقيا في جسدها المشوّه كالسم الخبيث. ورغم التقدم الاجتماعي والتقني في ربع القرن الفاصل بين حربيْن عالميتين، لا توجد أمه واحدة في عالمنا الغربي الصغير لم تفقد ما لا حصر له من مباهج الحياة الخليّة. ولو أردت أن أصف كيف كان الإيطاليون واثقين بالناس، و فرحين كالأطفال حتى في قاع الفقر، وكيف كانوا يضحكون ويغنون في المطاعم، وكم كانوا ظرفاء في الضحك على الحاكم الفاسد، وكيف يسيرون الآن متجهّمين، وذقونهم بارزة إلى الأمام، وقلوبهم ملأى بالغضب، لو أردت ذلك، لاستغرق أياماً. أما زال ممكناً أن نتصور النمسا مقبلة على المرح بلا تحفظ، ومتكلة على سيدها الإمبراطور، وعلى الله الذي يسَّرَ لها أسباب الحياة؟ إن أحداً من الروس والألمان والأسبان لا يستطيع أن يقدّر كم امتصّ غول «الدولة» الشره العديم العاطفة حريةً وفرحاً من نخاع أرواحهم. فما تشعر به الشعوب كلها هو أن ظلاً غريباً يخيّم على حياتها عريضاً وثقيلاً. أما نحن الذين عرفنا عالم الحرية الفردية، فإننا نعرف ونستطيع أن نشهد أن أوروبا المستقرة قد تمتعت ذات يوم بحياة متنوعة الألوان. و نرتعد حين نفكر في عالمنا، وكيف أصبح مظلماً ومستعبداً ومقيّداً بسبب ضراوته الانتحارية.

ولكن تجربة الحياة الحرة البسيطة، والحكيمة مع ذلك، لم تكن في أي مكان أسعد منها في باريس، حيث عزّز كلَّ هذا تعزيزاً رائعاً جمالُ الشكل، واعتدالُ الجو، والثروةُ والتقاليد. وكل واحد منا، نحن الشباب، قد نال نصيبه من تلك الرقة، وأسهم فيها. فعلى ضفتيْ نهر السين شعر القادمون من الصين، و سكاندينافيا، وأسبانيا، واليونان، والبرازيل، وكندا بأنهم في بلادهم. لم يكن ثمة إكراه، واستطاع كل واحد أن يتكلم، ويفكر، ويضحك، ويسخر كما يشاء، وعاش على هواه وحيداً أو مع أصدقاء، مبذّراً أو مقتصداً، مترفاً أو على طريقة البوهيميين. كان هناك مجال لكل ما هو غير عادي، واحتياط لكل الفرص. كنتَ تجد المطاعم الفخمة المتفننة في الطبخ، والتي تقدم الخمور المعتقة مقابل مئتي فرنك أو ثلاث. و تجد الكونياك الفاحش الغلاء من أيام مارينجو وواترلو، ولكن كان يمكن أن يأكل المرء ويقصف أيضاً في أي حانة قريبة. وفي مطاعم

الطلاب المزدحمة في الحي اللاتيني كان في وسعك أن تحصل على لُقمَ ممتازة قبل شرائح اللحم وبعدها، إضافة إلى النبيذ الأحمر أو الأبيض، وقطعة الخبز الأبيض الرائع. وكان الناس يرتدون ما يحلو لهم من الملابس، فالطلاب كانوا يتنزهون في بول مش Boul'Mich بالبيريهات الأنيقة، والرسامون يعتمرون قبعات ضخمة واسعة على شكل فطر، ويلبسون جاكيتات مخمل سوداء، والعمال يتجولون في أرقى الجادات لابسين ستراتهم الزرقاء أو قمصانهم، والممرضات يعتمرن قبعات بريتانية عريضة متكسرّة، وأصحاب الحانات يلبسون وِزْرات زرقاء. لم يكن الشابان ينتظران الرابع عشر من تموز حتى يبدأان الرقص في الشارع بعد منتصف الليل أمام رجال الشرطة الضاحكين. كان الشارع يخصّ الجميع، ولم يكن ينزعج أحد من أحد. فالفتيات الجميلات كن لا يخجلن من الذهاب إلى أقرب فندق صغير متشابكات الأذرع مع زنوج سود كالفحم، أو مع صينيين مائلي العيون ـ من كان في باريس يبالي بالأغوال التي عُظّمت في ما بعد، أي العرق والطبقة والمنبت؟ كان كل واحد يسير، ويتكلم، وينام مع من أراد غير مكترث بالآخرين أي اكتراث. ولا بد أن يعرف المرء باريس حتى يحب باريس الحب اللائق بها، وحتى يختبر الخنوع المتأصل في ألمانيا ذات الوعي الطبقي المؤلم الحدة. فهناك لا تصاحب زوجة الضابط زوجة المعلم، وهذه لا تصاحب زوجة التاجر، والأخيرة لا تصاحب زوجة العامل. أما في باريس، فإن تراث الثورة ما زال حياً. فالعامل يشعر بأنه مواطن حر وذو شأن مثل ربّ عمله. وفي المقهى، يصافح النادل الجنرال المزركش بالشرائط الذهبية، مصافحة حارة، والمرأة البرجوازية المتواضعة الحصيفة المتزنة لا تشمخ بأنفها عند لقاء البغي التي تسكن في الطابق ذاته، بل تتبسط معها في الحديث على الدرج، والأولاد يقدمون لها الورود. وفي مطعم فخم ـ كان مطعم لارو Larue القريب من مادلين Madeleine ـ رأيت ذات مرة فلاحين نورمنديين أغنياء قادمين من حفلة تعميد. دخلوا المطعم خابطين الأرض بجزمات كالحوافر، ولابسين ثياباً قروية، وشعرهم الذي أشبعوه دهناً كان يمكن اشتمام رائحته من المطبخ. انطلقت نفوسهم للحديث، وكانت المحادثة تزداد صخباً كلما شربوا، وكانوا ينكزون صدور زوجاتهم السِمَان متواقحين ضاحكين. وكونهم فلاحين أقحاحاً لم يحرجهم أي إحراج أن يجلسوا بين رجال ونساء ذوي ملابس أنيقة وجميلة. وحتى النادل الأملس الذقن لم يرفع أنفه كما يفعل

النادل في ألمانيا أو إنكلترا في حضرة مثل هذه المجموعة الريفية، بل أدى لهم الخدمة بكل تهذيب، وعلى أكمل وجه كما يؤديها للوزراء وأصحاب السعادة، ووجد صاحب الفندق متعة في الترحيب ترحيباً حاراً بأولئك الضيوف غير العاديين. كانت باريس لا تعرف إلا مزيجاً من التباينات، لا أحد فوق ولا أحد تحت، ولم يكن ثمة حاجز منظور بين الشوارع الفخمة، و الأزقة القذرة، بل كانت كلها في المرح والحياة سواء. وفي باحات الضواحي كان الموسيقيون الجوالون يعزفون موسيقاهم، ويُسمع من خلال النوافذ غناء الفتيات في أثناء العمل. كان الهواء دائماً وفي كل مكان ملآن بالضحكات والتحيات الودية. ولئن اتفق أن تشاجر سائقان، فإنهما يتصافحان بعد ذلك، ويحتسيان معاً كأس نبيذ، ويأكلان بعض المحارات الرخيصة جداً. لا شيء كان عسيراً أو جامداً. كان من السهل إقامة العلاقات مع النساء، ومن السهل قطعها. وكل قيس كان يجد ليلاه، وكل شاب فتاةً سعيدة متحررة من التقاليد. آه ما أيسر وأحسن أن يحيا المرء في باريس، ولاسيما إن كان شاباً! كان مجرد التمشي مسرّة ودرساً في آن معاً، لأن كل شيء كان في المتناول. كان يمكنك أن تدخل إلى حانوت كتب قديمة، وتقضي ربع ساعة تقلّب الصفحات من غير أن يدمدم البائع أو يتذمر، وأن تقصد المعارض الصغيرة، وحوانيت الفن، وتستعرض السلع كما تشاء، وتعرّج على الفندق الذي يجري فيه المزاد، وتتجاذب أطراف الحديث مع مربيات الأطفال في الحدائق العامة. كان من الصعب أن تقف حالما تبدأ بالتسكع، لأن الشوارع كان تجتذبك اجتذاباً بألوانها المتنوعة المتكشفة باستمرار عن أشياء جديدة. و لئن تعبت جلست على رصيف أحد آلاف المقاهي، وكتبت رسائل على أوراق بلا مقابل، وفي الوقت ذاته وجدت باعة الشارع يحاولون بيعك كل ما معهم من حِلي وأدوات رخيصة. كان المكوث في البيت، أو الذهاب إليه، هو الأمر الصعب الوحيد، ولاسيما في فصل الربيع، والأضواء الناعمة الفضية ساطعة فوق السين، و أشجار الشوارع آخذة بالتبرعم، والفتيات حاملات باقات البنفسج التي دفعن ثمن الواحدة منها بنساً. ولكن فصل الربيع لم يكن بالضرورة هو الذي يجعل مزاجك رائقاً في باريس.

حين عرفت المدينة لم تكن ملتحمة تماماً كما هي اليوم نتيجة المترو والسيارات. كانت الباصات الضخمة المسيرّة بالبخار هي الغالبة على حركة السير. ومع ذلك، فإن

باريس لم تُكتشف قط بأيسر و أبهج من اكتشافها من أعلى عربات Imperials الواسعة، أو العربات المفتوحة التي تبطىء مثلها في السير. وفي ذلك الوقت كانت الرحلة من مونت مارتر إلى مونت بارناس ما تزال حدثاً مهماً. وانسجاماً مع اقتصاد البرجوازية الفرنسية في الإنفاق، أنا ميّال إلى تصديق الأسطورة القائلة: إن القاطنين على ضفة السين اليمني لم يذهبوا قط إلى الضفة اليسرى، وأن هناك أطفالاً لم يلعبوا إلا في حدائق لوكسمبورغ، وأنهم لم يروا قط حدائق تويريلي أو حديقة مونسو. كان المواطن المتمرس، أو البواب، يفضل البقاء «عنده» في حيّه الخاص. لقد بنى باريسه الصغيرة في باريسه الكبرى، ولذلك حافظت كل ناحية على طابعها المميز، وحتى المحليّ. وهكذا أصبح اختيار الغريب مضرب خيمته ذات أهمية عملية. إن الحي اللاتيني لم يعد يغريني. وكنت قد عدوت إليه من المحطة عندما عرّجت على باريس وأنا في العشرين. في الأمسية الأولى، جلست في مقهى فاشيت Vachette ، وشعرت بالرهبة وأنا أنظر إلى كرسي فيرلين، وطاولة الرخام التي كان يقرعها بعصاه وهو ثَمِلٌ حتى يفرض الاحترام اللائق. وبما أنني كنت نصيراً مخلصاً لا يشرب الكحول، فقد شربت كأساً من الجعة تكريماً له مع أن ذلك الشراب الضارب إلى الخضرة لم يكن سائغاً لي. ولكني شعرت كنصير متحمس في الحي اللاتيني بأنني ملزم بالتوافق مع طقس شعراء فرنسا الغنائيين. وفي ذلك الوقت كان عليّ أن أسكن في عليّة في الطابق السادس قرب السوربون - إحساساً مني بتناسب الأشياء - وذلك لكي أشارك مشاركة مخلصة في حياة الحي اللاتيني كما تخيّلتها من الكتب. وحين بلغت الخامسة والعشرين، تخلّيت عن هذه الرومانسية الساذجة، وبدا حي الطلاب أممياً إلى حد لا يمكن معه أن يكون باريسيا. وقبل كل شيء، كنت راغباً عن اختيار محل إقامتي الدائمة وفق ذكرياتي الأدبية، بل أن أقوم بعملي على أفضل وجه ممكن. بحثت بحثاً دقيقاً. كانت باريس الشانزيليزيه الأنيقة غير مناسبة للغرض على الإطلاق، وكان أقل مناسبة أيضاً الحيُّ المحيط بمقهى السلام Café de La paix حيث تجمّع كل البلقان الأغنياء، ولم يكن يتكلم الفرنسية إلا النُدُل. ومع أن ضاحية سان سولبيس الهادئة ذات الكنائس والأديرة، حيث أحب ريلكه وسواريز أن يسكنا، كانت تجتذبني أكثر من غيرها، فإنني أحببت أن أتخذ مسكناً على جزيرة سان لويس في المقام الأول، وذلك

لكي أكون على اتصال بالضفتين، اليمنى واليسرى. ولكن بينما كنت أتمشىّ ذات يوم خلال الأسبوع الأول من إقامتي، إذ حضيت بالعثور على شيء أفضل. تجولت في قاعات القصر الملكي Palais Royal، واكتشفت ما كان في الماضي قصراً حديث الطراز بين منازل الحي الكبير المتماثلة البناء، وكان قد بناه فيليب إجاليتيه في القرن الثامن عشر، ثم أفل نجمه، وانتهى الآن إلى فندق صغير قديم بعض الشيء. نظرت إلى إحدى الغرف، وسُررت حين رأيت النافذة تطل على حديقة القصر الملكي التي كانت تُغلق في أول الليل. لم أسمع إلا همهمة المدينة الخافتة التي تشبه في إيقاعها تكسر الأمواج على شاطئ بعيد. كانت التماثيل تلمع في ضوء القمر، وفي ساعات الصباح الأولى كانت الريح تحمل أحياناً روائح الخضراوات الفاغمة في الأسواق المجاورة. إن شعراء القرن الثامن عشر والتاسع عشر وساستهما قد سكنوا في حي القصر الملكي التاريخي هذا. ففي الناحية المقابلة تماماً كان المنزل الذي كثيراً ما ارتقى درجاته المئة الضيقة بلزاك وفيكتور هوجو إلى غرفة الشاعرة التي أحبتها كثيراً مارسلين ديبورد ـ فالمور. وهناك كان يلتمع تمثال كاميل ديمولان الذي حرّض الشعب على اكتساح الباستيل، وهناك كان الممر المستور حيث التمس الضابط الصغير المسكين بونابرت حماية بين النساء المتسكعات، وغير الفاضلات بأي حال. هنا كان تاريخ فرنسا ينطق به كل حجر، إضافة إلى أن المكتبة الوطنية التي كنت أقضي فيها صباحاتي كانت واقعة في الشارع الآخر، وكذلك اللوفر، والجادات المكتظة بالمارة. وأخيراً وجدت المكان الذي تمنيت السكن فيه في عمق باريس، حيث كان قلب فرنسا ينبض طيلة قرون دافئ الإيقاع. وأذكر أن أندريه جيد قد زارني مرة وتعجب من تلك السكينة في قلب باريس، فقال: «نحن نحتاج إلى غرباء لكي يجعلوننا نرى أجمل الأمكنة في مدينتنا.» وبالفعل لم يكن ممكناً أن أجد مكاناً أكثر باريسية، وأكثر عزلة في آن معاً، من حجرة المطالعة الرومانسية هذه في عمق أعماق المدينة.

كم طوّفت في الشوارع في تلك الأيام! وما أكثر ما رأيت، وبحثت وقد نفد صبري، لأنني لم أرغب في معرفة باريس ١٩٠٤ فقط! كنت أبحث بقلبي وعقلي عن باريس هنري الرابع، ولويس الرابع عشر، ونابليون والثورة، عن باريس ريتيف دولا

بريتون، وبلزاك، وزولا، وشارل ـ لويس فيليب، بكل شوارعها وشخصياتها، وأحداثها. وشعرت هنا، كما في كل أرجاء فرنسا، كم من الخلود يمكن أن ينعم به الأدبُ الصادق العظيم على شعب من الشعوب. فأنا كنت مطّلعاً سلفاً على كل شيء في باريس من خلال أعمال شعرائها، وروائييها، ومؤرخيها، وكتابها الذين كتبوا عن أزيائها وعاداتها، قبل أن أراها رأي العين. وحين لقيتها وجاها عادت إلى الحياة ليس غير، وهذه الرؤية المادية لم تكن في الحقيقة إلا ضرباً من التعرف الذي اعتبره أرسطو أعظم ما يرضي في الفن وأشدّه غموضاً. ومع ذلك فأنت لن تعرف أعماق شعب، أو مدينة، وأكثر صفاته أو صفاتها خفاء من خلال الكتب، حتى أكثرها إيغالاً في الشقوق والزوايا، بل تعرفها من خلال أفضل أبناء ذلك الشعب أو تلك المدينة. ومن خلال الصداقة الفكرية مع الأحياء فقط يمكن للمرء أن يستبين العلاقة الصحيحة بين الناس والبلاد، وأما الملاحظة من الخارج، فلا يمكن أن تمنحه أكثر من رؤية مبتسرة ومزيّفة.

لقد أُتيحت لي مثل هذه الصداقات. وأفضلها كانت صداقتي مع ليون بازالجيت. وبسبب صلتي الحميمة مع فيرهارن الذي كنت أزوره مرتين في الأسبوع في سان كلود، نجوت من الانضواء إلى حلقة الفنانين والكتاب العالميين كما كان يفعل معظم الأجانب ـ لأنهم لم يكونوا مختلفين هنا عن نظرائهم في ميونخ وروما وبرلين. ومع ذلك فقد زرت مع فيرهارن أولئك الفنانين والشعراء الذين سكنوا في وسط هذه المدينة المترفة ذات المزاج الغريب، وعاش كل واحد منهم من أجل عمله في سكينة إبداعية كأنه في جزيرة منعزلة. ورأيت أيضاً مرسم رينوار، والتقيت أفضل تلاميذه. إن أسلوب حياة هؤلاء الانطباعيين الذين تدّر أعمالهم عليهم اليوم مئات الجنيهات لم يختلف ظاهرها أي اختلاف عن أسلوب حياة أصحاب الدخول والطبقة الوسطى: منزل صغير ملحق به مرسم، لا تباهي به كالذي كان يظهره لينباخ وغيره من المشهورين في ميونخ بالفيلات المبنية على طراز منازل بومبي. كان الفنانون يعيشون حياة بسيطة كالشعراء الذين سرعان ما أَلِفتهُم و ألفوني. وكان لهم جميعاً وظائف حكومية صغيرة ليس فيها إلا القليل من العمل الفعلي. إن الاحترام العظيم الذي يظهره الفرنسيون من أعلاهم إلى أسفلهم للنشاط الفكري قد أوحى بالنظام الذكي الذي يمنح الشعراء والكتاب الذين لا يجنون من عملهم إلا دخولاً زهيدة وظائفَ خالية من العمل والمسؤولية، فكانوا يُعيّنون،

مـثـلاً، أمناء مكاتب في وزارة البـحـرية، أو في مـجلس الشـيـوخ. هنا كـانـوا يُمنحـون رواتب قليلة ويكلفـون بأعـمـال صـغـيـرة، لأنه من النادر أن يـطلب عـضـو في مـجلس الشـيـوخ كتـابـاً، وبالتـالي فـإن صاحب هذه الرتبـة المحظوظ كان في وسعـه أن يجلس في هدوء وارتيـاح أمـام نافـذته في قـصـر مـجلس الشـيـوخ في حدائق لوكـسـمبـورغ، ويكتب أشعاره خلال ساعات العـمل من غير أن يعبأ بالعوائد، وكفى بذلك أمانـاً. وكان آخرون أطبـاء، كـمـا أصـبـح دوهامل و دورتن في ما بعد، أو كـان عندهم مـعـارض مـثل شـارل فـيلدراك، أو كـانـوا أساتذة مـدارس مـثل رومـان، وجـان ريـشـار بلوك، أو يقـضـون، مـثل بول فـاليري وقـتـاً في وكـالة هافـاس Havas، أو يقرؤون للناشرين. ولكن أحداً منهم لم يتبـاهَ مـثل اللاحقين الذين أفـسـدتهـم السـينمـا وطبـعـات الكتب الـهـائلة، فـحـاولوا نيل الاسْـتـقـلال المطلق منذ الفـورة الأولى للمـيـول الفـنيـة. ومـا الـتـمـسـه هؤلاء الشـعـراء من مـهنهم المتـواضـعـة لم يكن إلا قليـلاً من الاطمـئنان إلى حيـاتهم المادية يكفل لهم الحرية في حـيـاتهم الروحـيـة. وهـذا الـضـمـان البـسـيط مكنّهـم من الإعـراض عن صـحـف باريس اليـومـيـة الفـاسـدة، والكتـابة بلا مـقـابل للمـجـلات الصـغـيـرة التي تسـاعـدها التـضـحـيـات الشـخـصـيـة على الاسـتـمـرار في الصـدور، وكـان يـرضـيـهم أن تقـدم مـسـرحـيـاتهم في مـسـارح أدبـيـة صـغـيـرة لا تكسـبـهم الشـهـرة في البداية إلا داخل حلقـتهم. إن كلوديـل، وبيـجـوي، ورولان، وسـواريز Suarez، وفـاليري لم يعـرفـهم إلا نخبـة صـغـيـرة طيلة عقـود. و في وسط هذه المدينة الصاخبة المندفعة، كان هؤلاء الشعراء الوحيدين الذين لم يكونوا على عجلة منْ أمـرهم. كـان الـعـيـش الـهـادئ،والعـمـل الـهـادىء في حلقـة هادئة خـارج «مـعـرض السـاحة» أهم في نـظرهم من الاندفـاع إلى الأمـام. ولم يخجلهم أن يقـتـصـدوا، ويعـيـشـوا بين الطبقة الوسطى، مقابل الحق في الحرية المغامرة في عالم الفن. كـانت زوجاتهم يقمن بالطبخ، ويُدرن المنزل، ولأن كل شيء كـان بسـيطاً فـإن لقـاءاتهـم المسـائيـة كـانت بهـيـجـة للغاية. كنا نجلس على كراسي خيزران رخيصة حول طاولة معدّة بلا اعتناء عليها غطاء ذو ترابيع، مثلنا مثل السمكري الساكن في الطابق نفسه، ولكننا كنا نشعر بأننا أحرار لا يعـتـرض سبيلنا عـائق. لم يكن عندهم هاتف، ولا آلة كـاتـبـة، ولا سكرتيرات، فـقـد استغنوا عن كل الأدوات الميكانيكية، كما استغنوا عن جهاز الدعاية الفكري. كتبوا باليد كـمـا فعل الكتّاب منذ ألف سنة، وحتى في مكاتب دور النشر الكبرى من مثل

Mercure de France لم يكن هناك اختزال و لا تنظيم معقد. لا شيء كان يُبدَّد من أجل التباهي أو المكانة أو التأثير. لقد عاش كل هؤلاء الشعراء الفرنسيين، مثل سائر الناس، من أجل فرح العيش في أسمى صورة، فرح العمل المبدع. كم هذّب الكمال الإنساني البسيط الذي اتصف به هؤلاء الأصدقاء الجدد نظرتي إلى الشاعر الفرنسي! كم كان أسلوب عيشهم مختلفاً عن الأسلوب الذي وصفه بورجيه أو غيره من روائيي المرحلة المعروفين الذين تطابق عندهم «الصالون» مع العالم! وكم علمتني نساؤهم أن أدرك زيف الصورة التي شكلناها من الكتب عن المرأة الفرنسية كامرأة دنيوية لا تبالي إلا بالمغامرات، والتهور، والتحديق في المرآة. فأنا ما رأيت قط مدبرات منازل أفضل وأهدأ من اللواتي رأيتهن في تلك الحلقة الأخوية. كن مقتصدات، ومتواضعات، ومرحات حتى في الظروف العصيبة، وكن يجترحن معجزات صغيرة على موقد صغير، ويعنين بالأولاد، وعلى الدوام كن قريبات فكرياً من أزواجهن. إن معرفة فرنسا حق المعرفة لا يحصل عليها إلا من عاش في هذه الحلقات صديقاً ورفيقاً.

كان ليون بازالجيت أصدق أصدقائي. والكتابات عن الأدب الفرنسي الحديث يغفل معظمها اسمه إغفالاً غير لائق، فاسمه يرمز في هذا الأدب إلى شيء استثنائي، وهو أنه استعمل طاقته الإبداعية في دعم عمل الآخرين حصراً، وهكذا ادخر قوة عاطفته المدهشة حقاً من أجل من أحبهم. و بما أنه رفيق بالفطرة، فقد وجدت فيه أسمى نموذج للإنسان الذي يضحي بنفسه فعلاً ويتفانى حقاً، معتبراً عمل حياته مقتصراً على مساعدة المواهب الفطرية في زمنه على أن تعي ذواتها وتنتج، ولم يتطلّع حتى إلى التباهي المسوّغ باشتهاره بأنه مكتشفها ومشجّعها. كانت حماسته الفعّالة مجرد وظيفة فطرية لوعيه الأخلاقي. ومع أنه كان كالجندي في مظهره، فقد كان شديد العداء للعسكرة. وفي علاقاته كان يتحلّى بما يتحلّى به الرفيق الصادق من مودة و حرارة. وفي استعداده الدائم للمساعدة والنصيحة، واستقامته التي لا تقبل الفساد، و دقة مواعيده، كان مهتمّاً بما يهمّ الآخر، من دون أي مصلحة خاصة به. وحين كان الأمر يتعلق بالصداقة، فإن الوقت والمال لم يكونا يعنيان شيئاً. كان أصدقاؤه الموزّعون في كل أنحاء العالم، قليلين ولكنهم مختارون. فمن أجل تعريف فرنسا بالشاعر الأمريكي والت ويتمان قضى عشر سنوات في ترجمة قصائده كلها، وكتابة سيرته العظيمة. كان

هدف حياته نقل نظرة أمته الفكرية إلى ما وراء الحدود. وجعل مواطنيه أكثر رجولة وأميل إلى الرفقة. ومثل أفضل رجال فرنسا، كان إنساناً حراً ومحباً للعالم، ومعادياً للتعصب القومي في آن معاً.

وسرعان ما غدونا صديقين حميمين، لأن فكرنا نحن الاثنين لم يكن قومياً ضيقاً، بل رغبنا كلانا في تقديم الأعمال الأجنبية بكل إخلاص، ومن غير أن نبتغي شيئاً وراء ذلك، إذ كنا نرى أن الاستقلال الثقافي هو جوهر الحياة. لقد علمني بازالجيت كيف اكتشفُ «أعماق» فرنسا. ولما قرأت في ما بعد ما كتبه رولان عن لقاء أوليفييه مع الألماني جان كريستوف، كدت أعتقد أن ما قرأته يصف تجربتنا الشخصية. ولكن أطرف ما في صداقتنا، والشيء الذي بقي في الذاكرة، هو اضطرارنا دوماً إلى تجاوز مسألة حساسة كان من شأنها أن تعيق الصداقة الحميمة بين كاتبين. وهذه المسألة هي أن بازالجيت قد كان صدقه المدهش يجعله يرفض رفضاً حاسماً كل ما كنت أكتبه في ذلك الوقت. لقد أحبني، واحترم أعظم الاحترام انكبابي على عمل فيرهارن. وكلما جئت إلى باريس انتظرني انتظار الوفّي للصداقة، وكان أول من يحييني. وكنت أجد منه العون عند الحاجة، ونتفق أكثر مما يتفق شقيقان عادة على الأمور المهمّة. وأما فيما يتعلق بعملي، فإن لفظة «لا» كانت حاسمه من فمه. كان يعرف بعض شعري ونثري في ترجمات هنري جويلبو Guilbeaux (الذي لعب دوراً مهماً في الحرب العالمية الأولى، وكان أحد أصدقاء لينين)، ويرفضه رفضاً صريحاً ومفاجئاً. كان مخلصاً في تذكيري بانقطاع الصلة بين إنتاجي والواقع، وبأنه أدب مقتصر على فئة محددة (وهو ما كان يكرهه كل الكره)، وينزعج من اختياري هذا النوع من الكتابة. وبما أنه كان صادقاً مع نفسه صدقاً غير مشروط، فهو لم يقدّم أي تنازلات في هذا الموضوع، ولا حتى من باب الكياسة. لقد استعان بي، مثلاً، حين كان يحرر مجلة، أي أنه طلب أن أضمن له مكاتبين من ألمانيا، وبكلمات أخرى، مساهمات أفضل من مساهمتي. وهو لم يطلب مني و لم ينشر لي سطراً واحداً، أنا صديقه الحميم، مع أن دواعي الصداقة قد جعلته في الوقت ذاته يتوفر بكل طاقته على مراجعة أحد كتبي المترجمة إلى الفرنسية للناشر من غير مكافأة. وما جعل رفقتنا الأخوية هذه عزيزة جداً عليّ هو أنها لم تتضرر ولو لحظة طيلة عشرة أعوام بسبب هذا الظرف الخاص. و ما سرّني استحسانُ أحدٍ مثل

استحسان بازاجيت عندما أدرت ظهري للمحاولات المبكرة خلال الحرب العالمية الأولى، وحققت نوعاً من التعبير الشخصي. كنت أعلم أن لفظة «نعم» لأعمالي الجديّة كانت صادقة صدق لفظة «لا» القاطعة خلال الأعوام العشرة الماضية.

ولئن أوردت اسم راينر ماريا ريلكه العزيز في هذه الصفحات عن أيام باريس مع أنه ألماني، فلأني كثيراً ما كنت ألقاه لقاءات مواتية، ولأنني أرى وجهه دائماً على خلفية تلك المدينة التي أحبها أكثر من أي مدينة أخرى. وحين أفكر اليوم فيه، وفي غيره من معلمي الكلام الذي كأنما حذّفه فنُ الصائغ النبيل - حين أفكر في تلك الأسماء المبجّلة التي تلألأت في شبابي مثل أبعد الكواكب في السماء، لا أستطيع الفرار من السؤال الكئيب: هل يمكن أن تشهد هذه المرحلة من الاضطراب، والدمار الشامل، مثل تلك الصفوة من الشعراء الغنائيين؟ ألا أتحسّر على قبيلة ضائعة، قبيلة لا يُرى لها ذريّة في هذا اليوم الذي ننكشف فيه لكل عواصف القدر؟ كان أولئك شعراء لم يطلبوا شيئاً من المجتمع - لااهتمام الجماهير ولا الأوسمة، لا الامتيازات ولا المكاسب - ولم يسعوا إلا إلى ضمّ المقطع إلى المقطع في دأب صامت ولكنه شديد العاطفة حتى يغدو كل بيت مشبعاً بالموسيقا، ملتهباً بالألوان، متوهجاً بالصور. لقد شكلوا نقابة تشبه إلى حد بعيد نظام الرهبنة في عصرنا الصاخب هذا. لا شيء عندهم كان أكثر أهمية في العالم كله من النغمة بعد أن رفضوا عن وعي ابتذال الحياة حولهم - النغمة المرهفة، والباقية رغم ذلك بعد خفوت دويّ العصر - النغمة التي تصدر عندما القافية المنضمّة إلى أخرى تخلق الهزّة التي لا توصف، وتكون أخفض من صوت الورقة التي تسقطها الريح، وتهتزّ حتى أقصى الروح. كم كان يسمو بنا، نحن الشباب، وجود هؤلاء الرجال الصادقين مع أنفسهم، خدم اللغة وحراسها المثاليين الذين نذروا أنفسهم للكلمة المرنان، لا كلمة اللحظة والصحيفة، بل اللائقة بالديمومة والأبدية. كنا نرتبك من التحديق فيهم، لأنهم عاشوا حياة منعزلة، تافهة، مغمورة، أحدهم كالفلاح في الريف، وآخر في وظيفة متواضعة، وثالث جوّال مثل حاج متحمس، وكلهم كانوا غير معروفين إلا من القلة، ولكنها قلة أحبتهم حباً جاداً! ومع أنهم توزعوا بين ألمانيا وفرنسا وإيطاليا، فقد كانوا في وطن واحد، لأنهم عاشوا في الشعر وحده. ومن خلال الفن، وتخلّيهم الحازم عن الأشياء الزائلة، تحولت حياتهم ذاتها إلى عمل من أعمال الفن.

ويوماً بعد يوم يبدو لي أعجوبة أن يكون بيننا في أيام شبابنا مثل أولئك الشعراء الأنقياء. ولذلك يتكرر أيضاً تساؤلي الذي يصحبه نوع من القلق الخاص: هل من الممكن لأمثال تلك الشخصيات التي أخلصت كل الإخلاص للشعر الغنائي أن توجد في زماننا، في أحوال حياتنا الجديدة التي ترغم الناس بطريقة إجرامية على الخروج من تأملاتها مثلما يرغم حريق الغابة الحيوانات البرية على هجر مرابضها الخفيّة؟ أنا على يقين أن معجزة الشاعر تتكرر في كل الأزمان، وعزاء غوته المؤثّر في مرثاة لورد بايرون يبقى صحيحاً إلى الأبد: «لأن الأرض ستحبل بهم مرة أخرى، كما حبلت بهم على الدوام.» سوف يظهر الشعراء مرة بعد أخرى في تواتر مبارك، لأن الخلود لا يحرم حتى أقل العهود شأناً هذا الوعد النفيس. ولكن أليس عصرنا هو الذي لا يمنح حتى أصفانا وأكثرنا عزلة شيئاً من السكينة للانتظار والنضوج والتأمل والتحكم في الذات، كما منح الناس في الفترة السابقة للحرب في أوروبا؟ أنا لا أدري كم يساوي اليوم شعراء مثل فايدي، وفيرهارن، وريلكه. وباسكولي pascoli، وفرانسيس جيمز، و كم يعنون للجيل الذي عجّت في مسامعه جعجعة طاحونة الدعاية أعواماً عديدة، ودويُّ المدافع مرتين، بدلاً من أنغام الموسيقا. وما أعرفه و أشعر به إن هو إلا ضرورة إعلان الاعتراف بالدرس العظيم، والفرح العظيم اللذين وفّرهما لنا وجود أولئك القديسين الذين أوجبوا على أنفسهم الكمال في عالم كان قد بدأ يمكنن نفسه. وحين ألتفت إلى حياتي الماضية، لا أجد أنفس من امتياز القرب منهم إنسانياً، وتحولِ تبجيلي المبكر لهم إلى صداقات دائمة في الغالب.

ومن بين هؤلاء الشعراء جميعاً، لم تكن حياة أحد منهم أنعم، وأكثر استخفاء من حياة ريلكه. ولكن وحدته لم تكن متعمدة ، ولا وحدة كاهن مرغم عليها، أو متظاهر بها، مثل وحدة ستيفان جورج المشهور في ألمانيا. لقد بدا أن الصمت ينمو حوله حيثما ذهب، وحيثما كان. وبما أنه كان يتجنب الضجيج، ويتجنب حتى شهرته - ذلك «الكم من سوء الفهم الذي يتجمع حول الاسم»، كما قال ذات مرة - فإن الموجة المقتربة للفضول المتبطل لم تلامس شخصه قط، بل اسمه فقط . لم يكن له منزل ولا عنوان يمكن أن يجد المرء فيه، ولا مسكن، ولا مكتب، ولا محل إقامة ثابتة. كان دائم الترحال في العالم، ولم يكن يعلم مقاصده أحد ولا حتى هو نفسه. فكل قرار أكيد، وكل تخطيط،

وكل إعلان، كان يثقل روحه البالغة الرهافة. كان المرء يلتقيه بالمصادفة على الدوام. كنتَ تشعر، وأنت واقف في معرض إيطالي، بابتسامة لطيفة أنيسة من غير أن تدرك مأتاها. وعندئذ فقط تتعرف عينيه الزرقاويين اللتين ينبعث منهما عند النظر إليك نورٌ يضيء محياه الذي لا يؤثّر فيك في أحوال أخرى. ولكن هذا المظهر غير المؤثّر هو على وجه الدقة أعمق أسرار وجوده. هذا الرجل ذو الشارب الأشقر المتدلي الكئيب قليلاً، و السيماء شبه السلافية، ربما مرّ به آلاف المارة من غير أن يتخيلوا أنه شاعر، وأنه أعظم شعراء جيلنا، إذ أن فرديته، وسلوكه غير المألوف لم يكونا يتجلّيان إلا في مصاحبة حميمة. كانت له طريقة في التقرب والتحدث رقيقة رقة لا توصف. وحين كان يدخل على جماعة من الناس، قلما ينتبه له أحد. كان يجلس هناك مصغياً في هدوء، ويرفع رأسه عفواً عندما كان يبدو أن أمراً يشغل فكره، أو عندما يبدأ هو نفسه بالكلام بلا تكلف ولا جهارة صوت على الدوام. كان يتكلم في بساطة مثل أم تحكي لطفلها حكاية من حكايات الجن، ويتكلم بالحب ذاته أيضاً. والأمر العجيب عند الإصغاء إليه هو كيف كان أتفه الموضوعات يتحوّل إلى موضوع رائع ومهمّ. ولكن حالما كان يشعر بأنه مركز الاهتمام في حلقة واسعة، كان يكفّ عن الكلام مرة أخرى، ويستغرق في إصغائه الصامت المجامل. كانت حركاته وإشارته تتصف كلها بالرقة، وحتى حين يضحك لم يكن ضحكه إلا صوتاً خفيّاً. كانت الأصوات المخففة ضرورة له، إذ أن شيئاً لم يزعجه كالضوضاء، وكالعنف في مجال المشاعر. قال ذات مرة: «إن الذين يبصقون مشاعرهم مثل الدم يرهقونني، لذلك أنا أبتلع الروس مثل المُسْكر المعطّر جُرَعاً صغيرة.» ولم يكن السلوك المدروس، والنظام، والنظافة ضرورات جسدية أقل شأناً، فركوب حافلة مكتظة، أو الاضطرار إلى الجلوس في مكان عام صاخب، كان يعكرّ صفوه ساعات بعد ذلك. كان لا يطيق أي شيء مبتذل، ومع أنه عاش في ظروف محدودة، فإن ملابسه كانت تدلّ دوماً على العناية والنظافة والذوق الرفيع. وفي الوقت الذي كانت تكشف فيه عن تفكير، وخيال شاعري، فإنها كانت آية في التواضع، مع لمسة شخصية غير مقحمة دوماً، من مثل سوار رفيع من فضة حول معصمه. وهذا يرجع إلى أن إحساسه الجمالي بالكمال والتناسق قد دخل في أدق التفاصيل الشخصية. وذات مرة راقبته في مسكنه قبل رحيله وهو يحزم صندوق ثيابه ـ رفض مساعدتي

لانعدام الحاجة إليها. كان يضع القطع في رفق واعتناء في مواضعها المخصصة لها كأنها قطع فسيفساء، و لو أفسدتْ مساعدتي ترتيبه البديع لشعرت بأنني قمت باعتداء. إن هذا الإحساس بعناصر الجمال قد رافقه إلى أقل الأشياء شأناً. فهو لم يكتب مخطوطاته فقط على ورق ممتاز، وبخط يده الرشيق الجميل بحيث تكون السطور مترابطة كأنها مقيسة بمسطرة، بل كان يختار أجود أنواع الورق للرسالة العارضة التي كان يملؤها هي أيضاً بالكتابة النظيفة الرشيقة. وفي أعجل الملاحظات كان لا يجيز لنفسه شطب كلمة، وإن بدا له خطأ في جملة أو تعبير، أعاد كتابة الرسالة بصبره المدهش. إن ريلكه لم يدع شيئاً يغادر يديه قبل أن يكتمل.

كانت طبيعة ريلكه الصامتة، والمتكاملة مع ذلك، تؤثّر في كل من يتقرّب إليه. كان من المستحيل تصوره صاخباً، مثلما كان مستحيلاً ألا يتخلّى مُجالسه عن نبرته المرتفعة، وتبجحه أمام الذبذبات المنبعثة من هدوئه، ومرد ذلك إلى أن سلوكه كان له اهتزازات قوةٍ خفيّة، ومتواصلة، هادفة، مهذّبة. وكل من تحدث معه طويلاً كان لا يسعه أن يكون مبتذلاً طيلة ساعات و حتى أيام بعد ذلك. و بالطبع، فإن اعتدال طبيعته الثابت هذا، وهذا الإعراض عن بذل النفس بالكامل، قد وضع، من ناحية أخرى، حداً مبكراً لأي مودة خاصة. وأظن أن الذين يمكنهم أن يتباهوا بأنهم كانوا «أصدقاء» ريلكه قليلون. ففي رسائله المنشورة في ستة مجلدات من النادر أن نجد مثل هذه الطريقة في المخاطبة، ولفظة «أنت» الأخوية المألوفة قلما خاطب بها أحد بعد أيام المدرسة. كان السماح لأي شخص، أو لأي شيء، بالاقتراب منه كثيراً يثقل حساسيتة غير العادية. كان كل شيء واضح الذكورة يسبب له مضايقة جسدية. أما النساء فقد كان الخوض في الأحاديث معهن أسهل عليه. كان يسرّه أن يكتب إليهن في الغالب، وكان حضورهن يمنحه مزيداً من الحرية. ولعل ما كان يستعذبه هو رقة أصواتهن، إذ كان يعاني معاناة خاصة من الأصوات غير المستحبة. وما أزال أراه أمامي وهو يتحدث مع أحد الأرستقراطيين ملتويَ الكتفين، مطرق الرأس حتى لا تكشف عيناه ما يكابد جسدياً من جهارة صوت السيد المصطنعة. ولكن ما أحلى أن تكون معه عند ارتياحه إلى أحد! عندها كنت تحسّ وكأن طيبة قلبه تنهمر في أعماق روحك دافئة شافية على الرغم من بقائه مقتصداً في كلماته وإشاراته.

ومع أن ريلكه كان حييّاً ومنعزلاً، فقد كان يبدو أنه الأكثر تقبلاً للأفكار في باريس، هذه المدينة الدافئة القلب، ولعل ذلك يرجع إلى أن اسمه وعمله لم يكونا معروفين هنا، وإلى أنه كان يشعر دائماً بأنه أكثر حرية وسعادة عندما يكون مجهولاً. لقد زرته في مسكنين مختلفين كان قد استأجرهما هناك، وكلاهما كان بسيطاً خالياً من الزخرفة، ولكن إحساسه الطاغي بالجمال سرعان ما كان يجعل المسكن يتخذ طابعاً هادئاً مميزاً. لم يكن أي منهما منزلاً كبيراً صاخب الجيرة، بل كان منزلاً قديماً وأقل راحة أيضاً، استطاع أن يشعر فيه بالأنس غير مهتم بالموضع، إذ أن إحساسه بالنظام كان يسبغ المعنى على الموضع، ويوائمه مع حياته. لم يكن حوله إلا أشياء قليلة، غير أن الزهور كانت متألقة على الدوام في إناء أو صحن، ربما أهدته إياها نساء، وربما أحضرها في رفق هو نفسه إلى البيت. كانت الكتب تلمع من الجدران، جميلة التجليد، أو مغلّفة بالورق باعتناء، لأنه كان يحب الكتب كما الحيوانات العجماوات. وكانت الأقلام ملقاة على المنضدة في صف مستقيم، و الأوراق النظيفة مرتبة ترتيباً دقيقاً. إن أيقونة روسية، و صليباً كاثوليكياً عليه تمثال المسيح، وهما تحفتان أظن أنهما رافقتاه في كل أسفاره، قد أضفيا على حجرة عمله طابعاً دينياً بعض الشيء، على أن تدينه لم يكن مرتبطاً بأي عقيدة محددة. كان الداخلُ يشعر بأن كل شيء قد جرى اختياره، والمحافظة عليه، بكل عناية. ولو أعرته كتاباً لم يطلع عليه، لأعاده سليماً ملفوفاً في ورق ناعم، ومعقوداً عليه شريطة ملونة مثل هدية. ولا أزال أذكر كيف جلب لي مخطوطة Die weise von liebe und tod (ألحان الحب و الموت) كهدية نفيسة، ولقد احتفظت بالشريطة التي لُفّت عليها. ولكن أبهج الأشياء كان السير مع ريلكه في باريس، لأن ذلك كان يعني رؤية الأشياء كما تراها عينان بصيرتان بمعناها. كان يلحظ كل تفصيل، ويطيب له أن يردد الأسماء الثابتة على اللافتات إن بدت له ذات إيقاع. كان ولوعاً ـ وهذا الولع الوحيد تقريباً الذي لاحظته فيه ـ بمعرفة كل ركن وكل زاوية في باريس. ولما التقينا مرة في بيت أحد الأصدقاء، أخبرته أنني مررت بالمصادفة على حي بارير القديم، حيث دُفن أواخر ضحايا المقصلة في مقبرة دوبيكبوس، وبينهم الشاعر أندريه شانييه. وصفتُ له المرج الصغير المحرك للمشاعر، وما تناثر فيه من قبور قلما يراها الغرباء، ورويت له كيف رأيت في طريق عودتي ناسكة من خلال باب دير مفتوح

وهي تحصي في صمت حبات سُبْحتها وكأنها في حلم غير دنيوي. وفقد ذلك الرجل الهادئ الرقيق صبره الذي لم أره يفقده إلا بضع مرات. كان لا بد من زيارة قبر أندريه شافييه والدير. هل أصحبه إلى هناك؟ ذهبنا في اليوم التالي. وأمام المقبرة الموحشة وقف وقفة المخلوب، وقال: «إنها القصيدة الأكثر غنائية في باريس.» وفي طريق العودة كان باب الدير موصداً. وأتيحت لي فرصة آنذاك لاختبار الصبر الصامت الذي تحلّى به في حياته وفي عمله على السواء. قال: «دعنا ننتظر فرصة سانحة.» وقف مطرق الرأس قليلاً بحيث يستطيع أن ينظر من خلال الباب عندما ينفتح. انتظرنا نحو عشرين دقيقة، فنزلت إحدى راهبات الأخوية إلى الشارع وقرعت الجرس. همس بانفعال: «الآن». ولكن الراهبة لاحظت انتظاره الصامت، فدنت منه، وسألته إن كان ينتظر أحداً ـ سبق أن قلت: إن المرء يحسّ بالأشياء التي حوله من بعيد. ابتسم لها ابتسامته اللطيفة التي سرعان ما أشاعت الثقة، وأعرب عن رغبته الحارة في مشاهدة رواق الدير. ابتسمت الراهبة الحزينة هي الأخرى، ولكنها لم تستطيع أن تدعه يدخل. ومع ذلك نصحتُه أنا أن يذهب إلى منزل البستاني الصغير المحاذي حيث يمكنه أن يطلّ على الرواق من نافذة في الطابق العلوي. بعد ذلك تقاطعت دروبنا عدة مرات، ولكن كلما فكرت في ريلكه، أراه في باريس: لقد أُعفي من مقاساة أتعس الساعات في تاريخها.

كان هذا الصنف من الرجال عظيم الفائدة لمبتدئ، ولكن كان لا بد من تلقي درس آخر حاسم، درس أهداه إليّ الحظ، وقُدّر له أن يؤثّر في مجمل حياتي. كنا عند فيرهارن. وهناك خضنا في جدال مع مؤرخ فن مستاء من انقضاء عهد النحت والفن العظيمين. عارضته في الرأي معارضة شديدة. أما كان رودان بيننا، وهو مبدع لا يقل أهمية عن كبار فناني الماضي؟ وبدأت أُحصي أعماله بلهجة غاضبة بعض الشي، كما جرت العادة عندما يلقى المرء معارضة. ابتسم فيرهارن، وقال أخيراً: «من يحب رودان هذا الحب، عليه أن يلقاه في الواقع. أنا ذاهب غداً إلى مرسمه. فإذا شئت أخذتك معي.»

إذا شئت! لم أنم من السعادة. ولكن الكلمات علقت في حنجرتي في مرسم رودان. لم أستطيع أن أقول شيئاً له، ووقفت بين تماثيله كأنني أحدها. والأمر الغريب

هو أن ارتباكي قد سرّه على ما بدا لي، لأنه سألني قبل أن نفترق إن لم أكن راغباً في مشاهدة مرسمه الحقيقي في مودون Meudon، ودعاني أيضاً إلى تناول طعام الغداء معه. كان أول درس تعلمته هو أن أعظم الرجال هم ألطفهم على الدوام.

أما الدرس الثاني فهو أنهم الأبسط في طريقة عيشهم على الدوام تقريباً. ففي منزل هذا الرجل الذي ذاع صيته في العالم، وكان أبناء جيلنا يعرفون أعماله كما يُعرف صديق قديم، تناولنا طعاماً بسيطاً بساطة طعام مزارع عادي: قطعة من اللحم، وبعض الزيتون، وفواكه وفيرة، إضافة إلى بعض النبيذ المحلي. وقد منحني ذلك مزيداً من الشجاعة، فتكلمت أخيراً بلا تحفظ، وكأنما ذلك الرجل العجوز وزوجته من معارفي القدماء.

انتقلنا بعد الغداء إلى المرسم. كان غرفة كبيرة تحتوي على نسخ عن معظم أعماله، وقد توسطها مئات الدراسات الصغيرة النفيسة - يد، ذراع، عُرْف، حصان، أذن، امرأة، وأكثرها نماذج من صلصال فقط. و لا أزال اليوم أتذكر تماماً بعض هذه الأجزاء التي صُنعت للتمرن، وكان في وسعه التحدث عنها طويلاً. قادني الفنان الكبير أخيراً إلى قاعدة آخر أعماله، وكان تمثال امرأة مغطّى بأقمشة رطبة. أزاح الأقمشة بيده الضخمة المجعدة مثل يد فلاح، وتراجع إلى الوراء. أفلتت من شفتيّ كلمة «رائع»، ولم ألبث أن شعرت بالخجل من ملاحظتي التافهة. وتعبيراً عن الموافقة فقط تمتم، وهو ينظر إلى عمله، بموضوعية هادئة لا أثر للتباهي فيها: «أليس كذلك؟» ثم أنه تردد: «ولكن هناك عند الكتف... لحظة.» ألقى عنه معطفه، وارتدى إزاراً أبيض، ثم التقط ملعقة المزج، وبلمسة بارعة على الكتف، ملّس المادة الطرية حتى بدت بشرةَ امرأةٍ حية تتنفس. تراجع إلى الوراء مرة أخرى، وتمتم: «وهنا الآن.» وبعد أن أضاف تفصيلاً صغيراً زاد التمثال تأثيراً، كفّ عن الكلام. أخذ يتقدم، ويتراجع، وينظر إلى التمثال في مرآة، و يصوّت أصواتاً مبهمة، وهو يغيّر ويصحح. و عيناه اللتان كانتا أثناء الغداء ساهيتين سهْواً محبباً، التمعتا عندئذ بأضواء غريبة، وبدا كأنه أصبح أضخم جسماً، وأصغر سناً. واصل العمل بكل همة جسمه الضخم وقوته. كانت أرض الغرفة تصرّ كلما خطا إلى الأمام أو إلى الوراء، ولكنه لم يكن يسمع شيئاً. ولم ينتبه للشاب الواقف وراءه صامتاً، وقلبه في الحلق ابتهاجاً بالسماح له بأن يراقب هذا الفنان الفريد

وهو منهمك في العمل. لقد نسيني تماماً، ولم أعد موجوداً بالنسبة إليه. ما كان يعنيه هو التمثال والعمل فقط، ووراء ذلك توارت رؤيا الكمال المطلق.

استمر ذلك ربع ساعة أو نصف ساعة، لم أعد أذكر على وجه الدقة، فاللحظات العظيمة هي دائماً خارج الزمن. كان رودان مستغرقاً في عمله بحيث أن صاعقة لم تكن لتوقظه. أصبحت حركاته أكثر مشقة، وساخطة بعض الشيء. لقد غشيه ضرب من العنف أو السَكْرة، فزاد عمله سرعة، ثم تراخت يداه. ربما أدركت أنهما قد أنجزتا العمل. خطا إلى الوراء مرة، مرتين، ثلاث مرات، من غير أن يغيّر شيئاً، ثم جمجم شيئاً في لحيته، وألقى الأقمشة في رفق حول التمثال كما يضع أحدهم شالاً حول كتفي امرأة حبيبة. أخذ نفساً عميقاً. واسترخى. وبدا لي أضخم قامة مرة أخرى. لقد همدت النار. وبعد ذلك حدث ما لا يُفهم، الدرس العظيم: خلع إزاره، و ارتدى معطفه مرة أخرى، وهمّ بالذهاب. لقد نسيني تماماً في تلك الساعة من التركيز الشديد. لم يعد يعلم أن شاباً دعاه هو نفسه إلى مرسمه ليريه عمله قد وقف خلفه منقطع النفس، ثابتاً في موضعه مثل تمثاله.

سار إلى الباب. ولما شرع في فتحه، اكتشفني، وحدق إليّ تحديق الغاضب تقريباً: من هذا الشاب الغريب الذي انسلّ إلى مرسمي؟ ولكن سرعان ما تذكر، وشعر بالخجل، ثم جاء إليّ و قال: «عفواً، يا سيدي.» ولكنني لم أدعه يكمل، بل أمسكت يده بامتنان، ووددت لو قبّلتها. لقد رأيت في تلك الساعة السر الخالد لكل فن عظيم، أجل لكل إنجاز إنساني يتجلّى فيه التركيز، ومجموع القوى كلها، و الأحاسيس كلها، وتلك الحالة التي يذهل فيها كل فنان عن العالم. لقد تعلمت شيئاً رافقني طيلة حياتي.

كنت أنوي مغادرة باريس إلى لندن في نهاية شهر أيار، ولكنني أُرغمت على القيام بالرحلة قبل ذلك بأسبوعين لأن غرفتي الساحرة قد غدت غير مريحة بسبب ظرف طارئ. لقد وقعت حادثة غريبة سرّتني كثيراً، ومنحتني رؤية عميقة للعمليات الذهنية في أوساط فرنسية متباينة جداً.

بقيت بعيداً عن باريس طيلة عطلتيْ عيد العنصرة لاصطحاب بعض الأصدقاء إلى كاتدرائية شارتر الجميلة التي لم أكن قد شاهدتها بعد. ولما عدت إلى الفندق صباح يوم الثلاثاء، و أردت تبديل ثيابي، لم أجد حقيبة سفري التي كانت مستقرة في الزاوية

طيلة تلك الشهور. نزلت إلى صاحب الفندق الصغير الذي كان يتناوب هو وزوجته الجلوس في غرفة البواب نهاراً. كان هذا الرجل المرسيلي صغير الجسم، و ذا وجه لحيم متورد، وكثيراً ما كنت أمازحه، وأحياناً ألعب معه لعبته المفضلة ـ النرد ـ في المقهى المقابل للفندق. وسرعان ما ثارت ثائرته، و ضرب الطاولة، ثم صرخ صرخة غامضة: «هكذا إذاً!» وأخبرني بما حدث، وهو يرتدي معطفه على عجل، وينتعل حذاء بدلاً من خفّه المريح. ولكن ينبغي لي أولاً أن أستعيد خصوصية المنازل والفنادق الباريسية حتى تغدو الأشياء مفهومة. إن الفنادق الصغيرة و معظم المنازل الخاصة لا تزوّد نزلاءها بمفتاح للمزلاج. فالبواب يفتح الباب آلياً من غرفته عندما يُقرع الجرس في الخارج. والمالك أو البوّاب لا يبقى طوال الليل في غرفة البواب، بل يفتح الباب من غرفة نومه بالضغط على زرّ وهو نصف نائم. وكل من يغادر عليه أن ينادي: «الحبل، من فضلكم»، وعلى الداخلين أن يذكروا أسماءهم حتى لا ينسلّ أي غريب مفترض في الليل. وذات مرة قُرع الجرس الخارجي في فندقي في الساعة الثانية صباحاً، وذكر شخص عند دخوله اسماً بدا شبيهاً باسم أحد النزلاء، ثم نزع مفتاحاً معلقاً في غرفة البوّاب. كان على هذا الحارس اليقظ أن يتثبت من هوية الطارق من حاجز الزجاج، ولكن من الواضح أنه كان متعباً. و حين نادى أحدهم بعد ساعة: «الحبل، من فضلكم»، استغرب أن يغادر شخص بعد الساعة الثانية، ولكن بعد أن حرّر الباب قام، وألقى نظرة إلى الشارع، فرأى رجلاً يحمل حقيبة ثقيلة، وسرعان ما شرع في المطاردة وهو بالمبذل والخفّ، ولما رأى الرجل ينعطف، ويدخل فندقاً صغيراً في شارع Petits champs، اتضح له أنه ليس لصاً ولا سارقاً، فعاد إلى مضجعه مطمئناً.

استفزته الغلطة، فأسرع معي، كما كان تماماً، إلى أقرب مخفر شرطة. وفي الحال جرى تحقيق في الفندق، وتأكد أن حقيبتي ما زالت في الفندق، أما اللص فلا. ربما ذهب ليحضر قهوة الصباح من بار قريب. وقف بالمرصاد للجاني مُخْبرانِ في غرفة بوّاب فندقه، ولما عاد بعد نصف ساعة غير مشتبِه بشيء أُلقي القبض عليه.

اضطررنا، أنا وصاحب الفندق، إلى الذهاب إلى مخفر الشرطة لحضور التحقيق الرسمي. قادونا إلى غرفة رجل خبير، لطيف، عظيم الشاربين، وبدين بدانة غير عادية. كان يجلس ومعطفه محلول الأزرار إلى منضدة غير مرتبة مغطاة بالأوراق. كان المكتب

عابقاً برائحة التبغ، وعلى المنضدة زجاجة نبيذ كبيرة تدلّ على أن الرجل لا ينتمي بأي حال من الأحوال إلى الحراس القساة للأخوية المقدسة. و بأمر منه، أتي بالحقيبة إليّ للتأكد من عدم فقدان شيء مهمّ. والشيء الوحيد ذو القيمة كان كتاب الرصيد البالغ ألفي فرنك، والذي ألحقتُ به ضرراً بالغاً خلال شهور إقامتي الخمسة، وبالتالي كان عديم النفعْ تماماً لأي غريب، وقد وجدناه ملقى في أسفل الحقيبة على حاله. وبعد أن أعِدّ تقرير يوضح أنني قد تعرفت حقيبتي، وأن شيئاً لم يؤخذ منها، أمر الرجل الخبير بإحضار اللص الذي كنت تائقاً إلى رؤيته بفضول غير قليل.

جُوزيت أحسن جزاء. فلقد ظهر شرير بائس بين رقيبين قويين جعلا ضعفه الشديد يبدو أكثر غرابة. كان رث الملابس، بلا ياقة، وله شارب صغير متدلٍ، ووجه فأريّ شاحب شبه متضور من الجوع. كان أيضاً لصاً مسكيناً، إذا أمكنني قول ذلك، وهذا ما أظهرته حماقته في عدم الفرار بالغنيمة في الصباح الباكر. وقف مطرقاً، مرتجفاً قليلاً وكأنه يتجمد أمام الرجل الخبير الضخم. ولا يخجلني أن أقول: إنني لم أشعر بالأسف عليه فقط، بل تعاطفت معه أيضاً. وزاد اهتمامي المتعاطف عندما عرض موظف الشرطة مختلف الأشياء التي وُجدت معه بعد تفتيشه. ظهرت مجموعة غريبة من الأشياء: منديل قذر ممزق، وحلقة مفاتيح خاصة، ومفاتيح تفتح شتى أنواع الأقفال تصلّ صليلاً موسيقياً، وكتاب جيب بالٍ. ولكن لم يُعثر معه على سلاح من حسن الحظ، وهذا دليل على أن اللص كان يمارس حرفته ممارسة خبيرة ولكنها مسالمة.

كان كتاب الجيب أول ما فُحص أمامنا، وكانت النتيجة مدهشة. لم يكن في طيّه أوراق نقدية من فئة الألف فرنك، أو من فئة المئة فرنك، ولا حتى أي ورقة نقدية، بل سبع وعشرون صورة للراقصات والممثلات المشهورات في فساتين مقوّرة الصدر. كما كان فيه أربع صور عارية، ولذلك لم تظهر أي جريمة خطيرة سوى أن هذا الشاب النحيل الأسيف قد كان مشغوفاً بالجمال، و أحبَّ أن تستقر على قلبه على الأقل صور نجمات عالم المسرح الباريسي. ومع أن الرجل الخبير تفحّص الصور تفحصاً صارماً في ظاهر الأمر، لم يفتني أن ألاحظ أن هواية ذلك الجانح قد أمتعته قدر ما أمتعتني. وما زادني تعاطفاً مع اللص المسكين هو ولعه بالجمال. و لما سألني الخبير رسمياً، والقلم في يده، إن كنت أرغب في تقديم شكوى ضد السارق. كان جوابي بالطبع «لا» سريعة.

وابتغاء فهم الوضع، لا بد من توضيح آخر. ففي حين أن الجريمة في النمسا وغيرها من البلدان تليها الشكوى من تلقاء ذاتها، أي أن الدولة تتولّى هي نفسها تحقيق العدالة، فإن الأمر في فرنسا يبقى اختياراً حراً للطرف المتضرر أن يتهم أو يرفض الاتهام. وهذا الطريقة في تفسير القانون تبدو لي أعدل مما يسمى العدالة الصارمة، وذلك لأنها لا تلغي احتمال الصفح عما قد يسببه شخص من أذى، في حين إذا امرأة في ألمانيا آذت حبيبها في نوبة غيرة، مثلاً، فإن كل توسلات الضحية ومناشداته لا يمكن أن تنقذها من الإدانة. فالدولة تتدخل، وتنتزع المرأة من جانب الرجل، مع أن فعلها ذاته قد يكون جعلها أعمق حباً له من أي وقت مضى، ثم تُلقى في السجن. أما في فرنسا فإن الاثنين يمضيان بعد المصالحة متشابكي الذراعين، ويعتبران ما حصل أمراً ينبغي تسويته بينهما.

وما أن قلت «لائي» الحاسمة حتى وقعت ثلاثة أشياء. فالكائن المنهك بين الشرطيين نظر إلي نظرة امتنان لا توصف، ولن أنساها أبداً. ووضع الخبير قلمه من يده معرباً عن رضاه، وكان واضحاً أن رفضي التقاضي الذي يعفيه من كثير من الكتابة الإضافية قد كان مقبولاً عنده تماماً. أما صاحب الفندق الذي كنت نازلاً فيه فقد تصرف عن نحو مختلف كل الاختلاف. تورّد وجهه، وأخذ يصيح بي ألا أفعل ما فعلت، وأن هؤلاء الأوغاد، هؤلاء البراغيث، يجب استئصالهم، وأنني أجهل مقدار الضرر الذي يحدثه هذا الصنف من البشر. إن المهذبين يظلون متيقظين ليل نهار، ولو نجّيتُ لصاً واحداً لشجعتُ مئات اللصوص الآخرين. هذه الغضبة كانت غضبة البرجوازي الذي اضطرب عمله، البرجوازي الصادق الجاد، والتافه في آن معاً. و نظراً للإزعاج الذي كابده من هذا الأمر، فقد طلب مني أن أتراجع عن عفوي. غير أنني لم أتراجع. قلت بلا تردد: إنني قد استرجعت أمتعتي، وبالتالي لم يحدث أي ضرر، وتمت تسوية كل شيء.. أنا لم أُقم دعوى ضد أحد في حياتي، وظُهْر ذلك اليوم كانت شريحة اللحم التي تناولتها ألذّ وأشهى، لأنني حلت دون تناول شخص آخر طعامه في السجن. اشتد غضب صاحب الفندق، ولما أعلن الخبير أن عليّ أنا أن أقرر لا هو، وأن رفضي قد سوّى المسألة، استدار فجأة، وغادر الغرفة صافقاً خلفه الباب. نهض الخبير وابتسم من غضب الرجل، وصافحني مصافحة نمّت على موافقة صامتة. لقد انتهت الإجراءات الرسمية،

ولما مددت يدي إلى الحقيبة لأحملها وأعود، دنا اللص مني فجأة وقال في تواضع: «لا يا سيدي.. سأحملها أنا إلى مسكنك.» وهكذا عبرت الشوارع حتى الفندق، واللص المقر بالجميل يحمل الحقيبة الكبيرة خلفي.

وهكذا فإن ما كانت بدايته سيئة بدا وكأنه انتهى نهاية سعيدة ومسلية، ولكن سرعان ما أعقبه حادثان سعدتُ بهما لأنهما أغنيا معرفتي بالنفسية الفرنسية إغناء ملحوظاً. فحين زرت فيرهارن في اليوم التالي حيّاني بابتسامة خبيثة، وقال مازحاً: «إن لك مغامرات غريبة هنا في باريس. ولكن لم أعلم أنك رجل ثريّ.» لم أفهم ما عناه. ثم إنه ناولني صحيفة، فإذا حادثة اليوم السابق كلها مكتوبة هناك، مع ذلك لم أستطع أن أفهم الوقائع من الرواية الرومانسية التي قدّمتْها. فالصحيفة وصفت وصفاً بارعاً كيف أن نزيلاً مماشياً للموضة في فندق وسط العاصمة قد سُرق صندوق ثيابه ـ أصبحت مماشياً للموضة للمزيد من الإثارة ـ والصندوق كان يحتوي على أشياء عديدة بالغة النفاسة، وبينها كتاب رصيد قيمته عشرون ألف فرنك ـ زاد الألفان عشرة أضعاف بين ليلة وضحاها ـ إضافة إلى أشياء لا تُستبدل (لم يكن في الصندوق إلا قمصان وربطات عنق في الحقيقة). في البداية كان من المستحيل العثور على دليل، لأن اللص قد فعل فعله باحتراف يدلّ على معرفة دقيقة بالمكان. غير أن خبير الناحية اتخذ كل الإجراءات اللازمة مستخدماً «طاقته المعروفة» و «ذكائه العظيم». وفي غضون ساعة أُخطِر كل فندق وكل محل إقامةٍ في باريس، وبعد أن وُضعت التعليمات موضع التنفيذ بالدقة المعتادة، أُلقي القبض على المجرم في وقت قصير جداً. وكافأ قائدُ الشرطة الضابطَ الكفء على هذا العمل الرائع بتقدير خاص، لأنه بأعماله وبعْد نظره قد قدّم مرة أخرى مثالاً ساطعاً على التنظيم البارع للشرطة الفرنسية.

لاشيء في التقدير كان صحيحاً، فالخبير الطيب لم يضطر إلى مغادرة مكتبه لحظة واحدة، ونحن الذين أتينا باللص وبالحقيبة إلى مكتبه، ولكنه اغتنم الفرصة لاكتساب ما استطاع من الشهرة مما حدث.

ولكن مع أن الأمور سارت على ما يرام بالنسبة إلى اللص وقيادة الشرطة، فإنها لم تسر كذلك بالنسبة لي. فمنذ تلك الساعة فصاعداً، بذل صاحب الفندق البشوش سابقاً كل ما في وسعه لإفساد أيام إقامتي الأخيرة في الفندق. نزلت إلى الطابق

السفلي، وحييت بكل تهذيب زوجته الجالسة في غرفة البواب، فلم تردّ التحية، بل أعرضت عني إعراض من أسيء إليه. ولم يعد الخادم ينظف غرفتي كما ينبغي، واختفت الرسائل اختفاء غامضاً. وحتى في المتاجر المجاورة، وفي مكتب التبغ الذي كنت عادة ألقى فيه ترحيباً حاراً لاستهلاكي الكبير للتبغ، أصبح استقبالهم لي فاتراً. إن أخلاقية الطبقة الوسطى المهانة قد اتخذت مني موقفاً حازماً ليس في الفندق فقط، بل في الشارع كله، وحتى في الناحية كلها، وذلك لأنني «ساعدت» لصاً. ولم يبق لي إلا الرحيل بالحقيبة التي استعدتها، ومغادرة الفندق المريح زرياً وكأني كنت أنا المجرم.

كان انتقالي من باريس إلى لندن مثل انتقال المرء من النور إلى الظل في يوم حار. ارتعدت من البرد في اللحظة الأولى، ولكن سرعان ما تكيّفت عيناي وعقلي. ومن البداية أوجبت على نفسي تخصيص شهرين أو ثلاث للعاصمة لندن - إذ كيف نستطيع فهم عالمنا وتقويمه من غير أن نعرف البلد الذي أبقى العالم سائراً على سكته مئات السنين؟ ثم إنني أملتُ أن أحسّن لغتي الإنكليزية الرديئة (التي لم تصبح طليقة قط) بالحوار المتواصل والنشاط الاجتماعي، ولكن ذلك لم يحدث مع الأسف. فأنا، شأن كل القادمين من القارة، لم أقم إلا علاقات أدبية قليلة على الجانب الآخر من بحر المانش. وفي كل حوارات الفطور والأحاديث الصغيرة في محل إقامتنا، شعرت بأنني أجهل جهلاً يُرثى له كل ما يتعلق بالبلاط والسباقات والحفلات. كنت أعجز عن المتابعة حين يناقشون القضايا السياسية، إذ كانوا يتحدثون عن جو Joe (وكنت لا أدري أنهم يقصدون شامبرلين)، و غيره من الأسياد مشيرين إلى أسمائهم الأولى فقط. وأما بالنسبة إلى سائقي العربات في الأحياء الفقيرة، فقد كنت كمن سُدّت أذناه بالشمع. لذلك لم أحرز أي تقدم سريع كما أملت. فبادرت إلى تعلم بعض الكلام الفصيح من الواعظين في الكنائس، وأصغيت مرة أو مرتين إلى المحاكمات، وقصدت المسرح للاستماع إلى إنكليزية حقيقية، ولكنني أُرغمت دوماً على البحث الشاق عما اكتسحني في باريس: الاختلاط بالناس، والرفقة، والبهجة. لم أجد أحداً أناقش معه ما كان يهمني، ومن جهة أخرى لا بد أنني بدوت لذوي النوايا الحسنة من الإنكليز شخصاً فظاً و جافاً بعض الشيء بلا مبالاتي العميقة بالرياضة، واللعب، والسياسة

إضافة إلى كل ما كان يشغلهم. لقد أخفقت في كل مكان في الارتباط بأي حلقة أو جماعة. وأمضيت تسعة أعشار وقتي في لندن في غرفتي أو في المتحف البريطاني.

حاولت في البداية أن أمشي، فجلت لندن في الأسبوع الأولى حتى التهب أخمصا قدمي. واندفعت إلى الأماكن الجديرة بالمشاهدة في بيدكر Baedeker من متحف مدام توسو إلى مبنى البرلمان كالطالب الذي يحركه إحساس بالواجب. وتعلمت شرب الجعة، و تدخين الغليون المحلي بدلاً من السجائر الباريسية، واتبعت شتى الطرق للتكيف، ولكني لم أعثر على اتصال حقيقي اجتماعياً كان أم أدبياً. ومن يشاهد إنكلترا من الخارج يغفل عن العناصر الأساسية - يغفل عن الشركات الثرية في لندن القديمة، و لا يشاهد إلا صفيحة النحاس التقليدية الصقيلة على الأبواب. لم أعرف بعد أن نزلت في نادٍ ماذا أفعل هناك، فأغراني منظر الكراسي الجلدية الوثيرة، ومجمل الجو، بنوع من النعاس الفكري، فأنا لم أكتسب بالنشاط المركزّ أو الرياضة ذلك الاسترخاء الحكيم كالآخرين. و إن لم يستطيع المتفرج الكسول أن يحوّل الفراغ إلى فن اجتماعي بالتعاون مع الملايين، فإن هذه المدينة تستبعده كجسم غريب بدلاً من السماح له، كما في باريس، بأن يمشي مشياً وئيداً في حياتها المليئة بالحركة. كان خطأي الذي لم أدركه إلا في ما بعد هو إخفاقي في ممارسة نوع من النشاط خلال الشهرين اللذين قضيتهما في لندن، كأن أنخرط في عمل ما، أو أكاتب صحيفة، ولو فعلت ذلك لنفذت إلى عمق عرض إصبع في الحياة الإنكليزية. و أما كمتفرج فقط، فإنني لم أختبر إلا القليل، ولم أكتسب بعض المعرفة حول إنكلترا الحقيقة إلا خلال الحرب بعد سنين عديدة.

إن آرثر سيمونز هو الشاعر الوحيد الذي اتفق أن رأيته في إنكلترا. وكان هو الآخر قد أعدّ مقدمة للشاعر ييتس الذي أحببت قصائده حباً جماً، وكنت قد ترجمت جزءاً من مسرحيته الشعرية المرهفة «المياه الظليلة» للتمتع بالترجمة ليس غير. لم أعلم أنها ستكون مادة للقراءة الشعرية. فلقد دُعي مجموعة صغيرة من النخبة، فاكتظت بنا غرفة ليست بالواسعة جداً، فاضطر بعضنا إلى الجلوس على كراسي من النوع الذي يُطوى، و على أرض الغرفة. وبدأ ييتس أخيراً، وبعد أن أضيء قنديلا مذبح كبيران بالقرب من المنبر الأسود، أو الأسود الغطاء.

أطفئت كل الأضواء الأخرى في الغرفة، فظهر الرأس المفعم بالحيوية مع خصل شعره السوداء ظهوراً تشكيلياً في ضوء القنديلين. وقرأ ييتس على مهله، وبصوت شجّي عذب الوقع، معطياً كل مقطع قيمته الكاملة من غير أن يتحول إلى الخطابة. كانت الأمسية رائعة، واتصفت بالاحتفالية حقاً. والشيء الوحيد الذي أزعجني كان التقديم البالغ التكلف: الرداء الأسود الذي جعل ييتس يبدو كأنه من رجال الكهنوت، والاحتراق البطيء للشموع الثخينة التي أعتقد أنها كانت مبخّرة قليلاً. وهكذا أصبحت المتعة الأدبية التي منحتني سحراً جديداً احتفالاً بالشعر أكثر منها قراءة عفوية. تذكرت كيف كان فيرهارن يقرأ قصائده وهو خالع معطفه لكي يحدد بذراعيه القويين الإيقاعَ بلا أبهة و لا أداء مسرحي، أو كيف كان ريلكه يقرأ من أحد الكتب بعض القصائد في بساطة، ووضوح، وتأدية هادئة لكل كلمة. كان تلك أول مرة أحضر فيها إلقاء ممسرحاً للشعر، ورغم حبي لعمل ييتس، فقد كنت مرتاباً في هذه المعاملة المقاربة للعبادة. ومع ذلك كنت ضيفه المقرّ بالجميل.

ولكن الاكتشاف الشعري الفعلي الذي قمت به في لندن لم يخص شاعراً حياً، بل فناناً كان في ذلك الوقت شبه منسيّ - وليام بليك، ذلك العبقري الوحيد والإشكالي الذي مازال خذلانه وكماله السامي يفتنانني حتى اليوم. نصحني أحد الأصدقاء بالنظر إلى كتب موضحة بالصور الملونة في غرف الطباعة في المتحف البريطاني، والتي كان يديرها آنذاك لورنس بنيون، فوجدت «أوروبا» و «أمريكا» و «سفر أيوب» التي أصبحت اليوم من الآثار العظيمة النادرة عند الباعة، وسحرت بها. ههنا رأيت أول مرة إحدى تلك الشخصيات الساحرة التي لم تتخذ خطة لنفسها مسبّقاً، بل حملتْها الرؤى على جناحيْ ملاك عبر براري الخيال. حاولت في الأيام والأسابيع التالية أن أتوغل في أعماق تيه تلك الروح البسيطة والشيطانية في آن معاً لأنقل إلى الألمانية بعض القصائد. تمنيت أن أحصل على صفحة خطّتها يده، ولكن ذلك بدا حلماً مستحيلاً. وذات يوم أخبرني صديقي أرشيبولد ج.ب.راسل، أكثر الناس خبرة بالشاعر، بأن المعرض الذي كان يقيمه يعرض للبيع إحدى لوحاته الرؤيوية، وهي صورة «الملك جون» التي هي في رأيه (ورأيي) أجمل ما رسمه الفنان بقلم رصاص. قال لي: «لن تملّ منها»، وكان محقاً. و من أنقاض مكتبتي و لوحاتي، صحبتني هذه الورقة أكثر من

ثلاثين عـاماً، وما أكثر مـا رأيت ذلك الملك المجنون ينظر إليّ من الجدار نظراته الخاطفة الساحرة! ومن بين كل مـا ضـاع و ابتعد عني، فإن أكثر مـا أفقده في تجوالي هو ذلك الرسم. إن عبقرية إنكلترا التي حاولت سدى أن أتعرفها في الشوارع والمدن تكشفت فجأة لي في شخص بليك الرؤيوي. قد أضفت الآن إلى أحبابي الكثيرين في العالم حبيباً آخر.

الفصل السادس

عودة إلى نفسي

إن حب الاستطلاع الذي حملني على التجوال في باريس وإنكلترا وإيطاليا وبلجيكا وهولندا لم يكن ممتعاً فقط، بل مثمراً أيضاً من نواحٍ عديدة. ولكن رغم ذلك لابد للإنسان من مرسى ينطلق منه، ويستطيع العودة إليه دائماً - وإدراكي هذا اليوم أفضل منه في أي وقت مضى، بما أن تجوالي في العالم لم يعد اختياراً، بل فراراً من كلاب الصيد. لقد جمعت منذ أعوام المدرسة مكتبة صغيرة، ولوحات، وتذكارات، وأخذتْ مخطوطاتي تتدكس، ولم أستطيع أن أحتقب هذا الحمل المرغوب فيه في رحلاتي عبر العالم. لذلك أخذت شقة صغيرة في فيينا، لا لتكون مسكناً دائماً لي، بل مجرد «موطئ» كما يقول الفرنسيون. فحتى الحرب العالمية الأولى، كان يستحوذ عليّ شعور خفّي بأن الأشياء كلها مؤقتة. لقد أقنعت نفسي بأن شيئاً مما قمت به لم يكن واقعياً وحقيقياً سواء أكان في عملي الذي اعتبرته مسوّدات مفْضية إلى الشيء الحقيقي، أم مع النساء اللواتي كنت أودّهن. وهذا ما أعطى شبابي إحساساً بالتخفف من المسؤوليات، وميلاً غير مقيّد إلى التذوق، والاختبار، والتمتع. وفي حين كان أترابي قد تزوجوا من وقت طويل، وأنجبوا أطفالاً، وشغلوا مناصب مهمة، وأُلزموا بأن يقدّموا ما عندهم وبكل طاقتهم، فقد بقيت أنا أعتبر نفسي شاباً ومبتدئاً أمامه زمن غير محدود، ومتردداً حيال إي قرار حاسم. وكما اعتبرت عملي تحضيراً للشيء الحقيقي، وبطاقةَ زيارة عليها أن تعلن وجودي في دنيا الأدب، فإن مسكني لم يكن أكثر من عنوان في ذلك الوقت. اخترت منطقة صغيرة على أطراف المدينة عمداً حتى لا تثقل حريتي تكاليف المعيشة. والأثاث الذي ابتعته لم يكن بالغ الجودة، وذلك لأنني لم أرغب في «العناية» به كما كان يفعل أبواي في منزلهما، حيث كان لكل كرسي غطاء

لا يرفع عنه إلا عندما يأتيهما زوار. وكان قصدي أيضا ألا أستقر في فيينا مخافة أن أتعلق بمكان محدد. إن هذا التدرب على المؤقت بقيت أراه خطأ أعواماً عديدة، ولكن عندما أرغمت ثانية فيما بعد على مغادرة كل البيوت التي أنشأتها، ورأيت كل ما حولي ينهار، تبيّن لي أن غريزة عدم الارتباط الملغزة هذه قد كانت عوناً لي. فاكتسابها المبكر قد هوّن علي كل خسارة، وكل مغادرة.

لم يكن عندي كثيراً من الأشياء النفيسة لأخبئها في مسكني الأول. كان رسم بليك الذي أتيت به من لندن معلقاً على الجدار، وكانت إحدى أجمل قصائد غوته التي خطّتها يده السّيالة جوهرةَ مجموعة الكتابات اليدوية التي شرعت في جمعها منذ كنت في الثانوية. كانت جماعتنا الأدبية كلها تتصيد الشعراء والممثلين والمغنين للحصول على الكتابات اليدوية بروح القطيع ذاتها التي كنا نكتب بها الشعر. ومع أن معظمنا قد أقلع عن هذه التسلية، كما أقلعنا عن كتابة الشعر عندما غادرنا المدرسة، فإن التعلق بهذه الظلال المادية التي تخصّ عباقرة قد زادت كثافتها في الحال التي أنا فيها. لم تكن التواقيع تعني شيئاً لي، ولا شهرة الشخص الدولية أو قيمته، بل نُسخ القصائد و المقالات الأصلية، أو مسوّداتها، لأن ما استرعى اهتمامي أكثر من أي شيء آخر هو مسألة خلق العمل الفني سواء من الناحية النفسية أو الناحية المتعلقة بالسيرة الشخصية، تلك اللحظة الغامضة التي ينبثق فيها مقطع شعري، أو لحن، من المحجوب، أو من رؤيا العبقري وحدسه، ثم تثبتّها الكتابة في صورة مادية. أين يمكن فحص تلك اللحظة ومراقبتها إلا في مخطوطة الفنان المشوّهة، ووليدة النشوة؟ إن معرفتي بالفنان غير كافية إذ اطلعت فقط على عمله المنجز، وأنا اتفق مع غوته تماماً عندما يقول: لكي يفهم المرء الإبداعات العظيمة فهماً تاماً عليه ألا يراها في اكتمالها فقط، بل أن يتقصّى عملية إبداعها أيضاً. إن رؤية إحدى مسوّدات بيتهوفن الأولى التي تظهر جرّات قلمه العنيفة الجزعة، وخليط الموضوعات التي بدأها ثم أهملها، وغزارة عبقريته التي اختصرتها جرّات قلم قليلة، إن ذلك مثير لي جسدياً لأنه مثير فكرياً. وكما ينظر آخرون إلى لوحة كاملة، أنظر أنا إلى مثل هذه الصفحة من الخربشات العويصة نظرة المحب المسحور. وورقة مصححة من أوراق بلزاك تتجزأ فيها كل جملة عملياً، وينحرث كل سطر، وتغطي الهامش الأبيض جرات قلم، وعلامات،

وكلمات، تمثل لي ثورة فيزوف إنساني. وإذا شاهدت أي قصيدة أحببتها في مسوّدتها الأولى، في تحققها الأرضي الأول، أثارت في نفسي رهبة دينية بحيث لا أكاد أجرؤ على مسّها. إن التباهي بامتلاك بعض هذه الأوراق قد ترافق مع رغبة عابثة في الحصول عليها، والبحث عنها في المزادات والفهارس. ما أكثر الساعات المتوترة التي أدين بها لهذا البحث، وما أكثر حوادثها المثيرة! كنت أتأخر يوماً هنا، وأجد القطعة المرغوب فيها زائفة هناك، ثم لم تلبث أن تحدث معجزة. فلقد حصلت على مخطوطة صغيرة من مخطوطات موزارت، ولكن ما أفسد بهجتي هو أن قسم الموسيقا كان منتزعاً. وفجأة ظهر القسم المفقود الذي نزعه منذ خمسين عاماً أو مئة عام مخربُ نفائس معجبٌ، ظهر في مزاد في ستوكهولم، وأمكن آنذاك تركيب اللحن مثلما تركه موزارت تماماً منذ مئة وخمسين عاماً. وبالطبع فإن دخلي الأدبي في تلك الأيام لم يكن كافياً لابتياع أشياء باذخة، ولكن كل جامع يعرف كم يشتدّ فرحه بامتلاك قطعة معينة إذ كان امتلاكها يقتضي تضحية. إضافة إلى ذلك، طلبت من كل أصدقائي ضريبة عبور، فأعطاني رولان مجلد «جان كريستوف»، وريلكه عمله الأشهر «ألحان الحب والموت»، وكلوديل مسرحيةَ «بشارة مريم»، وغوركي مسوّدة طويلة، وفرويد بحثاً مطوّلاً. لقد علموا جميعهم أنه لا يمكن لأي متحف أن يحفظ مخطوطاتهم حفظ جامع محب. كم انتثر من هذا كله في أربع جهات الأرض! وكم انتثر معه مباهج أخرى أقل شأناً!

واكتشفت بالمصادفة في ما بعد أن أنفس تحفة أدبية كانت مكنوزة في المبنى ذاته، وليس في حجرتي. كان يقطن فوقي في شقة متواضعة أيضاً معلمة موسيقا مسنّة. وذات يوم أسمعتني هذه العانس الشائبة كلاماً حلواً على الدرج. قالت: إنها يقلقها أن أكون مرغماً على الاستماع إلى دروسها، وأنها تأمل ألا يكون فن طلابها غير الكامل كثير التشويش على عملي. وفي سياق محادثتنا علمت أن أمها تسكن معها. وهذه السيدة الثمانينية، شبه العمياء، والعاجزة عن مغادرة الغرفة، لم تكن إلا ابنة فوجل vogel، طبيب غوته، وفي عام ١٨٣٠ كانت أوتيلي فون غوته عرّابةً عند تعميدها الذي حضره غوته أيضاً. كدت أُصاب بالإغماء - مازال على الأرض في عام ١٩١٠ شخص استقرت عليه نظرة غوته المقدسة. إن التجليات المادية للعبقرية كانت على

الدوام تثير في نفسي إحساساً بالمهابة، فإضافة إلى المخطوطات جمعت كل ما وقعت عليه يداي من آثار. وفي وقت متقدم من «حياتي الثانية» كانت إحدى غرف منزلي مخصصة لعبادتي هذه، إن صحّ وصفها بالعبادة. هناك كانت تنتصب منضدة بيتهوفن، والخزانة الصغيرة التي كانت يتناول منها، وهو في السرير، النقود اللازمة للخادمة بيد مرتجفة مسّها الموت. وكان هناك أيضاً صفحة من كتاب التدبير المنزلي، وخصلة من شعره الشائب. وحافظتُ على إحدى ريشات غوته أعواماً طويلة تحت الزجاج تفادياً لإغراء تناولها بيدي غير الجديرة بها. لكن هذه الأشياء الجامدة لا تقارن بشخص، بكائن حي يتنفس كان قد أنعم النظر في عيني غوته المستديرتين الداكنتين إنعام العارف المحب. إن آخر خيط رفيع كان يمكن أن ينقطع في أي لحظة قد ربط بالمصادفة عالمَ فايمار الأولمبي بمنزل Kochgasse 8 المتواضع، من خلال هذه المخلوقة الأرضية الواهنة. استأذنت على السيدة ديميليوس Demelius، فاستقبلتني تلك السيدة المسنة استقبالاً لطيفاً بالغ الحفاوة. وفي غرفتها، وجدت كثيراً من الأمتعة الخالدة التي أعطاها إياها حفيد غوته، أحد أصدقاء شبابها: شمعدانان كانا يوضعان عل طاولته، وتذكارات مماثلة من منزله في فراونبلان في فايمار. لكن هذه العجوز التي اعتمرت قبعة سترت شعرها الأبيض الرقيق، وسرّها أن تحكي لي بفمها المتجعد كيف قضت أعوام شبابها الخمسة عشر الأولى في المنزل في فراونبلان (الذي لم يكن قد أصبح متحفاً كما هو اليوم) تحرس هذه الأشياء من ملامسة الأيدي منذ الساعة التي غادر فيها أعظم شعراء ألمانيا منزله، والعالم، إلى الأبد. أليست هذه العجوز ذاتها معجزة حقيقة؟ وكما يفعل الكبار دائماً، تحدثتْ عن ماضي شبابها حديثاً شديد الموضوعية، فكان مؤثراً سخطها لأن جمعية غوته قد ارتكبت خطأً جسيماً في نشرها رسائل حب صديقة طفولتها أوتيلي فون غوته «في وقت مبكر جداً!» لقد نسيت أن أوتيلي قد ماتت منذ خمسين عاماً. كانت تظن أن حبيبة غوته لم تزل حية، ولم تزل شابة. إن ما أصبح منذ عهد بعيد تاريخياً و أسطورياً ،لم يزل واقعاً في نظرها. كنت أشعر بجو شبحي وهي حاضرة. لقد عشت هنا، في هذا المنزل الحجري، وتكلمت على الهاتف، وأشعلت مصابيح كهرباء، وكتبت رسائل على الطابعة، إلا أن ارتقاء اثنين وعشرين درجة كان ينقلني إلى قرن آخر، فأقف في ظل عالم غوته المهيب.

التقيت في ما بعد نساء عديدات تسامقت رؤوسهن البيض إلى العالم البطولي والأولمبي. ومن هؤلاء كوسيما فاجنر، ابنة ليست liszt القاسية والقوية، والتي تضفي عليها إشاراتها المحزنة شيئاً من الجلال مع ذلك، وإليزابث فورستر، شقيقة نيتشه الأنيقة والقصيرة والمغناج، وأولغا مونود، ابنة ألكساندر هيرتسن التي كانت تجلس وهي طفلة على ركبة تولستوي. وسمعت رجلاً مسنّاً مثل جورج براندس يحكي عن لقاءات مع والت ويتمان، أو فلوبير، أو ديكنز، أو مثل ريتشارد ستراوس يصف كيف رأى ريتشارد فاجنر أول مرة. ولكن لا شيء أثرّ في نفسي كما أثّر وجه هذه المرأة الجليلة، آخر من أدام غوته النظر إليه من الأحياء. وربما أكون أنا نفسي من يقول: إنه قد عرف الشخص الذي استقرت يد غوته على رأسه في رفق لحظة من الزمن.

وجدت أخيراً مكاناً ألجأ إليه بعد الأسفار. ومع ذلك فإن اكتشاف بيت أخر في الوقت ذاته كان أكثر أهمية ـ دار النشر التي حافظت على عملي زهاء ثلاثين عاماً، ودعمته. إن هذا الخيار حاسم في حياة أي كاتب، ولم يكن ليحدث شيء يحالفني فيه الحظ أكثر من ذلك. فمنذ بضع سنوات آثر محب للثقافة الرفيعة فكرة استثمار ثروته في مجال الثقافة على استثمارها في سباق الخيل. فلقد قرر ألفرد فولتر هيمل الذي لم يكن هو نفسه شاعراً عظيم الشأن، أن ينشئ في ألمانيا، حيث كان النشر قائماً على أسس تجارية، داراً للنشر تتخذ محتوى العمل معياراً للنشر، وليس قيمته التجارية، ولا تتوقع الربح المادي، بقدر ما تتوقع الخسائر المتواصلة. كان ينبغي استبعاد الأدب الخفيف على فائدته الممكنة، والترحيب، بالمقابل، بأبرع الأعمال وأكثرها تجريباً. كان شعار هذه الدار الممتازة التي اعتمدت في البداية على قلة من أصحاب الخبرة الفنية ألا تُقبل إلا الأعمال الفنية الخالصة. وتباهياً بانفرادها دعت نفسها «الجزيرة»، وفي ما بعد «دار الجزيرة». ولم يكن ينبغي أن تُصنع كتبها صناعةً، بل أن يُعطي كل كتاب تميزه الخارجي في شكله المطبوع المتناسب مع كماله الداخلي، لذلك فإن صفحة العنوان، والنص، ونوع الحروف لكل كتاب، كانت تطرح مشكلة جديدة وفريدة. وحتى نشرات الدعاية، وأدوات الكتابة لهذه الشركة الطامحة أصبحت موضوعاً للتأمل العميق. ولا أذكر، مثلاً، أنني وجدت خلال ثلاثين عاماً خطأ مطبعياً واحداً في أحد كتبي، أو حتى سطراً مصححاً في رسالة من الشركة. لقد كان كل شيء، حتى أدق التفاصيل، يطمح إلى أن يكون نموذجاً.

لقد نشر هوفمنزثال وريلكه أعمالهما الغنائية في دار الجزيرة، وهذا ما جعل المعيار الأرفع هو الوحيد المقبول. ويمكن للمرء أن يتخيل فرحي وافتخاري باكتساب شرف المواطنة الدائمة في هذه «الجزيرة» و أنا في السادسة والعشرين. كان التشجيع الأدبي هو المغزى الظاهر لهذه العلاقة، أما المغزى الباطن فقد كان مزيداً من المسؤولية. فكل من دخل إلى هذه الدائرة المصطفاة، توجب عليه أن يمارس الانضباط والتكتم، ولم يكن مسموحاً له بأي طيش أدبي، ولم يكن يجرؤ على ارتكاب أي تعجل صحفي، لأن شارة «دار الجزيرة» كان تعني للآلاف في البداية، ومئات الآلاف في ما بعد، ليس ضمان نوعية النص فقط، بل الدقة التامة في كل ما يخصّ فن الطباعة.

لا شيء يسعد الكاتب الشاب أكثر من أي يجد دار نشر جديدة، ويكبر معها، فهذا النمو العادي وحده يخلق بالفعل علاقة عضوية بينه، وبين عمله والعالم الخارجي. وسرعان ما ارتبطت بصداقة حميمة مع مدير «دار الجزيرة»، الأستاذ كبنبرغ، وما قوّى صداقتنا فهمنا المتبادل للميل المشترك بيننا إلى جمع الأشياء النفيسة. إن مجموعة غوته التي عند كبنبرغ قد تطورت بالتوازي مع تزايد مجموعة مخطوطاتي الأصلية طيلة ثلاثين سنة، وأصبحت أهم مجموعة يمتلكها شخص واحد. كان يسدي إليّ نصائح قيّمة، ويحذرني تحذيرات مفيدة في الغالب. ومن ناحية أخرى، كنت قادراً، لاحتفائي الخاص بالأدب الأجنبي، على تقديم اقتراحات مهمة له. وهكذا، فإن ملايين النسخ التي احتوتها مكتبة الدار قد جعلتها مثل مدينة عالمية كبيرة مبنية حول «البرج العاجي» الأصلي، وبالتالي أكثر دور النشر الألمانية تميزاً، نتيجة فكرة كنت اقترحتها. وبعد ثلاثين سنة اختلفت الأمور عما كانت في البداية، فالمشروع الصغير تحول إلى أضخم دور النشر، والكاتب الذي كان لا يقرأه إلا حلقة محدودة من القراء، أصبح مقروءاً على أوسع نطاق في ألمانيا. والحق هو أن هذه المزاملة السعيدة المتآلفة قد احتاج فصمها إلى كارثة عالمية، وأقسى تطبيق للقانون. عليّ أن أعترف أن مغادرة الوطن والمنزل كان أهون عليّ من عدم رؤية الاسم المألوف للدار على كتبي.

اتضح الطريق أمامي. كنت قد بدأت بالنشر في سن مبكرة غير مناسبة. ومع ذلك كنت مقتنعاً بأنني لم أبدع شيئاً وأنا في السادسة والعشرين. كان أعظم انتصارات شبابي، أي مزاملة أفضل عقول العصر المبدعة ومصادقتها، قد أصبح على نحو

مستغرب تماماً، عائقاً خطراً يعترض قدرتي على الإبداع. فلقد تعلمت قيماً صحيحة، وهذا ما جعلني متردداً. وبسبب هذا الافتقار إلى الشجاعة، فإن كل ما نشرته حتى ذلك الوقت، باستثناء الترجمات، قد كان مقتصراً على أشكال صغيرة كالقصص والقصائد. لم أملك الجرأة الكافية على الشروع في الرواية (وهذا لم يحدث إلا بعد نحو ثلاثين سنة). كانت مغامرتي الكبرى في المجال الدرامي، ومع هذه المحاولة الأولى حصل إغراء شديد، وبشائر مواتية دفعتني إلى التسليم. ففي ذلك الصيف من عام ١٩٠٥أو ١٩٠٦، كتبت مسرحية - وبالطبع كانت مسرحية شعرية على طريقة العصر الكلاسيكية، وكان عنوانها «ثيرسايتيز» Thersites. ورأيي الآن في تلك المسرحية التي ليس لها في الوقت الحاضر إلا أهمية تقليدية يتجلّى في عدم سماحي بأن تُنشر مرة ثانية - كما هي الحال مع كل ما كتبته قبل بلوغي سن الثانية والثلاثين. ورغم ذلك، فإن هذه المسرحية كشفت عن سمة شخصية في موقفي الباطن الذي لا يناصر أبداً ما يُدْعى البطل، ولا يرى المأساة إلا في المغلوب. فالبطل في قصصي هو دائماً الإنسان الذي يستسلم للقدر، وفي سِيَري هو الشخص الذي لا ينجح بالمعنى الدنيوي، بل بالمعنى الأخلاقي: إرازموس لا لوثر، وماري ستيوارت لا إليزابث، وكاستيلو لا كالفن. وها هو ذا السبب الذي جعلني حتى في ذلك الوقت لا أعتبر أخيل بطلاً، بل أقل أخصامه هيبةً، أي ثيرسايتيز المغلوب، بدلاً من الشخصية التي تمكّنها سلطتها، ويقينها الذكي من جعل الآخرين يكابدون. لم أعرض العمل المنجز على أي ممثل، وحتى على أصدقائي، لأنني كنت على خبرة بالناس والحياة بحيث أدركت أن مسرحيات الشعر المرسل، وذات الزي الإغريقي، ليست شباك تذاكر جيداً في المسرح التجاري حتى لو كان كاتبها سوفوكليس أو شكسبير. والتزاماً بالأعراف فقط، أرسلت بعض النسخ إلى بعض المسارح المهمة، ثم نسيت الأمر تماماً.

ولشد ما دُهشت عندما تلقيت بعد ثلاثة أشهر رسالة كتُب على غلافها «المسرح الملكي في برلين». ما الذي يبتغيه مني مسرح الدولة البروسي؟ كانت مدعاة للذهول أن يخبرني المدير لودفيغ بارني، أحد أعظم ممثلي ألمانيا سابقاً، بأن المسرحية قد أثرت في نفسه تأثيراً عميقاً، وأنها لقيت منه ترحيباً خاصاً لأنه قد وجد أخيراً في شخصية آخيل دوراً طال البحث عنه للممثل أدالبرت ماتكوفسكي. لذلك طلب مني أن أمنح المسرح الملكي في برلين حقوق العرض الأول.

هالني الأمر. ففي ذلك الوقت كان في ألمانيا ممثلان عظيمان هما أدلبرت ماتكوفسكي، وجوزيف كينس. كان الأول ألمانيا شمالياً لا نظير له في قوة شخصيته البدائية، وعاطفته الفيّاضة، والثاني من فيينا كان يبتهج به الجمهور لظرافته الفكرية، وأدائه الفذ، وبراعة صوته المعدني المدوّي. وهكذا كان على ماتكوفسكي أن يجسد بطلي، ويلقي أشعاري. وأن يكون أهم مسرح في عاصمة الرايخ الألماني عرّاب مسرحيتي، فتراءى لي أنني حققت تقدماً عظيماً في مجال المسرح.

ومنذ ذلك الوقت، تعلمت ألا أستبق أفراح العرض الأول قبل أن يرتفع الستار. صحيح أن التدريبات الفعلية قد بدأت، واحدة تلو الأخرى، وأكدّ لي الأصدقاء أن ماتكوفسكي لم يكن أروع وأقوى مما كان في تلك التدريبات وهو يلقي أشعاري. كنت قد حجزت حجرة في مركبة النوم في القطار للذهاب إلى برلين، عندما وصلت برقية في اللحظة الأخيرة: تأجّل العرض بسبب مرض ماتكوفسكي. اعتقدت أن ذلك عذر شائع في المسرح عندما يريدون تجنب وعد أو تاريخ. ولكن الصحف نشرت بعد أسبوع نبأ وفاة ماتكوفسكي. كانت أشعاري آخر ما نطقت به شفتاه العجيبتان.

قلت في نفسي: انتهى، انتهى الأمر. ومع أن مسرحيين مهمين في درسدن وكاسل طلبا المسرحية، فإن اهتمامي أصابه فتور. لم أرغب في التفكير في آخيل آخر غير ماتكوفسكي. وحتى في ذلك الوقت بلغتني أخبار مفاجئة. أيقظني أحد الأصدقاء ذات صباح، وأخبرني أن جوزيف كينس Kainz قد أرسله ليقول لي: إنه قد عثر بالمصادفة على المسرحية، ورأى فيها دوراً له،ليس دور آخيل، بل دور ثيرسايتيز المأساوي النقيض، وأنه سوف يتصل بمسرح البلاط في الحال. كان شلنتر، وهو من رواد الواقعية آنذاك، قد قدم من برلين (مما أزعج أهل فيينا)، وتولّى إدارة المسرح وفق مبادئ واقعية. وسرعان ما كتب لي قائلاً: إنه لا يتوقع أي نجاح للمسرحية بعد العرض الأول، رغم أنه يدرك ما المثير للاهتمام فيها.

قلت في نفسي مرة أخرى: انتهى الأمر، أنا المتشكك على الدوام في نفسي وفي عملي. ومن ناحية أخرى، شعر كينس بالمرارة، ودعاني إلى زيارته في الحال، فرأيت أول مرة إله شبابي الذي كنا نودّ، نحن طلاب المدرسة الثانوية، أن نقبّل يديه وقدميه. كان جسمه ليّناً كالريش، ووجهه صافياً أضاءته عينان جميلتان داكنتان حتى وهو في

الخمسين. كان بهجةً أن تسمعه يتكلم. فحتى في أحاديثه الخاصة، كان لكل كلمة شكلها الأنقى، ولكل حرف ساكن دقته التامة، ولكل حرف صائت اهتزازاته الكاملة الواضحة. وأنا لا أستطيع حتى هذا الوقت أن أقرأ القصائد التي ألقاها من دون أن أسمع صوته بشدته المدروسة، وإيقاعه التام، واهتزازه المدوّي. وإنني منذ ذلك الوقت لم أجد متعة مماثلة في الاستماع إلى اللغة الألمانية. إن هذا الرجل الذي عبدته كإله، اعتذر إلي عن عدم نجاحه في تقديم مسرحيتي. ولكنه قال مؤكداً: إننا من الآن فصاعداً ينبغي ألا يغيب أحدنا عن بصر الآخر. و الحقيقة هي أنه أراد أن يطلب مني شيئاً ـ كاد يضحكني أن يطلب كينس مني شيئاً. كان يؤدي بعض الأدوار المتعاقد عليها بين الحين والآخر، ولديه مسرحيتان من فصل واحد، ويحتاج إلى مسرحية ثالثة. وما خطر له كان قطعة قصيرة. ولتكن شعراً إن أمكن ذلك، ومن المفضل أن تتضمن أحد تلك الشلالات الغنائية التي لا يستطيع إلاه من الممثلين الألمان أن يسكبها نفساً واحداً بأسلوبه الفخم المهيب أمام جمهور منقطع النفس. أكان ممكناً ألا أكتب له مسرحية من فصل واحد؟

وعدته أن أحاول. وإرادة الفعل يمكن أن «تتحكم في الشعر»، كما يقول غوته. وضعت مخطط مسرحية عنوانها «الكوميدي المتحول»، وكانت حول قصة غرام خفيفة ومنمقة مع مونولوجيْن دراميين غنائيين مندمجين فيها. ومن تلقاء نفسي شعرت بالتأثر برغبته في كل كلمة، فتماهيت بحماسة معه، وسعيت إلى تبني أسلوبه أيضاً. ولذلك فإن هذا العمل الذي طُلب مني أصبح أحد الأحداث السعيدة التي لم تصنعها البراعة البحتة، بل الحماسة وحدها. وبعد ثلاثة أسابيع، استطعت أن أري كينس المسوّدة شبه المنتهية، مع أحد «الألحان» المصاحبة لها. كان صادق الحماسة للعمل، ولم يلبث أن ألقى «الشلال» مرتين، وفي المرة الثانية بلغ إلقاؤه غاية الكمال. وسأل في جزع ملحوظ عن الوقت الذي أحتاج إليه. شهر.. ممتاز! ناسبه ذلك تماماً. كان ينوي التجوال في ألمانيا عدة أسابيع، وعند عودته، سيبدأ بالتدريب بلا إبطاء، لأن المسرحية ستؤدَى في مسرح البلاط. ثم إنه وعدني بأن يدخلها في مجموعة الأعمال التي يؤديها، إذ أنها ناسبته مثل قفّاز. «قفّاز»، وكررّ هذه العبارة عدة مرات، وصافحني بانفعال ثلاث مرات.

كان واضحاً أنه قد أثار فضول مسرح البلاط قبل رحيله، وذلك لأن المدير اتصل بي هو نفسه، وطلب مني أن أريه مسوّدة المسرحية، وأعرب عن قبولها سلفاً. أعطيت الأدوار المساعدة للممثلين حتى يقرؤوها. وبدا لي مرة أخرى أنني سأنال جائزة عظيمة على صعيد متواضع ـ مسرح البلاط، فخر مدينتنا، وممثلٌ كان هو ودوس Duse أعظم ممثلي زماننا، ومسرحية لي، إن كل ذلك كان كثيراً على مبتدئ. لم يكن هناك إلا خطر واحد، وهو أن يعدل كينس عن رأيه عند إنجاز المسرحية، ولكن كم كان ذلك مستبعداً! على كل حال فإن الجزع انتقل إليّ. وأخيراً قرأت في صحيفة أن كينس قد عاد من جولته. والتزاماً مني بالكياسة، لم أندفع إليه إثر عودته، بل انتظرت يومين. ولكني تشجعت في اليوم الثالث وسلمت بطاقة زيارة للبوّاب المسنّ المعروف في فندق ساشر، حيث كان كينس يقيم آنذاك. حدّق فيّ الرجل العجوز من فوق نظارته مندهشاً، وقال: «ألم تسمع، ياسيدي الدكتور؟» قلت: لا لم أسمع شيئاً. قال: «أخذوه إلى المشفى في صباح هذا اليوم.» وأخبرني أن كينس قد عاد مريضاً جداً من جولته التي مثّل في أثنائها أدواره العظيمة مسيطراً لآخر مرة على آلامه المبرحة سيطرة شجاعة أمام جمهور غير مرتاب في شيء. في اليوم التالي أُجريت عملية للسرطان المصاب به. وبحسب الصحف الرسمية، لم يكن شفاؤه ميئوساً منه، فزرته وهو على سرير المرض. كان مستلقياً على السرير منهكاً، هزيلاً، وعيناه أكبر من المعتاد في وجهه الضاوي. صُدمت، فشفتاه البليغتان الناضرتان أبداً حددهما شارب ثلجي اللون، ورأيت أمامي رجلاً مسنّاً يحتضر. ابتسم لي ابتسامة حزينة. «هل تعتقد أن الرب سوف يمنحني القدرة على تمثيل مسرحيتنا تلك؟ قد يُحسّن ذلك حالي.» ولكننا وقفنا عند نعشه بعد بضعة أسابيع.

ربما لا يصعب على أحد فهم عدم ارتياحي إلى البقاء في المجال الدرامي، والقلق الذي كان يعتريني كلما قدمتُ قطعة جديدة إلى المسرح. إن موت أعظم ممثلين في ألمانيا وهما يتدربان على أشعاري قد جعلني (ولا أخجل من الاعتراف بذلك) مؤمناً بالخرافات. وشجاعة ولوج مجال المسرح لم تعاودني إلا بعد بضعة أعوام، حين قبل المسرحية على الفور مدير البلاط الجديد، ألفرد بارون بيرغر، وهو من رجال المسرح

البارزين، وأستاذ في الإلقاء. تفرست في الممثلين المختارين تفرس القلق، وتنفست الصعداء، ويا للمفارقة! قلت في نفسي «الحمد لله أن أحداً منهم ليس مشهوراً.» لم يكن بينهم من يمكن أن يصبّ عليه القدر جامَّ غضبه. ومع ذلك، فإن غير المحتمل قد وقع. فإن أغلق أحدنا بابه في وجه المصائب، تسللت من باب آخر. لقد فكرت في الممثلين فقط، ولم أفكر في المدير الذي عزم على إخراج مأساتي «منزل قريب من البحر»، وكان قد أعدّ كراسة التلقين. لم أفكر في ألفرد بارون بيرغر. ولكن مما لا ريب فيه هو أن الرجل قضى نحبه قبل أسبوعين من موعد التدريب الأول. إن اللعنة التي بدا أنها معلقة فوق أعمالي الدرامية لم تزل تفعل فعلها. وحتى بعد عقد من الزمان، عندنا طافت العالم بعد الحرب الأولى مسرحيتا «إرميا» و «فولبون»، لم أشعر بكثير من الثقة. وفي عام ١٩٣١ ، عملت عن و عي وخلافاً لاهتماماتي، عندما أكملتُ مسرحية جديدة هي «حَمَل وحيد». وبعد أن أرسلت المخطوطة إلى صديقي الكساندر مواسي Moissi، تلقيت ذات يوم برقية منه يطلب فيها مني أن أحتفظ له بالدور الرئيسي في العرض الأول. ومواسي الذي جلب معه من بلده إيطاليا عذوبة صوت حسية لم نسمع مثلها في المسرح الألماني من قبل، كان حينئذ الخلف العظيم الوحيد للممثل جوزيف كينس. كان شخصاً ساحر المظهر، ذكياً، حيوياً، علاوة على كونه لطيفاً وملهماً، كان يكسو كل مسرحية بشيء من سحره الخاص. لذلك لم يكن ممكناً أن ألتمس ممثلاً خيراً منه للدور. ومع ذلك، عندما قدّم لي اقتراحه، أُثيرت في نفسي ذكرى ماتكوفسكي وكينس، فرفضت الاقتراح متذرعاً بذريعة من دون أن أطلعه على السبب الحقيقي. كنت أعرف أنه قد ورث عن كينس خاتم إفلاند Iffland الذي كان ينتقل من أعظم ممثل إلى أعظم خلف له. أكان مقدراً عليه أن يرث قدر كينس؟ على أي حال، لم أكن راغباً في أن أكون سبباً لمصيبة تنزل للمرة الثالثة بأعظم ممثل في ألمانيا يومئذٍ. ولذلك تخلّيت عما كان يمكن أن يكون أفضل تفسير لمسرحيتي محبةً له، وإيماناً بالخرافة. ولكن هذا التخلي لم يكن قادراً على حمايته. ورغم أنني رفضت إعطائه الدور، ورغم أنني لم أعطِ قط عملاً جديداً للمسرح منذ ذلك الوقت، فأنا مازلت أقع في شرك مصائب الآخرين من غير أن أرتكب أي خطأ.

أنا مدرك تماماً أن بعضكم قد يخامره الشك في أنني أروي قصة أشباح. فإذا كان ممكناً تفسير حادثتي ماتكوفسكي وكينس بالمصادفة القاسية، فلماذا ماوسي بعدهما، بما أنني لم أعطه الدور، ولم أكتب مسرحية جديدة منذ ذلك الوقت؟ ها هو ذا ما حدث: كنت في زوريخ صيف ١٩٣٥ـ وأنا استبق القصة الآن ـ حين تلقيت من دون سابق إنذار، برقيةً من مواسي أرسلها من ميلان يخبرني فيها أنه قادم لزيارتي، وعليّ أن أنتظره. استغربت ذلك، وتساءلت: ما الذي يمكن أن يكون ملحّاً إلى هذا الحد؟ فأنا لم أكن قد كتبت أي مسرحية جديدة، وكنت مُعْرضاً عن المسرح تماماً منذ عدة أعوام. وبطبيعة الحال، انتظرت قدومه، لأنني أحببت هذا الرجل الدافئ الودود كما يحب المرء أخاه. اندفع نحوي من القطار، وتعانقنا على الطريقة الإيطالية. وكنا ما نزال في السيارة عائدين من المحطة عندما بدأ باندفاعه المدهش يخبرني عما يمكن أن أفعله من أجله. لقد شرّفه بيرانديلو بمنحه حقوق العرض الأول لمسرحيته الجديدة Non si sa mai خارج إيطاليا، وتقرر أن يجري العرض في فيينا باللغة الألمانية. وكانت تلك هي المرة الأولى التي يمنح فيها كاتب إيطالي حق العرض الأول لبلد غير إيطاليا، فحتى باريس لم تمنح هذا الحق، ولكن بيرانديلو كان عنده رغبة خاصة. خشي أن يفقد نثره في الترجمة موسيقاه ورهافته، لذلك رغب في أن أترجم المسرحية إلى الألمانية أنا، وهو الذي قدّر مهارتي اللغوية منذ عهد بعيد. وبالطبع فإن بيرانديلو تردد في مفاتحتي بالأمر، إذ كيف يمكن أن يتوقع أن أبدد وقتي في الترجمة؟ كما قال. لذلك تعهد مواسي بنقل رغبته إليّ. و الحقيقة هي أنني قد امتنعت عن الترجمة منذ أعوام. ولكنني كنت أحترم بيرانديلو الذي سررت بلقائه عدة مرات، وشقّ عليّ أن أخيّب أمله، وما سرّني أكثر من ذلك هو أن أتمكن من تقديم شيء للصديق الحميم مواسي يرمز إلى الرفقة. نحيّت عملي جانباً، ولم يمضِ عدة أسابيع حتى أُعلن أن مسرحية بيرانديلو التي ترجمتها سيجري عرضها الدولي الأول في فيينا، وأن أسباباً سياسية ستجعل من هذا العرض حدثاً ذا أهمية خاصة. فقد وعد بيرانديلو أن يحضر العرض، وبما أن موسوليني كان آنذاك مناصر النمسا المعلن، فإن كبار موظفي المستشار قد أعلنوا حضوره. كان يُقصد من الأمسية أن تكون مناسبة للتعبير عن الصداقة النمساوية الإيطالية (في حقيقة الأمر، بسط حماية إيطاليا على النمسا).

كنت في فيينا حين بدأت التدريبات. وكنت مشتاقاً إلى رؤية بيرانديلو مرة أخرى، وتواقاً إلى سماع مواسي وهو ينطق بكلمات ترجمتي. ولكن الحادثة نفسها التي وقعت منذ ربع قرن وقعت هناك على نحو مماثل تماماً. فلما فتحت صحيفتي في الصباح الباكر، قرأت أن مواسي قد قدم من سويسرا وهو يعاني من نزلة وافدة حادة، وأن التدريبات سوف تؤجّل. وحسبت أن النزلة الوافدة لا يمكن أن تكون خطرة. ولكن قلبي أخذ يسابقني وأنا ماضٍ إلى الفندق - الفندق الكبير هذه المرة، والحمد لله، وليس فندق ساشير! - لأزور صديقي المريض. إن ذكرى زيارة كينس التي كانت بلا طائل جعلتني أرتعد. ومرة أخرى، وبعد خمس وعشرين سنة، حدث الشيء نفسه لأعظم ممثل في ألمانيا. تأخرت كثيراً، ولما دخلت، وجدت مواسي يهذي من الحمى. وبعد يومين، وقفت عند نعشه، كما وقفت عند نعش كينس.

لقد رويت آخر تحقق للسحر الغامض المرتبط بمحاولاتي المسرحية في غير وقته. وبالطبع، فأنا أرى أن الحادث المتكرر مجرد مصادفة. ولكن موت ماتكوفسكي وموت كينس المتقاربين قد كان لهما بلا شك تأثير محدد في مجرى حياتي في ذلك الوقت. فلو مثّل ماتكوفسكي في برلين، وكينس في فيينا، المسرحيات الأولى لشاب في السادسة والعشرين، لكان من الممكن أن يغدو ذائع الصيت - ربما بغير استحقاق - وبالتالي أن يُحرم من أعوام التعلم المتأني، والاختبار المتأني للعالم، وذلك بفضل فنهما العظيم الذي كان يستطيع أن يجعل حتى أضعف الأعمال عملاً ناجحاً. والأمر الطبيعي تماماً هو أن أرى أن القدر كان يضطهدني، بما أن المسرح قد أتاح لي إمكانات مغرية لم أكن أحلم بها، ولكن القدر انتزعها مني بفظاظة في اللحظة الأخيرة. والإنسان في مقتبل العمر يظن أن القدر متطابق مع المصادفة، وفي ما بعد يعرف أن مجرى الحياة الفعلي يُحدَّد من الداخل، ومهما قد تنحرف بنا الطريق عن رغباتنا انحرافاً مضطرباً وغير ذي معنى، فإنها في آخر المطاف ستفضي بنا إلى هدفنا المحجوب لا محالة.

الفصل السابع

أبعد من أوروبا

هل كان مرور الزمن في الماضي أسرع منه في هذا اليوم المزدحم بالأحداث التي ستغير مقومات عالمنا تغييراً يدوم مئات السنين؟ أم أن أعوام شبابي الأخيرة قبل الحرب الأوروبية الأولى تبدو مغشّاة لأنني قضيتها بالعمل المنتظم؟ لقد كتبت، ونشرت، وأصبح اسمي معروفاً في ألمانيا، وفي الخارج إلى حد ما، وصار لي أنصار، وخير دليل على اكتسابي فردية ما هو أنه صار لي خصوم أيضاً. كانت صحف الرايخ الكبرى مفتوحة لي، ولم أعد مضطراً إلى تقديم المواد، بل صارت تُطلب مني المساهمة. أنا لا أبطن أي اعتقاد بأن ما فعلته وما كتبته في تلك الأعوام له دلالة في يومنا هذا. فكل مطامحنا، وأحزاننا، وخيباتنا، وغضباتنا تبدو اليوم تافهة. لقد غيرت أبعاد الحاضر بالضرورة نظرتنا إلى الأشياء. فلو كتبت هذا الكتاب منذ بضعة أعوام، لكتبت عن أحاديثنا مع جيرهارت هويتمان، وآرثر شنتسلر، وبير هوفمان، ودهميل، وبيرانديلو، و واسرمان، وشالوم آش، وأناتول فرانس (وبالمناسبة، فإن الشيخ الظريف أناتول كان يروي لنا قصصاً غير لائقة طيلة المساء، وكان يرويها بوقار متعمد، وكياسة لا توصف). وكان يمكن أن أحكي عن عروض أولى مهمة من مثل أداء غوستاف ماهلر للسيمفونية التاسعة في ميونخ، وRosenkavalei في درسدن. وعروض الراقصيْن الروسيين كارسافينا ونيجينسكي - لأنني تجولت كثيراً، وكنت شاهداً شغوفاً للعديد من الأحداث الفنية «التاريخية». ولكن كل ما هو غير مرتبط بالمشكلات الراهنة يبدو قديماً عندما تخضع أهميته إلى مقياسنا الصارم. فاليوم يبدو الرجال الذي لفتوا انتباهي إلى الأدب أقل أهمية من أولئك الذين صرفوه عن ذلك إلى الواقع.

كان على رأس هؤلاء رجل تعيّن عليه أن يتحكم في مصير الرايخ الألماني في

أكثر عهوده مأساوية، وأطلقت عليه أولى الرصاصات المجرمة للحزب الاشتراكي القومي قبل أن يتسلم هتلر السلطة بإحدى عشرة سنة، وهذا الرجل هو فولتر راثينو. كانت صداقتنا التي نشأت نشاة غير عادية قديمة العهد، وصادقة الود. وإن ماكسيمليان هاردن الذي كانت صحيفته «المستقبل» ذات تأثير حاسم في العقود الأخيرة من الإمبراطورية، قد كان من أوائل من دِنْتُ لهم بالتقدم في سن التاسعة عشرة. وهاردن هو الذي دفعه بيسمارك نفسه إلى السياسة - أراد المستشار استخدامه ناطقاً باسمه، أو مانعة صواعق - وهو الذي حطّم وزراء، وفجّر حادثة أويلنبرغ، وجعل القصر الإمبراطوري يهتز كل أسبوع خوفاً من هجمات وفضائح جديدة. ولكن رغم ذلك، فإن حب أويلنبرغ الحقيقي كان للمسرح والأدب. وذات يوم نشرت «المستقبل» سلسلة من الأقوال المأثورة موقعة باسم مستعار لا أتذكره، وقد أثرت في نفسي حكمة تلك الأقوال غير العادية، وجزالتها. وبما أنني مساهماً منتظماً في المجلة، فقد كتبت إلى هاردن أسأله عن اسم كاتبها، فأنا لم أقرأ منذ سنوات مثل هذه الأمثال الرائعة الصقل.

لم يأتِ الجواب من هاردن، بل من واحد اسمه فولتر راثينو الذي علمت من رسائله ومصادر أخرى أنه لم يكن إلا ابن مدير شركة برلين الكهربائية، وهو نفسه كان رجل اقتصاد ويدير شركات لا تحصى - أحد التجار الألمان الجدد «ذوي النظر البعيد»، إذا استخدمنا عبارة جان بول. كتب إليّ معرباً عن مودته، وتقديره للتشجيع الذي تلقاه أول ما تلقاه مني. ومع أنه كان أكبر مني بعشر سنوات، فقد أفضي إليّ بما يخامره من شكوك حول نشر كتاب يتضمن أفكاره وحكمه في ذلك الوقت. كان يشعر بأنه دخيل في الأدب، بما أن نشاطه قد تركّز حتى ذلك الحين في مجال الاقتصاد. شجعته تشجيعاً صادقاً، وبقينا على اتصال، ولما زرت برلين في ما بعد هتفت له، فأجابني صوت متردد: «آه، أهذا أنت! من المؤسف أنني مغادر إلى أفريقيا الجنوبية في الساعة السادسة من صباح الغد...» فقاطته قائلاً: «إذاً سنلتقي في وقت آخر طبعاً.» ولكن الصوت تابع في بطء وروية: «لا، انتظر لحظة... مسائي مشغول بالمؤتمرات... فعليّ أن أذهب الليلة إلى الوزارة، ثم إلى عشاء النادي...هلم يمكن أن تأتي في الحادية عشرة والربع؟» بالطبع وافقت. تجاذبنا أطراف الحديث حتى الثانية صباحاً. وغادر في

السادسة إلى أفريقيا الجنوبية الغربية ـ نيابة عن الإمبراطور الألماني، كما علمت في ما بعد.

إنني أروي هذه التفاصيل، لأنها مما تميز به راثينو، فهذا الرجل المشغول جداً كان عنده وقت على الدوام. رأيته خلال أفظع أيام الحرب، وقبيل مؤتمر لوكارنو، وقبل أيام من اغتياله ركبت وإياه في سيارة واحدة وعبر الشارع ذاته التي قُتل فيه. كانت أوقات يومه موزعة دوماً، ومع ذلك كان مستعداً للتحول من موضوع إلى آخر بلا عناء، لأن عقله كان متيقظاً على الدوام، أداة للدقة والسرعة اللتين لم أرهما في أي شخص آخر. وكان طليق اللسان كأنه يقرأ صفحة غير مرئية، ومع ذلك فإن كل جملة كانت تأخذ صيغتها الواضحة المرنة بحيث أن حديثه لو دُوِّن باختزال، لكان عرضاً كاملاً جاهزاً للنشر. كان يتكلم الإنكليزية والفرنسية والإيطالية إضافة إلى الألمانية. وإن ذاكرته لم تخذله قط. ولم يكن يحتاج إلى أي تحضير خاص لأي موضوع. ومن يتحدث معه يشعر بأنه بليد، وناقص التعلم، وعديم الثقة، ومشوّش البال أمام موضوعيته الهادئة المتروّية الواضحة الفكر. ولكن شيئاً في ألمعيته الباهرة وشفافيته، كما في أثاث منزله الفاخر، ولوحاته الرائعة، يُشعر المرء بعدم الارتياح. كان لعقله تأثير الجهاز البارع الاختراع، ولمنزله مظهر المتحف. لم يكن ممكناً في الحقيقة أن يشعر المرء بالدفء في قصره الإقطاعي في براندنبرغ. كان تنظيمه واضحاً للغاية، وترتيبه مدروساً جداً، ونظافته بالغة النظافة. وبما أن تفكيره كان شفافاً كالزجاج، فقد بدا غير واقعي، وقلما شعرت بمأساة اليهودي كما شعرت بها في شخصيته التي كانت ممتلئة قلقاً عميقاً وعدم ثقة، على الرغم من تفوقها الجليّ. إن أصدقائي الآخرين من مثل فيرهارن، وإلين كي، وبازالجيت، لم يكن لهم عشرْ ذكائه، ولا جزء من مئة من خبرته بالعالم، إلا أنهم كانوا آمنين مطمئنين. وأما في حالة راثينو، فقد كنت أشعر دوماً بأن قدميه غير ثابتتين في الأرض على الرغم من ذكائه غير المحدود. كانت حياته كلها صراع متناقضات دائمة التغير. فلقد ورث عن أبيه كل ما يمكن تصوره من نفوذ، ومع ذلك لم يكن عنده أي رغبة في أن يكون وريثه، كان تاجراً، ولكنه تصور نفسه فناناً، وثرياً، غير أنه كان يعبث بالأفكار الاشتراكية، ويؤمن بأنه يهودي، إلا أنه كان يغازل المسيح. ومع أنه كان أممي التفكير، فقد كان يمجّد السياسات البروسية العسكرية، ويحلم بالحكومة الشعبية،

إلا أنه كان يُكرَّم تكريماً رفيعاً كلما استقبله واستشاره الإمبراطور الذي كان يدرك بالحدس ضعفه وخيلاءه، من غير أن يكون الإمبراطور نفسه قادراً على التحكم في خيلاته الخاصة. ولعل نشاطه الدائب لم يكن إلا منوّماً يخفي به توتره الداخلي، ويقضي به على الوحدة التي تحيط حياته الداخلية. ولم تصبح قواه الكامنة الهائلة قوة واحدة فجأة إلا عندما أنيطت به المسؤولية في عام ١٩١٩ ، بعد انهيار الجيوش الألمانية، وتولّى أصعب مهمة في التاريخ - مهمة قيادة الجمهورية المضطربة من الفوضى إلى حياة جديدة. وفي المراهنة بحياته على فكرة واحدة هي خلاص أوروبا، بلغ العظمة المتأصلة في عبقريته.

إلى جانب العديد من الإشارات المختصرة إلى بلدان بعيدة في سياق أحاديثه المنشّطة، والتي قد لا تُقارن في وضوح أفكارها وكثافتها إلا مع أحاديث هوفمنزثال، وفاليري، وكونت كايزرلنغ، فإنني مدين أيضاً لراثينو الذي وسّع أفق معرفتي الأدبية البحتة إلى التاريخ المعاصر، بأول حافز إلى الخروج من أوروبا. قال لي: «أنت لا تستطيع أن تفهم إنكلترا ما دمت لا تعرف إلا الجزيرة، ولا قارتنا ما لم تشدّ الرحال إلى غيرها مرة على الأقل. أنت حر، فاستغل حريتك. إن الأدب حرفة رائعة، لأن العجلة لا دور لها فيه. فتقديم الكتاب أو تأخيره سنةً أمر لا يهم. لِمَ لا تذهب إلى الهند، وإلى أمريكا؟» وهذا الكلام الذي سمعته عرضاً استقر في نفسي، وعزمت على اتباع نصيحته بلا تأخير.

كان للهند ذاتها تأثير مشؤوم ومحزن في نفسي أكثر مما توقعت. لقد صدمني بؤس المهازيل، والجدية الكئيبة في نظراتهم المنكسرة، ورتابة الطبيعة القاسية في الغالب، وأكثر من كل ذلك، الانقسام الصارم بين الطبقات والأعراف، والذي كنت لاحظته على متن السفينة. كان يسافر معنا فتاتان فاتنتان، نحيفتان، داكنتا العيون، حسنتا التعليم والتهذيب، متحفظتان وأنيقتان. ومن اليوم الأول، لاحظت أنهما بقيتا مبتعدتين، أوأبقاهما كذلك عائق غير منظور. لم تظهرا في الرقصات، ولم تخوضا في حديث عام، بل جلستا منفردتين تقرأان كتباً إنكليزية أو فرنسية. ولم أدرك إلا في اليوم الثاني أو الثالث أنهما لم تتجنبا هما الاختلاط بالإنكليز، بل الآخرون الذين

انعزلوا عن تلك الطبقات شبه المغلقة، مع أن هاتين الفتاتين الجذّابتين قد كانتا ابنتي تاجر فارسي الأصل، وامرأة فرنسية. ففي السنتين أو السنوات الثلاث في المدرسة الداخلية في لوزان، وفي المدرسة التكميلية في إنكلترا، لم يكن هناك أي تمييز، أما على متن السفينة المبحرة إلى الهند، فقد استؤنف العزل الاجتماعي البارد الخفيّ، والمقيت مع ذلك. كانت تلك هي المرة الأولى التي أرى فيها وباء النقاء العرقي الذي زاد خطره على عالمنا اليوم أكثر من أي وباء في القرون الخالية.

لقد شحذت هذه المواجهة ملاحظتي منذ البداية. وبشيء من الخجل، نلت نصيبي من الاحترام - زال بسبب أخطائنا من زمن بعيد - الذي كان يحظى به الأوروبي كأنه إله أبيض ،يرافقه عند السياحة في جبل آدم في سيلان، مثلاً، نحو أربعة عشر خادماً، لأن العدد الأقل لا يتناسب مع «المقام». واستحوذ عليّ شعور بالقلق أن تُحدث العقود والقرون القادمة تحولات وتغيرات في هذه الظروف المعقولة لا نجرؤ نحن الأوروبيين أن نحلم بها في وضعنا الآمن الذي يطيب لنا تخيّله. وهذا الانطباع جعلني لا أرى الهند شيئاً «رومانسياً»، كما رآها لوتي من خلال نظارته الوردية اللون، بل تحذيراً، إذ أن ما زادني ثقافة في هذه الرحلة لم يكن المعابد الجميلة، ولا القصور الحائلة اللون، ولا مناظر جبال هيمالايا، بل الناس الذين التقيتهم، ناس من أصناف أخرى وعوالم أخرى غير التي كان الكاتب يلتقيها في داخل أوروبا. وفي تلك الأيام، حين كان المرء أكثر اقتصاداً في إنفاقه، وقبل أن تنتشر «رحلات كوك» في كل أنحاء العالم، كان كل من يسافر خارج أوروبا شخصاً بارزاً في طبقته الخاصة عادةً. فالتاجر لم يكن بائعاً بالتجزئة محدود المستوى، بل تاجر جملة، وربما كان الطبيب عالماً، وكان مقاول سباق الفاتحين جريئاً، وسخياً، وقاسياً، وحتى الكاتب كان رجلاً فائق الفضول الفكري. لقد تعلمت خلال أيام الرحلة ولياليها الطويلة - لم تكن السفن مجهزة بالراديو بعد حتى يملأها بالثرثرة - من خلال اختلاطي بتلك النماذج الجديدة عن الدفع والجذب اللذين يحركان العالم أكثر مما تعلمت من مئات الكتب. إن البعد عن الوطن يغيّر المعايير الروحية. فكثير من التفاصيل التي شغلتني للغاية سابقاً بدت تافهة بعد عودتي، وكففت عن اعتبار قارتنا أوروبا محور الكون الأبدي.

من الذين التقيتهم في رحلتي إلى الهند رجل أثّر في تاريخ عصرنا تأثيراً غير محدود، وإن كان هذا التأثير غير ظاهر للناس. فمن كلكتا إلى الصين الهندية، وعلى زورق نهري متجه إلى إراوادي، قضيت مع كارل هاوسهوفر وزوجته عدة ساعات كل يوم. كان ماضياً إلى اليابان ليكون ملحقاً عسكرياً في السفارة الألمانية هناك. ولقد أتاح لي ذلك الجنرال الألماني النحيل، ذو القامة المنتصبة، والوجه المربّع، والأنف المعقوف، أن أتبصّر أول مرة الصفات غير العادية، والانضباط الأصيل في ضابط أركان. وبالطبع كنت أختلط أحياناً مع عسكريين شباب في فيينا يتصفون باللطف، وصفاء الود، وحتى بالمرح. كان معظمهم من أسر محدودة الوسائل، وقد التجؤوا إلى بِزّة الجيش، وراحوا يستمدّون من الخدمة مسرّاتها الممكنة. وأما هاوسهوفر فقد شعرت في الحال بأنه ابن أسرة مثقفة من الطبقة الوسطى - كان والده قد نشر عدة قصائد، وأعتقد أنه أستاذ جامعي - وأن ثقافته تتعدى العلوم العسكرية. كان مطلوباً منه إجراء دراسة مباشرة عن مسارح الحرب الروسية اليابانية، لذلك ألمّ هو وزوجته باللغة اليابانية وحتى بأدبها. وهذا كان مثلاً على أي أن علم يتمّ التعمّق فيه لابد أن يُدفع إلى ما وراء حدوده، ويحاذي العلوم الأخرى كلها. كان يعمل طيلة النهار على متن المركب، فيتابع مناظر الطبيعة بالمنظار، ويكتب يوميات، ويدوّن ملاحظات، ويستعين بالمعاجم. قلما رأيته من دون كتاب في يده. كان قادراً كملاحظ دقيق على وصف الأشياء وصفاً مؤثراً. وقد تعلمت كثيراً عن الشرق الملغز في أثناء الحوار معه. ولما عدت إلى البلاد حافظت على علاقات صداقة مع أسرة هاوسهوفر، وتبادلنا الرسائل، وتزاورنا في سالسبرغ ومونيخ. ثم إن مرضاً رئوياً احتبسه سنة في دافوس أو أروسا، وأبعده عن الجيش، وحمله على مراجعة العلوم، إلا أنه شُفي من علته، واستطاع أن يتولّى القيادة في الحرب العالمية. وكثيراً ما فكرت فيه بكثير من التعاطف في أثناء الانهيار. وهذا الرجل الذي عمل أعواماً في بناء التفوق الألماني، وربما في بناء آلته الحربية في عزلته الغامضة، من السهل عليّ أن أتصور مقدار معاناته من رؤية اليابان التي أقام فيها صداقات عديدة في عداد الخصوم المنتصرين.

وسرعان ما اتضح أنه من أوائل من فكروا تفكيراً منظماً واسع الأفق في إعادة بناء مكانة ألمانيا. أصدر صحيفة جيوسياسية، وكما هي الحال غالباً، أخفقتُ في فهم المعنى العميق لهذه الحركة عند بدايتها. كنت صادق الاعتقاد أنها غير معنيّة إلا بلعبة

القوى في تعاون الأمم، وحسبت مصطلح «المجال الحيوي» الذي أعتقد أن هاوسهوفر قد نحته بحسب معنى سبنجلر، حسبت أنه يعني الطاقة النسبية المتغيرة مع الزمن، والتي تنتجها كل أمة مرة في دورة حياتها. وإن دعوات هاوسهوفر إلى دراسة السمات الفردية للأمم دراسة دقيقة، وإنشاء جهاز تربوي دائم على أسس علمية، بدت مناسبة تماماً، لأنني تصورت أن القصد من هذه البحوث تقريب الأمم إلى بعضها بعضاً. من يدري؟ ربما كانت مقاصد هاوسهوفر الأصلية غير سياسية بالكلية. ومهما كان الأمر فقد قرأت كتبه (ضمّنها أقوالاً مقتبسة مني مرة) باهتمام كبير، ومن دون أن يخامرني أي شك، وسمعت أشخاصاً موضوعيين في تفكيرهم يثنون على محاضراته بأنها تتضمن معلومات غير عادية. وإن أحداً لم يؤكد أن أفكاره كان يقصد منها خدمة سياسة جديدة للقوة والعدوان، فما رمت إليه كان مقتصراً على تقديم حافز إيديولوجي جديد للمطالب القديمة لألمانيا العظمى. ولكن ذات يوم كنت في ميونخ، واتفق أن ذكرت اسمه، فقال أحدهم بنبرة عادية: «آ، صديق هتلر.» لا شيء كان يمكن أن يدهشني أكثر من ذلك. فبادئ ذي بدء، لم تكن زوجته نقيّة العرق بأي حال من الأحوال، وأبناؤه الموهوبون اللطفاء لم يمتثلوا قط لمتطلبات قوانين نورمبرغ الخاصة باليهود. علاوة على ذلك، لم أرَ أي أساس للعلاقة الفكرية بين عالِم رفيع الثقافة، إنساني النزعة، ومحرض مسعور كان مجنوناً بالتعصب القومي في أضيق معانيه، وأشدّها قسوة. غير أن رودولف هيس كان من تلاميذ هاوسهوفر، وهو الذي تسبب بالعلاقة. وهتلر الذي كان لا يتقبل الأفكار غير المألوفة، كان له غريزة احتواء كل ما يمكن أن يخدم مطامحه الشخصية. لذلك قبلت السياسة الاشتراكية القومية علم الجغرافية السياسية، وتشرّبته تماماً، واستخدمت منه كل ما ناسب هدف هتلر. لقد كانت طريقة الاشتراكية القومية دائماً توفير القاعدة الإيديولوجية، والأخلاقية الزائفة، لغريزة السلطة الأنويّة الجليّة كل الجلاء. واتضح أخيراً أن مصطلح «المجال الحيوي» قناع أنيق لإرادة العدوان السافرة، بريء في الظاهر، ولكنه مصطلح غامض التحديد يسوّغ أي إلحاق، مهما كان اعتباطياً، بأنه ضرورة أخلاقية وعرقية. وهكذا فإن رفيق سفري القديم هو الذي كان مسؤولاً - لا أدري إن أدرك ذلك وأراده - عن التغير الجذري في أهداف هتلر المضرّة بالعالم، والموجهة بالأصل وعلى نحو صارم إلى القومية والنقاء العرقي، والتي أتخذت، من خلال نظرية «المجال الحيوي»، شكلها في شعار:

«سنخضع ألمانيا أولاً، ثم العالم كله» وكان هذا مثال أحمق على تحوّل صيغة مفردة ذات مغزى إلى فعل ومصير من خلال القوة الملازمة للغة شأن صيغة الموسوعيين عن حكم العقل الذي انقلب إلى ضده في آخر الأمر، أي إلى رعب وعاطفة عامة. وبقدر ما أعلم، فإن هاوسهوفر لم يشغل منصباً بارزاً في الحزب، وربما لم يكن قط عضواً في الحزب، وأنا لا أستطيع، على كل حال، أن أتخيّله مثل صحفي واسع الخيال «رجلاً خفيّاً» ماكراً يبتكر من مكمنه أخطر الخطط، ويهمس بها إلى الفوهرر. ولكن لاشك في أن السياسة العدوانية للاشتراكية القومية لم تنقلها من النطاق القومي إلى النطاق العالمي نصائح أشد مستشاري هتلر تطرفاً، بقدر ما نقلتها هذه النقلة نظرياتهُ إما عن وعي أو عن غير وعي. ولن يتمكن من وضعه في منظور التاريخ الصحيح إلا الأجيال القادمة التي ستتوفر لها وثائق أفضل مما لدينا.

لم يمضِ وقت طويل حتى أعقبت هذه الرحلة إلى ما وراء البحار رحلة أخرى إلى أمريكا هذه المرة. ولم يستحث هذه الرحلة أيضاً هدف غير هدف رؤية العالم، وشيء من المستقبل المنبسط أمامنا، إن أمكن ذلك. وأعتقد صادقاً أنني كنت واحداً من بضعة كتاب لم يكابدوا المشاق لاكتساب المال، ولا لاستغلال أمريكا صحفياً، بل للمقارنة فقط بين الواقع، وانطباع عن القارة الجديدة ملتبس بعض الشيء.

كان انطباعي - أجاهر به جهاراً - رومانسياً إلى حد ما. كانت أمريكا في نظري هي والت ويتمان، وأرض الإيقاع الجديد، وعالم الإخاء القادم. ومرة أخرى قرأت عن مجاري نهر كولورادو العظيم، وتدفقها العنيف الغزير، ولذلك دخلت مانهاتن بشعور أخوي منفتح بدلاً من العجرفة الأوروبية المعتادة. وأذكر أن أول ما فعلته عندما وصلت إلى الفندق هو الطلب من البواب أن يدلّني على قبر والت ويتمان، إلا أن رغبتي ضايقت الإيطالي المسكين الذي لم يسمع بالاسم قط.

كان الانطباع الأول طاغياً مع أن نيويورك لم يكن جمال ليلها ساحراً كما هو الآن. ولم تكن موجودة بعد شلالات الضوء المتدفقة في Times Square، ولا فضاء المدينة البديع الذي رصّعته بلايين النجوم الاصطناعية المتلألئة للنجوم الحقيقية في السماء. كان مظهر المدينة، والتجارة فيها، يفتقران إلى أبهتهما الجريئة في الوقت الحاضر، لأن العمارة الجديدة كانت تختبر نفسها بناطحة سحاب بين الحين والآخر، وتطوّر الذوق

المدهش في واجهات المحالّ كان قد بدأ بداية متواضعة. ولكن الاكتشاف المثير حقاً هو النظر من أعلى جسر بروكلين باهتزازه الخفيف المتواصل، وإلى الميناء، والتجول في الشوارع الحجرية العريضة. ولكن بعد يومين أو ثلاثة أخلى هذا الشعور مكانه لشعور آخر أوضح منه: الوحدة المطلقة. لم يكن لي عمل في نيويورك، والمتفرغ في ذلك الوقت لم يكن قادراً على ارتياد أماكن كثيرة، فلا دور سينما يمكن قضاء ساعة فيها، ولا معارض ودور كتب ومتاحف عديدة كما هي اليوم. كانت أمريكا ما تزال متخلفة عن أوروبا في القضايا الثقافية. وبعد يومين أو ثلاثة من «الطواف»بالمتاحف وغيرها من الأماكن الجديرة بالمشاهدة، انقذفت مثل زورق بلا دفة توجيه في الشوارع الباردة الشديدة الريح. وأخيراً أصبح هذا الإحساس بانعدام الهدف من تجوالي قوياً بحيث لم أستطع التغلب عليه إلا بالحيلة. تظاهرت بأنني مهاجر لا صديق ولا عمل له، ولْيس في جيبي إلا آخر سبعة دولارات. قلت في نفسي: لأفعلْ إذاً ما يضطرون إلى فعله. تخيّلْ أنك أُرغمت على كسب الرزق بعد ثلاثة أيام. انظرْ حولك، واكتشفْ كيف يبدأ هنا الغريب الذي لا صلات له ولا أصدقاء للعثور على عمل. وهكذا رحت أنتقل من وكالة إلى أخرى، وأتفحص البيانات المثبتة على الأبواب. ههنا كان المطلوب خبازاً، وهناك موظفاً مؤقتاً يحسن الإنكليزية والإيطالية، وفي مكان آخر مساعداً في مكتبة، وهذه الوظيفة الأخيرة كانت الفرصة الأولى لذاتي المتخيّلة. لذلك ارتقيت ثلاث مجموعات من الدرجات الحديدية، وسألت عن المرتّب، وقارنته مع سعر الغرفة في برونكس كنت قد قرأت الإعلان عنه في الجريدة. وبعد يومين من البحث عن عمل، وجدت نظرياً خمس فرص عمل كان يمكن أن أكسب بها معيشتي. وعلى هذا النحو أقنعت نفسي إقناعاً أقوى من مجرد التجوال بما في هذا البلد الناشئ من مساكن ووظائف للراغبين في العمل، وكان لذلك تأثير قوي في نفسي. ومن خلال هذه التجربة في الوكالات، والمقابلات في المحالّ والمكاتب، وقفت أيضاً على حقيقة الحرية المقدسة في هذا البلد. لم يسألني أحد عن جنسيتي، أو عن ديني أو عن أصلي، وكنت قد سافرت بلا جواز سفر ـ لعل هذا الأمر يبدو غريباً لعالم اليوم، عالم بصمات الأصابع، والتأشيرات وشهادات الشرطة. وأقوى دليل على ذلك هو وجود الوظائف التي كانت تنتظر من يشغلها ههنا. في تلك الحرية الأسطورية كانت المعاملات لا يستغرق إجراؤها دقيقة، إذ لا وجود للتدخل المعرقل للدولة أو للشكليات أو للنقابات. ومن خلال هذا

«البحث» عن عمل، عرفت عن أمريكا في تلك الأيام القليلة الأولى أكثر مما عرفت في كل الأسابيع التالية عندما سافرت بارتياح إلى فيلادلفيا وبوسطن وبالتيمور وشيكاغو. كنت دائماً وحدي إلا في بوسطن، حيث قضيت بضع ساعات بهيجة مع شارلز لوفر الذي لحّن بعض قصائدي. وهذه الوحدة التامة لم تقاطعها إلا مفاجأة واحدة. ولا زالت تلك اللحظة واضحة في ذاكرتي. كنت أتمشى في شارع عريض في فيلادلفيا، فتوقفت أمام مكتبة كبيرة، فإذا أسماء، بين المؤلفين على الأقل، معروفة أو مألوفة عندي. فوجئت بذلك. كان في الواجهة اليسرى نحو سبعة كتب ألمانية، وكان بينها كتاب لي. أطلت النظر كالمسحور، ورحت أتأمل. إن شيئاً من ذاتي هذه المندفعة في هذه الشوارع الغريبة مجهولةً، وبلا جدوى على ما يظهر، إن شيئاً منها قد سبقني، ولابد أن يكون بائع الكتب قد كتب اسمي على بيان بالطلبات، وجعل كتابي يقطع المحيط في رحلة مدتها عشرة أيام. غادرتني عزلتي لحظةً، ولما زرت فيلادلفيا ثانية بعد عامين، وجدت نفسي منساقاً بالغريزة إلى تلك الواجهة مرة بعد أخرى.

لم أجرؤ على الذهاب إلى سان فرانسيسكو ـ لم تكن هوليود قد ابتُكرت بعد ـ ولكن كان هناك بقعة أخرى واحدة أستطيع منها أن أحقق رغبتي في رؤية المحيط الهادي، لأنني منذ طفولتي فُتنت بما كتبه البحارة الذين طافوا حول العالم. والأهم من ذلك هو أن تلك البقعة قد اختفت منذ ذلك الزمن، ولن تراها عين إنسان مرة أخرى، إنها أكوام التراب في قناة باناما التي كانت قيد الإنشاء آنذاك ـ لقد أبحرت إلى هناك في سفينة صغيرة عبر برمودا وهايتي. إن جيلنا قد تعلم من فيرهارن الإعجاب بالمنجزات التقنية للعصر مثلما أُعجب أسلافنا بالآثار الرومانية. كانت باناما ذاتها منظراً لا يُنسى، كان قاع النهر تحفره الآلات، واللون الأصفر يحرق العينين حتى لو وضعتَ عليها نظارة داكنة، والهواء الحار يعجّ بملايين وبلايين البعوض الذي كان يمكن مشاهدة ضحاياه في صفوف لا نهاية لها في المقبرة. كم عدد الذين ماتوا من أجل هذا المشروع الذي افتتحته أوروبا، وكان على أمريكا إتمامه! والآن فقط، وبعد ثلاثين عاماً من الكوارث والخيبات، أصبح ذلك المشروع واقعاً. وبعد أكثر من شهرين من الأعمال الأخيرة في بوابة القناة، ثم ضغطة على زر، كان المحيطيْن سوف يتحدان إلى الأبد بعد آلاف السنين من الانفصال. لقد كنت واحداً من اللذين شاهدوهما آخر مرة وهما مازالا منفصلين، وكانوا مدركين ماذا سيحصل. وإن رؤية أعظم منجزات أمريكا ابتكاراً، قد كان خير توديع لها .

الفصل الثامن

ضوء وظل فوق أوروبا

بعد أن عشت عشرة أعوام في القرن الجديد، ورأيت الهند وأفريقيا وقسماً من أمريكا، بدأت أنظر إلى قارتنا أوروبا بابتهاج جديد، وأكثر اطلاعاً. لم أحب قط تلك الأرض القديمة أكثر مما أحببتها في الأعوام الأخيرة التي سبقت الحرب العالمية الأولى، ولم أكن قط أكثر حماسة للوحدة الأوروبية، وأقوى إيماناً بمستقبلها، حتى في ذلك الوقت الذي تراءى لنا فيه فجر جديد، وأما في الحقيقة فقد كان توهج حريق العالم المقترب.

قد يكون من الصعب أن أصف للجيل الحاضر الذي نشأ بين الكوارث والانهيارات والأزمات، والذي كانت الحرب بالنسبة إليه احتمالاً دائماً، وحتى توقعاً يومياً، أن أصف تلك التفاؤلية، تلك الثقة بالعالم التي أفعمتنا حيوية، نحن الشباب، منذ بداية القرن. إن أربعين عاماً من السلام قد قوّت ترابط الأمم الاقتصادي، والعلوم التقنية منحت إيقاع الحياة أجنحة، وملأت المكتشفات العلمية ذلك الجيل فخراً، وشهدت بلدان أوروبا كلها جيشاناً مفاجئاً كاد يكون متماثلاً. كانت المدن تزداد جمالاً وسكاناً سنة بعد سنة. إن برلين ١٩٠٥ لم تعد تشبه برلين التي قد عرفتها عام ١٩٠١، فالعاصمة أصبحت حاضرة، وما لبثت أن تخطتها هي الأخرى برلين ١٩١٠ . وفي كل زيارة جديدة، كانت فيينا وميلان وباريس ولندن وأمستردام تشيد دهشة ومسرّة جديدتين. أصبحت الشوارع أعرض وأروع، والمباني العامة أكثر إثارة للإعجاب، والحوانيت أكثر زخرفة، وأحسن ذوقاً. كان كل شيء يتجلّى فيه ازدياد الثروة وانتشارها. وحتى نحن الكتّاب اختبرنا ذلك في طبعات أعمالنا التي ازدادت في غضون عشرة أعوام من ثلاثة أضعاف إلى عشرة. وقامت في كل مكان مسارح ومتاحف جديدة، وأصبحت

أسباب الراحة كالحمامات والهواتف التي كانت فيما مضى امتيازاً للقلة في متناول أكثر الأماكن تواضعاً، وبرزت البروليتاريا بعد تقصير ساعات العمل للمشاركة في مباهج الحياة وأسباب راحتها الصغيرة على الأقل. كان التقدم في كل مكان، ومن غامر فاز. ومن اشترى منزلاً، أو كتاباً نادراً، أو لوحة، وجد قيمة مشترياته تزداد، وكلما كان المشروع ضخماً وجريئاً، كانت مرابحه مؤكدة. وهكذا عمّت طمأنينة عجيبة، فما الذي كان يمكن أن يقاطع هذا الارتقاء السريع، ويوقف الاندفاع الذي كان يستمد باستمرار قوة جديدة من تحليقه؟ لم تكن أوروبا في أي وقت مضى أقوى، وأغنى، وأجمل، وأكثر ثقة بمستقبل مطرد وأفضل. ولم يتحسر على «الأيام القديمة الطيبة» على الطريقة القديمة إلا قلة من الشيب المنكمشين.

لم تتغير المدن فقط، بل الناس أصبحوا أيضاً أوسم، وأوفر صحة بسبب الرياضة، والتغذية الجيدة، وساعات العمل القصيرة، والصلة الحميمة بالطبيعة. والشتاء الذي كان سابقاً فصلاً موحشاً يقضيه الناس في لعب الورق في المقاهي معكّري المزاج، أو متبرّمين في غرف مفرطة الحرارة، قد أعيد اكتشافه على قمم الجبال مَعِينَ أشعة مصفّاة، رحيقاً للرئتين، ومتعة للبشرة المتوردة. لم تعد الجبال والبحيرات والمحيط بعيدة كما في الماضي، فالدراجة والسيارة، والقطارات المسيّرة بالكهرباء قد اختصرت المسافات، وأسبغت على العالم اتساعاً جديداً. وفي أيام الآحاد، كان الآلاف وعشرات الآلاف يتزلجون على المنحدرات الثلجية في معاطف رياضية مزوّقة. وأقيمت في كل مكان قصور الرياضة،والمسابح. والتحول ظهر أكثر ما ظهر في المسابح، ففي حين كان الرجل الحسن البنية يجتذب في شبابي الانتباه بين الأعناق الغليظة، والبطون الضخمة، والصدور الغائرة، فإن الأشخاص المتصفين بالقوة والرشاقة والبشرة التي لفحتها الشمس، والأجسام التي صلّبتها الرياضة، كانوا يتبارون مباراة مرحة كما في الأزمنة القديمة. لم يكن يمكث في البيت يوم الأحد إلا أفقر الناس، أما الشباب فقد كانوا جميعاً يركبون الدراجات، ويتسلقون الجبال، ويمارسون الوثب، وشتى أنواع الرياضات. وفي أثناء العطل، لم يعد الناس يذهبون إلى المنتجعات القريبة فقط، أو في أحسن الأحوال إلى منتجع زالسكمارغوت، كما على عهد والديّ، وذلك لأنهم صاروا توّاقين إلى رؤية العالم، واكتشاف جمال الأماكن، أهو متماثل أم متنوع؟. وفي حين كان

المترفون فقط يغامرون بالسفر إلى الخارج، فإن موظفي البنوك، والتجار الصغار صاروا يزورون الآن فرنسا وإيطاليا. لقد صار السفر أرخص وأروح. ولكن الأهم من كل ذلك هو الشجاعة الجديدة، روح المغامرة الجديدة التي جعلت الناس أجرأ على الأسفار، وأقل خوفاً وتقيداً في معيشتهم. حتى أن أحدهم كان يخجل من إظهار الحرص. وأخذ العالم يرى نفسه أكثر شباباً، ويفتخر بذلك، بالمقارنة مع عالم أبويّ. وفجأة أخذت اللحى تختفي بين الشباب، ثم احتذى حذوهم الكبار حتى لا يظهروا شائخين. كانت كلمة السر آنذاك هي أن تكون شاباً ناضراً، وأن تتخلص من الأبهة المتفاخرة. وألقت النساء عنها المشدات التي تحصر نهودهن، وتخلّين عن المظلات والبراقع بما أنهن لم يعدن يخفن من الهواء وأشعة الشمس. وقصّرن تنانيرهن لكي تتحرر حركة سيقانهن أثناء لعب كرة المضرب، وكففن عن الاستحياء من عرض تلك السيقان إذا كانت جميلة. وغدت الأزياء مألوفة، فالرجال ارتدوا بناطيل قصيرة، وتجرأت النساء على ركوب الخيل منفرجات السيقان. لقد كفّ الناس عن الاستتار والاختباء من بعضهم بعضاً، وإن العالم لم يصبح أجمل فقط، بل أكثر حرية أيضاً.

هذه الصحة والثقة بالنفس اللتان تمتعا بهما الجيل الذي أعقب جيلي قد اكتسبتا حريتهما الخاصة في الأزياء والسلوك. فقد شوهدت الفتيات أول مرة يتنزهن بلا مربيات مع أصدقائهن الشباب، أو يشاركنهم في الألعاب الرياضية مشاركة صريحة تنمّ على ثقة بالنفس، إذ تخلّين عن التهيب وتصنع الحياء، بعد أن عرفن ما يُردن وما لا يردن. وبما أنهن تحررن من الآباء القلقين، وأصبحن يكسبن ما يعشن به من العمل في المكاتب،فقد تمسكن بحقهن في أن يعشن حياتهن. والبغاء الذي كان المؤسسة الوحيدة المسموح بها في العالم القديم قد لوحظ انحساره، لأن كل أشكال الاحتشام الزائف قد أصبحت قديمة العهد بسبب هذه الحرية السليمة. وفي المسابح أزيلت الحواجز التي كان تفصل قسم الرجال عن قسم النساء بعد أن أصبح إظهار بنية الجسم لا يخجل به أحد من الجنسين. لقد نال الناس من الحرية، ومن الصراحة، ومن المعنوية، في هذه السنوات العشر، ما لم ينالوه في الأعوام المئة السابقة.

ولأن إيقاعاً مختلفاً قد ساد العالم، فإن أحداً لم يستطع أن يتنبأ بما يمكن أن يحدث في سنة واحدة! كانت الاكتشافات والاختراعات تتوالى، ثم تُوجّه في الحال إلى

خير العالم. لقد أحسّت الأمم كلها أول مرة بما يخصّ المصلحة العامة. اتفق أن كنت في ستراسبرغ وأنا ماضٍ إلى بلجيكا يوم قام منطاد زبلين Zeppelin بأول تحليق له، ثم دار حول الكاتدرائية وكأنه يؤدي واجب الاحترام للصرح الذي عمره ألف عام. وفي تلك الليلة التي كنت أقضيها عند فيرهارن في بلجيكا، بلغتنا أنباء عن تحطم المنطاد في إكترنجن. دمعت عينا فيرهارن، وتأثر للغاية. لم يكن غير مكترث بالكارثة الألمانية كما لو كانت لا تعنيه مثلي لكونه بلجيكياً، بل فرح كأوروبي من عصرنا بانتصارنا المشترك على العناصر، كما حزن الآن على محنتنا المشتركة. وفي فيينا هتفنا مبتهجين عندما طار بليريو فوق القناة الإنكليزية كما لو كان أحد أبطالنا. وبسبب هذا الفخر بانتصارات تقنيتنا وعلومنا المتوالية أخذت تتشكل روح أوروبية جماعية، ووعي قومي أوروبي. وقلنا: كم هي بلا جدوى الحدود التي يسهل على الطائرة اجتيازها! وكم هي محليّة ومصطنعة رسوم الجمارك، والمخافر، ودوريات الحدود! كم هي متنافرة مع روح هذه الأوقات التي كانت تسعى سعياً ملموساً إلى الوحدة والإخاء! إن هذه المشاعر المحلقة لم تكن أقل روعة من الطائرات، وإني لأرثي لأولئك الذين لم يكونوا صغاراً خلال الأعوام الأخيرة من الثقة بالنفس في أوروبا. فالهواء حولنا لم يكن ساكناً ولا خاوياً، بل كان يحمل نوسان الساعة وإيقاعها، ويدخلهما في دمنا على غير دراية منا، ويوجههما إلى قلوبنا وأدمغتنا. لقد استمد كل واحد منا القوة من الحركة الصاعدة للزمن في تلك السنوات، وقوّى ثقته الفردية من الثقة الجماعية. ولعلنا لم ندرك آنذاك، نحن البشر الجاحدين، كم كانت الموجة التي حملتنا قوية وثابتة. ولكن كل من عاش تلك المرحلة من الثقة الشاملة يعرف أن كل شيء بعد ذلك كان تقهقراً وظلاماً.

رائعة كانت موجة الطاقة المنشّطة التي ضربت قلوبنا من كل شواطئ أوروبا. ومع أن الخطر كان موجوداً أيضاً في ذات الشيء الذي أتى بالفرح، فأننا لم ندركه. إن عاصفة الاعتزاز والثقة التي اجتاحت أوروبا قد أعقبتها غيوم، لعل هذا الارتقاء قد جاء على عجل، وأصبحت الدول والمدن قوية في سرعة شديدة. والإحساس بالقوة يسوق الناس دائماً، شأن الدول، إلى استخدامها، أو إلى إساءة استخدامها. لقد انتفخت فرنسا من الثروة، ورغبت في مزيد منها. أرادت مستعمرة، مع أنها لم يكن عندها

زيادة في عدد السكان للمستعمرات القديمة، فذهبت إلى الحرب من أجل مراكش إلى حد ما . وأرادت إيطاليا السيطرة على ليبيا، والنمسا ضمّت البوسنة، واندفعت صربيا وبلغاريا نحو تركيا، وألمانيا التي كانت ما تزال مستعبدة رفعت مخالبها من أجل ضربة غاضبة. كان في كل هذه البلدان دم محتقن مندفع إلى الرأس. فالعمل المثمر على الوحدة الداخلية تطور منه في كل الأمور، وفي الوقت ذاته، جشع مُعْدٍ على التوسع. لقد حرّض الصناعيون الفرنسيون، أصحاب المرابح الكبيرة، على الألمان الذين لم يكونوا أقل مرابح منهم، لأن كلا الفريقين، كروب وشنايدر كروسو، أراد أن ينتج مزيداً من الأسلحة. وعملت شركات الشحن في هامبورغ ذات العوائد الهائلة ضد نظيراتها في ساوثمتون، وأصحاب المزارع في هنغاريا ضد أصحاب المزارع في صربيا، وكل شركة ضد الأخرى. إن نقاط الاتصال الحاسمة، والجليّة في كل مكان، قد جعلتهم متهالكين على مزيد ومزيد من الربح. وإذا سأل المرء، وهو يتأمل تأملاً هادئاً في الماضي، عما دعا أوروبا إلى الذهاب إلى الحرب عام ١٩١٤ ، فإنه لا يتمكن من العثور على مسوّغ معقول، ولا حتى استفزاز. لم يكن للحرب علاقة بالأفكار، ولا حتى بالحدود التافهة. وأنا لا أستطيع أن أفسّرها إلا بالقوة الزائدة هذه، النتيجة الفاجعة للدينامية الداخلية التي تراكمت في تلك الأعوام الأربعين من السلام، ثم اندفعت اندفاعاً عنيفاً. لقد شعرت كل دولة بأنها قوية على حين غرة، ونسيت أن كل دولة أخرى شعرت بالشيء ذاته، وأرادت المزيد، وأرادت شيئاً من الدول الأخرى. وأسوأ ما عانيناه هو أن العاطفة التي جعلنا لها قيمة عليا - تفاؤليتنا العامة - قد خذلتنا. لقد ظن كل واحد أن الآخر سوف يتراجع فزعاً، ولذلك بدأ الدبلوماسيون لعبة الخداع. وبقي الأمر لعبة في أغادير، وفي حرب البلقان، وفي ألبانيا، غير أن الأحلاف الكبرى كانت تتشكل، وتزداد توثيقاً وعسكرة. ففي ألمانيا أُقرّت ضريبة حرب في منتصف عهد السلم، وفي فرنسا أُقرّت إطالة الخدمة العسكرية. كان على الطاقة الزائدة أن تطلق نفسها، ومؤشرات الرياح أظهرت الاتجاه التي كانت الغيوم تقترب منه إلى أوروبا.

لم يكن هناك ذعر بعد، إنما كان القلق يزداد باستمرار، وكلما سمعنا لعلعة طلقات في البلقان، اعترانا بعض القلق. هل ستحلّ الحرب بنا من غير أن تعرف دوافعها

وأهدافها؟ جمعت القوى المتعارضة نفسها في بطء - في بطء تام، وفي وجل تام، كما ندرك اليوم. كان هناك الحزب الاشتراكي الذي رفض برنامجه الحرب، وكان يضم ملايين الناس هنا وملايين الناس هناك، وكان هناك المجموعات الكاثوليكية القوية تحت قيادة البابا، وعدة مؤسسات صناعية وتجارية متشابكة دولياً، وكان هناك عدد قليل من الساسة المتعقلين المعادين للخداع الخفيّ. ووقفنا، نحن الكتاب أيضاً، ضد الحرب، مع أننا كنا كالعادة أفراداً متباعدين، بدلاً من أن نكون متحدين مصممين. وكان موقف معظم المثقفين سلبياً لا مبالياً مع الأسف، لأن تفاؤليتنا أعمتنا عن مشكلة الحرب بكل عواقبها الأخلاقية، إذ لا نجد مناقشة واحدة للمبادئ، أو تحذيراً واحداً في أي كتاب مهم،أو كراسة مهمة لكتّاب ذلك الزمن. لقد اعتقدنا أننا كنا نقوم بما يكفي عندما فكرنا كأوروبيين متآخين أممياً، وعندما أعلنا في وسطنا مبدأ التفاهم السلمي، والإخاء الثقافي المتجاوز للغات والحدود، ساعين فقط إلى التأثير غير المباشر في شؤون عصرنا. والجيل الجديد بالذات هو الذي ارتبط أوثق الارتباط بالفكرة الأوروبية. ففي باريس وجدت صديقي بازالجيت تحيط به مجموعة من الشباب الذي رفضوا، خلافاً للأجيال السابقة، كل قومية ضيقة، وإمبريالية عدوانية. إن جول رومان الذي وجّه قصيدة عظيمة إلى أوروبا خلال الحرب، وجورج دوهاميل، وشارل فيلدراك، ودورتان، ورينيه آركو، وجان ريشار بلوك، إن هؤلاء الذين التقوا أولاً في الدير، ثم في عمل طوعي، كانوا جميعاً أنصاراً متحمسين لأوروبا المستقبل، ومعادين عداء ثابتاً لكل أنواع التسلط العسكري، كما أكدت محنة الحرب الشديدة. قلما أنجبت فرنسا شباباً يفوقون هؤلاء شجاعة وموهبة وعزيمة. وفي ألمانيا كان فيرفل هو الذي قدّم للإخاء العالمي أقوى نبراته الغنائية في «الصداقة العالمية». وعمل رينيه شيكل الألزاسي الذي قُدّر عليه أن يتوسط الأمتين، عمل بكل حماسة من أجل التفاهم، وحيّانا من إيطاليا ج. إي بورجيس تحية رفيق، وجاءنا تشجيع من البلدان الإسكندنافية والسلافية أيضاً. وقال كاتب روسي عظيم في رسالة إلينا: «لماذا لا تأتون إلى هنا؟ أظهروا للسلافيين جميعاً الذين يحضوننا على الحرب أنكم، أنتم النمساويين، ضدها.» آه كم أحببنا زمننا الملهم حباً جماً، وأحببنا أوروبا! ولكن هذا الإيمان الأعمى بأن العقل سوف يكبح الجنون في اللحظة الأخيرة تأكد أنه قصورنا الوحيد. صحيح أننا أحسنا الظن في

الكتابة على الجدران، ولكن أليس جوهر الشباب ألا يكونوا مرتابين، بل مؤمنين؟ لقد اعتمدنا على جوريس، والأممية الاشتراكية، واعتقدنا أن عمال السكك الحديدية سوف يفضلون قطع الخطوط على نقل رفاقهم إلى الجبهة مثل الأنعام المنقولة للذبح، وعوّلنا على النساء اللواتي توقعنا أن يرفضن التضحية بأولادهن وأزواجهن على مذبح مولوخ، وكنا مقتنعين بأن قوى أوروبا الروحية والأخلاقية سوف تتجلّى ظافرة في اللحظة الحاسمة. إن مثاليتنا العامة، تفاؤليتنا المرتكزة على التقدم، قد جعلتنا نزدري الخطر المشترك، ونخطئ في تقديره.

إضافة إلى ذلك، كنا نفتقر إلى المنظّم الذي يوحد الطاقة الكامنة فينا توحيداً سديداً، ولم يكن بيننا إلا رجل واحد يمكن أن يكون نذيراً، شخص وحيد ذو رؤية وبصيرة. ولكن الأمر الغريب هو أن هذا الرجل الذي شاءت الأقدار أن يكون قائدنا قد عاش بيننا مدة طويلة قبل أن نعرف شيئا عنهً. ومن المصادفات السعيدة أنني اكتشفته بنفسي في اللحظة الأخيرة، إذ كان من العسير اكتشافه لأنه كان يسكن بعيداً عن معرض الساحة في قلب باريس. وإذا ما أخذ أحد على عاتقه كتابة تاريخ أمين للأدب الفرنسي في القرن العشرين، عليه ألا يغفل عن ظاهرة مدهشة، وهي أن ثلاثة من أهم الكتاب قد ظلوا مجهولين، أو ذكروا في سياق مضلل، مع أن صحف باريس كانت تثني آنذاك على كل من يمكن تخيلهم من الكتاب والأسماء الكبيرة. منذ ١٩٠٠ إلى ١٩١٤ لم أعثر على إشارة إلى بول فاليري كشاعر في Figaro أو Le Matin. كان مارسيل بروست يعتبر رجل الصالونات الأنيق، ورومان رولان عالماً واسع الاطلاع على الموسيقا. كان في الخمسين تقريباً قبل أن تلامس اسميهما أشعة الشهرة الوجلة، وكانا قد أنجزا عملهما في الظل، وسط أكثر مدن العالم ثقافة، وشغفاً بالبحث.

كان اكتشافي رومان رولان مصادفة بحتة، وفي الوقت المناسب. دعتني نحاتة روسية في فلورنسا إلى احتساء الشاي عندها، ولكي تريني عملها، وتحاول رسمي رسماً مجملاً. وصلت في الرابعة تماماً، ناسياً أنها روسية، وبما أنها كذلك فهي لا تُعنى بالوقت والمواعيد. قادتني امرأة عجوز اسمها بابوشكا كانت ممرضة أمها، كما عملت في ما بعد، قادتني إلى مرسم كانت فوضاه أجمل ما فيه، وطلبت مني الانتظار. لم يكن في المرسم إلا ثلاث قطع لم يستغرق النظر إليها إلا دقيقتين. ولكي لا أبدد وقتي، تناولت

كتاباً، أو بالأحرى بضعة كتب بنية صغيرة كانت ملقاة هناك. كان عنوانها Cahiers de la Quinzaine، وتذكرت أنني قد سمعت بالاسم في باريس من قبل. ولكن من كان يمكنه أن يتابع كل المراجعات القصيرة التي كانت تظهر في أنحاء البلاد كافة مثل أزهار بديعة قصيرة العمر ثم لا تلبث أن تختفي؟ تصفحت كتاباً ـ «الفجر»، للكاتب رومان رولان ـ وأخذت أقرأ، واهتمامي واندهاشي يزدادان باستمرار من هذا الفرنسي الذي يحسن الألمانية أيضاً؟ شكرت للروسية الطيبة تأخرها. وكان سؤالي الأول عندما ظهرت أخيراً: «من هو رومان رولان هذا؟» لم تستطع أن تقدم معلومات دقيقة، ولم أعرف إلا بعد أن حصلت على الكتب الباقية (لم يكن العمل قد اكتمل بعد) أنها لا تخدم أمة أوروبية واحدة، بل الإخاء بين أمم أوروبا كلها. ها هوذا الرجل، الشاعر الذي أظهر كل القوى الأخلاقية ـ التعارف الدال على مودة، والرغبة الصادقة في ذلك التعارف، والعدالة الخالصة الأكيدة، والإيمان السامي بالمهمة التوحيدية للفن. وفي حين كنا نبدد وقتنا بالبيانات القصيرة، انبرى هو في أناة وهدوء ليظهر للجميع السمات الفردية والأحب إلى النفس لكل واحد. لقد كانت تلك الرواية أول رواية ذات وعي أوروبي أنجزت هنا، وأول دعوة حاسمة إلى الإخاء، وأكثر الدعوات تأثيراً لأنها بلغت جمهوراً أعرض من جمهور ترانيم فيرهارن، وأمضى من كل الاحتجاجات والكراريس،وذلك لأن الشيء الذي كنا نتمناه، ونصبو إليه في وعينا الباطن، قد أنجز هنا في صمت.

كان أول ما فعلته في باريس هو البحث عنه، متذكراً غوته: «لقد تعلم ويستطيع أن يعلمنا.» سألت أصدقائي عنه، فتذكر فيرهارن أن مسرحية عنوانها «الذئاب» قد قدّمت على مسرح الشعب، وكان بازالجيت قد سمع أن رولان عالم موسيقي، وأنه قد ألّف كتاباً صغيراً عن بيتهوفن. وفي فهارس المكتبة الوطنية، عثرت على أكثر من عشرة أعمال له عن الموسيقا الحديثة والقديمة، وسبعة مسرحيات أو ثمانية، وكلها أصدرها ناشرون صغار، أو ظهرت في Cahiers de la Quinzaine. وأخيراً أرسلت إليه أحد كتبي بغية إقامة علاقة ما. وسرعان ما جاءتني رسالة يطلب مني فيها زيارته، وهكذا بدأت صداقة كانت ،إضافة إلى صداقة فرويد و فرهارين ، مثمرة، وأحياناً حاسمة في مجرى حياتي اللاحقة، أكثر من أي علاقة أخرى.

إن الأيام الخطيرة في الحياة أشد توهجاً من الأيام العادية. فأنا أتذكر تلك الزيارة

الأولى بكل وضوح. صعدت خمس مجموعات من الدرج الضيق المتعرج في منزل متواضع بالقرب من جادة مونت برناس، وأمام الباب، غمرتني سكينة خاصة. إن جلبة الجادات لم تكد تُسمع أكثر من النسيم الآتي إلى النوافذ عبر حديقة دير قديم. فتح رولان الباب، وقادني إلى غرفة صغيرة ممتلئة كتباً حتى السقف. رأيت أول مرة عينيه الزرقاوين المتألقتين الرائعتين اللتين لم أرَ أصفى ولا ألطف منهما في أي شخص. كانتا تقبسان النار واللون من عواطفه الباطنة، وتكفهران عند الحزن، وتغيمان عند التأمل، وتأتلقان عند الانفعال. إن هذين البؤبؤين الفريدين اللذين احمرّ جفناهما قليلاً وتعبا من القراءة والسهر كانا يشرقان بنور التواصل الكريم إشراقاً عجيباً. تأملت قامته بشيء من القلق. كان طويلاً ونحيفاً جداً، ويسير منحنياً بعض الشيء، وكأنما الساعات التي لا تحصى التي قضاها وهو يقرأ قد أحنت هامته، لذلك بدا متوعكاً إلى حد ما بوجهه المتغير اللون ذي القسمات الحادة. تكلم بصوت خفيض جداً، كما هي عادته في الرفق البالغ على جسمه في كل الأشياء. قلما كان يذهب إلى النزهة، وكان يأكل قليلاً، ولا يدخن ولا يشرب، ويتفادى أي جهد جسدي. وفيما بعد أدركت، وقد أخذني العجب، مقدار الدأب في ذلك الجسد المتقشف، ومقدار القدرة على العمل الفكري في ذلك الضعف الظاهر. كان يكتب ساعات متواصلة على منضدته الصغيرة التي تكدست عليها الكتب، ويقرأ وهو في السرير ساعات متواصلة أيضاً، ولا ينام إلا نحو ست ساعات، ولا يتسلى إلا بالموسيقا. كان يجيد العزف على البيانو، فيداعب المفاتيح مداعبة ناعمة لا تُنسى وكأنه يريد إغراء النغمات لا إخراجها بالقوة. إن خبيراً بالفن لم يجعلني قط أشعر بالتواصل المباشر مع كبار الفنانين المحبوبين، كما فعل رولان ـ وأنا قد استمعت إلى ماكس ريجر، وبوسوني، وبرونو فولتر.

كانت معارفه المتنوعة تشعر المرء بالخجل. بما أنه لم يكن يحيا في واقع الأمر إلا للقراءة، فقد تمكن من الأدب، والفلسفة، والتاريخ. ومشكلات الأمم والعصور جمعيها. كان يعرف كل موازين الموسيقا، وكان مطلعاً على أصغر أعمال جالوبي و تيليمان، وأعمال موسيقيين من الدرجة السادسة والسابعة، ومع ذلك كان يشارك مشاركة فعالة في أحداث زمانه. وفي تلك الحجرة البسيطة الشبيهة بحجرات الأديرة كان العالم ينعكس كما في عدسة كاميرا. ومن الناحية الإنسانية نال رولان ثقة العظماء في

عصره، فكان من تلاميذ رينان، وضيفاً في منزل فاجنر، وأحد أصدقاء جوريس، وتلقى من تولستوي تلك الرسالة المعروفة التي تستحق، باعتبارها مجاهرة بالإيمان الإنساني، أن تصنَّف مع عمله الأدبي. وكما يفرحني مثل هذا التعرف دائماً، أحسست فيه تفوقاً أخلاقياً وإنسانياً، حرية داخلية خالية من الزهو، حرية الروح المستقلة المسلّم بها. وأدركت فيه من النظرة الأولى ـ وأثبت الزمن أنني على صواب ـ الرجل الذي سيكون ضِمير أوروبا في اللحظة الحاسمة. تحدثنا عن «جان كريستوف»، وأخبرني رولان أنه حاول في هذا العمل أن يؤدي ثلاثة واجبات ـ الاعتراف بالجميل للموسيقا، وإعلان إيمانه بالوحدة الأوروبية، ودعوة الأمم إلى الصحوة. ثمة مهمة لكل واحد في موقعه، في بلده، في لغته الخاصة. لقد حان الوقت للتنبه، والتنبه المتزايد دوماً. إن قوى الكراهية والعدوان أقوى، لاتضاع طبيعتها، من قوى الوفاق، وهناك مصالح مادية وراءها تتنافى مع الأخلاق. ومن الواضح أن الظلامية ناشطة، والمعركة ضدها أهم من فننا. شعرت بأنه يتفجع ـ لأن هشاشة البناء الدنيوي كانت مرارتها مضاعفة ـ هذا الرجل الذي احتفى عمله كله بخلود الفن، قال: «إن الفن يمنحنا العزاء كأفراد، إلا أنه لا قبل له بالواقع.»

كان ذلك في عام ١٩١٣. وكانت تلك أول محادثة أدركت فيها أن واجبنا ألا نواجه احتمال الحرب الأوروبية الدائم من دون عمل واستعداد. وفي اللحظة الحاسمة لا شيء منح رولان ذلك التفوق الأخلاقي الهائل على الآخرين مثل التصليب المؤلم للروح. ولربما حققنا شيئاً من ذلك في حلقتنا أيضاً. فلقد ترجمت أنا كثيراً، ولفتُ الانتباه إلى الشعراء عند جيراننا، وصحبت فيرهارن في جولة محاضرات في أنحاء ألمانية عام ١٩١٢، وكانت الجولة أشبه بالتآخي الرمزي بين فرنسا وألمانيا، وفي هامبورغ تعانق أمام الناس فيرهارن ودهميل، أعظم شاعرين غنائيين في فرنسا وألمانيا. وأقنعت راينهارت بإخراج مسرحية فيرهارن الجديدة، وتعاوننا في البلاد لم يكن قط أكثرمودة، وكثافة، واندفاعاً. وفي ساعات الحماسة العديدة توهمنا أننا قد رسمنا طريق الخلاص للعالم. ولكن العالم قلما همّته تلك التجليات الأدبية، ومضى في سبيله المشؤوم. إن الفرقعة الكهربائية لاحتكاك غير مرئي كانت تسري في الأخشاب. كانت شرارة تظهر

مرة بعد أخرى ـ قضية زابيرن Zabern، أزمات ألبانيا، مقابلة سخيفة ـ كانت مجرد شرارات، إلا أن كل واحدة كان يمكن أن تشعل المتفجرات المكدسة. ونحن في النمسا كنا مدركين أننا في مركز منطقة القلق. كان الإمبراطور فرانسيس جوزيف قد تجاوز الثمانين من العمر في عام ١٩١٠. والرجل الطاعن في السن، والذي أصبح رمزاً من زمن بعيد، لم يكن متوقعاً أن يعيش طويلاً. فأخذ ينتشر على نطاق واسع شعور غامض بأن الإمبراطورية التي عمرها ألف عام لن يكون ممكناً وقف انحلالها بعد رحيله. ففي الداخل تنامى الضغط المتبادل بين القوميات، وفي الخارج، كانت إيطاليا، وصربيا، ورومانيا، وألمانيا بمعنى ما أيضاً، تنتظر تقسيم الرايخ النمساوي. وحرب البلقان، حيث اختبر كروب، وشنايدر ـ كروسو أسلحتهم ضد«المادة الإنسانية»، كما اختبر الألمان والطليان طائراتهم في الحرب الأهلية الإسبانية، إن تلك الحرب قد زادتنا قرباً من الطوفان ـ كنا نستهل العمل مرة بعد أخرى من أجل أن نتنفس فقط: «ليس بعد، هذه المرة ـ ودعنا نأمل، هيهات!»

نحن نعرف من التجربة أن إعادة تركيب وقائع مرحلة أسهل ألف مرة من إعادة تركيب جوها الروحي، وذلك لأن آثاره لا يعثر عليها في الأحداث الرسمية، بل في الحوادث الشخصية الصغيرة كالتي سأدرجها ههنا. ففي ذلك الوقت، إذا شئتم الصراحة، لم أصدق أن الحرب قادمة. ولكن الأحلام أيقظتني مرتين مرتعب القلب. المرة الأولى كانت عندما حدثت قضية ريدل Redl التي لا يعرفها إلا القلة، شأن كل أحداث التاريخ الخلفية.

كانت معرفتي قليلة بالكابتن ريدل، بطل أشد مسرحيات التجسس تعقيداً. كنا نقطن في المنطقة ذاتها، ولا يفصل بين منزلينا إلا شارع. وذات يوم عرّفني إلى هذا السيد اللطيف المظهر، والمدمن على تدخين السيجار، محامي المنطقة T. ومنذ ذلك الوقت صرنا نتبادل التحية عندما نلتقي. لم أكتشف إلا في وقت متأخر كم هي حياتنا مكتنفة بالأسرار، وكم هي معرفتنا قليلة بالجيران. إن هذا الضابط النمساوي العادي الطيب في ظاهر الأمر قد كان المؤتمن على أسرار الوريث الشرعي. وكانت مهمته الإشراف على الخدمات السرية للجيش، وإبقائه متوازناً مع جيوش الأطراف المعارضة.

وفي عـام ١٩١٢، وخلال أزمـة حرب البلقـان التي كـانت روسيـا والنمسـا في أثنائـها تتأهبـان للحرب، تسرّب نبأ أن أهم وثيـقة سرية عن الجيش النمسـاوي هي «خطة آذار» قد بيعت لروسيا. ولو نشبت الحرب، لأنزل ذلك كارثة لا نظير لهـا بالنمسا، لأن الروس قد اطلعوا على كل خطوة، وكل حركة تكتيـكيـة كـان الجيـش النمسـاوي المهـاجم ينوي القيـام بهـا. كـان ذعـر الأركـان العـامـة من هذه الخيـانة هائلاً، وقـد أُسندت إلى الخبيـر الأول، الكابتن ريدل، مهمة اكتشاف الخائن الذي توقعوا أن يكون في حلقة ضيقة جداً. ووزارة الخارجية التي لم تكن واثقة تماماً بالسلطات العسكرية أعطت أوامر ـ وهذا مثال على تنافس مختلف الدوائر وتحاسدها ـ بإجراء تحقيق مستقل خاص بها من غير إشعار الأركـان العـامـة بذلك، وأمـرت الشـرطة، مـن بين أشـيـاء أخرى، أن تفضّ كـل رسـالة من الخارج تحت إشراف دائرة حفظ الرسائل، غير مكترثة بحصانة البريد.

وذات يوم وصلت رسـالة إلى مكتـب البـريد من مـحطة بودفـولشيـسـكا الروسيـة الحدوديـة، وليـس عليهـا إلا عنوان مرمّز هو «حفلة أوبرا». وتبيّن أنهـا لا تحتوي رسـالة بل أوراقـاً نقـدية نمسـاوية جـديدة من فئـة الألف كـراون عـددها ست أو ثمانٍ. نُقل هذا الكشف المريب إلى السلطات، واختيـر أحد رجال المخابرات للقبض عـلى من يدّعي أنه صاحب الرسالة المريبة. اتـخذت المأساة طابع الـكوميديا الفيينيـة الخفيفة إلى حين. جاء رجل في الظهيـرة إلى كـوة مكتب البـريد، وطلب رسـالة مـوجـهة إلى «حفلة أوبرا». وسرعـان مـا أعطى الموظف الإشـارة المتفق عليـهـا لرجل المخـابرات المنتـظر. ولكن الرجل كـان قد مـضى ليتغدى، ولما عـاد، كـان كل مـا تحقّقـه هو أن الغريـب أخذ عـربة، وانطلق إلى جهة غيـر معلومة. وتبع ذلك الفصل الثاني من الكوميـديا. ففي زمن عـربات Fiaker الجديدة الأنيقة التي يجرها حصـانان، كان سائق العربة يربأ بنفسـه عن تنظيف عربتـه، لذلك كـان لكـل مـوقف عـربات ولد يُدعى Wasserer عـمله إطعـام الجيـاد، وتنظيف العـربات. ومن حـسن الحظ أن أحـد هؤلاء الأولاد رأى رقم العـربة التي انـطلقت تواً، وسرعان مـا أُخبرت مخافـر الشـرطة كلها، وتمّ العثـور على العـربة. قـدّم السائق وصفاً للرجل الذي نقله إلى مقهى كيسـر هو الذي كنت ألتقي فيـه الكابـتن ريدل. إضافـة إلى ذلك، فإن سكين الجيب الذي فتح به الرجل المجهول الرسالة، وُجد بالمصـادفة في العربة. اندفع رجال الأمن إلى المقهـى، ولكن الرجل الذي وصفوه كـان قد غـادره. وصرّح النُدُل

بكل ثقة بأن الرجل لا يمكن أن يكون إلا حاميهم الطيب الدائم، الكابتن ريدل، وأنه ركب عربة، ومضى إلى فندق كلومسر.

وقف رجال الاستخبارات ثابتين في المكان. لقد حُلّ اللغز. الكابتن ريدل، الرئيس الأعلى للتجسس في الجيش النمساوي. كان، في الوقت ذاته، الجاسوس المأجور للأركان العامة الروسية. وهو لم يبع فقط أسراراً متنوعة إضافة إلى «خطة آذار»، بل اتضح فجأة سبب إلقاء القبض على كل الجواسيس النمساويين الذي أرسلوا إلى روسيا في العام السابق، وحوكموا. وبدأت جولة اتصالات نشيطة، إلى أن بلغت أخيراً رئيس الأركان العامة النمساوية، كونراد فون هوتسندورف. وروى لي شاهد عيان أن رئيس الأركان شحب لونه عند سماعه الكلمات الأولى. أعقب ذلك حديث على الهاتف مع القصر الإمبراطوري، ثم تتالت المؤتمرات. ما العمل؟ وفي أثناء ذلك اتخذت تدابير للحيلولة دون فرار الكابتن ريدل. ولما غادر ثانية فندق كلومسر، وحين كان يتحدث إلى البواب، اقترب رجل استخبارات منه بلا تطفل، ورفع سكين الجيب وسأله بكل تهذيب:«ألم ينسَ الكابتن هذا السكين في العربة؟» وعرف ريدل في تلك اللحظة أنه قد خسر كل شيء. فأنّى توجه رأى وجوه رجال البوليس السري المألوفة تراقبه، وحين رجع إلى الفندق، تبعه ضابطان إلى الغرفة، ووضع أحدهما مسدساً على الطاولة. وكان قد أُقرّ بأن هذا الأمر، بما ينطوي عليه من فضيحة للجيش النمساوي، يجب إنهاؤه إنهاء هادئاً قدر الإمكان. بقي الضابطان يتمشيان خارج غرفة ريدل حتى الساعة الثانية صباحاً إلى أن سمعا طلقة مسدس.

في اليوم التالي، نعت صحف المساء باختصار الضابط القدير، الكابتن ريدل الذي تُوفي فجأة. ولكن كتمان السر كان صعباً لأن التحقيق انخرط فيه عدد كبير من الناس. وتكشّف شيئاً فشيئاً عدد من التفاصيل التي فسّرت أشياء كثيرة تفسيراً نفسياً. كان الكابتن ريدل غير المعروف من رؤسائه وأصدقائه يعاني شذوذاً جنسياً، وطوال سنين كان تحت رحمة المبتزّين الذين دفعوه أخيراً إلى عمل متهور. كانت صدمة الجيش شديدة. وعلم الجميع أن هذا الرجل قد يؤدي، إن قامت الحرب، إلى موت مئات الآلاف، ودفع الحكم الملكي إلى حافة الهاوية. وحينئذ فقط أدركنا، نحن النمساويين، كم كنا نقترب لاهثين من الحرب العالمية التي كنا متجهين نحوها في السنة الماضية.

كانت تلك هي المرة الأولى التي أمسك فيها الرعب بخناقي. واتفق لي أن التقيت في اليوم التالي كسندرا زماننا الجليلة المهيبة، بيرثا فون ستاتنر. كانت سليلة إحدى العائلات الأرستقراطية الأولى، وفي شبابها عاشت قسوة حرب ١٩٨٨ قرب مقر أسرتها في بوهيميا. ومثل فلورنس نايتنجيل، لم ترَ إلا مهمة واحدة لها في الحياة، وهي أن تمنع نشوب حرب ثانية، أو أي حرب على الإطلاق. كتبت رواية «ألقوا أسلحتكم» التي لقيت نجاحاً عاماً، ونظمت لقاءات من أجل السلم لا حصر لها، وكان انتصار حياتها هو أنها أيقظت ضمير ألفرد نوبل، مخترع الديناميت، للتعويض عما سببه اختراعه من شرور، فأنشأ جائزة نوبل للسلام والتفاهم بين الأمم. واجهتني بانفعال شديد، وصاحت في الشارع مع أنها لم تكن عادة إلا هادئة ومتروّية في كلامها: «لا فكرة عند الناس عما يجري! إن الحرب مقبلة علينا، وقد أخفوها عنا مرة أخرى. لِمَ لا تفعلوا شيئاً، أنتم الشباب؟ إنها تعنيكم أكثر من الجميع. احموا أنفسكم! اتحدوا! لا تدعوا عجائز لا يستمع إليهن أحد يقمن بكل شيء دائماً» قلت لها: إنني ذاهب إلى باريس، ربما يمكن إصدار بيان عام هناك. فألحّت عليّ: «لماذا ربما فقط؟ الأمور الآن أسوأ منها في أي وقت مضى. والآلة آخذة بالتحرك.» وبما أنني كنت أنا مضطرباً، فقد شقّ عليّ أن أهدئها.

وفي فرنسا ذكرتني حادثة شخصية أخرى بالوضوح الذي اتصفت به نبوءة السيدة العجوز والتي لم تؤخذ في فيينا مأخذ الجد. كانت حادثة تافهة جداً، ولكنها شديدة الوقع في نفسي. في ربيع ١٩١٤، قصدت مدينة تورين أنا وأحد أصدقائي لقضاء بضعة أيام، وزيارة قبر ليوناردو دافنشي. تجولنا على طول ضفة اللوار المشمسة اللطيفة عدة ساعات، وفي الليل كنا متعبين قليلاً، لذلك عزمنا على الذهاب إلى السينما في مدينة تور النائمة، بعد أن زرنا المكان الذي ولد فيه بلزاك.

كانت سينما ضاحيةٍ صغيرة مختلفة كل الاختلاف عن مباني الكروم والزجاج الحديثة، وذات صالة ضعيفة التجهيز ممتلئة جمهوراً متواضعاً من العمال والجنود ونساء السوق ـ الناس البسطاء ـ الذين كانوا يتبسطون في الحديث؛ ورغم لافتة «ممنوع التدخين»، كانوا ينفثون في الهواء الدبق سحباً زرقاء كثيفة من دخان التبغ الرديء. ظهرت على الشاشة أولاً «أخبار العالم»: سباق زوارق في إنكلترا، فعلا لغط الناس

وضحكهم. ثم ظهر العرض العسكري الفرنسي، فلم يعره الناس إلا اهتماماً قليلاً أيضاً. وكان المشهد الثالث: «القيصر ويلهم يزور الإمبراطور فرانسيس جوزيف في فيينا.» وفجأة رأيت على الشاشة المنصة المألوفة للمحطة الغربية القبيحة في فيينا، مع رجلي شرطة ينتظران وصول القطار، وتلا ذلك إشارة ظهر بعدها الإمبراطور المسنّ سائراً بين حرس الشرف لاستقبال الضيف. ولما ظهر الإمبراطور على الشاشة منحنيَ القامة قليلاً، ومرتعشاً بعض الارتعاش، أخذ جمهور تور يضحك على الرجل العجوز ذي السوالف الشائبة. ثم ظهرت من القطار عربتُه الأولى فالثانية فالثالثة. وفُتح باب المقصورة، وترجّل وليام الثاني في زي جنرال نمساوي، وشارباه معقوفان إلى الأعلى.

وفي اللحظة التي ظهر فيها علا صفير عفوي شديد، وبدأ خبط الأرض بالأقدام في القاعة المظلمة. لقد صرخوا وصفروا كلهم، نساء ورجالاً، أطفالاً، وكأنهم تلقوا إهانة شخصية. إن أهل تور الطيبين الذين لم يعرفوا عن العالم والسياسة أكثر مما قرؤوه في صحفهم، قد جُنَّ جنونهم إلى حين. أفزعني ذلك، وبلغ الفزع سواد قلبي. فلقد أحسست بالتأثير العميق الذي أحدثته سموم الدعاية في السنوات الأخيرة. فحتى هنا، في مدينة إقليمية صغيرة، كان المواطنون والجنود البسطاء مُحرّضين ضد القيصر، وضد ألمانيا إلى حد استطاعت معه صورة على الشاشة أن تحدث مثل هذه المظاهرة. لم تدم لحظة، لحظة واحدة، ثم تلتها صور أخرى، لم تلبث أن نُسيت كلها. ضحك الناس من فيلم شابلن بكل طاقتهم، وضربوا ركبهم مبتهجين مقهقهين. كانت هذه مجرد حادثة أخرى، إلا أنها أظهرت لي كم يسهل إثارة الناس في وقت الأزمة، رغم كل محاولات التفاهم، ورغم كل المساعي.

أفسد مسائي كله، وجفاني النوم. لو حدث ذلك في باريس، لشعرت بالقلق، ولكن لم يكن ليصدمني إلى هذا الحد. أصابتني رعدة من التفكير في هذه الكراهية التي شقّت طريقها إلى الأقاليم، ونفذت إلى قلوب الناس البسطاء. وبعد أيام أخبرت أصدقائي بما حصل، إلا أن معظمهم لم يأخذها على محمل الجد: «كم ضحكنا، نحن الفرنسيين، على الملكة السمينة فيكتوريا، وبعد عامين عقدنا تحالفاً مع إنكلترا! أنت لا تعرف الفرنسيين، فالسياسة لا تدخل إلى أعماقهم.» ولم يرَ الأشياء في ضوء مختلف إلا رولان. قال: «كلما زاد الناس بساطة، سهل إقناعهم. لقد ساءت الأوضاع

منذ انتخاب بوانكاريه. ورحلته إلى بطرسبورغ لن تكون للمتعة.» تحدثنا طويلاً عن المؤتمر الاشتراكي الذي دُعي إليه في فيينا في ذلك الصيف، وكان رولان متشككاً هنا أيضاً أكثر من الآخرين: «من يعلم عدد اللذين سيبقون متماسكين عند إعلان التعبئة العامة؟ نحن نحيا في زمن العاطفة العامة، الهياج الجماعي الذي لا يمكن تقدير شدته عند قيام الحرب.»

وكما قلت فيما سلف، فإن مثل هذه اللحظات من القلق كانت تذهب كما تذهب الريح بنسج العنكبوت. كنا نفكر في الحرب بين الحين والحين، كما نفكر في الموت - كاحتمال ولكنه احتمال بعيد. وكانت باريس جميلة في تلك الأيام، وكنا نحن في أول الشباب، وسعداء جداً. وأذكر مهزلة ابتكرها جول رومان ليسخر من «أمير الشعراء»، وفيها قبل رجل طيب ولكنه بسيط بأن يقوده الطلاب بكل أبهة إلى تمثال رودان أمام البانثيون ليتوّج «أميراً للمفكرين.» وفي تلك الحفلة المصطنعة قضينا الليل في مرح صاخب مثل أولاد المدارس. كانت الأشجار مزهرة، والهواء لطيفاً ونقياً، فمن كان عنده ميل في مثل هذا الجذل إلى التفكير فيما لا يُصدّق؟ كان أصدقائي خير من صادقت، والجدد منهم صادقتهم في بلد الأجانب - «الأعداء» -، والمدينة سعيدة أكثر من أي وقت مضى، وقد أحببناها لأننا كنا مثلها سعداء. وخلال الأيام الأخيرة صحبت فيرهارن إلى روان حيث ألقى محاضرة. وفي الليل وقفنا أمام الكاتدرائية التي كان رأس برجها يومض وميضاً ساحراً في ضوء القمر. هل هذه العجائب اللطيفة تخصّ «وطناً» واحداً، أم جميع الأوطان؟ وافترقنا في محطة روان، حيث مزّقته بعد عامين إحدى تلك الآلات التي امتدحها في شعره. عانقني وقال: «سأراك في أول آب في Caillou qui bique!» ووعدته، إذ كنت أزوره كل عام في قريته من أجل ترجمة قصائده وهو إلى جانبي. ولِمَ لا أزوره هذه السنة أيضاً؟ وبلا اهتمام ودعت أصدقائي الآخرين، وودعت باريس، توديعاً خالياً من العاطفة، وكأني مغادر منزلي بضعة أسابيع. كانت خطتي للأشهر التالية واضحة، وهي أن أذهب إلى أحد الأرياف في النمسا، وأواصل عملي عن دوستويفسكي (لم ينشر إلا بعد خمسة أعوام)، وبالتالي لأنهي كتابي «ثلاثة معلمين» الذي يصف كل واحدة من الأمم العظيمة من خلال أعظم روائييها، وبعد ذلك أذهب إلى فيرهارن، وفي الشتاء قد أقوم بالرحلة التي خطّطت لها منذ زمن طويل إلى

روسيا، لأنظم جماعة للتعاون الثقافي هناك. في عامي الثالث والثلاثين هذا، كان كل شيء أمامي واضحاً وبسيطاً. وفي ذلك الصيف البهيّ، كان العالم يعرض نفسه لي مثل ثمرة، جميلاً وحافلاً بالوعود. وقد أحببته في حاضره، وحتى في مستقبله الأعظم.

وفي ٢٩ حزيران ١٩١٤، وفي سارايفو، أُطلقت الرصاصة التي حطمت في ثانية واحدة عالم الأمان والعقل الخلاّق الذي تعلمنا فيه وترعرعنا، حطمته مثل وعاء أجوف من فخّار.

الفصل التاسع
الساعات الأولى من حرب ١٩١٤

إن صيف ١٩١٤ جدير بأن يذكر حتى من دون القدر المشؤوم الذي نشره فوق الأرض الأوروبية. فأنا لم أعش صيفاً أرفه، وأجمل، وأغرى بالقول: أصيف من ذلك الصيف. كانت السماء طوال الأيام والليالي حريرية الزرقة، والهواء عليلاً، ولكن ليس خانقاً، والمروج دافئة عابقة بالأطياف، والغابات داكنة كثيفة ناضرة الخضرة. وحتى في هذا اليوم لا تخطر لي عند استخدام لفظة صيف إلا تلك الأيام الساطعة من شهر تموز، والتي قضيتها في بادن قرب فيينا. فابتغاء التوفر على عملي، كنت قد لجأت في شهر تموز إلى هذه المدينة الرومانسية الصغيرة، حيث كان بيتهوفن يحب أن يقضي عطل الصيف، وكنت أنوي قضاء أواخر الصيف مع صديقي المحترم فيرهارن، في منزله الريفي الصغير في بلجيكا. وفي بادن لا يحتاج المرء إلى مغادرة المدينة للتمتع بالريف، فالروابي الشجراء الجميلة تتوسط المنازل الخفيضة التي حافظت على بساطة مرحلة بيتهوفن وسحرها. وفي كل المقاهي والمطاعم كان يمكن أن يجلس المرء في أماكن مكشوفة، ويختلط إذا شاء بالزوار الخليّين المتنزهين في كوربارك، أو يتسلل إلى طريق مهجور.

وعشية اليوم التاسع والعشرين من تموز، وهو اليوم الذي تحتفل فيه النمسا الكاثوليكية بعيد القديسيْن: بطرس وبولص، كان قد وصل من فيينا عدد كبير من الضيوف، وتجمعوا حول الموسيقا في الحديقة مرحين خليّين في ملابس الصيف الخفيفة. كان الجو طلقاً، وأشجار الكستناء العريضة تعلوها سماء صاحية، وكأن ذلك اليوم قد جُعل للسعادة. لقد اقترب الناس والأولاد من فصل العطلة، وتوقعوا الصيف بهوائه العليل، وخضرته الوافرة، ونسيان كل الهموم اليومية. كنت جالساً على مقربة من

المجتمعين في الحديقة أقرأ كتاباً ـ مازلت أذكر أنه كتاب ميريجكوفسكي «تولستوي ودوستويفسكي» ـ وكنت أقرأ باهتمام واستمتاع. ومع ذلك، لم تعزلني القراءة عن نسيم الأشجار، وتغريد الطيور، والموسيقا التي كان الهواء يحملها إليّ من الحديقة. كنت أسمع الألحان بوضوح من غير أن يتشوش الأمر عليّ، لأن سمْعنا قادر على التكيّف بحيث تتوافق مع وعينا تماماً جلبةُ متواصلة، أو ضوضاء شارع، أو خرير جدول، ولا ينبهنا للإصغاء إلا توقف مفاجئ في الإيقاع.

وهكذا توقفت فجأة عن القراءة عندما توقفت الموسيقا فجأة أيضاً. لم أعرف القطعة التي كانت الفرقة تعزفها، بل شعرت بأن الموسيقا قد توقفت فقط. ومن تلقاء ذاتي، رفعت نظري عن الكتاب. والذين كانوا يتنزهون بين الأشجار بدا أن حركتهم الواحدة الخفيفة قد طرأ عليها تغير، إذ أنها توقفت فجأة هي أيضاً. لابد أن شيئاً ما قد حدث. نهضتُ، فلاحظت أن العازفين قد غادروا السرادق، فاستغربت ذلك، لأن حفلة الحديقة كانت تستمر عادة ساعة أو أكثر. ما الذي حدث، وسبّب هذه الخاتمة المباغتة؟ دنوت، فوجدت الناس مجتمعين بانفعال حول منصة الفرقة، واتضح لي أن إعلاناً كان قد عُرض تواً هناك. ولم ألبث أن علمت أن الإعلان كان نص برقية تعلن أن سمو وريث التاج الإمبراطوري، فرانز فرديناند، وزوجته، اللذين ذهبا إلى المناورات العسكرية في البوسنة قد اغتيلا هناك.

تدافع مزيد من الناس نحو لوحة الإعلان، وتناقلوا الأخبار غير المتوقعة، ولكن وجوههم لم تظهر عليها في الحقيقة أمارات الصدمة أو الهلع، فالوريث الشرعي لم يكن محبوباً على الإطلاق. ومن أيام الشباب المبكرة، ما أزال أذكر اليوم الذي وجد فيه ولي عهد الإمبراطور، وابنه الوحيد، مقتولاً في مايرلنغ. عمّ اضطراب، ويأس، واهتياج يومئذٍ، وتزاحمت الجموع لتلقي على جثمانه المسجّى نظرة الوداع. كان التعبير عن الصدمة والتعاطف مع الإمبراطور طاغياً، فابنه الوحيد، ووريثه، الذي كان تقدمياً، وإنسانياً خلافاً للمألوف في أسرة هبسبورغ، والذي كان يتوقع منه أشياء كثيرة، قد مات في ريعان شبابه. أما فرانز فرديناند فقد افتقر إلى كل ما يُعدّ شعبيةً حقيقية في النمسا، ولطفاً، وسحراً شخصياً، ورويّة. كنت أراه غالباً في المسرح وهو جالس في مقصورته عريضاً، جباراً، محدقاً تحديقه البارد الثابت من دون أن ينظر نظرة ودية

واحدة إلى الجمهور، أو يشجّع الممثلين بتصفيق حار. وهو لم يُرَ قط مبتسماً، ولم تظهره أي صورة وهو مسترخٍ. وكان لا يحب الموسيقا، ولا الدعابة، كما أن زوجته كانت مثله جافية. كان يحيط بهما هواء بارد جداً، وكان معلوماً أنهما يفتقران إلى الأصدقاء، وأن الإمبراطور العجوز أيضاً كان يكره ابنه كرهاً شديداً لأنه لم يكن عنده اللياقة الكافية لإخفاء تلهفه على وراثة العرش. إن هاجسي الغامض بعض الشيء أن مصيبة ما سوف تنزل بهذا الرجل ذي العنق الضخمة، والعينين المحدقتين الباردتين، لم يكن هاجساً شخصياً على الإطلاق، بل هاجس الأمة كلها. لذلك فإن خبر مقتله لم يثر أي تعاطف عميق. ولم تمضِ ساعتان حتى اختفت كل مظاهر الحزن. ضحكت الجموع، وعلا لغطها، واستؤنف عزف الموسيقا في المنتجعات العامة مع تقدم المساء. وفي ذلك اليوم تنفس كثير من الناس الصعداء لأن هذا الوريث للإمبراطور الهرم أخلى مكانه للأرشيدوق الشاب المحبوب شارل.

وبالطبع فإن الصحف نشرت مراثي مطوّلة في اليوم التالي، وعبّرت تعبيراً مناسباً عن سخطها على الاغتيال. ولكن الحادثة لم يظهر ما يدلّ على أنها سوف تستخدم سياسياً ضد صربيا. كان الهم المباشر للبيت الإمبراطوري أمراً آخر تماماً، أي طقوس الجنازة المهيبة. وبسحب مكانته كوريث شرعي للعرش، ولاسيما أنه مات وهو يؤدي خدمة للنظام الملكي، فقد كان واضحاً أنه سوف يدفن في المدفن الكبوشي Chapuchin، مدفن آل هبسبورغ التاريخي. غير أن فرانز فرديناند كان قد تزوج كونتيسة بعد أن واجه صراعاً طويلاً ومريراً مع العائلة المالكة. فمع أنها كانت من أسرة أرستقراطية رفيعة، فإنها، بحسب قوانين عائلة هبسبورغ السرية القديمة، لم تُعتبر نظيرة زوجها في المولد، وفي جميع الاحتفالات الرسمية الكبرى، كانت الأرشيدوقات لا تتنازلن عن تقدمهن على زوجة الوريث الشرعي التي لم يكن أولادها مؤهلين لاعتلاء العرش. والكبرياء الملكية لاحقتهم حتى الموت. ماذا ؟ كونتيسة تُدفن في مدفن آل هبسبورغ الإمبراطوري؟ بئس الفكرة! وبدأت مكيدة كبيرة، واقتحمت الأرشيدوقات قصر الإمبراطور الهرم. وفي حين أن الحداد كان متوقعاً من الجمهور، فإن القصر كانت تحتدم فيه التعارضات المريرة، وكالعادة كان الميتان هما المخطئين. ولفّق المشرفون على المراسم حديثاً مؤداه أن المتوفيْن قد عبرا عن رغبة صريحة في أن يدفنا في آرتستتن، وهو

مدفن إقليمي. وهذا العذر الزائف التقوى جعلهم قادرين على تلافي تسجية الجثمانين للعامة، وموكب الجنازة، وكل مسائل حق التصدر الأخرى المتنازع عليها. حُمل نعشا الزوجين الملكيين المقتولين في هدوء إلى آرتستتن، ودفنا هناك. وهكذا، فإن فيينا المولعة دائماً بالمواكب قد حُرمت من مناسبة عظيمة، وكانت قد بدأت تنسى الحادثة الفاجعة. ومع ذلك فإن الموت الفظيع للإمبراطورة إليزابث، وولي العهد، والهروب الفاضح للعديد من أفراد البيت الإمبراطوري، قد جعلا فيينا تعتقد أن الإمبراطور الهرم سيعيش أكثر من كل أفراد أسرته في عزلة هادئة. كان يكفي أن تمرّ عدة أسابيع حتى يختفي من التاريخ إلى الأبد اسم فرانز فرديناند وشخصه.

وفي غضون أقل من أسبوع، على كل حال، بدأت الحملات تظهر فجأة في الصحف، وكان تصعيدها المتواصل متسق التنظيم بحيث تبدو غير مقصودة. اتُهمت الحكومة الصربية بالضلوع في الاغتيال، وانطوى الاتهام على تلميح خفيّ بأن النمسا لن تسمح بأن تمر جريمة قتل وريثها الشرعي المحبوب من دون انتقام. كان يصعب على المرء ألا يخطر له أن عملاً ما يتمّ التحضير له في الصحف، ولكن أحداً لم تخطر له الحرب. فلا البنوك، ولا مراكز التجارة، ولا الأشخاص المستقلون، قد غيروا خططهم. لماذا نشغل أنفسنا بالمناوشات المتواصلة مع صربيا، والتي تنشأ، كما نعلم جميعاً، من معاهدات تجارية تتعلق بتصدير الخنازير البلغارية؟ حزمت حقائبي للذهاب إلى فيرهارن في بلجيكا، وكان عملي جارٍ على قدم وساق، فما علاقة الأرشيدوق الميت في تابوته بحياتي؟ كان الصيف جميلاً كما لم يكن في أي وقت مضى، ويَعد بأن يكون أجمل أيضاً ـ لقد أطلّ كلنا على العالم إطلالة خالية من أي هم. وأذكر أنني كنت أتمشى بين الكروم مع صديق في آخر أيامي في بادن، والتقينا صانع نبيذ مسنّ، فقال لنا: «لم يأتنا صيف كهذا منذ وقت طويل. وإذا بقي هكذا، فإن محصول العنب سيكون أفضل من أي محصول جنيناه في السنوات الماضية. سيذكر الناس هذا الصيف.» لم يعلم ذلك العجوز الذي كان يلبس جلباب صانع البراميل الفضفاض كم كانت الكلمات التي نطق بها صحيحة صحة رهيبة.

وفي لوكوغ، المنتجع الصغير على شاطئ البحر قرب أوستند، حيث نويت الإقامة أسبوعين قبل زيارتي السنوية لمنزل فيرهارن الريفي، كان الانطلاق سائداً كما في كل

مكان. استلقى المصطافون السعداء تحت خيامهم على الشاطئ، أو مضوا إلى الاستحمام، وكان الأولاد يطيّرون طياراتهم الورقية، والشبان يرقصون أمام المقاهي. اجتمع الناس من كل الجنسيات متوائمين، وكانت الألمانية خاصةً هي المسموعة كثيراً، لأن السوّاح من رانيلاد القريبة كانوا يبدون إيثارهم للشاطئ البلجيكي من وقت طويل. ولم يأتِ الإزعاج إلا من باعة الصحف الذي كانوا يروّجون سلعهم بالجهر بعناوين الصحف الباريسية المنذرة بالخطر: «النمسا تستفز روسيا»، «ألمانيا تستعد للتعبئة العامة.» كان يمكن رؤية وجوه المشترين تتجهم، ولكن إلى دقائق قليلة. ورغم ذلك، فقد تعودنا هذه الصراعات الدبلوماسية منذ أعوام، وكانت تُسوَّى دائماً تسوية سعيدة في اللحظة الأخيرة، وقبل أن تصبح بالغة الخطورة. ولِمَ لا يحدث الشيء ذاته الآن؟ وبعد نصف ساعة، كنت ترى الناس أنفسهم يغطسون في الماء، والطيارات الورقية تحلق في الفضاء، والنوارس ترفرف، والشمس تضحك دافئة وساطعة فوق الأرض المطمئنة.

ولكن الأنباء كانت تتكاثر، وتغدو أكثر تهديداً بالأخطار. كان النبأ الأول الإنذار التي وجهته النمسا إلى صربيا، والردّ المراوغ عليه، ثم تبادل البرقيات بين العاهليْن، وأخيراً التعبئة التي لم تكد تخفى. أصبحت القرية مزعجة، فكنت أركب كل يوم القطار الكهربائي الصغير إلى أوستند لالتماس الأخبار التي كانت تزداد سوءاً. كان الناس مايزالون يستحمون، والفنادق ملأى، والرصيف مزدحماً بالمصطافين المتسكعين، المتضاحكين، اللاغطين. ولكن عنصراً جديداً ظهر أول مرة. رأينا جنوداً بلجيكيين لم يُشاهدوا من قبل على الشاطئ، ومدافع في عربات صغيرة تجرّها كلاب، وهذه العربات كان ينفرد بها الجيش البلجيكي.

كنت جالساً في مقهى مع صديقين من بلجيكا: رسام شاب، والشاعر كروميلنك. كنا قد قضينا المساء في منزل جيمس إنسور، أعظم رسامي بلجيكا، وهو رجل متحفظ ومعتزل كان يتباهى بالفالسات Waltzes والبولكات Polkas التي ألّفها للفرقة الموسيقية العسكرية أكثر منه باللوحات الخيالية ذات الألوان المتوهجة. كان قد أرانا أعماله، ولم يفعل ذلك عن طيب خاطر بالفعل، لأنه كان يعتقد أن أحداً قد يشترى إحداها، وهذا الاعتقاد كان يسبب له اكتئاباً مثل اكتئاب المهرّجين. كان أبعد ما يطمح

إليه، كما أخبرني أصدقاؤه متضاحكين، هو أن يبيع أعماله بأسعار عالية، ثم يتاح له أن يحتفظ بها، لأنه كان بخيلاً بالمال مثل بخله بها. وكلما أرغم على التخلّي عن لوحة، انتابه اليأس عدة أيام. ورغم أفكاره غير المعقولة، فإن هذا البخيل اللطيف قد أفرحنا تماماً، فحين كانت تمرّ جماعة من الجند بمدفعها المشدود إلى كلب، كان أحدنا ينهض لكي يُمِرّ يده على شعر الكلب. وقد أزعج هذا السلوك الضابط المسؤول الذي خشي أن يؤذي هذا التدليل للحيوان الملحق بالجيش هيبةَ المؤسسة العسكرية. وغمغم أحدنا: «لِمَ هذا المسير السخيف؟» ولكن آخر أجاب على الفور بانفعال: «على المرء أن يستعد. يقال: إن ألمانيا تنوي مهاجمتنا إذا نشبت الحرب.» قلت باقتناع صادق: «مستحيل!» ففي ذلك العالم القديم كنا لم نزل نؤمن بالمعاهدات المقدسة. وقلت أيضاً: «إذا ما حدث شيء، وأفنت فرنسا وألمانيا إحداهما الأخرى، فإن أقدامكم، أنتم البلجيكيين، ستظل جافة». ولكن متشائمنا لم يذعن، فتابع قائلاً: لابد من سبب كافٍ حتى تتخذ مثل هذه التدابير في بلجيكا. فمنذ سنوات تنسّموا خبراً عن خطة سرية للأركان العامة الألمانية مؤداها أن بلجيكا سوف تُغزى على الرغم من المعاهدات المصدقة في حال الهجوم على فرنسا. ولكنني لم أستسلم أنا أيضاً. بدا لي مدعاة للسخرية أن يقف جيش على الحدود استعداداً لاقتحام بلجيكا، في حين أن آلافاً وعشرات الآلاف من الألمان كانوا يستمتعون في فراغهم بالحفاوة في هذا البلد الصغير المحايد. قلت: «هذا هراء. يمكنكم شنقي على عامود المصباح هذا، إذا دخل الألمان إلى بلجيكا.» واليوم لا أزال شاكراً لأصدقائي أنهم لم يؤاخذوني على كلامي عندما حانت الساعة.

ثم جاءت أيام تموز الأخيرة الحاسمة، والأخبار المتضاربة في كل ساعة - إمبراطور ألمانيا أبرق إلى قيصر روسيا، وقيصر روسيا أبرق إلى أمبراطور ألمانيا، النمسا تعلن الحرب على صربيا، مقتل جوريس. وأحسّ المرء بالوضع الخطير. وفي الحال، هبت ريح الخوف القارسة على الشاطئ، وتركته مقفراً. غادر الناس الفنادق بالآلاف، واقتحموا القطارات، وحتى الأكثر تفاؤلاً أخذوا يحزمون حقائبهم على وجه السرعة. وأنا أيضاً قطعت تذكرة في اللحظة التي علمت فيها بأن إعلان النمسا الحرب على صربيا قد آن وقته. كان قطار الشرق السريع آخر قطار من بلجيكا إلى ألمانيا. وقفنا في الممرات،

منفعلين، جزعين، وكل واحد يتحدث إلى أي واحد. لم يستطع أحد أن يبقى هادئاً أو أن يقرأ، وعند كل محطة، كنا نندفع من القطار لمعرفة آخر الأخبار، مفعمين أملاً خفيّاً في أن تكبح يد حازمة الكوارث التي أفلتت من عقالها. لم نكن بعد قد صدقنا أن حرباً ستقع، وكنا أقل تصديقاً لاحتمال غزو بلجيكا. لم نستطع أن نصدق لأننا لم نرغب في تصديق مثل هذا الجنون. كنا تجاوزنا فيرفير، المحطة البلجيكية الحدودية، وكان القطار يقترب قليلاً قليلاً من الحدود. صعد جامعو التذاكر، والحراس الألمان، ولم يبقَ إلا دقائق حتى نصل أراضي ألمانيا.

وفي منتصف الطريق إلى هيربزتال، المحطة الألمانية الأولى، توقف القطار فجأة في وسط حقل مكشوف. أسرعنا إلى النوافذ. ما الذي حدث؟ رأيت في الظلام قطارات بضائع متلاحقة تتقدم نحونا، وسيارات مغطاة بأقمشة مشمعة تبينت تحتها هياكل مدافع. توقف قلبي لحظة. لم يمكن أن يكون ذلك إلا تقدم الجيش الألماني، وعزّيت نفسي قائلاً: ربما لا يكون ذلك إلا تدبيراً احتياطياً، مجرد تهديد بالتأهب للحرب، وليس التأهب ذاته. وفي أوقات الخطر تصبح إرادة الأمل المُجدّدة هائلة على الدوام. وأخيراً سمعنا إشارة «انتهاء الغارة»، فدخل القطار إلى المحطة في هيربزتال. وثبتُ إلى الأرض وثباً لآتي بصحيفة، وأعلم ما الذي كان يجري. ولكن العسكر كانوا قد احتلوا المحطة. ولما أردت الدخول إلى حجرة الانتظار، وجدت موظفاً وقوراً، أبيض اللحية، واقفاً أمام الباب المقفل، لم يُسمح لأحد بالدخول إلى مباني المحطة. غير أنني كنت قد سمعت صليل السيوف وراء الزجاج المغطى باعتناء، وصوت وقوع البنادق على الأرض. انتفى أي شك، فالشيء الفظيع، الغزو الألماني لبلجيكا، والمتعارض مع كل المواثيق الدولية، كان جارياً. عدت إلى القطار مرتعداً، وتابعت الرحلة إلى النمسا. أيقنت أن القطار ماضٍ بي إلى الحرب.

وصلت إلى النمسا صباحاً، فوجدت الإعلانات عن التعبئة العامة في كل مكان. كانت القطارات مكتظة بالمجندين الجدد، والرايات خافقة، وأصداء الموسيقا مترددة، وفيينا كلها مضطربة. الصدمة الأولى من أخبار الحرب ـ الحرب التي لم يردها الناس ولا الحكومة ـ الحرب التي أفلتت خلاف إرادتنا من الأيدي الخرقاء للدبلوماسيين المخادعين الذين كانوا يعبثون بها، تحولت فجأة إلى حماسة. كان في الشارع عروض

عسكرية، وأعلام، وشرائط، وموسيقا متفجرة في كل مكان، ومجندون شباب يسيرون سير الظافرين، وتشرق وجوههم عند سماعهم الهتافات. إنهم أولئك الجنود المجهولون الذين يمضون من غير أن ينتبه لهم أو يحتفل بهم أحد.

ولكي أصْدقكم القول، عليّ أن أعترف بأن شيئاً من الجلال، والجذل، وحتى الإغراء، في اندفاع الناس الأول، كان لا يستطيع المرء أن يتخلص منه إلا بصعوبة. وعلى الرغم من كل كراهيتي للحرب ونفوري منها، ينبغي لي ألا أغفل ذكرى تلك الأيام الأولى. فكما لم يحدث قبلاً، شعر الآلاف بما كان ينبغي أن يشعروا به أيام السلم، أي بانتمائهم المشترك. وفي تلك الساعة شعرت المدينة التي يقطنها مليونان من البشر، والبلد الذي سكانه زهاء خمسين مليون، بأنهما مشاركان في صناعة تاريخ العالم في لحظة لا تتكرر أبداً، وشعر كل واحد بأنه مدعو إلى إلقاء ذاته المتناهية الصغر في الكل المتوهج حتى يتطهر من كل أنانية. لقد غمر الشعور المندفع بالأخوّة كل ما فرّق بين الناس من طبقة ورتبة ولغة. تحادث الغرباء في الشوارع، وتصافح المتباعدون منذ سنين، وحيث ذهبت رأيت وجوهاً منفعلة. إن كل فرد قد عاش تجربة النشوة، فهو لم يعد إنسان الماضي المنعزل، بل أصبح مندمجاً في الكل، جزءاً من الجمهور، فأُضفي المعنى على شخصه المغمور حتى ذلك الوقت. وفجأة وجد موظف البريد الصغير الذي كان يفرز الرسائل عادة صباح مساء، الذي كان يفرز باستمرار، الذي كان يفرز من يوم الاثنين إلى يوم السبت بلا انقطاع، وجد أنه قد حقق احتمالاً رومانسياً في حياته: لقد استطاع هذا الموظف، واستطاع الإسكافي، أن يصبح بطلاً، وأن تشجعه النساء، وأن يطلق عليه هذا اللقب الرومانسي أولئك الذي سيبقون في بيوتهم عندما يغادر إلى الجبهة. لقد اعترف الجميع بالقوة المجهولة التي انتشلتهم من حياتهم اليومية. وحتى الأمهات المحزونات، والنساء الخائفات خجلن من إظهار عواطفهن الطبيعية تماماً في وجه التحول الأول. ولكن من الممكن أن قوة عميقة وخفيّة كانت تفعل فعلها في هذا الاهتياج. تكسّر المد على الإنسانية تكسراً عنيفاً وسريعاً، وحرّك الأعماق، حرك غرائز الحيوان البشري البدائية الباطنة ـ ما سماه فرويد تسمية ذات معنى: «الارتداد عن الحضارة»، حرك الرغبة في التملص من الدساتير والقوانين البرجوازية المتعارف عليها، وإتاحة الفرصة لغرائز الدم البدائية أن تثور حينما تشاء.

من الممكن أن يكون لهذه القوى الخفيّة إسهامها أيضاً في الاهتياج العارم الذي أقحم فيه كل شيء ـ التضحية بالنفس، والكحول، وروح المغامرة، وروح الإيمان الخالص، والسحر القديم للرايات والشعارات الوطنية، ذلك الاهتياج الغامض للملايين، والذي يعزّ على الوصف بالكلمات، إلا أنه أعطى في لحظة حافزاً عنيفاً قارب النشوة إلى أفظع جرائم عصرنا.

قد يسأل جيل اليوم الذي شهد اندلاع الحرب العالمية الثانية فقط: لِمَ كانت تجربتنا مغايرة؟ لِمَ لمْ ينفجر اهتياج الجماهير الجذلان في سنة ١٩٣٩، كما في سنة ١٩١٤؟ لماذا استجابوا للنداء استجابة رزينة وحازمة، مستسلمين للقدر في صمت؟ ألم يحدث الشيء ذاته؟ ألم تكن حتى أقدس الأهداف وأسماها مرتهنة بالأحداث في حربنا نحن التي هي فكرة من أفكار، وليست متعلقة بالحدود والمستعمرات فقط؟

إن الجواب بسيط: لأن عالم ١٩٣٩ لم يكن يتصف بالتصديق الساذج البريء الذي اتصف به عام ١٩١٤، كان للناس يومئذٍ ثقة مفرطة بقادتهم. لا أحد في النمسا كان يمكن أن يخطر له أن الإمبراطور فرانسيس جوزيف السامي الذي بلغ الثالثة والثمانين من العمر قد يدعو شعبه إلى الحرب إلا إذا اضطر إلى ذلك اضطراراً، وقد يطلب مثل هذه التضحية بالدم ما لم يكن أعداء أشرار وفاسدون ومجرمون يهددون سلام الإمبراطورية بالأخطار. والألمان من جهة أخرى، قد قرؤوا برقيات إمبراطورهم إلى القيصر، والتي ألحّ فيها على السلام. كان الاحترام الشديد لـ «السلطات»، للوزراء والدبلوماسيين، وبصيرتهم وصدقهم، ما يزال يبعث الحيوية في الإنسان البسيط. ولو جاءت الحرب، لما كانت في نظر الناس إلا ضد رغبات رجال دولتهم، ولما كان هؤلاء مخطئين، ولما كان أحدَ في كل البلاد مخطئاً. لذلك فإن المجرمين، وتجار الحروب، لابد أن يكونوا الآخرين، ونحن لم نحمل السلاح إلا دفاعاً عن النفس، وضد عدو غادر وماكر «هاجم» النمسا وألمانيا المسالمتين من غير أوهى استفزاز. إن هذا الإيمان الديني إلى حد ما بصدق الحكومات، أو على الأقل بقدرتها، كان قد تلاشى عام ١٩٣٩ في أنحاء أوروبا كافة. فلقد احتُقرت الدبلوماسية، بما أن كل واحد قد رأى بكل مرارة كيف ضيّعوا فرصة السلام الدائم في فرساي، والأمم تتذكر بكل وضوح كيف نُكثت

عهـود نزع السلاح، وإلغـاء الدبلوماسـيـة السـرية. وفي واقع الأمر، لم يكن رجل دولة واحد في عـام ١٩٣٩ يحظى باحتـرام أحد، أو يثق أحد بأن يوكل إليه أمره. كان كنّاس الشوارع المتواضع في فرنسا يسخر من دالادييه، وفي إنكلترا لم تعد حصانة شامبرلين يثق بهـا أحد منذ أكد في ميونخ «السـلام في عصرنا»، وفي إيطاليا وألمانيـا كانت الجماهير تنظر إلى موسوليني وهتلر نظراً قلقاً: إلى أين سيقودوننا الآن؟ ومن المؤكد أن الشعوب لم تكن مخيّرة، فالأوطان في خطر، لذلك حمل الجنود بنادقهم، وتركت النساء أولادهن يذهبون، ولكن لم يفعلوا ذلك فعل المؤمنين القدماء بأن هذه التضحية لا سبيل إلى تحاشيها. لقد انصاعوا، ولكن بلا ابتهاج، وذهبوا إلى الجبهة، ولكن من دون الحلم القديم بأن يكونوا أبطالاً. لقد أدرك الشعب، وكل فرد، بأنهم ليسوا إلا ضحايا الغباء الدنيوي للساسة، أو ضحايا قدر شرير مبهم.

إضافة إلى ذلك، ما الذي عرفه سواد الناس عن حرب ١٩١٤ بعد نحو نصف قرن من السلام؟ إنهم لم يعرفوا الحرب، ولم يكادوا يلقون إليها بالاً. لقد أصبحت أسطورة، وجعلها البعد تبدو رومانسية وبطولية. كانوا مازالوا يرونها من منظور كتب القراءة، ولوحات المتاحف: هجمات رائعة للفرسان في أزياء مبهرجة، والطلقة القاتلة تخترق القلب دائماً، والحملة بالجملة مسيرة ظفرٍ باهرة. كان المجندون يخاطبون أمهاتهم ضاحكين في آب ١٩١٤: «سنرجع في عيد الميلاد». منْ في قرى النمسا ومدنها كان يتذكر الحرب «الحقيقية»؟ كان بعض المسنين، في أحسن الأحوال، قد حارب عام ١٨٦٦ ضد بروسيا التي هي الآن حليفتهم. ولكن يا لها من حربٍ بعيدة خاطفة لم تُرَقْ فيها دماء، وحملةٍ انتهت في غضون ثلاثة أسابيع، مع ضحايا قليلة، وقبل أن تبدأ تقريباً! مغامرة رومانسية فيها عنف ورجولة - هكذا رُسمت حرب ١٩١٤ في مخيّلة الإنسان البسيط، وكان الشبان يخشون خشية صادقة أن تفوتهم أعجب تجارب حياتهم وأكثرها إثارة، وهذا ما جعلهم يسرعون إلى الاحتشاد حول وطنياتهم، وما جعلهم يطلقون الصيحات، ويغنون في القطارات التي نقلتهم إلى المذبحة، فلقد سرت موجة الدم الحمراء في شرايين الأمة كلها سرياناً عنيفاً ومحموماً.

وأما جيل ١٩٣٩ فقد عرف الحرب، ولم تعد تخدعه. علم أنها ليست رومانسية، بل بربرية. علم أنها قد تدوم أعواماً وأعواماً، مدة من الزمن لا تستعاد. علم أن الجنود

لا يكتسحون العدو وهم مزّينون بأوراق السنديان والشرائط، بل ينتظرون في الخنادق، أو الثكنات، أسابيع في كل مرة، وقد غمرتهم الهوام،وتخبّطهم العطش، وأن العدو يسحقهم ويشوّههم من غير أن يواجهوه أبداً. وكانت الصحف والأفلام قد جعلت تقنيات التدمير الشيطانية الجديدة مألوفة، وأدرك الناس كيف تهرس الدبابات العملاقة أجساد الجرحى، وكيف تمزّق الطائرات النساء والأطفال في أسرّتهم. وعلموا أن حرب ١٩٣٩ ستكون، بسبب مكْننتها العديمة الروح، أقسى حروب البشر السابقة قاطبة، وأشدها شراسة. إن أحداً من جيل ١٩٣٩ لم يؤمن قط بعدالة الحرب المقدّرة من الله، والأسوأ من ذلك هو أنهم لم يعودوا يؤمنون بأنها ستحقق العدالة والسلام الدائم. لقد تذكروا جيداً ما جلبته الحرب الأخيرة من خيبات: الإفقار بدلاً من الإغناء، والمرارة بدلاً من الاطمئنان، والمجاعة، والتضخم والثورات، وفقدان الحقوق المدنية، واستعباد الدولة لهم، والقلق المدمر للأعصاب، وارتياب الواحد بالكل.

ها هو ذا الفرق. كان لحرب ١٩٣٩ معنى روحي هو مسألة الحرية والمحافظة على القيم الأخلاقية، والقتال من أجل فكرة تجعل المرء صلباً، وثابت العزم. وأما حرب ١٩١٤، فلم تعرف شيئاً من الحقائق، بل كانت ما تزال تتعهد وهماً، حلماً بعالم أفضل يعمّه الصلاح والسلام. والوهم هو الذي يهب السعادة لا المعرفة. ولذلك سار الضحايا مكللين بالزهور، وأوراق السنديان في خوذاتهم، ساروا إلى الأرض المخضبة بالدماء عبر شوارع متلألئة صاخبة وكأنها في يوم عطلة.

وألا استسلم أنا لهذه النشوة الوطنية المفاجئة أمر لم ينجم عن رزانة، أو بصيرة غير عادية، بل عن طريقة حياتي السابقة. فمنذ يومين كنت في بلاد «الأعداء»، واستطعت أن أقنع نفسي بأن الجماهير الغفيرة في بلجيكا مسالمة وغير مدركة مثل شعبنا. والأكثر من ذلك هو أنني عشت حياة أممية بحيث كان يصعب عليّ أن أكره العالم الذي كان عالمي، مثلما كان أرض أجدادي، بين ليلة وضحاها. وكنت مرتاباً بالسياسة منذ وقت طويل، وفي الأعوام السابقة خاصةً، ناقشت مرات لا تحصى عبث الحرب المحتملة مع أصدقائي الفرنسيين والإيطاليين. كنت محصناً إلى حد ما ضد عدوى الحماسة الوطنية، ولأنني كنت مهيأ ضد حمّى الساعات الأولى، بقيت عاقد العزم على ألا أسمح لاحتراب الأخوة هذا الذي سببه دبلوماسيون أفظاظ، وصانعو أسلحة قساة، أن يؤثّر في اقتناعي بالحاجة الماسة إلى الوحدة الأوروبية.

ونتيجة لذلك، كنت منذ بداية مواطنتي العالمية مطمئن القلب، وكان عسيراً عليّ أن أحدد اتجاهي كمواطن للدولة. ومع أنني كنت في الثانية والثلاثين، فقد كنت معفياً من أي التزامات عسكرية، لأنني اعتُبرت في كل الفحوص غير مؤهل، وهو أمر قد أسعدني للغاية حتى في الأوقات السابقة. لقد أنقذني الرفض المتكرر من تبديد سنة في الخدمة العسكرية السخيفة، إضافة إلى أنني رأيت التدريب على استخدام آلات القتل في القرن العشرين مفارقة آثمة. وما كان يصحّ بالنسبة إلى رجلٍ قوي الإيمان مثلي هو أن يعلن أنه مناهض للحرب، وهو موقف كان يستدعي في النمسا أشد العقوبات التي يمكن تصورها، ويتطلب صلابة في الروح كالتي يتحلّى بها الشهداء. واتفق أنني ما جُبلت على البطولة، وهو عيب لا أخجل من الاعتراف به. كان موقفي الطبيعي من كل الأوضاع الخطرة هو تحاشيها على الدوام. ولم يكن عليّ في هذا الوقت فقط أن أتقبل ـ ولعلي أستحق ذلك ـ تأنيب الآخرين لي على ترددي، وهو التأنيب الذي كثيراً ما وُجّه إلى المعلم الجليل إرازموس الروتردامي الذي عاش في القرن الماضي. ومن جهة أخرى، كان لا قبل لي أيضاً، كرجل شاب نسبياً، بأن أنتظر حتى يسحبوني من عزلتي، ويضعوني في موضع غير مناسب. لذلك سعيت إلى المشاركة في أعمال القوات المسلحة، وما جرى هو أن أحد أصدقائي، وكان ضابطاً عالي الرتبة في سجلات الجيش، قد سعى في تعييني هناك. عملت في المكتبة، حيث كانت معرفتي باللغات مفيدة، فأمليت التصريحات بالنشر والعرض ونقحتها ـ أسارع إلى الاعتراف بأن ذلك العمل لم يكن مهمّاً بالتأكيد، ولكنه على الأقل بدا لي مناسباً أكثر من طعن فلاح روسي بالحربة. إلا أن العامل الحاسم هو أنني، بعد هذه الأعمال غير المجهدة، كان عندي الوقت الكافي للانكباب على ما اعتقدت أنه أهم عمل في الحرب، أي التحضير للتفاهم في المستقبل.

كان وضعي بين أصدقائي في فيينا أصعب بكثير من وضعي الرسمي. فبما أن تجربتهم الأوروبية كانت محدودة بالإجمال، وتفكيرهم لم يخرج عن الدائرة الألمانية، فإن معظم كتابنا اعتقدوا أن أفضل مساهمة لهم هي تقوية حماسة الجماهير، ودعم الحرب الجميلة المفترضة، بالنداءات الشعرية، والإيديولوجيات العلمية. إن كل المؤلفين الألمان

تقريباً، وعلى رأسهم هويتمان و دهميل، قد شعروا بأنهم ملزمون، شأن المنشدين القدماء، أن يلهبوا مقاتليهم المتقدمين للاستقتال بالأغاني والأشعار. وتدفقت القصائد تتقافى فيها كلمة حرب Krieg مع كلمة نصر Sieg، وكلمة فاقة not مع كلمة موت tod. وأقسم الشعراء بكل وقار ألا يقيموا أبداً علاقات ثقافية مع فرنسي أو إنكليزي، وذهبوا إلى أبعد من ذلك، فأعلنوا بين ليلة وضحاها أن الفرنسيين والإنكليز لم يكن عندهم قط أي ثقافة، وإن وجدت فهي تافهة وعديمة القيمة مقارنة بالشخصية الألمانية، والفن الألماني، والفكر الألماني. وكان موقف العلماء أسوأ من ذلك أيضاً. فالحكمة الوحيدة للفلاسفة كانت الإعلان أن الحرب هي «حمّام من فولاذ» يصون قوة الشعب من الوهن صيانة مفيدة. ووافقهم الأطباء على ذلك، فاستفاضوا في الثناء على جراحتهم الترقيعية بحيث كاد المرء يُغري ببتر إحدى ساقيه السليمتين واتخاذ واحدة صناعية بدلاً منها. وأبى أصحاب كل المذاهب أن يبزّهم أحد، فانضموا إلى الجوقة، كأنهم قبيلة من الموسوسين الهاذرين، على أن كل هؤلاء أنفسهم قد كانوا منذ أسبوع أو شهر يثيرون الإعجاب بعقلهم،وطاقتهم المبدعة،وسلوكهم الإنساني .

وأكثر ما يروّع في هذا الجنون هو أن معظم أولئك الأشخاص كانوا صادقين. وبما أنهم كانوا في الغالب مسنّين، وغير مؤهلين للخدمة العسكرية، فقد ظنوا أن اللياقة تقتضي أن يشاركوا في كل جهد داعم، فما أنجزوه مدينون به كله للغة، وبالتالي للشعب. وهكذا رغبوا في خدمة شعبهم باللغة، وإسماعه ما كان يرغب في سماعه، وهو أن العدالة حليفتهم في هذا الصراع، والجور حليف الآخرين، وأن ألمانيا سوف تنتصر، والأعداد سوف يندحرون اندحاراً مخْزياً ـ ومن الواضح كل الوضوح أنهم كانوا يخونون بذلك الرسالة الحقة للشاعر، المحافظ على إنسانية البشر الشاملة، وحاميها. وبالطبع، ذاق كثيرون الطعم المر المقزز لكلماتهم حالما تلاشى دخان الحماسة الأولى. ولكن الذين كان هذيانهم أعلى في الأشهر الأولى، اجتذبوا انتباه معظم الناس، لذلك غنّوا، ورفعوا أصواتهم في جوقة صاخبة هنا، وفي كل مكان.

وأرى أن حالة إرنست ليساور lissauer، هي الحالة الأكثر نموذجية وإثارة لتلك النشوة الصادقة التي سرعان ما تحولت إلى نشوة تافهة. كنت أعرفه حق المعرفة. لقد كتب قصائد قصيرة وهشة وحادة، وكان ألطف شخص يمكن تصوره. وحتى في هذا

اليوم، أتذكر كيف اضطررت إلى عض شفتيّ لأخفي ابتسامتي عندما زارني أول مرة. فمن خلال قراءة أشعاره الألمانية القوية البالغة الإيجاز، تصورته شاباً نحيلاً مهزولاً. وبدلاً من ذلك، دلف إلى غرفتي رجل ضئيل مدوّر، وجهه الطلق يعلوه ذقن مضاعف مرتين، يفيض زهواً ونشاطاً، ويتلعثم من العجلة، وقد استحوذ عليه الشعر إلى حد لا يمنعه معه شيء من إلقائه، ومعاودة إلقائه مرة بعد أخرى. ولكن رغم كل الأشياء المضحكة التي فعلها، ما تمالكت أن أجيبه لأنه كان كريماً وأنيساً وصادقاً، وشديد التعلق بفنه.

كان ابن أسرة ألمانية ثرية، وقد تعلم في ثانوية فريدريك فيلهلم في برلين، وربما كان أكثر من عرفتهم من اليهود بروسيةً، أو أكثرهم اندماجاً في المجتمع البروسي. فهو لم يتكلم لغة أخرى، ولم يسافر قط خارج ألمانيا. كانت ألمانيا عالمه، وكلما كان الشيء أكثر ألمانية زادت مسرّته به. كان يورك، ولوثر، وشتاين أبطاله، وحرب التحرير الألمانية موضوعه المفضل، وباخ إلهه الموسيقي - كان يعزف موسيقاه عزفاً جميلاً على الرغم من أصابعه الصغيرة والقصيرة والثخينة والإسفنجية. لا أحد كان أكثر اطلاعاً منه على الشعر الألماني، ولا أكثر افتتاناً باللغة الألمانية، وشأن العديد من اليهود الذين انتسبوا إلى الثقافة الألمانية منذ عهد قريب، كان أكثر إيماناً بألمانيا من أكثر الألمان إخلاصاً لها.

ولما اندلعت الحرب، سارع إلى الثكنة للتطوع. وأستطيع أن أتخيل ضحكات الرقباء والعرفاء حين ارتقى الشخص السمين الدرج لاهثاً. وسرعان ما رُفض طلبه، وشعر ليساور باليأس، ولذلك أراد أن يخدم ألمانيا بالشعر كالآخرين. إن كل ما نشرته الصحف، وما صدر عن الجيش الألماني من بيانات، قد كان في نظره حقيقة لا يرقى إليها الشك. فبلده ألمانيا قد هُوجم، وأسوأ مجرم - كما قال فيلهلم ستراس - كان الخائن السيد إدوارد جري، وزير الخارجية البريطاني. وهذا الشعور بأن بريطانيا هي العدو الأكبر لألمانيا، وهي مسؤولة عن الحرب، قد وجد تعبيره في قصيدته «ترنيمة الكراهية»، وهي قصيدة - لا توجد نسخة منها أمامي - ترفع مقاطعها القصيرة والمتينة والمؤثرة كراهية إنكلترا إلى قَسم أبدي بألا تُغتقر لها «جريمتها». ولم يلبث أن تبيّن على نحو محتوم كم كان سهلاً إثارة الكراهية (هذا اليهودي الأعمى السمين الضئيل

قد استبق مثال هتلر). انفجرت القصيدة مثل قنبلة في مستودع ذخيرة. وربما لم تلقَ قصيدة ألمانية أخرى، ولا حتى قصيدة «ترصّد على الراين» رواجاً سريعاً مثل «ترنيمة الكراهية» السيئة الذكر هذه. اغتبط الإمبراطور، ومنح ليساور وسام النسر الأحمر، وأعيد طبع القصيدة في كل الصحف، وقرأها المعلمون للأولاد في المدارس، والضباط للجنود، حتى حفظ كل واحد ابتهال الكراهية عن ظهر قلب. وكأن ذلك لم يكن كافياً، فلُحّنت القصيدة القصيرة، وبعد أن عُدّلت لتلائم الكورس، غُنّيت في المسارح، فلم يبقَ شخص واحد من سبعين مليون ألماني لم يعرف «ترنيمة الكراهية» من أولها إلى آخرها، وما لبث أن عرفها - لنقل: باغتباط أقل - العالم كله. وبين ليلة وضحاها، أحرز ليساور شهرة لم ينلها أي شاعر في تلك الحرب - ولكنها شهرة قُدّر لها أن تحرقه مثل قميص نيسوس Nessus. فما أن انتهت الحرب، وسعى التجار إلى استئناف التجارة، والساسة إلى التفاهم المتبادل، حتى فُعل كل شيء للتنصل من القصيدة التي طالبت بالعداء الدائم لبريطانيا. وابتغاء التخلص من اللوم، شُهّر بالمسكين «ليساور الكراهية» باعتباره المذنب الوحيد في هذا الاهتياج المجنون للكراهية، والذي شارك فيه الجميع في الحقيقة، من الأعلى إلى الأسفل في عام ١٩١٤. وكل من احتفى به عام ١٩١٤، صدّه بلا مواربة عام ١٩١٦. توقفت الصحف عن نشر قصائده، وحين كان يظهر بين زملائه كان يخيّم صمت ملحوظ. وأخيراً طرده هتلر من ألمانيا التي كان متعلقاً بها تعلقاً أصاب شغاف قلبه، ليموت منسياً، ويكون ضحية محزنة لقصيدة لم ترتفع به عالياً إلا لتهوي به أسفل سافلين.

كان الآخرون مثل ليساور تماماً. كانت مشاعرهم صادقة، وظنّ الشعراء والأساتذة، وطنيو ذلك الزمن المباغتون، أن أفعالهم صادقة. وأنا لا أنكر ذلك. ولكن لم يمضِ وقت طويل حتى اتضح هول الكارثة التي سببتها مدائح الحرب، وعربدات الكراهية تلك. كانت كل الأمم المتحاربة في حالة انفعال مفرط في عام ١٩١٤، كانت أسوأ الإشاعات تتحول فوراً إلى حقيقة، وأسخف فضيحة تلقى التصديق. ففي ألمانيا أقسم عشرات الأشخاص أنهم قد شاهدوا بأعينهم شاحنات محملة بالذهب ماضية من فرنسا إلى روسيا قبل وقت قليل من اندلاع الحرب. وكما يحدث عادة في اليوم الثالث والرابع من

كل حرب، امتلأت الصحف حكاياتٍ عن عيون مقلوعة، وأيدٍ مبتورة. وأولئك الذين نشروا مثل هذه الأكاذيب، لم يعلموا أن اتهام العدو بكل ما يمكن من الأعمال الوحشية، إنما هو من أسلحة الحرب شأن الذخيرة والطائرات، وأنه يُستخرج من المستودع عند بداية كل حرب. فالحرب لا تجيز لنفسها بأن تتساوى مع العقل، والاستقامة. فهي تحتاج إلى عواطف محفّزة، وحماسة من أجل قضيتها، وإلى كراهية من أجل أعدائها.

ومن طبيعة الإنسان ألا تدوم العواطف العميقة دواماً لا نهاية له، سواء في الفرد، أو في الجماعة، وهذه حقيقة تعرفها كل المنظمات العسكرية. لذلك، فهي تحتاج إلى تحفيز مصطنع، إلى «تنشيط» الانفعال، وهذه الإثارة المتواصلة لابد أن يؤديها المثقفون، والشعراء، والكتاب، والصحفيون، متوافقين في ذلك مع الأخلاق، أم متعارضين معها، صادقين مع أنفسهم، أم منسجمين مع مألوف حرفتهم. عليهم قرع طبول الكراهية، وهم يقرعونها حتى تطنّ آذان المحايدين، وترتعش قلوبهم. لقد خدموا دعاية الحرب طائعين في ألمانيا وفرنسا وإيطاليا وروسيا، وبالتالي ضلّلوا الناس، وأثاروا ضغائنهم، بدلاً من مناوئة تلك الدعاية.

كانت العواقب وخيمة. وبما أن الدعاية لم تكن قد ابتذُلت بعد آنذاك، فإن الأمم كانت تصدق كل ما كانت تراه على الرغم من آلاف حالات التجرد من الأوهام. وهكذا تحولت الحماسة النقيّة الجميلة المضحية للأيام الأولى إلى حفل عربدة لأسوأ الدوافع وأسخفها. ففي فيينا وبرلين، «حارب» المرء فرنسا وإنكلترا في هذا الشارع وذاك الشارع، وهذه حرب هيّنة بالتأكيد. فأزيلت علامات السفن الفرنسية والإنكليزية، وحتى دير Zu den Englischen Fraulein كان عليه أن يبدّل اسمه لأن الجمهور كان مثاراً، غير دارٍ أن لفظة englische تشير إلى الملائكة لا إلى الأنجلو - سكسون. والتجار ذوو الوقار طبعوا أو ألصقوا على رسائلهم Gott Strafe England (عاقب الله الإنكليز)، وسيدات المجتمع أقسمن (هكذا كُتب في الصحف) ألا يتكلمن كلمة فرنسية واحدة. وحُرم شكسبير من المسرح الألماني، وموزارت، وفاجنر من قاعات الموسيقا الفرنسية والإنكليزية، وأعلن الأساتذة الألمان أن دانتي كان جرمانياً، والأساتذة الفرنسيون أعلنوا أن بيتهوفن كان بلجيكياً، لقد صُودرت الثقافة بلا تردد

من البلدان المعادية مثل الحبوب والمواد الخام. لم يكن كافياً أن يقتل المواطنون المحبون للسلم بعضهم بعضاً على الجبهة كل يوم. وفي مناطق النفوذ كان هناك انتقاص من عظماء البلدان المعادية للراحلين، وافتراء عليهم، وتشهير بهم، الراحلين الراقدين في قبورهم منذ قرون. وازداد الاضطراب الذهني سخفاً. فالطبّاخة التي لم تخرج من المدينة قط، ولم تنظر إلى خارطة قط منذ أيام المدرسة، كان تعتقد أن النمسا لا يمكن أن تبقى بلا سانشاك (قرية صغيرة على حدود البوسنة). والسائقون تحاجوا في الشوارع حول التعويضات التي ستُعرض على فرنسا، هل ستكون خمسين بليوناً أم مئة بليون؟ وهم لا يدرون كم هو البليون. لقد وقعت كل المدن. وكل جماعة، ضحية هذا الاهتياج الرهيب للكراهية. وعظ الواعظون من على منابرهم، والديمقراطيون الاشتراكيون الذين كانوا قبل شهر قد وصفوا النزعة العسكرية بأنها أعظم جريمة، ربما علا صوتهم أكثر من صوت الآخرين حتى لا يصنّفون مع «الذين لا وطن لهم»، على قول الإمبراطور. لقد كانت حرب الجيل غير المتشكك، وكان الخطر الأعظم هو إيمان الأمم الراسخ بالعدالة الوحيدة الجانب لقضيتها.

وسرعان ما أصبح مستحيلاً أن تُجري حديثاً معقولاً مع أي واحد في الأسابيع الأولى من حرب ١٩١٤. لقد أسكرت رائحة الدماء أكثرهم مسالمة، وأكرمهم طبعاً. والأصدقاء الذين اعتبرتهم ذوي فردية محددة، وحتى فلاسفة فوضويين، تحوّلوا بين ليلة وضحاها إلى وطنيين متعصبين، ومن وطنيين إلى منهومين بالإلحاق. كانت محادثة تنتهي بعبارة سخيفة مثل: «من لا يكره لا يحب»، أو بتجريم فظ. والرفاق الذين لم أتنازع معهم مدة طويلة، اتهموني اتهاماً قاسياً بأنني لم أعد نمساوياً. لِمَ لم أنتقل إلى فرنسا أو بلجيكا؟ ثم إنهم أشاروا إشارة محذرة إلى أن اعتبار الحرب جريمة يجب تنبيه السلطات له، لأن الانهزاميين ـ لقد نُحتت تلك الكلمة الخبيثة في فرنسا ـ كانوا أسوأ خونة للوطن.

ولم يبقَ إلا الانقباض، والتزام الصمت، وترك الآخرين يهذون ويتبجحون. وهذا لم يكن بالأمر الهيّن، وذلك لأن الوحدة حتى في المنفى ـ وهذه التجربة عشتها بالكامل ـ أصعب منها في الوطن. لقد ابتعدت عن أصدقائي في فيينا، وذلك الوقت لم يكن

وقتَ البحث عن أصدقاء جدد. وريلكه وحده هو الذي كنت أتحث معه أحياناً أحاديث فيها تفاهم حميم. وكان قد أصبح ممكناً ضمّه هو أيضاً إلى أرشيف الحرب، غير أن حساسيته المفرطة كان من شأنها أن تجعله جندياً لا يطاق، بما أن القذارة، والروائح الكريهة، والضجيج كانت تسبب له غثياناً في واقع الأمر. وإني لأضحك كلما تذكرته في زي الجيش. وذات يوم طَرق بابي. كان يقف في الخارج جندي وجل. ارتعت لحظة: ريلكه، رايز ماريا ريلكه متنكر في ملابس العسكر! نظر إليّ نظرة بالغة الحرج. كانت ياقته مشدودة للغاية، وقد أربكه اضطراره إلى إلقاء التحية على كل ضابط، وضرب كعبي حذائه أحدهما بالآخر. وبما أن دافعه إلى الكمال كان قوياً، فقد رغب في تأدية حتى هذه القاعدة التافهة على نحو يُحتذى به قدر الإمكان، ولذلك ألفى نفسه في اضطراب متواصل. قال لي بصوته الخفيض: «لقد كرهت هذا اللباس العسكري منذ خدمتي في الأكاديمية العسكرية. واعتقدت أنني نجوت منه مرة وإلى الأبد. وها أنذا ألبسه وأنا أقارب الأربعين!» ومن حسن حظه أنه وجد من يساعده ويحميه، وما لبث أن صُرف من الخدمة بعد أن أُجرى له فحص طبي. جاء إلى مسكني مرة أخرى، ولكن ليودعني هذه المرة ـ في ملابسه المدنية ثانية ـ وكاد يبدو لي كأن النسيم قد حمله إليّ، فحركاته كانت هادئة للغاية. أراد أن يشكر لي بادرتي إلى إنقاذ مكتبته التي صودرت في باريس، بالتعاون مع رولان. كانت تلك هي المرة الأولى التي لم يبدُ فيها شاباً، وكأنما فكرة هذا الهول كله قد أضنته. قال: «الخارج، لو يستطيع المرء السفر إلى الخارج! الحرب سجن على الدوام». ثم إنه غادرني، فعدت مرة أخرى إلى وحدتي.

بعد بضعة أسابيع، قررت الفرار من هذا الذُهان الجماعي الخطر. انتقلت إلى ضاحية ريفية للشروع في حربي الخاصة على الحرب، والنضال ضد خيانة العاطفة الجماعية السائدة للعقل.

الفصل العاشر
النضال من أجل الإخاء الفكري

تبيّن لي أن العزلة في ذاتها عديمة الجدوى، فالجو قد بقي خانقاً، لذلك أدركت أن الامتناع عن المساهمة في ذلك الغض الشديد من شأن الخصم لم يكن مقنعاً. فرغم كل شيء، فالكاتب الذي وُهب القدرة على التعبير عليه أن يُعبِّر عما يقتنع به ما أتاحت له الرقابة ذلك. وهذا ما حاولتُ القيام به. كتبت مقالة عنوانها «إلى الأصدقاء في الخارج»، أعلنت فيها للأصدقاء في البلدان الأخرى إعلاناً باين جعجعات الكراهية السائدة مباينةً مباشرة وصريحة، بأني سأبقى وفياً للعلاقات رغم أنها متعذرة علينا الآن، وعندما تسنح أول فرصة، ربما نعاود التعاون من أجل إعادة بناء الثقافة الأوروبية. وبعثت هذه الرسالة إلى صحيفة Berliner Tageblatt الواسعة الانتشار، وما أدهشني هو أنها لم تتردد في نشرها كاملة باستثناء عبارة «مهما يكن المنتصر» الذي حذفها الرقيب، لأن أدنى شك في انتصار ألمانيا في الحرب لم يكن مسموحاً به في ذلك الوقت. ولكن حتى من دون هذا التحديد، فإن المقالة جلبت لي عدداً من الرسائل الساخطة من الوطنيين المتطرفين. لم يفهموا كيف يمكن أن يكون للإنسان أمر مشترك مع أولئك الخصوم الأوغاد في مثل هذا الوقت. لم يؤْذني ذلك كثيراً، فطوال حياتي لم أتقصد قط تحويل الآخرين إلى آرائي. كان يكفيني أن يُسمح لي بالتعبير عنها، وأن أعبّر عنها علانية. وحين كدت أنسى المقالة، تلقيت بعد أسبوعين رسالة عليها طابع سويسري، وعبارة «أجازتها الرقابة». ومن الكتابة اليدوية المألوفة، علمت أنها جاءتني من رومان رولان. لابد أنه قد قرأ مقالتي، لأنه كتب: «لا، لن أتخلّى عن أصدقائي.» وشعرت فوراً بأن تلك السطور القليلة كانت ترمي إلى اختبار إمكان التراسل مع صديق نمساوي في زمن الحرب. وسرعان ما رددت إليه جواباً. ومن ذلك الوقت فصاعداً

تكاتبنا بانتظام، واستمر تراسلنا أكثر من خمس وعشرين عاماً، أي حتى الحرب الثانية ـ الأشرس من الأولى ـ التي مزّقت كل الروابط بين الأمم.

كانت هذه الرسالة إحدى ذرا السعادة في حياتي، فلقد جاءتني مثل حمامة بيضاء من فُلْك الوحوش الضارية. لم أعد أشعر بالوحدة، إذ ارتبطت مرة أخرى بمن يشاركني معتقداتي. شعرت بأن قوة رومان الروحية العظيمة قد قوّتني. وكنت أعرف كيف كان رولان يثبت إنسانيته وراء الحدود على نحو رائع. لقد وجد السبيل الوحيد الصحيح الذي ينبغي للكاتب أن يسلكه في مثل تلك الأوقات، وهي ألا يساهم في التدمير والجريمة، بل أن ينشط في أعمال المساعدة والإنسانية ـ محتذياً حذو والت ويتمان العظيم الذي عمل ممرضاً في الحرب الأهلية. وبما أنه كان مقيماً في سويسرا معفيّاً من أي واجب عسكري بسبب صحته السيئة، فقد سارع إلى عرض خدماته للصليب الأحمر في جنيف، حيث اتفق أن كان عند اندلاع الحرب، وعمل هناك في الغرف المكتظة للغاية يوماً بعد يوم عملاً رائعاً حاولت في ما بعد أن أشكره عليه في مقالة عنوانها «قلب أوروبا». وبعد المعارك الضارية في الأسابيع الأولى تقطعت الصلات كلها، ولم يعرف الناس في كل البلدان إن كان أبناؤهم، أو إخوتهم، أو آباؤهم قد سقطوا قتلى، أو فُقدوا، أو أُسروا، ولم يعرفوا أين يسألون عنهم، لأنهم لم يتوقعوا أي جواب من «الأعداء». وتبنّى الصليب الأحمر مهمة التخفيف من الشكوك المعذّبة في مصير الأعزاء ـ الداهية الدهياء في وسط الرعب والوحشية ـ بتوجيه رسائل من أسرى الحرب إلى أهاليهم في البلدان المقابلة. ومع ذلك، فإن المنظمة التي كانت تعمل منذ عقود من الزمن لم تكن قادرة على خدمة هذا العدد الكبير من الناس، لذلك تعيّن عليها زيادة عدد المتطوعين كل يوم، وكل ساعة، لأن كل ساعة من الترقب كانت تبدو للمعنيين أبدية. وعند نهاية كانون الأول ١٩١٤، كانت تصل ثلاثون ألف رسالة كل يوم، ويتجمع ألف ومئتا شخص في متحف راث Rath الصغير في جنيف للرد، والإشراف على البريد اليومي، وبين هؤلاء عمل الشاعر الإنساني رومان رولان متخلياً عن أي عمل خاص.

ولكنه لم ينسَ واجبه الآخر، واجب الفنان في التعبير عن آرائه حتى في مواجهة بلاده، والعالم المشارك في الحرب. وفي خريف ١٩١٤، عندما كان معظم الكتاب

يتنابذون، ويرغون ويزبدون، كتب رولان ذلك الاعتراف الشهير «فوق المعمعة» الذي شنّ فيه حملة على الكراهية الفكرية بين الأمم، وطالب الفنانين جميعاً بأن يقفوا إلى جانب العدالة والإنسانية حتى في أثناء الحرب. أيقظت تلك المقالة أصحاب الرأي، كما لم تفعل أي مقالة في ذلك الوقت، ونشأ عنها سجال أدبي خاص بها وحدها.

ها هو ذا الفرق بين الحرب العالمية الأولى والثانية، وهو أن الكلمة في الأولى كانت ما تزال مؤثرة. لم تكن قد قتلها بعد مؤسسات الأكاذيب و «الدعاية»، ولم يكن الناس قد كفّوا عن احترام الكلمة المكتوبة، والاهتمام بها. أما في عام ١٩٣٩، فلم يكن لبيان أي كاتب أدنى تأثير حسناً كان أم سيئاً، وحتى هذا الوقت لم يحرك أعماق الناس كتاب، أو كراسة، أو مقالة، أو قصيدة. أما في عام ١٩١٤، فقد تحوّلت إلى حدث هام قصيدة مؤلفة من ثمانية وأربعين شطراً مثل قصيدة «ترنيمة الكراهية» للشاعر ليساور، أو بيان سخيف مثل بيان المثقفين الألمان الثلاثة والتسعين، أو مقالة عدد صفحاتها ثمانٍ مثل مقالة رولان «فوق المعمعة»، أو رواية مثل رواية باربوس «الحريق». إن ضمير العالم لم يكن قد أصبح بعد مرهقاً أو ناصل اللون كما هو اليوم. كانت ردة فعله شديدة على كل أكذوبة واضحة، وكل انتهاك للقانون الدولي، ومبادئ الإنسانية، وشدتها ناجمة عن قوة قرون الإيمان كلها. وإن انتهاكاً من مثل غزو ألمانيا لبلجيكا المحايدة، والذي لم يكن يتذمر منه أحد تذمراً جاداً، بما أن هتلر قد رفع الكذب إلى رتبة الحقيقة، والعداء للإنسانية إلى رتبة القانون، إن مثل هذا الانتهاك كان من شأنه أن يثير العالم آنذاك من أدناه إلى أقصاه. لقد كان إطلاق النار على إديث كافل، وتدمير لوسيتانيا بالطوربيد أكثر إضراراً بألمانيا من خسارة معركة، ومردّ ذلك إلى السخط الذي انفجر في كل أنحاء العالم. وكذلك لم يذهب بأي حال من الأحوال ارتفاع صوت الشاعر والكاتب في ذلك الوقت الذي لم تكن الآذان والأرواح قد غمرتها بعد ثرثرات الراديو المتواصلة، بل على العكس، فإن التظاهرة التلقائية للشاعر العظيم كانت أكثر تأثيراً ألف مرة من كل خطب رجال الدولة المعروفين بالتكيف في التكتيك والسياسة مع اللحظة الراهنة، وبالإفصاح عن أنصاف الحقائق في أحسن الأحوال. إن الجيل الذي خاب أمله في ما بعد كان راسخ الاعتقاد أن الشاعر هو الضامن الأسمى للعواطف الخالصة. وبما أن القادة العسكريين وموظفي الدولة كانوا مدركين سلطة

الشاعر هذه، فقد سعوا إلى كسب خدمات الرجال ذوي المكانة الأخلاقية والفكرية الرفيعة من أجل أغراضهم. كانوا مطلوبين للإعلان والبرهنة والتأكيد أن الجور كله، والشر كله، متكدسين في الجانب الآخر، وأن الحقيقة كلها، والاستقامة كلها، كانتا في جانب أمتهم. لم يستطيعوا أن يحملوا رولان على ذلك. فهو لم يرَ واجبه أن يزيد جو الكراهية الخانق الثقيل الوطأة حدةً، بل على العكس، أن ينقّيه.

ومن يقرأ اليوم مقالة «فوق المعمعة» الشهيرة ذات الصفحات العشر، فإنه لن يفهم تأثيرها الهائل على الأرجح. والقراءة الهادئة تبيّن أن ما تبنّاه رولان لا يتضمن إلا أوضح الحقائق الواضحة. ولكن تلك الكلمات قد كُتبت في زمن الجنرن الجماعي الذي يصعب استحضاره اليوم. فلما نُشرت المقالة، صاح الوطنيون الفرنسيون المتطرفون كمن التقط بالخطأ قطعة محمّاة. وما لبث رولان أن قاطعه أقدم أصدقائه، ولم يعد يجرؤ باعة الكتب على عرض «جان كريستوف»، وأخذت السلطات العسكرية المحتاجة إلى الكراهية بغية تحفيز الجنود تفكّر في اتخاذ إجراءات ضده. وتوالت الكراريس مبرهنة «أن ما يُقدّم للحرب على الإنسانية يُنهب من الأوطان». وكالعادة ثبت أن صيحة قد بلغت هدفها تماماً، ولم يعد ممكناً أن يتوقف الجدال حول موقف المثقفين في الحرب، وبالتالي طُرحت المسألة أمام كل واحد على نحو لا مفر منه.

إن رسائل رولان في تلك السنوات ليست الآن في حوزتي. وفي هذه المذكرات لا آسف على شيء أكثر من أسفي على ذلك. والتفكير في أنها قد أُتلفت، أو فُقدت في هذا الطوفان الجديد يبهظني كمسؤولية ثقيلة. فكما أحببت كل أعماله، أعتقد أنه قد يأتي الوقت الذي تُعدّ فيه هذه الرسائل بين أجمل ما قدّمه قلبه الكبير، وفكره العميق، وأكثره إنسانية. فمن اليأس الذي لا حد له للروح المتعاطفة، وبكل قوة المرارة العاجزة، كُتبت هذه الرسائل إلى صديق وراء الحدود، ومن وجهة النظر الرسمية «عدو»، لذلك فإنها قد تكون أقوى وثائق ذلك الزمن الأخلاقية تأثيراً، ذلك الزمن الذي كان فيه الفهم تجلّياً هائلاً للقوة، والتمسك بالمعتقدات يقتضي شجاعة بالغة. وسرعان ما تبلورت مراسلاتنا الخاصة في مشروع محدد، إذ اقترح رولان أن نسعى إلى دعوة أعلام الثقافة في كل أمه إلى مؤتمر في سويسرا لاتخاذ موقف أكثر توحداً وتسامياً، وربما من أجل توجيه نداء مشترك للعالم من أجل الصلح. كان هو

مستعداً لدعوة المثقفين الفرنسيين وغيرهم من مثقفي البلدان الأخرى، وكان عليّ أن أدعو مثقفي النمسا وألمانيا الذي لم يعرضوا أنفسهم للشبهة بالانخراط في دعاية الكراهية. وشرعت في العمل في الحال. كان جيرهارت هوبتمان الشاعر الأهم والأكثر تمثيلاً في ألمانيا آنذاك. ولكي أهوّن عليه القبول أو الرفض، تلافيت مقاربته مباشرة. لذلك كتبت إلى صديقنا المشترك فولتر راثينو طالباً منه أن يبحث الأمر مع هوبتمان سراً. ورفض راثينو قائلاً: إن الوقت غير ناضج للتفاهم الفكري. ولم أعلم قط إن كان رفضه قد علم به هوبتمان أم لا. وهكذا تلاشت الخطة، لأن توماس مان كان يومئذٍ في المعسكر الآخر، وكان قد عبّر تواً عن وجهة النظر الألمانية القانونية في مقالة عن فريدريك الكبير. وريلكه الذي كنت أعرف أنه مؤيد لنا، رفض المساهمة في أي عمل عام ومشترك من حيث المبدأ. ودهميل، الاشتراكي السابق، وقّع رسائله باعتزاز، ووطنية صبيانية باسم «الملازم الأول دهميل»، كما أن الأحاديث الخاصة أقنعتني بأننا لا نستطيع الاعتماد على هوفمنزثال أو جاكوب فاسرمان. لم يكن في ألمانيا من يعقد عليه الأمل، ولم يحالف النجاح رولان في فرنسا كثيراً. كان الوقت مازال مبكراً في عامي ١٩١٤و١٩١٥، والحرب بالنسبة إلى الناس في المناطق الخلفية مازالت بعيدة، ولذلك وقفنا وحدنا.

كنا وحدنا، ولكن ليس تماماً. لقد حققنا شيئاً من خلال تبادل الرسائل ـ استعراض عشرات الثقاة الذين ينهجون نهجنا في التفكير في البلدان المتحاربة أو المحايدة. استطعنا أن نلفت انتباه بعضنا بعضاً إلى الكتب، والمقالات، والكراريس هنا وهناك، فتأكد تبلور فكرةٍ استطاعت عناصر جديدة من مشايعتها بتردد أولاً، ولكن بقوة أكثر دائماً بسبب ضغط الأوقات المتعاظم. وهذا الشعور بأنني لا أتحرك في فراغ تام. شجعني بين الحين والحين على كتابة مقالات من شأنها استدعاء أجوبة وردود أفعال من الأشخاص المعزولين المتوارين الذين تعاطفوا معنا. ورغم كل شيء، فإن الصحف الألمانية والنمساوية كانت في متناول يدي، وهذا أكّد جواً مواتياً للنشاط، والأمر الغريب هو انعدام خطر معارضة السلطات من حيث المبدأ، لأني ابتعدت عن معالجة السياسات السائدة. كانت الروح الليبرالية، والاحترام لكل ما هو أدبي، مازالا قويين، وحين أعيد قراءة المقالات التي كنت آنذاك قادراً على تهريبها للجمهور لا يسعني إلا

أن أحترم كرم السلطات العسكرية النمساوية. كان متاحاً لي في أثناء الحرب العالمية الأولى أن أطري بيرثا فون ستاتنر، مؤسس حركة السلم الذي نعتت الحرب بأنها جريمة الجرائم، وأن أكتب بالتفصيل عن رواية باربوس «الحريق» في صحيفة نمساوية. ومن الواضح أننا اضطررنا في وقت الحرب إلى انتهاج طريقة معينة في نشر آرائنا غير المناسبة للوقت بين الجمهور العام. فلكي أصور أهوال الحرب للجمهور غير المكترث في المناطق البعيدة عنها، كنت محتاجاً بالطبع إلى الإسهاب في وصف عذابات جندي فرنسي في مقالتي عن رواية «الحريق»، غير أن مئات الرسائل من الجبهة النمساوية كانت تثبت كم كان واضحاً فهم شعبنا لقدره في ذلك الوصف. وبغية التعبير عن آرائنا، كنا نلجأ إلى مهاجمة بعضنا بعضاً في الظاهر. فعلى سبيل المثال، ناقش أحد أصدقائي الفرنسيين مقالي «إلى الأصدقاء في الخارج» في Mercure de France، وبانتقاده الذي نشر فيه كل كلمة من المقال، أفلح في تهريبه إلى فرنسا حيث تمكن أن يقرأه كل واحد، وهذا ما رمى إليه طبعاً. وعلى هذا المنوال، كانت ترتفع إشارات ضوئية لم تكن إلا دليلاً على التعرف المتبادل. وفي ما بعد بيّنت لي حادثة صغيرة كم كان واضحاً فهم هذه الإشارات من الذين وُجّهت إليهم. ولما أعلنت إيطاليا الحرب على حليفتها السابقة، النمسا في أيار ١٩١٥ ، أعقب ذلك موجة من الكراهية. أُهين كل ما هو إيطالي، فجرى إلحاق دانتي (أي أعلن رسمياً أن الشاعر الإيطالي الوحيد قد كان من أصل جرماني)، مثلما أعلن فجأة في فرنسا أن بيتهوفن بلجيكي. واتفق أن نُشرت حينئذ مذكرات شاب إيطالي في عصر النهضة اسمه كارلو بوبريو، وتضمنت وصف زيارة إلى غوته. ومن أجل أن أوضّح في غمرة هذه التجليات للكراهية أن الإيطاليين قد كانوا دائماً على صلة بالثقافة الألمانية، كتبت مقالة موجهة بعض الشيء عنوانها «زيارات إيطالية إلى غوته»، وبما أن الكتاب كتب مقدمته بنيديتو كروتشي فقد اغتنمت الفرصة للتعبير عن تقديري العالي له. والإعراب عن الإعجاب بإيطالي في النمسا حين كان من المفترض ألا يُقدَّر أي كاتب أو عالِم من المعسكر المعادي، كان ينطوي على شيء آخر أدركه الناس وراء الحدود. وكروتشي الذي كان حينئذ في الحكومة الإيطالية، روى لي في ما بعد كيف أن أحد موظفي الوزارة الذي لم يكن يحسن قراءة الألمانية قد أخبره بشيء من الفزع أن أهم صحيفة في النمسا قد هاجمته

(لم يستطع أن يتصور إشارة إلى الوزير إلا أنها تنطوي على عداء). طلب كروتشي نسخة من صحيفة Neue Freie Presse، وأصيب بالدهشة أول وهلة عندما قرأ عبارات إعجاب بدلاً مما أُخبر به، فطابت نفسه بذلك.

إن المبالغة في تقدير هذه المقالات الصغيرة المعزولة ليست هدفاً لي على الإطلاق. فغنيّ عن القول: إنها لم تؤثر أقل تأثيراً في مجرى الأحداث. غير أنها ساعدتنا، كما ساعدت كثيراً من القراء المجهولين. لقد خففت من العزلة الرهيبة، واليأس الروحي، اللذين وجد نفسه فيهما كل إنساني حقاً في القرن العشرين ـ كما يجد نفسه اليوم، بعد خمس وعشرين سنة، عاجزاً أمام قوة طاغية، وما أخشاه أن تكون أكثر من طاغية. كنت مدركاً تماماً في ذلك الوقت أنني لا أستطيع أن ألقي عن كاهلي العبء بهذه الاحتجاجات والوسائل الضئيلة، فأخذت أطوّر في بطء خطة عمل لا تمكنني من التعبير عن أفكار معينة فقط، بل عن موقفي المدروس من الزمن والسباق، والكارثة والحرب.

ولكن، من أجل وصف الحرب في تأليف شعري، كنت أحتاج إلى أهم شيء، وهو رؤيتها. لقد مكثت في مكتب نحو عام، وهناك، في الأفق المحجوب، كانت تجري أحداث الحرب الهائلة. كانت قد أتيحت لي فرص للذهاب إلى الجبهة، وعرضت عليّ صحف مهمة مراسل حربي عدة مرات. إلا أن أي وصف كان ملزماً بأن يصور الحرب بالمعنى الوطني الإيجابي حصراً، وكنت قد قطعت عهداً على نفسي ـ وهو عهد مازلت محافظاً عليه في عام ١٩٤١ـ ألا أكتب كلمة واحدة تطري الحرب، أو تذمّ أمة أخرى. ولكن فرصة سنحت بالمصادفة. اخترقت قوات النمسا وألمانيا الخطوط الروسية في تارنوف في ربيع ١٩١٥ ، واجتاحت غاليشيا وبولندا في هجوم مركز واحد. وفي ذلك الوقت رغبت دائرة السجلات الحربية في الحصول على البيانات والإعلان في المنطقة النمساوية المحتلة قبل أن تُمزّق، أو تُتلف. والكولونيل الذي اتفق أن كان يعرف براعة الجامع التي أتصف بها، سألني إن كنت أرغب في القيام بالمهمة. وبالطبع قبلت في الحال، فأعطيت إذناً للمرور يجيز لي السفر في قطار عسكري، والتحرك حيث شئت من غير أن يُعيّن لي فرقة محددة، ومن غير أن يتعين عليّ أن أكتب تقارير إلى مكتب خاص أو إلى سلطة عليا. ونجم عن ذلك عدد من أغرب المصادفات، فأنا لم أكن

ضابطاً، بل مجرد رقيب أول فخري، وأرتدي اللباس العسكري من دون أي شارة خاصة. وكلما قدّمت وثيقتي الملغزة، استدعت احتراماً خاصاً، لأن الضباط في الجبهة، والموظفين، قد رجحوا أنني ضابط متنكر من ضباط الأركان العامة، وأن مهمة سرية قد أُوكلت إليّ. وبما أنني تجنبت تناول الطعام مع الضباط، ومكثت في الفنادق، فقد تمتعت بامتياز آخر وهو أن أكون خارج الآلة الكبيرة، وأن أرى ما شئت أن أراه من دون «توجيه» رسمي.

لم تثقلني كثيراً مهمتي المحددة، مهمة جمع البيانات. ففي مدن غاليشيا: تارنوف، ودروهوبكز، ولمبرغ، كنت أجد بعض اليهود المعروفين باسم الوكلاء، وكانت مهنتهم تزويد المرء بما شاء. كان يكفي أن أطلب من أحد أولئك الخبراء أن يحضر لي بيانات الاحتلال الروسي وإعلاناته، حتى يركض مثل ابن عرس، وينقل رغبتي على نحو خفيّ إلى عشرات الوكلاء الأدنين، وفي غضون ثلاث ساعات، ومن دون أن أخطو أنا خطوة واحدة، كانت تُجمع لي كل المواد على أكمل وجه ممكن تخيّله. وهذه المنظمة المثالية قد أتاحت لي الوقت لكي أرى كثيراً، وقد رأيت كثيراً. وأهم ما رأيته هو البؤس الرهيب للسكان المدنيين الذين ارتسمت على عيونهم ظلال التجربة الرهيبة التي عاشوها. ورأيت بؤس اليهود الذي لا لبس فيه في الجيتوات، حيث يسكن ثمانية أو أثنا عشر منهم في غرفة واحدة على سويّة الأرض، أو في قبو. ورأيت «العدو» أول مرة. وفي تارنوف، قابلت بالمصادفة عملية نقل الأسرى الروس. كانوا جالسين على الأرض داخل ساحة مسيّجة يدخنون ويتحادثون، وقد تولّى حراستهم نحو ثلاثين رجلاً من متطوعي تيرول الذين كانت ثيابهم بالية ممزقة مثل ثياب أسراهم، ولا يجمعهم جامع مع الجنود الذين نرى صورهم في الصحف متأنقين وحليقي الوجوه ومرتدين بزّات قشيبة. ولكن الحراس لم يكن تصرفهم عسكرياً أو صارماً، ولم يظهر الأسرى أي رغبة في الفرار، ولا المتطوعون أظهروا أي ميل إلى الحزم في أداء الواجب. لقد جلسوا مع الأسرى على طريقة الجيران، وابتهج الجميع للغاية بانعدام القدرة على التفاهم. تبادلوا السجائر، وضحك بعضهم على بعض، ورأيت أحد المتطوعين يتناول صور زوجته وأولاده من كتاب قديم متسخ، ويريها لأولئك «الأعداء» الذين تداولوها بينهم سائلين النمساوي بأصابعهم إن كان هذا الولد في الثالثة أم الرابعة. وما تمالكت أن شعرت بأن

هؤلاء الناس البسطاء قد فهموا الحرب فهماً أصح من فهم أساتذة جامعاتنا، وشعرائنا، أي باعتبارها كارثة حلّت بهم، ولا علاقة لهم بها، وأن كل من وقع في هذه المحنة هو على نحو ما أخ. لقد كانت هذه المعرفة عزاء لي في رحلتي عبر المدن المقصوفة، والمتاجر المنهوبة التي رُميت محتوياتها في الشوارع مثل أعضاء محطمة، أو أحشاء منتزعة. ثم إن الحقول المزروعة جيداً بين ساحات الحرب جعلتني آمل أيضاً في أن تختفي آثار الدمار في غضون بضع سنوات. ومن الواضح أنني لم أستطيع في ذلك الوقت أن أتصور أن ذكرى أهوال الحرب ستزول من عقول الناس بالسرعة التي ستزول بها آثار الحرب.

إن أهوال الحرب الفعلية لم أواجهها خلال تلك الأيام الأولى، ولما واجهتها فاقت أسوأ تصوراتي. فبما أن قطارات المسافرين لم تكن موجودة عملياً، فقد كنت أركب عند الاقتضاء عربة مدفعية مكشوفة مقتعداً صندوق ذخيرة، أو إحدى عربات الماشية في قطار حيث نام رجال منهوكون حذاء بعضهم بعضاً، أو فوق بعضهم بعضاً في وسط الأقذار والروائح الكريهة، وبدوا وهم ماضون إلى ذبح الماشية مثل ماشية مذبوحة. ولكن الأسوأ من كل ذلك كان قطارات الإسعاف التي اضطررت إلى استخدامها نحو ثلاث مرات. ما أقل شبهها بالقطارات النظيفة البيضاء الحسنة الإنارة التي أُخذت فيها صور الأرشيدوقات، وسيدات مجتمع فيينا الراقي في زي الممرضات عند بداية الحرب! فما هالني أن أراه هو عربات شحن عادية لا نوافذ لها إلا فتحة ضيقة للتهوية، ولا ضوء في داخلها إلا ضوء مصابيح الزيت الملوثة بالسخام. كانت تنتصب فيها النقالات الخشنة الواحدة تلو الأخرى، وقد استلقى عليها رجال علا أنينهم، وتصبّب عرقهم، وشحب لونهم، وهم يلهثون في جو انتشرت فيه رائحة البراز واليودوفورم. كانت الممرضات تترنحن من التعب الشديد، ولم يكن ليشاهد شيء من أغطية الأسرة البيضاء القشيبة التي في الصور. استلقى الرجال على خشب النقالات القاسي المغطى بالقش، وقد أُلقيت عليهم أسمال ملطخة بالدم، وفي كل عربة كان يوجد رجلان ميتان أو ثلاثة على الأقل بين المحتضرين والمتألمين. تحدثت إلى الطبيب الذي اعترف بأنه طبيب أسنان في قرية هنغارية صغيرة، وأنه لم يمارس الجراحة منذ سنين. كان يائساً، وكان قد أبرق إلى سبعة مراكز من أجل المورفين، ولكن شيئاً منه لم يكن متوافراً، كما

كان يعوزه القطن، والضمادات الجديدة، ومازال يبعد عشرين ساعة عن المشفى في بودابست. طلب مني مساعدته، لأن ناسه كانوا مجهدين للغاية، فحاولت رغم أنني أخرق، ووجدت أنني أستطيع أن أكون ذا فائدة على الأقل في النزول عند كل محطة، وإحضار بضعة أسطال من الماء (ماء قذر آسن مخصص للقاطرات، ومع ذلك كان مجدداً للحيوية)، حتى يمكن غسل الرجال قليلاً، ومسح الدماء التي كانت تقطر باستمرار على أرضية القطار. وبما أن جميع الجنسيات قد أُلقيت في هذا التابوت المتدحرج، فقد زادت معاناة الجنود من بلبلة ألسن بابلية، فلا الطبيب، ولا الممرضات، كانوا يفهمون لغة إقليم روثينيا، أو اللغة الكرواتية. والشخص الوحيد الذي استطاع أن يقدم مساعدة كاهن مسنّ أشيب، وقد اشتكى هو من افتقاره إلى زيت القربان المقدس الأخير، كما اشتكى الطبيب اليائس من افتقاره إلى المورفين. فهو لم يُقِم طقوساً طيلة حياته كلها قدر الطقوس التي أقامها خلال الشهر السابق. ومن هذا الكاهن سمعت الكلمات التي لم أكن لأنساها، والتي نطق بها صوته الغاضب الشديد: «أنا في السابعة والستين، وقد رأيت كثيراً، ولكنني ما كنت لأصدق بأن هذه الجريمة يمكن أن ترتكبها الإنسانية.»

القطار الطبي الذي كنت عائداً فيه وصل إلى بودابست في ساعات الصباح الأولى. وفي الحال ركبت قطاراً إلى الفندق لأنام قليلاً، وكانت حقيبتي هي مقعدي الوحيد فيه. وبما أنني كنت متعباً، فقد نمت حتى الساعة الحادية عشرة، ثم نهضت، وتناولت طعام الفطور. ولم أخطُ إلا بضع خطوات حتى اضطررت إلى فرك ركبتي للتأكد من أنني لم أكن أحلم. كان ذلك اليوم من أيام الصيف الرائعة التي تكون ربيعية صباحاً، وصيفية ظهراً، وبودابست جميلة، وخليّة كما كانت دائماً من قبل. كانت نساؤها يسرن في ملابس بيض متشابكات الأذرع مع ضباط بدوا لي فجأة من جيش مختلف كل الاختلاف عن الجيش الذي شاهدته أمس، وقبل أمس. كانت رائحة اليودوفورم التي عبق بها قطار الإسعاف مازالت في ثيابي وفمي وأنفي عندما رأيت كيف اشترى أولئك الضباط باقات البنفسج، وقدموها للسيدات بكل شهامة، وعندما رأيت سيارات نظيفة يقودها عبر الشوارع رجال نظفاء حليقو الذقون، وهذا كله لم يكن

يبعد إلا نحو تسع ساعات بالقطار السريع عن الجبهة. ولكن بأي حق يمكن أن يحكم المرء على هؤلاء الناس؟ أليس من طبائع الأمور أن يستمتع الأحياء بحياتهم؟ فلأنهم شعروا بأن كل شيء مهدد بالخطر، جمعوا كل ما ينبغي جمعه: الثياب القليلة الفخمة، والساعات الأخيرة الطيبة! ولأنني قد رأيت كم يتصف الإنسان بالهشاشة، وسرعة الزوال، الإنسان الذي يمكن أن تدمّر قطعة من الرصاص حياته بكل ذكرياتها ونشواتها ومعرفتها في جزء من ألف من الثانية، فهمت لماذا احتشد هؤلاء من أجل رؤية الشمس، والإحساس بأنفسهم ودمائهم، وحيواتهم إحساساً ربما يكون أقوى. تصالحت مع ما صدمني في أول الأمر. ولكن النادل الحريص على إرضائي قد أحضر لي في ذلك الوقت صحيفة من صحف فيينا. حاولت أن أقرأها، وعندها فقط امتلأت غيظاً واشمزازاً. كان فيها كل الكلمات المعبرة عن إرادة الغزو التي لا تلين، عن خسائر قواتنا القليلة، وخسائر العدو الهائلة. هنا وثبت إليّ أكذوبة الحرب العارية الشاخصة الوقحة! لا، لا يلام المتنزهون اللامبالون الخليّون، بل أولئك الذين كانت كلماتهم توقد نار الحرب. ونحن أيضاً مذنبون إن لم تفعل شيئاً ضدهم.

لم أتزود بالدافع الصحيح إلا في ذلك الوقت: على المرء أن يناضل ضد الحرب! المادة مستقرة في داخلي. والشروع في العمل لم يكن ينقصه إلا هذا المنظر الأخير الذي أكد فطرتي. لقد تعرفت على العدو الذي ينبغي لي أن أحاربه - البطولة الزائفة التي تفضّل إرسال الآخرين إلى العذاب والموت، وتفاؤلية الأنبياء العديمي الضمير من السياسيين والعسكريين على السواء، والذين يَعِدُون بالنصر، ويطيلون الحرب بوقاحة، وخلفهم الكورس المستأجر، «صانعو الحرب اللفظية»، كما شهّر بهم فيرفل في قصيدته الجميلة. فمن عبّر عن شكه عرقل اهتماماتهم الوطنية، ومن أطلق تحذيراً هُزئ منه كمتشائم، ومن وقف ضد الحرب التي لم يعانوا منها هم أنفسهم، أُتُهم بالخيانة. هكذا كان الأمر على الدوام، الطغمة ذاتها في كل الأزمان كانت تسمّي الحَذِر جباناً، والإنساني ضعيفاً، لكي تستلقي هي في أثناء الكارثة التي استحضرتها بلا تدبر. إنها الطغمة ذاتها على الدوام، الطغمة التي سخرت من كاسندرا في طروادة، ومن إرميا في القدس.وأنا لم أدرك عظمة أمثال هذين الشخصين ومأساتهما كما أدركتها في كل هذه الساعات المتشابهة جداً. ومنذ البداية لم يكن عندي ثقة بالنصر، ولم أكن

متيقناً إلا من أمر واحد، وهو أن النصر، إذا ما أحرز بالتضحيات الجسام، فإنه لا يسوِّغ تلك التضحيات. ولكني انفردت بهذا التحذير بين أصدقائي، واختلاط الأصوات المرتفعة حول النصر قبل الطلقة الأولى، وتقسيم الأسلاب قبل المعركة الأولى، كثيراً ما دفعني إلى التساؤل إن كنت المجنون الوحيد بين أولئك العقلاء، أم كنت الوحيد الذي امتلك الوعي المفزع في وسط نشوتهم. لذلك غدا طبيعياً بالنسبة لي أن أصف حالتي، حالة «الانهزاميين» المأساوية، وصفاً درامياً ـ لقد اختُرعت لفظة «انهزامي» حتى تُظهر المناضلين من أجل التفاهم في مظهر الراغبين في الهزيمة. اخترت رمزاً لي شخصية إرميا، صاحب الإنذارات غير المجدية. لم يكن قصدي كتابة مسرحية «مسالمة»، أو أن أصوغ بالشعر والنثر حقيقة، وهي أن السلام خير من الحرب، بل أن الإنسان الذي يُحتقر في غمرة الحماسة باعتباره ضعيفاً رعديداً، يثبت عند الهزيمة أنه الوحيد القادر لا على تحملها فقط، بل على التحكم فيها أيضاً. ومنذ مسرحيتي الأولى «ثيرسايتيز»، شغلني باستمرار مسألة التفوق الروحي للمغلوب. وكان يغريني دوماً تصوير الصلابة الداخلية التي تحدثها كل أشكال القوة في الإنسان، والخدر الروحي الذي يصيب الشعب كله عند كل انتصار، ومقارنته بالقوة المنشّطة للهزيمة التي تشقّ طريقها عبر الروح شقاً مؤلماً ومثمراً. وفي أثناء الحرب، حين كان الآخرون الظافرون قبل الظفر يثبت بعضهم لبعض حقيقة الانتصار، كنت قد ألقيت نفسي في قاع الكارثة، ورحت أبحث عن مخرج.

ولكني، باختياري موضوعاً من الكتاب المقدس، قاربت من غير أن أدري شيئاً ظل مهملاً في أعماقي حتى ذلك الوقت، وهو مشاركتي اليهود أقدارهم سواء في دمي أو في أساس التراث المظلم ـ ألم يكن شعبي هو الذي تغلبت عليه الشعوب الأخرى مرة بعد أخرى؟ ومع ذلك أبقته بعدهم قوة غامضة ـ تلك القوة التي تحول الهزيمة بالإرادة إلى مقاومة مرة بعد أخرى. ألم يتنبأ أنبياؤنا بالملاحقة والاضطهاد الدائمين اللذين يبعثراننا اليوم ثانية على الطرق مثل القش؟ ألم يؤكدوا هذا الإذعان للقوة، وأن يباركوه أيضاً باعتباره سبيلا إلى الرب؟ ألم يكن الامتحان دائماً مكسباً للجميع وللفرد؟ لقد أدركت هذا وأنا أعمل على المسرحية من حسن الحظ، هذه المسرحية التي كانت أول عمل يعني شيئاً لي. ومن دون جميع ما كابدته من التعاطف والتوقع خلال

الحرب، أعرف اليوم أن عليَّ أن أبقى الكاتب الذي كنته قبل الحرب، أي «بهيج القلق» مثل بعض القطع الموسيقية، ولكن غير ثابت، ولا هادئ، ولا مستجيب إلى أعضائي الحيوية. لقد شعرت آنذاك بأنني إن تكلمت خرج الكلام من نفسي ومن زمني. وخلال مسعاي إلى مساعدة الآخرين ساعدت نفسي على الاقتراب من أكثر أعمالي خصوصية إلى جانب «إرازموس»، هذا العمل الذي خلّصت نفسي به من أزمة مماثلة فى عهد هتلر في عام ١٩٣٤. فأنا، منذ لحظة شروعي في صياغتهما، لم أعد أعاني كثيراً من مأساة العصور.

وما اعتقدت قط لحظة واحدة أن عملي قد يلقى نجاحاً ملموساً. إن طول القصيدة قد تجاوز حدود الدراما العادية، ولو مُثّلت بالفعل لاحتاج أداؤها إلى أمسيتين أو ثلاث، وذلك لأن بنية المشاهد الأخيرة التي تبلغ مستوى الترنيمة التي يرفعها المقهورون إلى القدر تنطوي على مشكلات تنبؤية، وسلمية، ويهودية، وكوارلية. وعلاوة على ذلك، كيف يمكن أن تُقدّم في مسرح ألماني مسرحية لم تعلن الهزيمة فقط، بل أثنت عليها، بينما كانت الصحف تنفث كل يوم: «النصر أو الإبادة»؟ ولو أجيز نشر الكتاب لكان ذلك معجزة أيضاً. ولكن إن ساءت الأمور، ولم يحدث شيء، لكانت على الأقل عوناً لي في زمن رهيب. لقد قلت في حوار شعري كل ما أمسكت عنه في حديثي مع من حولي. لقد ألقيت عن روحي العبء، واستعدت نفسي. ففي الوقت الذي كان كل شيء فيّ يقول فيه: «لا» للزمن، عثرت لنفسي على «نعم.»

الفصل الحادي عشر

في قلب أوروبا

إن نشر مأساة «إرميا» في عيد الفصح عام ١٩١٧ قد قدّم لي مفاجأة. لقد كتبتها والسخط على الزمن يستحوذ عليّ، ولذلك كان عليّ أن أتوقع نقداً ساخطاً. ولكن ما حدث كان عكس ذلك، إذ بيع في الحال عشرون ألف نسخة من الكتاب، وهذا عدد غير عادي بالنسبة إلى مسرحية مطبوعة. وهي لم تتلقَ الدعم العام من أصدقاء مثل رومان رولان فقط ، بل من أولئك الذين ما انفكوا على الجانب الآخر أيضاً، من مثل راثينو، وريتشارد ديهمل. وحتى المخرجون الذين لم تُعرض عليهم ـ كان إخراجها في ألمانيا خلال الحرب ضرباً من المستحيل طبعاً ـ كتبوا إليّ طالبين أن أحفظ لهم حقوق إخراجها بعد الحرب خارج ألمانيا. ولقد توقعت كل شيء إلا هذا الطلب.

ما الذي حدث؟ لا شيء سوى أن الزمن قد أحدث صحوة قاسية بعد عامين ونصف العام من الحرب. فبعد سفك الدماء الفظيع في ساحات القتال، بدأت الحمّى تخفّ. وأخذ الناس ينظرون إلى الحرب نظرة أبرد وأكثر تجهماً من نظرتهم إليها في شهور الحماسة الأولى. وكان الشعور بالتضامن يتراخى، لانعدام أي أثر ملحوظ لذلك «التطهير الأخلاقي» الذي تنبأ به الفلاسفة والشعراء في غمرة انتشائهم. وانقسم الناس انقساماً عميقاً، وكأن البلاد أصبحت عالمين متغايرين تماماً؛ عالم المقاتلين الذين كانوا يعانون في الجبهة حرماناً فظيعاً، وعالم المقيمين في بيوتهم خالين من الهم، مزدحمين في المسارح، مستفيدين من بؤس الآخرين. كان التباين بين الجبهة والداخل يزداد حدة. فقد تفشّى في طبقة الموظفين على نحو ماكر، وبأقنعة عديدة، نظام ابتزاز كريه، وكان معروفاً أن عقوداً مربحة سوف تُبرم مقابل نقد، أو من خلال معرفة الأشخاص المناسبين. وكان الفلاحون والعمال الذين أصابتهم أضرار بالغة يتكرر سوقهم

إلى الخنادق. وبالتالي فإن كل واحد أخذ يعين نفسه غير متورّع عن شيء ما أمكنه ذلك. وارتفعت أسعار الضرورات باطراد، وأصبحت المواد الغذائية نادرة، ومتألقة كالفسفور فوق المستنقع الأشهب للبؤس العام، ومثل يراعة رفرف فوق هذا المستنقع ترف أثرياء الحرب المثير للسخط. واستحوذ على السكان شيئاً فشيئاً ارتياب مرير، ارتياب بالعملة، والقدرة الشرائية المتناقصة باستمرار، ارتياب بالجنرالات والضباط ورجال الدولة، ارتياب بأي تقرير من الحكومة أو الأركان العامة، ارتياب بالصحف وأخبارها، ارتياب بالحرب ذاتها، وبالحاجة إليها. وعلى هذا، فإن ما أدى إلى نجاح كتابي المفاجئ لم يكن بأي حال من الأحوال مضمونه الأدبي، فأنا لم أقل إلا ما لم يجرؤ على قوله الآخرون علانية،أي كراهية الحرب،وعدم الثقة بالنصر.

ومع ذلك، فإن التعبير عن هذه العواطف بكلمات منطوقة حية على خشبة المسرح كان مستحيلاً على ما يظهر. ولو حدث ذلك، لما أمكن تجنب المظاهرات، لذلك كان عليّ أن أصرف النظر عن مشاهدة هذه المسرحية الأولى المعادية للحرب ممثلةً خلال الحرب. وبعد ذلك تلقيت على نحو غير متوقع رسالة من مدير مسرح زوريخ يعرض عليّ فيها إخراج «إرميا» على الفور، ويدعوني إلى حضور العرض الأول. كنت قد نسيت أنه مازال - كما في هذه الحرب الثانية - في ألمانيا بقعة صغيرة ولكنها غالية أنعم عليها بحق البقاء في معزل عن سائر المناطق، بقعة ديمقراطية مازال التعبير فيها حراً، والرأي العام غير مغيّب، وبالطبع وافقت فوراً.

ولا شك في أن موافقتي كانت مجرد موافقة أكاديمية، لأن الأمر كان يقتضي السماح لي بأن أترك عملي، وأغادر البلاد مدة من الزمن. ومن حسن الحظ أن البلدان المتحاربة كانت عندها دائرة تسمى «الدعاية الثقافية». وبغية توضيح الفرق في الجو الثقافي بين الحرب الأولى والثانية، ثمة حاجة ماسة إلى إعادة القول: إن الشعوب، والأباطرة، والملوك، الذين شبّوا على التقاليد الإنسانية قد حافظوا على شعور باطن بالخجل من الحرب. لقد أنكرت البلدان واحدة تلو أخرى تهمة «العسكرة» باعتبارها تشويهاً للسمعة، وحرصت كل الحرص على أن تُظهر، وتثبت، وتوضح، أنها «أمة ثقافة». وفي ١٩١٤ كان من شأن العالم الذي رفع الثقافة فوق القوة أن يرفض شعارات من مثل «الأنانية المقدسة» و «المجال الحيوي» باعتبارها غير أخلاقية، لأنه

لم يعتبر شيئاً أكثر إلحاحاً من المساهمة في المنجزات الفكرية العالمية. لذلك تدافعت العروض الفنية إلى البلدان المحايدة. فأرسلت ألمانية فرقها الموسيقية إلى سويسرا وهولندا والسويد، وكذلك فعلت فيينا، ونظّم الفرنسيون معارض فنية، وبُعث حتى الشعراء والكتاب والعلماء إلى الخارج، ولكن لا من أجل تعظيم المآثر العسكرية، أو تقوية الميول الإلحاقية، بل من أجل التدليل بالأعمال على أن الألمان ليسوا «برابرة»، وأنهم لم ينتجوا قاذفات لهب، أو غازات سامة فعّالة فقط، بل قيماً مطلقة تستحقها أوروبا. ولابد أن نتذكر أن ضمير العالم كان من عام ١٩١٤ إلى ١٩١٨ ما يزال سلطةً تُسترضى، وما تزال عناصر الأمة المبدعة والأخلاقية تمثل قوة محترمة التأثير في الحرب، وما تزال الأمم تناضل لاكتساب التعاطف الإنساني بدلاً من استخدام الإرهاب غير الإنساني، كما فعلت ألمانيا عام ١٩٣٩. وهكذا كان الظرف مواتياً لكي أُمنح إجازة من أجل حضور عرض مسرحية في سويسرا. ولو نشأت مصاعب، لكان السبب هو أنها مسرحية معادية للحرب يرى فيها كاتب نمساوي - ولو بالشكل الرمزي - أن الهزيمة أمر محتمل. طلبت مقابلة رئيس دائرتي، وقدمت طلبي إليه. وما أدهشني هو أنه وعد بأن يعطي الأوامر اللازمة، مضيفاً هذا التحفيز اللافت للنظر: «أنت لم تكن قط أحد تجار الحرب الأغبياء، شكراً لله. حسناً، ابذلْ جهدك لكي تنهي أمورك في الخارج أخيراً.» وبعد أربعة أيام حصلت على إجازة، وجواز سفر للذهاب إلى الخارج. ولكن بما أنني غير مطلع على أسرار السياسة، فقد غفلت عام ١٩١٧ عن وجود حركة في عهد الإمبراطور الجديد شارل تتأهب للإفلات من الديكتاتورية العسكرية الألمانية التي كانت تجرّ النمسا إلى سياستها التوسعية المتهورة خلافاً لإرادتها الحقيقية. لقد قاومت أركاننا العامة مقاومة باسلة تبنّي حرب الغواصات غير المقيدة التي كانت ستجعل أمريكا عدوتنا لا محالة، وحتى أفراد الشعب صاروا يغمغمون الكلام عن «الغطرسة البروسية» غمغمة حذرة وخفيضة في البداية، وفي سياق ملاحظات لا هدف لها في الظاهر. ولكنني علمت مزيداً من الأشياء في الأيام التالية، وقبل أي واحد آخر، حين قاربت على حين غرة أحد أكبرأسرار العصر السياسية.

وحدث الأمر على النحو التالي: توقفت وأنا ماضٍ إلى سويسرا يومين في سالزبورغ، حيث ابتعت منزلاً للسكن هناك بعد الحرب، وكان في هذه المدينة مجموعة

صغيرة من ذوي الميول الكاثوليكية، قُدِّر لاثنين منهم أن يؤديا دورين حاسمين كمستشارين في تاريخ النمسا بعد الحرب. وهما هايزيك لاماش، وإغناس سايبل. كان الأول أستاذ القانون العام في ذلك الوقت، وكان قد ترأس مؤتمر السلام في مدينة هيج Hague، والآخر أسقفاً خارق الذكاء إلى حد ما قُدِّر له أن يتولّى قيادة النمسا الصغرى بعد انهيار النظام الملكي، وقدّم في تلك الآونة دليلاً على نبوغه السياسي المتميز. كلاهما كان معارضاً واضحاً للحرب، وكاثوليكياً متحمساً، ونمساوياً قديماً متعصباً، وبالتالي في مواجهة عميقة الجذور مع النزعة العسكرية البروتستانتية لكل من ألمانيا وبروسيا، والتي اعتبراها متعارضة مع أفكار النمسا التقليدية، ورسالتها الكاثوليكية. وقد تناغمت مسرحية «إرميا» مع تلك الدوائر المسالمة، فدعاني مستشار الملك الخاص لاماش إلى زيارته (كان سايبل قد غادر المدينة)، وهنأني الأستاذ المسنّ البارز على كتابي، وقال: إنه قد حقق فكرة التصالح النمساوية، وأرجو أن يتعدّى تأثيره هدفه الأدبي. وما أدهشني هو أنه أسرّ إليّ، أنا الذي لم يرني من قبل، أن النمسا تقف على مفترق طرق، وهذه الصراحة دلّت على شجاعته الأصيلة. فمع القضاء على القوات الروسية، لم يعد هناك ما يعيق السلام بالفعل بالنسبة إلى ألمانيا والنمسا، إن أرادتا التخلّي على الميول العدوانية، وهذه اللحظة لا ينبغي لهما تفويتها. وإن واصل الاتحاد الألماني معارضة المفاوضات، فإن النمسا ستبادر إلى العمل المستقل. وأشار إلى أن الإمبراطور الشاب قد وعد بأن يدعم أهدافهم، وقد تتضح قريباً نتائج سياسته الخاصة. والآن أصبح الأمر متوقفاً على قدرة النمسا على حشد الطاقة الكافية من أجل «سلام الانتصار» الذي كان الطرف الألماني العسكري يطالب به دون اهتمام بالتضحيات الزائدة. وإن اضطروا إلى تجاوز الحد، فإن النمسا سوف تتخلّى عن تحالفها في الوقت المناسب، أي قبل أن يجرّها العسكريون الألمان إلى كارثة. وقال بكل حزم وتصميم: «لا أحد يمكنه أن يتهمنا بنقض العهود. لقد مات أكثر من مليون من رجالنا. لقد ضحيّنا، وفعلنا ما يكفي! والآن لن نضحي بحياة أي إنسان واحد من أجل هيمنة ألمانيا على العالم.»

انقطع نفَسي. لقد فكّرنا كلنا في هذه الأمور سراً ومراراً، ولكن أحداً لم يجرؤ على قولها في وضح النهار. «لنبدأ من الألمان وأهدافهم التوسعية ما دامت الفرصة

مـواتيـة»، وهذا يعني أن «نخون» أخـواننا في السلاح. لقد قـال لي ذلك، أنا الغريب عـمليـاً، رجل يحظى بثقة الإمبراطور في الداخل، وتقدير الذين عـرفـوا مـسـاهمتـه في مؤتمر هيج في الخارج. لقد تكلم بكل هدوء وتصـميم بحيث أقنعني بأن حركة انفصال نمساوية قـد انتقلت من طور الإعداد إلى طورالتنفـيـذ. كـانت جريئة فكرة حمـل ألمانيا على التـفـاوض بالتـهـديد بسلام منفـرد، أو تنفـيـذ التـهـديد عند الضـرورة، وكـان ذلك يومئذ، كما أثبت التاريخ، الفرصة الأخيرة والوحيدة لإنقاذ الإمبراطور، والنظام الملكي، وبالتالي أوروبا. ولكن واآسفاه! كان تنفيذ الخطة ينقصه العزم الذي تميّزت به بالأصل. والحق هو أن الإمبراطور قد أوفد شقيق زوجته، الأمير سكتوس، وحمّله رسالة سرية إلى كليـمنصو من أجل اختـبـار فـرص السـلام، وربما لاتخـاذ خطوات أوليـة، من غـيـر تفـاهم سابق مع البلاط في برلين. كيف علمت ألمانيا بهذه المهـمـة السرية أمر أعـتـقـد أنه لم يكشف عنه حتى الآن. ومن سوء الحظ أن الإمبراطور لم يجرؤ على إعلان ما اقتنع به، إما لأن ألمانيا، كمايجادل بعضهم، هددت بغزو النمسا، وإما لأنه خشي، باعتباره من أسرة هبسبورغ، عـار التخلّي في اللحظة الحرجة عن تحالف أقامه الإمبراطور فرانسيس جوزيف، ومُهر بالدم الغزير. وهو على أي حال، لم يعيّن لاماش أو سايبل رئيس وزراء، وهمـا الوحيدان القـادران، بما تحلّيـا به من اقتنـاع أخلاقـي، على تحـمّل عـار التـخلّي عن ألمانيا، باعتبارهما كاثوليكيين عالميين، وهذا التردد أصبح سبب هلاكه. كلاهما أصبح رئيس وزراء، ولكن فـي الجـمـهورية النمسـاويـة المشوّهة بدلاً من إمبـراطورية هبسبورغ القديمة، وإن أحداً لم يكن قـادراً على تسويغ هذا الظلم الظاهري أمـام العـالم خيـر من لاماش، هذا الأستاذ العظيم المحترم للقانون العام. فلو هدّد لاماش علناً بالانفصال، أو انفصل، لما حافظ على النمسا فقط، بل لأنقذ ألمانيا في خطرها الأكبر، وهو اندفاعها الجـامح إلى الإلحـاق. ولو تحقق مـا كـشفـه لي ذلك الرجل، ولم يدمره الضعف، وسـوء التصرف، لكانت أوروبا أفضل حالاً.

تابعت سفري في اليـوم التـالي، وعـبـرت الحـدود السـويسـرية. من الصـعب أن يسـتـوعب المرء مـا كـان يعنيـه آنذاك الانـتـقـال من بلد مـغلق نصف جائع إلى منطقـة محـايدة. لم يسـتغـرق الانـتقـال من المركز الأول إلى الآخر إلا دقـائق، ولكن من اللحظة

الأولى يشعر المرء بالتغير، التغير الذي يشعر به من يخرج فجأة من غرفة مغلقة خانقة إلى هواء منعش مفعم بالثلج، التغير الذي يشبه الدوار الراشح من الدماغ إلى كل الأعصاب والحواس.

وفي السنوات التي تلت، كان ذلك الارتياح المفاجئ يتوهج في نفسي كلما عبرت ذلك المركز، مركز Buchs، وأنا مسافر من النمسا. كان المسافرون يقفزون من القطار، ويجدون هناك ـ مفاجأتهم الأولى! ـ المطعم الممتلئ بالأشياء التي نسوا منذ وقت طويل أنها كانت ذات يوم مألوفة في حياتهم، كانوا يجدون برتقالاً ذهبياً، وموزاً، وشوكولاتا، ولحم خنزير. الأشياء التي لم تكن نحصل عليها إلا بالانسلال إلى الأبواب الخلفية كانت معروضة للجميع. كان هناك خبز ولحم يمكن شراؤهما بلا بطاقات ـ ومثل الحيوانات الجائعة كان يغيرون على تلك الأشياء الرائعة الرخيصة. كان هناك مكتب بريد وبرق يستطيع المرء أن يكتب ويبرق فيه من غير مراقبة إلى أربع جهات العالم. وكانت الصحف الفرنسية والإيطالية والإنكليزية ملقاة لا يخشى مشتريها وقارئها أي عاقبة. الممنوع كان متيسراً هنا، بينما المتيسر كان ممنوعاً على بعد بضع دقائق. إن مفارقة الحروب الأوروبية كلها قد عاينتها من خلال هذا التجاوز. ففي القرية الصغيرة هناك، والتي كان يمكن قراءة ملصقاتها ولافتاتها من هنا بالعين المجردة، كان الرجال قد أُخرجوا من كل منزل وكوخ، وشُحنوا إلى أوكرانيا وألبانيا لكي يَقتلوا ويُقتلوا، في حين جلس هنا رجال في مثل سنهم مع زوجاتهم مطمأنين قدام أبوابهم التي أحاط بها اللبلاب، يدخنون غلايينهم. ووجدت نفسي أسأل: إن كانت الأسماك في هذا الجدول الحدودي ميّالة إلى القتال على الجانب الأيمن، ومحايدة على الجانب الأيسر. وفي لحظة عبوري الحدود كنت قد بدأت أفكر على نحو مختلف، صرت أكثر حرية ونشاطاً، وأقل خنوعاً. وفي اليوم التالي بالذات، تبين لي أن التدهور لا يصيب في عالم الحرب حالتنا الذهنية فقط، بل كياننا العضوي أيضاً. ففي ضيافة الأقرباء، احتسيت غير مبالٍ فنجان قهوة شديدة، ودخنت سيجار هافانا. فشعرت فجأة بالدوار، وخفقان قلب عنيف. فبعد شهور عديدة من المؤن البديلة ثبت أن جسدي وأعصابي لا تحتمل القهوة الحقيقية والتبغ الحقيقي. كان الانتقال من الحالة الشاذة للحرب إلى الحالة السويّة للسلم يستدعي تكيّفاً جسدياً أيضاً.

انتــقل ذلك الاضطراب، ذلك الدوار المحـبب، إلى المســتــوى الذهني. بدت لي الأشجار أجمل، والجبال أوضح، والمشاهد أفتن. وفي البلد الذي يخوض حرباً يبدو إيقاع الحقول الهادئ في عين الحزين لامبالاة متعالية من جانب الطبيعة، ويستحضر كل غروب أرجواني مشهد الدماء المسفوكة. وأما ههنا، حيث يعمّ السلام، فإن عزلة الطبيعة المهيبة قد غدت طبيعية، لذلك فقد أحببت سويسرا كما لم أحببها من قبل. كنت دائماً أستمتع بزيارة هذا البلد الرائع للغاية ضمن مساحته الصغيرة وفي تنوعه الذي لا ينضب. ومع ذلك لم أدرك قط أهمية وجوده إلى هذا الحد. فهذا البلد الذي تلتقي فيه الأمم على بقعة واحدة بلا تعادٍ، ويرفع الفروق اللغوية والقومية إلى مستوى الإخاء بالاحترام المتبادل، والتطبيق النزيه للديمقراطية، يشكل مثالاً لكل أوروبا المنهكة! هذا الملاذ للمضطهدين، وموطن الحرية والسلام منذ قرون، والمنفتح لكل الآراء، والمحافظ على خصوصيته بكل إخلاص، كم يكتسب وجوده كبلد وحيد متعدد القوميات أهميةً بالنسبة إلى عالمنا! كان مبرراً لي أن أشعر بأنه بلد ينعم بالجمال والوفرة. إن أحداً لم يكن غريباً، وفي هذا الزمن المأساوي من تاريخ العالم، كان أي إنسان حر أكثر اطمئنان فيه منه في وطنه. لقد حُملت ساعات طويلة على السير عبر شوارع زوريخ، وعلى طول شاطئ البحيرة. كانت الأضواء تشعّ سلاماً، والناس يتابعون عيشهم الهادئ الرغيد. وتراءى لي أن الجدران لا تؤوي نساء جفاهن النوم في الأسرّة قلقاً على أولادهن. كما أنني لم أشاهد جرحى ولا مشوّهين، ولا جنوداً شباباً منتظرين شحنهم بالقطارات غداً أو بعد غد - ههنا كان يشعر المرء بأنه مؤهّل للحياة، في حين أصبح مزعجاً، ومهيناً تقريباً، ألا تكون مصاباً بجروح في البلدان المحاربة.

وعلى كل حال، لم تكن مناقشة إخراج مسرحيتي، ولا اللقاءات مع أصدقائي السويسريين وغيرهم هي الأكثر إلحاحاً بالنسبة لي. أردت أن ألتقي رولان قبل أي واحد آخر. كنت أعرف أنه يستطيع أن يزيدني ثباتاً، ووضوحاً، ومقدرة، ورأيت أن أشكره على ما تركه تشجيعه وصداقته لي من أثر في نفسي أيام العزلة الفكرية المريرة. كان هو ضالتي الأولى، لذلك تابعت السفر إلى جنيف في الحال. ووجدنا، نحن «العدويْن»، نفسينا في وضع معقد بعض الشيء. كان واضحاً أن البلدان المتحاربة لم يرقها أن يلتقي رعاياها مع رعايا البلدان المعادية في أرض محايدة. ولكن لم يكن هناك قانون

يمنع ذلك، ولا نظام يمكن بمقتضاه محاسبة الملتقين. كان «الاتجار مع العدو» المساوي للخيانة هو الممنوع. ودفعاً لأي اشتباه، كان واحدنا يحجم عن تقديم السجائر للآخر، لأن عدداً لا يُحصى من العملاء كانوا يراقبون باستمرار. وحتى نتغلب على فكرة الخوف أو الذنب انتهجنا، نحن الأصدقاء من مختلف بلدان العالم، سياسة الصراحة التامة. لم نتخذ أسماء مستعارة، أو عناوين سرية، في مراسلاتنا، ولم نتقابل سراً في الليل، بل كنا نسير في الشوارع، ونرتاد المقاهي معاً. لذلك أخبرت بوّاب الفندق بعد وصولي إلى جنيف باسمي، وسألت عن رومان رولان، إذ كان من الأفضل أن تتمكن دائرة الاستخبارات الألمانية أو الفرنسية من التبليغ عني وعمن كنت أنوي زيارته، لأن تجنب صديقين قديمين أحدهما الآخر فجأة، لانتمائهما بالمصادفة إلى أمتين مختلفتين وقعت بينهما حرب بالمصادفة، ضرب من المستحيل. لم نشعر بأننا مرغمان على المشاركة في سخف لأن العالم كان سخيف التصرف.

وأخيراً وصلت إلى غرفته ـ بدت لي مثل غرفته في باريس. كانت الطاولة والكرسي مكدّسة عليهما الكتب ههنا أيضاً، وكانت المجلات والرسائل والصحف تتناثر عن منضدة الكتابة. فالعمل في جو متقشف بسيط كان فيض وجوده بالذات،وهذا الجو كان يرافقه أينما حلّ. خذلتني الكلمات لحظة، فتصافحنا فقط. كانت يده هي اليد الفرنسية الأولى التي ألمسها منذ سنين. وكان قد مرّ ثلاث سنوات على مكالمتي رجلاً فرنسياً، ومع ذلك، أنا ورولان اقترب واحدنا من الآخر اقتراباً حميماً في تلك الفترة أكثر من أي وقت مضى. تكلمت باللغة الأجنبية كلاماً أدفأ وأصرح من كلامي مع أي واحد في بلدي. كنت مدركاً تماماً أن الصديق الذي أواجهه أهم رجل في ذلك الوقت العصيب، وأن ضمير أوروبا الأخلاقي كان يتكلم من خلاله. وفي تلك الآونة فقط، استطعت أن أستعرض كل ما قام به، ويقوم به من أعمال جليلة من أجل التفاهم. كان يعمل وحده دائماً ليل نهار من غير أن يساعده أحد، ويبقى على اتصال بكل الجهود التي كانت تبذل في شتى البلدان، ويراسل كثيراً من الناس الذين كانوا يستشيرونه في مسائل الضمير، ويسهب في كتابة المذكرات كل يوم. إذ أن أحداً لم يكن مدركاً مثله في ذلك الوقت مسؤولية العيش في مرحلة تاريخية، وأن ذلك يوجب عليه أن يترك سجلاً للمستقبل. (أين يمكن أن تكون اليوم تلك المخطوطات

العديدة من المذكرات التي ستلقي ضوءاً ذات يوم على الصراعات الأخلاقية والفكرية في تلك الحرب العالمية الأولى؟) وفي أثناء ذلك، كان ينشر مقالات كانت كل واحدة منها أثارت اهتماماً دولياً، ويعمل على روايته Clerambault ـ لقد خاطر بحياته، وكرّسها بلا رحمة من أجل القيام بالمسؤولية الكبيرة التي تولاّها، ومعالجتها بالتفصيل باعتباره ممثلاً للعدالة الإنسانية في أثناء نوبة الجنون التي أصابت الجنس البشري. لم يترك رسالة بلا ردّ، ولا كراسة حول القضايا الراهنة من دون تفحص. هذا الرجل الضعيف المرهف الذي كانت صحته آنذاك منذرة بالتدهور، والذي كان لا يقدر على الكلام إلا بصوت خفيض، ويقاوم سعالاً خفيفاً، ويحتاج إلى التوقّي من الهواء إن عبر مجازاً، ويضطر إلى الاستراحة بعد كل مشية سريعة، إن هذا الرجل قد استدعى طاقات تعاظمت على نحو لا يصدق من شدة المطالبات بها. لا شيء أثاره، لا الهجوم ولا الغدر، وكانت نظرته إلى العالم المضطرب نظرة جريئة ومباشرة. لقد رأيت فيه البطولة الأخرى، البطولة الروحية والأخلاقية، كما في تمثال حي، وفي كتابي عنه ربما لم أقم بالاحتفاء المناسب به بسبب التحفظ الذي كنا نلتزمه حيال تقريظ الأحياء. رأيته بعد يومين في غرفته الصغيرة التي تخرج منها أشعة منعشة غير مرئية إلى كل مكان، ولازمني الشعور بالإثارة العميقة، وبالتطهر على نحو ما، وأنا أعلم أن الطاقة المُرقيّة المُقوّية التي طوّرها رولان خلال معركته التي خاضها وحده تقريباً ضد الكراهية المجنونة للملايين ينبغي أن تعدّ بين تلك الأشياء التي لا يمكن التكهن بآثارها، والتي تتحدّى الحساب والقياس. ولا يعرف مغزى حياته وثباته إلا الذين كانوا شهود عيان على تلك المرحلة. إن رولان هو الذي صان ضمير أوروبا حين جُنّ جنونها.

وفي أحاديث تلك الأمسية، والأيام التالية، تأثرت بالحزن الخفيف الذي اكتسى به كلامه، وهذا ما كان يحدث لي عند مناقشة الحرب مع ريلكه. كان يشعر بالمرارة من الساسة، أصحاب الكبرياء القومية، الذين لا يشبعون من تضحيات الآخرين. وكان المرء يشعر على الدوام بالتعاطف مع الجمهور الغفير الذي عانى ومات من أجل غاية لم يستوعبها، وكانت في آخر الأمر عديمة المعنى. أراني برقية لينين التي ناشده فيها أن يصحبه إلى روسيا في ذلك القطار المختوم السيئ الذكر لِما كان سلطان رولان المعنوي يعنيه بالنسبة إلى قضيته. ولكن رولان أصرّ على ألا ينحاز إلى جماعة، بل أن يخدم

وحده، وعلى نحو مستقل، القضية الذي كرّس حياته من أجلها: القضية العامة. لم يطلب من أحد أن يذعن لأفكاره، وامتنع بالمقابل عن التزام أفكار الآخرين. أحب أن يبقى محبّوه أحراراً، ورغب في أن يكون قدوة في أمر واحد فقط، وهو كيف يستطيع المرء أن يبقى حراً، ومخلصاً لما يؤمن به حتى لو واجه العالم كله.

التقيت مساء اليوم الأول في جنيف المجموعة الصغيرة من الفرنسيين وبعض الأجانب الذين كانوا يعملون في صحيفتين صغيرتين مستقلتين هما La Feuille (الصحيفة) وDemain (الغد)، ومنهم ج.ب. جوف، ورينيه أركو، وفرانز ماسيريل. وسرعان ما جمعتنا صداقة حميمة كالتي لا يقيمها على هذا النحو السريع إلا الشباب. ولكننا شعرنا بالفطرة بأننا مقبلون على حياة جديدة كل الجدة. كان معظم جمعياتنا القديمة قد عطّلها الوهم الوطني الذي استحوذ على زملائنا السابقين. وكنا محتاجين إلى أصدقاء جدد، بما أننا قد اسطففنا في جبهة مشتركة، في خندق فكري مشترك، ضد عدو مشترك. وتشكلت رفقة متحمسة من تلقاء ذاتها، وتقاربنا بعد أربع وعشرين ساعة كأننا متعارفون منذ سنين طويلة. كنا مدركين - «نحن القلة، نحن القلة السعيدة، نحن العصبة المتآخية» - مزيج المجازفة الشخصية والجرأة غير العادية اللتين تميزت بهما جمعيتنا، فقد كنا نعلم ما يجري على بعد خمس ساعات. كان أي ألماني يكتشف فرنسياً، أو أي فرنسي يكتشف ألمانياً، ينقضّ عليه بالحربة، أو يمزقه بقنبلة يدوية، ثم يُمنح وساماً على ذلك، وأن الملايين من الطرفين لم تكن تحلم إلا بالتفاني، وأن الصحف كانت ترغي وتزبد عند التكلم على «العدو»، في حين لم نكن نحن، هذه الحفنة بين الملايين، نجتمع حول الطاولة مطمئنين فقط، بل متآخين إخاء دافئاً وصادقاً أيضاً. كنا نعلم بأن عملنا يعارض القواعد والأنظمة الرسمية، وأن التظاهر الصريح بالصداقة يعرّضنا للخطر من وجهة نظر بلداننا، غير أن الخطر ذاته قد دفع جرأتنا إلى ذروة النشوة تقريباً. عزمنا على المجازفة، وراقتنا تلك المجازفات، لأن المجازفة وحدها كانت تضفي الأهمية على احتجاجنا. ففي زوريخ أقمت أمسية مع ج.ب. جوف - وهذه حادثة فريدة في وقت الحرب - فقرأ هو قصائد بالفرنسية، وقرأت أنا أجزاء من «إرميا» بالألمانية. ومجرد إلقاء أوراقنا على الطاولة كان دليلاً على صدق لعبتنا الجريئة. كنا

غير مكترثين بما يراه القناصل والسفارات، حتى لوكان ذلك يعني إحراق السفن خلفنا، وعجزنا عن العودة إلى بلداننا، مثل كورتز Cortez. كنا مؤمنين إيماناً عميقاً بأن «الخونة» ليسوا نحن، بل أولئك الذين خانوا نداء الشاعر في اللحظة المواتية. ولقد عاش أولئك الشباب الفرنسيون والبلجيكيون حياة فيها بطولة! كان فرانز ماسيريل يحفر أمام أعيننا على الخشب صوراً باقية ضد أهوال الحرب، وتلك المطبوعات السود والبيض التي لا تُنسى ليست أقل قوةً وسخطاً من لوحة غويا «مأساة الحرب». إن هذا الرجل الذي لم يعرف الكلل، كان يبدع ليل نهار شخوصاً ومشاهد من الخشب الصامت. ومع أن غرفته الضيقة ومطبخه قد تراكمت فيهما الرواسم الخشبية، فقد كانت تظهر له في جريدة La Feuille صورة اتهام جديدة كل يوم. لم يكن أي منها اتهاماً موجهاً إلى أمة معينة، بل كانت كلها موجهة إلى العدو المشترك: الحرب. كان حلمنا أن تُرمى على المُدن والجيوش هذه الصور الكالحة المقيتة المشهّرة بالحرب، والمفهومة من الجميع رغم خلوّها من الكلمات، أن تُرمى على شكل منشورات بدلاً من القنابل. أنا واثق أن ذلك لو حدث، لانتهت الحرب قبل أوانها. ولكن المؤسف هو أن تلك الصور لم تظهر إلا في جريدة La Feuille الصغيرة التي لم تكد يتجاوز توزيعها جنيف. إذ كل ما كنا نحكيه ونحاوله كان محصوراً ضمن سويسرا، وهو لم يصبح ساري المفعول إلا بعد فوات الأوان. لم يكن عندنا أي وهم خاص حول عجزنا إزاء الآلة الضخمة للأركان العامة، والسلطات السياسية، وإن لم يتخذوا أي أجراء ضدنا، فلربما كان السبب هو أننا لم نشكل أي خطر عليهم، إذ أن استنكارنا اللفظي كان يجري في مجال محدود. غير أن شعورنا بأننا قلة منفردة كان يرصّ صفوفنا كتفاً لكتف، وقلباً لقلب. وأنا لم أستجب في أعوام النضج للصداقة بمثل الحماسة التي استجبت بها في تلك الأوقات التي قضيتها في جنيف. وهذه الرابطة عاشت بعد ذلك أعواماً.

ومن وجهة نظر علم النفس والتاريخ، وليس من وجهة نظر الفن، كان أبرز أفراد هذه الجماعة هنري جويلبو. كان إثباتاً حياً للقانون التاريخي الذي يتعذر إبطاله، وهو أن الإقدام والجسارة في أوقات الانقلابات المفاجئة، ولاسيما في أثناء الحروب والثورات، كثيراً ما تكون أكثر أهمية في فترات قصيرة منها في قيمتها الجوهرية،

والشجاعة المتهورة في الحياة المدنية يمكن أن تعني أكثر مما تعنيه الشخصية والاستقلالية. فكلما اندفع الزمن إلى الأمام اندفاعاً سريعاً، ألقى بعض المدركين للعبة بأنفسهم بلا تردد على الموجة القادمة، وبالتالي يستبقون الآخرين. وفي تلك الأيام وُجدت شخصيات عابرة رفعها الزمن ـ بيلا كون، وكورت آيسنر ـ إلى محل لم تستطع قدراتهم مجاراته. وجويلبو، الرجل النحيل الأشقر الضئيل، ذو العينين الرماديتين الحادتين القلقتين، مع ملكة الشرثرة. لم يكن رجلاً موهوباً، رغم أنه هو الذي ترجم قصائدي إلى الفرنسية (قبل عقد تقريباً)، ولا يسعني إلا أن أصرّح بأن قدرته الأدبية كانت ضعيفة. كان متوسط التمكن من اللغة، وغير عميق الثقافة، وطاقته كلها تكمن في السجال، وكان من أولئك التعساء الذين لابد أن يكونوا «ضد» شيء مهما كان ذلك الشيء. وكالولد الشقي، لم يكن يبدى الرضا إلا عندما يثير شجاراً، ويشنّ حملة على أمر فوق طاقته، ومع أنه كان شخصاً طيباً في باريس قبل الحرب، فقد كان ينخرط دائماً في بعض المنازعات مع الحركات الأدبية، أو مع الكتاب، ثم يداور الأحزاب الراديكالية، غير أن حزباً منها لم يكن راديكالياً بما يكفي في نظره. ومع تقدم الحرب، واجه فجأة خصماً هائلاً هو الحرب العالمية، باعتباره معادياً للعسكرة، وفي ضوء الخوف والجبن اللذين تميّز بهما أكثر الناس، فإن جسارته على خوض الصراع أسبغت عليه أهمية مؤقتة، وجعلته شخصاً لا غنى عنه أيضاً. فالخطر الذي أرعب الناس، كان الشيء عينه الذي يغريه. وفي مقابل أداء الآخرين، فإن جرأته العظيمة قد ساعدت على تحفيز قدراته الأدبية والسجالية، وأبلغتها مستوى غير عادي، واكسبته عظمة مفاجئة، وهو الكاتب غير المهم من نواحٍ أخرى ـ وهذه ظاهرة لا تختلف عن الظاهرة التي انكشفت بين المحامين الجيرونديين الصغار خلال الثورة الفرنسية. فحيث صمت الآخرون، وترددنا نحن أنفسنا، وفكرنا في كل مشروع، كان هو يفعل. وإلى ميزة جويلبو الدائمة يعود الفضل في إنشاء وإدارة الدورية الوحيدة المناوئة للحرب ذات المحتوى الفكري، أي صحيفة Demain، تلك الوثيقة التي ينبغي أن يدرسها كل من يرغب حقاً في فهم ميول المرحلة الروحية. لقد أمدّنا بما احتجنا إليه: مركز للنقاش العالمي المتعدد القوميات في أثناء الحرب. وقد أضفى دعم رولان أهميةً على الصحيفة، وضمنت لها قيادته المعنوية وعلاقاته خيرة المتعاونين في أوروبا.

وأمريكا، والهند، إضافة إلى ذلك، فإن لينين وتروتسكي ولوناتشارسكي، الثوريين المنفيين من روسيا، قد وثقوا في راديكالية جويلبو، وأسهموا في الصحيفة. وطيلة سنة أو سنتين لم يعرف العالم دورية أكثر إثارة للاهتمام، وأكثر استقلالية، من صحيفة جويلبو، ولو بقيت بعد الحرب، لكان لها تأثير إيجابي في الرأي العام. وفي غضون ذلك، تبنّى جويلبو في سويسرا تمثيل الجماعات الفرنسية الراديكالية التي أسكتها كليمنصو. وفي مؤتمري Kienthal و Zimmerwald الشهيرين الذين انفصل فيهما الاشتراكيون الأمميّون عن الوطنيين المتعصبين، أدى دوراً تاريخياً. لذلك فما من فرنسي، ولا حتى الكابتن سادول الذي التحق بالبلاشفة في روسيا، كانت تخشاه وتكرهه الدوائر السياسية والعسكرية في باريس خلال الحرب مثل ذلك الرجل الضئيل الأشقر الشعر. ولكن دائرة التجسس الفرنسية أفلحت أخيراً في الإيقاع به. سُرق ورق نشّاف، ونُسَخ كربون من غرفة عميل ألماني في أحد فنادق بيرن، ولكنها لم تكن دليلاً على أن بعض الألمان قد قدموا طلبات اشتراك في صحيفة Demain، وهذه واقعة غير مريبة في ذاتها لأن دقة الألمان ربما احتاجت إلى الصحيفة لمختلف دور الكتب والمكاتب. ولكن الذريعة كانت كافية بالنسبة إلى الفرنسيين حتى يعلنوا أنه محرض في خدمة ألمانيا، ويتهموه. لم يمثل أمام القضاء، فحكم عليه بالموت على نحو غير عادل، كما ثبت عندما رُوجعت المحاكمة بعد عشر سنوات، وأُبطل الحكم. وفي إثْر ذلك، وبسبب عنفه وتصلبه اللذين أخذا يعرّضان رولان وسائر جماعتنا للخطر، واجه متاعب مع السلطات السويسرية، فأودع في السجن. ولكن لينين الذي أحبه حباً خاصاً، وكان شاكراً له مساعدته أيام الشدة، أنقذه بجرة قلم حوّلته إلى مواطن روسي، وتمّ شحنه إلى موسكو في القطار الثاني المختوم. وأخيراً أُتيحت له فرصة الكشف عن قدرته الإبداعية. وبما أنه امتلك كل العلاقات المميزة للثوري الحقيقي ـ السجن والحكم بالموت على التوالي ـ تيسّر له في موسكو مجال ثانٍ للعمل الجيد. وكما ساعده رولان في جينيف، فقد استطاع، بسبب ثقة لينين به، أن يسهم إسهاماً فعّالاً في إعادة بناء روسيا. ومرة أخرى، فإن موقفه الشجاع خلال الحرب كان مناسباً أكثر من أي موقف آخر للتأثير التوجيهي في البرلمان والجمهور في فرنسا ما بعد الحرب، لأن كل الجماعات الراديكالية اعتبرته رجلاً حقيقياً، نشيطاً وجريئاً، وقائداً بالفطرة. والحقيقة هي أن

جويلبو قد اتضح أنه يمكن أن يكون أي شيء إلا قائداً بالفطرة، فهو بالأحرى، مثل كثير من شعراء الحرب وثورييها، لم يكن أكثر من نتاج لحظة عابرة. فالطبائع التي تفتقر إلى التوازن، تعاني الانهيار على الدوام بعد ارتقائها المفاجئ. ففي روسيا بدّد مواهبه في سجالات، ومنازعات، ومكائد صغيرة لا نهاية لها تماماً كما فعل في باريس سابقاً. وبالتدريج أيضاً أخذ يتشاجر مع أولئك الذين احترموا شجاعته، فتشاجر مع لينين أولاً، ثم مع باربوس ورولان، وأخيراً معنا جميعاً. وفي وقت أقل درامية، انتهى كما بدأ تماماً بتأليف الكراريس، وإثارة المنازعات الصغيرة، ثم مات في باريس ميتة غامضة بُعيد إرجاء تنفيذ حكم الإعدام الصادر في حقه. لقد كان الأشجع والأجسر في الحرب عل الحرب، ولو عرف كيف يستخدم الدافع الذي منحه إياه العصر، وكيف يكون جديراً به، لكان من الممكن أن يصبح أحد عظماء العصر. واليوم طوى النسيان جويلبو، وربما أكون من أوائل الذين لا يزالون يتذكرونه شاكرين له الإنجاز الذي شكلته صحيفة Demain أثناء الحرب.

عدت إلى زوريخ بعد قضاء بضعة أيام في جنيف للتباحث حول بدء التدرب على أداء مسرحيتي. لقد أحببت دائماً هذه المدينة لموقعها الجميل على البحيرة في ظلال الجبال، ولثقافتها المتميزة المحافظة قليلاً أيضاً. وبسبب توسط سويسرا المسالمة بلداناً متحاربة، خرجت زوريخ من تحفظها، وأصبحت فجأة أهم مدينة في أوروبا، ملتقى كل التيارات الفكرية، وبالتأكيد أصبحت بالمثل مركز كل أصناف التجار والمضاربين والجواسيس ومروجي الدعاية الذين جعلهم حبهم المفاجئ للمدينة عرضة لارتياب سكانها المبرر تماماً. كان يمكن سماع كل اللغات في المطاعم والمقاهي وسيارات الأجرة والشوارع. وفي كل مكان كان المرء يلتقي معارف محببين إليه وغير محببين، ويُزجّ، شاء أم أبى، في تيار الجدل المستثار. والناس الذين قذفتهم الأقدار إلى المدينة كان مستقبلهم جميعاً متوقفاً على نتيجة الحرب، بعضهم كان يمثّل حكومته، وآخرون كانوا مضطهدين ومُبْعدين، وكل واحد كان، على كل حال، منفصلاً عن حياته الحقيقية، تتقاذف به المصادفات. وبما أنهم كانوا مشرّدين، فقد كانوا يسعون إلى الاختلاط الاجتماعي، ولأنهم ليسوا في موقع يتيح لهم صياغة الأحداث السياسية والعسكرية أو التأثير فيها، فقد كانوا يقضون الليل والنهار في حمّى المناقشات التي كانت مثيرة

ومتعبة في آن معاً. وبعد أعوام من كمّ الأفواه، راقهم أن يستسلموا لدافع كتابة الأفكار على الورق، بما أن الرقابة على التفكير والكتابة قد انعدمت أخيراً. وفي حالتنا البالغة التوتر، اكتسب حتى الأشخاص العاديون (كما اتضح من مثال جويلبو) قدراً من الاهتمام أكثر من أي وقت مضى، وأكثر مما نالوه في ما بعد. كانت جميع اللغات، وجميع الأفكار السياسية موجودة. إن ألفرد آ. فريد، حامل جائزة نوبل للسلام، قد نشر Friedenswarte هنا، وقدّم فرتز فون أونرو، الضابط البروسي السابق، قراءات من مسرحياته، وألّف ليونارد فرانك كتابه المثير Der Mensch ist gut، وأثار اهتماماً واسعاً كتاب أندرياس لاتسكو Menschen im Kriege وجاء فرانز فيرفل وألقى محاضرة. لقد التقيت رجالاً من كل الأمم في فندقي القديم Schwerdt، حيث كان ينزل كازانوفا وغوته في غابر الأيام. التقيت برجال روس لم أعرف قط أسماءهم الحقيقية، ولكنهم نبغوا في ما بعد في الثورة، وإيطاليين، وكهنة كاثوليكيين، واشتراكيين متصلبين، ومحاربين ألمان متشددين، وكان باستور ليونهارد راجاس الرائع، والشاعر روبرت فايسي من بين مؤيدينا في سويسرا. وفي دار الكتب الفرنسية التقيت مترجم أعمالي بول موريس، وفي قاعة الموسيقا التقيت قائد الأوركستر أوسكار فريد ـ كان هناك كل الأصناف والظروف، وكان يُعبِّر عن شتى الآراء السخيفة والرصينة، لذلك كان يوجد غذاء للإزعاج والإثارة والحماسة. لقد أُسست مجلات، ونشأت مجادلات، والتقت أطراف أو اختلفت، وتشكلت تحالفات وتفرقت.

ومنذ ذلك الوقت لم أواجه قط خليطاً من الآراء والناس المتنافرين المتحمسين في حالة متركزة ومتبخرة، إذا جاز التعبير، كالذي واجهته من أيام زوريخ ولياليها تلك، إذ كانت المجادلات تدوم في مقهى Bellevue و Odeon حتى إطفاء الأنوار، وكثيراً ما كنا نقصد بيت أحدنا بعد ذلك. لا أحد كان ينتبه للطبيعة الجميلة، للجبال والبحيرات وسكينتها المنطوية على نفسها، في هذا العالم المخلوب، فالحياة كانت تعني الصحف والبيانات، والإشاعات، والآراء، والتحليلات. والأمر الغريب هو أن معاناة الحرب كانت أشد منها في أي بلد محارب، لأنها أصبحت هنا مشكلة موضوعية، أي منفصلة بالكلية عن الاهتمام القومي بالنصر أو الهزيمة. لم تعد ينظر إليها من وجهة نظر سياسية، بل باعتبارها قضية أوروبية، وحدثاً ضخماً ورهيباً لن يغير فقط بعض الحدود على الخريطة، بل صورة العالم ومستقبله.

والذين أثّروا في نفسي أعمق التأثير من ناس هذه الحلقة ـ ربما على سبيل توجس قدري القادم ـ هم الذين لا وطن لهم،والأسوأ حالاً من هؤلاء، هم الذين ليس لهم وطن واحد بل وطنان أو ثلاثة، وكانوا غير متيقّنين من الانتماء إلى أي منها. شاب ذو لحية بنية صغيرة، وعينين حادتين وراء نظارة سميكة العدستين على نحو لافت للنظر، كان يجلس عادة وحده في زاوية مقهى أوديون، وقد أخبروني أنه كاتب إنكليزي موهوب. ولما تعرفت إلى جيمس جويس بعد بضعة أيام، رفض رفضاً قاسياً أي ارتباط بإنكلترا. كان إرلندياً، ومع إنه كان يكتب بالإنكليزية، فهو لم يكن يفكر بها، ولم يكن يريد أن يفكر بها. قال «ما أحبذه هو لغة فوق كل اللغات، لغة يقدّم لها خدمة جميع الكتّاب. أنا لا أستطيع أن أعبر عن نفسي بالإنكليزية من غير أن أحصر نفسي في تراث.» لم يكن ما قاله واضحاً كل الوضوح لي، ولم أكن أعرف شيئاً عن روايته «يوليسيس» التي كان يكتبها آنذاك، إلا أنه أعارني رواية «صورة الفنان في شبابه»، نسخته الوحيدة، ومسرحيته الصغيرة «المنفيون» التي فكرت في ترجمتها حتى يستفيد منها. وكلما زادت معرفتي به، زادت دهشتي من معرفته باللغات. كانت جبهته المستديرة الصارمة الشكل، والتي تلتمع في الضوء مثل الخزف، تختزن كل لفظة من كل لغة، وكان رائع القدرة على قذفها وإبقائها متوازنة في الهواء. ولما سألني ذات مرة كيف أترجم جملة عويصة في «صورة الفنان في شبابه» إلى الألمانية، حاولنا ترجمتها أولاً إلى الفرنسية، ثم إلى الإيطالية، فقدم لكل كلمة أربع كلمات أو خمس كلمات من كل لغة، حتى الكلمات المستعملة في اللهجات، وكان يعرف قيمتها ووزنها حتى أدق الفروق. كان يتصف بالنزق، وأنا أعتقد أن هذه الصفة عينها قد أمدّت اضطرابه الداخلي، وإنتاجه بالقوة. وإن استياءه من دبلن، ومن إنكلترا، ومن بعض الأشخاص، قد تحول إلى طاقة دينامية لم تجد متنفسها في واقع الأمر إلا في الإبداع الأدبي. ولكنه بدا مولعاً بالخشونة، فأنا لم أره قط يضحك، أو يظهر البهجة. كان دائماً يترك في الذهن انطباعاً عن قوة متماسكة كئيبة، وفي الشارع كنت أراه زامّاً شفتيه الدقيقتين، ومسرعاً في سيره كأنه منطلق إلى هدف محدد، وكنت أحسّ حالة الدفاع والعزلة التي يحياها أكثر مما كنت أحسّها في أثناء أحاديثنا. ولم أندهش في ما بعد عندما علمت أن ذلك الرجل بالذات قد كتب عملاً هو الأكثر عزلة، والأقل صلة بأي عمل آخر ـ اقتحم عالم عصرنا مثل شهاب.

ومن الذين توزعتهم أُمتان فيركيو بوسوني الذي كان إيطالياً بالولادة والتعليم، وألمانياً بالاختيار. ومنذ مطلع الشباب لم أهتم بأحد من الموسيقيين كاهتمامي به، فحين كان يعزف على البيانو كانت عيناه تشرقان إشراقاً حالماً، وأما يداه فكانتا تصنعان بلا جهد موسيقا فريدة الكمال، بينما كان رأسه الجميل المتأثر المطوّح إلى الخلف قليلاً يصغي، ويتشرب الموسيقا التي يبدعها. وبعد ذلك كان يبدو لنا أن شيئاً ما كالتجلّي قد تملّكه. وفي الحفلات الموسيقية كثيراً ما لاحظت ذلك الوجه المشرق منسحراً، والنغمات الرخيمة الصافية كالفضة تسري في عروقي .ثم رأيته مرة أخرى، وقد شاب شعره، وظلّل الحزن عينيه. وسألني مرة: «إلى أي شعب أنتمي؟ إذ استيقظت ليلاً أعرف أنني تكلمت الإيطالية في الحلم، وحين أبدأ بالكتابة، أفكر باللغة الألمانية.» لقد تفرّق طلابه في كل العالم ـ «ربما يتبادلون إطلاق النار الآن» ـ، وهو لم يجرؤ على القيام بالعمل الذي بين يديه، أوبرا الدكتور فاوست، لأنه كان ذاهلاً وعاجزاً عن التركيز. كتب مسرحية موسيقية خفيفة من فصل واحد للتخلص مما يعاينه، ولكن الغيمة لم ترتفع عنه خلال الحرب. ونادراً ما سمعت ضحكاته المرحة الشديدة المتواصلة التي كنت أحبها فيه حباً جماً. وفي آخر الليالي رأيته في مطعم محطة قطارات. كان قد شرب زجاجتين من النبيذ وحده. ولما مررت ناداني. قال مشيراً إلى الزجاجتين: «مخدّر! وليس شراباً. هناك أوقات يضطر فيها المرء إلى تناول المخدّر، وإلا عجز عن التحمل. الموسيقا لا تنفع دائماً، والوقت ليس مواتياً للعمل على الدوام».

كان الوضع المتنافر أثقل ما يكون على الألزاسيين، وأسوأهم حالاً كان رينيه شيكل الذي كان يخصّ فرنسا بالحب، ولكن لغته كانت ألمانية. كانت الحرب تُخاض في واقع الأمر بسبب بلادهم، لذلك فإن المنجل قد حزّ قلوبهم. كانوا يُجرّون ذات اليمين وذات الشمال، ويُضغط عليهم لكي يعلنوا الولاء لألمانيا أو فرنسا. ولكنهم كرهوا هذا التحيز الذي كان مستحيلاً بالنسبة إليهم. ومثل سائر أصدقائنا، أرادوا ألمانيا وفرنسا شقيقتين متفاهمتين غير متعاديتين، ولذلك عانوا من كلا البلدين.

وكان يضطرب إلى جانب هؤلاء حشد من أنصاف المنحازين المخذولين المختلطي الولاء، من مثل زوجات الضباط الألمان الإنكليزيات، وأمهات الدبلوماسيين النمساويين الفرنسيات،مع ولد في هذا الجانب، وآخر في ذاك، وأبوين هنا وأبوين هناك، ينتظرون

رسائل، وأولئك الذين صودرت أملاكهم من هذا الفريق، وآولئك الذين فقدوا وظائفهم عند الفريق الآخر. إن كل من تمزقوا على هذا النحو، قد فرّوا إلى سويسرا للتخلص من الشبهة التي لاحقتهم في بلدهم القديم كما في بلدهم الجديد. وخوفاً من تشكيك هذا الطرف أو ذاك، تلافوا التحدث بأي من اللغتين، وانسلّوا مثل الأطياف مدمّرين محطّمين.

وفي أثناء ذلك، حان وقت إخراج «إرميا»، ولاقت نجاحاً ممتازاً، ولم يقلقني ما نقلته جريدة فرانكفوتر إلى ألمانيا عن حضور الوزير الأمريكي، وغيره من الشخصيات البارزة عرض المسرحية. شعرنا بأن الحرب في عامها الثالث قد أخذت تضع أوزارها، وأن معارضة استمرارها (الذي فرضه لودندروف وحده) أصبحت الآن أقل خطراً منها في عنفوانها المبكر الأثيم. كان يتوقع الوصول إلى تسوية في خريف ١٩١٨. ولكني رغبت في قضاء وقت الانتظار هذا في زوريخ. لقد غدوت شيئاً فشيئاً أكثر احتراساً وأقوى ملاحظة. ففي أيام حماستي الأولى، فكرت في العثور على أنصار متحمسين لآرائي بين كل أنصار السلم، ومناوئي الحرب، على رفاق سلاح شرفاء وذوي عزيمة للنضال من أجل وحدة أوروبا. ولم ألبث أن أدركت أن بين اللاجئين وشهداء قضايا البطولة كان يوجد بعض المشبوهين الذين خدموا دائرة الاستخبارات الألمانية بالتجسس واستراق السمع. وأصبح واضحاً أن سويسرا السليمة المسالمة، الهادئة الوطيدة، قد قوّضت أساسَها كالخُلْد نشاطاتُ العملاء السريين من كلا المعسكرين. فالخادمة التي كانت تفرغ سلّة النفاية، وعامل الهاتف، والنادل الرزين الذي كان يدنو بارتياب، إن هؤلاء كلهم كانوا في خدمة قوة معادية، وكثيراً ما كان الشخص نفسه مستأجراً من جهتين. فالأمتعة كانت تُفتح خفية، وورق النشاف يُصوَّر، والرسائل تختفي في الطريق إلى مكتب البريد ومنه. وفي أروقة الفندق كانت تبتسم لك نساء أنيقات ابتسامة مغوية، ويصل فجأة دعاة سلام مجهولون متحمسون حماسة غريبة، ويطلبون التوقيع على بيان، أو يسألون، متظاهرين بالصلاح، عن عناوين أصدقاء «معوّل عليهم». وذات مرة عرض عليّ «اشتراكي» مبلغاً مريباً مقابل إلقاء محاضرة على عمال في شودي فون تبيّن أنه لا يعرف عنها شيئاً. كان على المرء أن يكون محترساً على الدوام. ولم يطل الوقت حتى أدركت قلةَ الذين يمكن الاعتماد عليهم اعتماداً تاماً، وبما أنني

كنت راغباً عن الانجرار إلى السياسة، فقد أخذت أتجنب الاختلاط بالناس. ولكن حتى في مجتمع الموثوقين سئمت المناقشات التي لا تنتهي، وتصنيف الناس الاعتباطي إلى راديكاليين، وليبراليين، وفوضويين، وبلاشفة، وغير سياسيين. كان ذلك أول تبصّر صحيح لي في النموذج الأبدي للثوري المحترف الذي يشعر بأن مجرد المعارضة ينتشله من تفاهته، والذي يتمسك بالعقيدة لافتقاره إلى مصادر خاصة. وإن تحمّلَ ذلك في وسط هذا التصنيف المربك، كان يعني أن أصبح مرتبكاً أنا نفسي، فأتعهد علاقات غير آمنة، وأعرّض الأساس الأخلاقي لما أؤمن به للخطر. لذلك انسحبت. والحقيقة هي أن أحداً من أولئك المتآمرين في المقاهي لم يجرؤ على التآمر، وأن أحداً من أولئك المفكرين العالميين المرتجلين لم يكن قادراً على صياغة سياسة عند الحاجة إليها. ولما جاء وقت الموقف الإيجابي مع إعادة إعمار أوروبا، تشبثوا بالسلبية المتشكية المتذمرة مثل سائر شعراء ما بعد الحرب الذين لم ينجح إلا قلة منهم في إبداع شيء ذي قيمة. إن حمى العصر هي التي تجلّت في الشعر والجدال والمناظرة كوسائل، شأن جميع الجماعات التي تدين باتحادها للاتصال المؤقت، وليس للتجربة الحية. لذلك، حالما انتهى موضوع مقاومتها ـ الحرب ـ فإن تلك الحلقة من الموهوبين المثيرين للاهتمام قد أصبحت كلها أثراً بعد عين.

اخترت فندقاً صغيراً في روشليكون يبعد نصف ساعة عن زوريخ لأنه مكان مناسب للإقامة. فمن تلاله كنت أستطيع أن أرى البحيرة كلها، وأبراج المدينة البعيدة. لم أكن ملتزماً أن أشاهد أحداً إلا الذين أدعوهم من الأصدقاء الحقيقيين، رولان وماسريل، وكانوا يأتون. ههنا استطعت أن أعمل، وأن أستغل الوقت الذي كان يواصل مجراه العنيد. ولما دخلت أمريكا الحرب اتضح للجميع الذين لم تبهرهم ولم تصم آذانهم الرطانة أن هزيمة ألمانيا لا مفر منها. ولما أعلن إمبراطور ألمانيا فجأة أنه ينوي حكم البلاد حكماً «ديموقراطياً»، عرفنا أن اللعبة قد انتهت. وأعترف بكل صراحة بأننا، نحن النمساويين والألمان، كنا متشوقين إلى هذه النهاية رغم ولائنا للروح واللغة. وبما أنها أصبحت محتومة، فقد سرّعنا تقدمها. ولما فرّ الإمبراطور عبر الحدود بعد أن أقسم أن يحارب حتى آخر رجل وجواد، وقصد الجنرال لودندورف الدانمارك واضعاً على عينيه نظارة زرقاء بعد أن ضحّى بالملايين من البشر من أجل «السلام المنتصر»، شعرنا

بارتياح عظيم. وذلك لأننا كنا على يقين ـ شأن العالم كله ـ أن تلك الحرب قد حاربتنا جميعاً، وأن الوحش الذي دمّر عالمنا قد اندحر وقُتل. وحين أعلن برنامج ويلسون الرائع اعتبرناه برنامجنا، وفي الشرق، وخلال شهر عسل الثورة الروسية، ونماذجها الإنسانية المثالية، آنسنا تنويراً غامض الانتشار. أنا أعلم أننا كنا حمقى، ولكن لم نكن وحدنا. والذين عاشوا تلك الفترة يتذكرون أن شوارع كل مدينة ترددت فيها أصداء الهتافات التي أعلنت ويلسون منقذاً للعالم. وتعانق الجنود المتعادون، وتبادلوا القبلات، وأوروبا لم تكن قط عامرة القلب بالإيمان كما كانت في أيام السلم الأولى. وأخيراً أخلت الأرض المكان لإمبراطورية العدل والإخاء الموعودة منذ زمن بعيد، كانت تلك اللحظة هي لحظة اتحاد أوروبا التي حلمنا بها، وإلا لن تتحد أبداً. فالجحيم كان خلفنا، فما الذي يفزعنا بعد ذلك! عالم آخر كان يوشك أن يبدأ. وكنا شباباً فحدثنا أنفسنا: سيكون ذلك العالم عالمَ أحلامنا، عالماً أفضل، عالماً أكثر إنسانية.

الفصل الثاني عشر

العودة إلى النمسا

كان حماقة كبرى في نظر العقل أن أعود إلى النمسا بعد انهيار الجيشين الألماني والنمساوي، تلك النمسا التي بدت باهتة على خريطة أوروبا مثل ظل مبهم، رمادي، خامل للإمبراطورية السابقة. لقد انتزع التشيك، والبولنديون، والإيطاليون، والسلوفينيون بلدانهم، ولم يبقَ إلا جذع مشوّه نازف العروق. ومن الملايين الستة أو السبعة الذين أرغموا على اتخاذ اسم «النمساويون الألمان»، احتشد في العاصمة وحدها مليونا جائع وبردان، والصناعات التي أغنت البلاد في الماضي أصبحت الآن في أراضي الآخرين، والسكك الحديدية غدت أعقاباً محطمة، ومصرف الدولة تلقّى عبء دين الحرب الثقيل بدلاً من ذهبه. أما الحدود فلم يُحسم وضعها بعد، ومؤتمر السلام لم يكد يبدأ، و التعويضات لم تُحدد، والطحين و الخبز والنفط لم يَكن متوافراً شيء منها. فبدا أن الحل الوحيد هو الثورة، أو أي كارثة أخرى. وبحسب كل التكنهات الإنسانية، كان من المستحيل أن تحتفظ البلاد باستقلالها، وهي كيان مصطنع خلقه المنتصرون،والرأي الذي أجمع عليه الأطراف جميعاً: الاشتراكيون، والقوميون، ورجال الدين، هو أنها غير راغبة في أن تكون مستقلة. وهذه، بقدر ما أعلم، كانت أول حادثة في التاريخ ينوء فيها بلد بالاستقلال، ويقاومه مقاومة شديدة. لقد أرادت النمسا أن تتحد مع ولاياتها أو مع شقيقتها ألمانيا، لا أن تعيش حياة المتسول الذليل في هذا الشكل المشوّه. ولكن الولايات المجاورة لم ترغب في أي اتحاد اقتصادي، إما لأنها اعتقدت أن النمسا فقيرة جداً، وإما خوفاً من عودة أسرة هبسبورغ، وكان الانضمام إلى ألمانيا قد حال دونه الحلفاء لأنه قد يقوّى الأمة المهزومة. ولذلك فإن القرار كان أن تواصل الجمهورية النمساوية وجودها. فالبلاد التي لا ترغب في أن تكون، تتلقى الأمر: يجب أن تكوني.

وحين ألتفت إلى الماضي، أكاد لا أستطيع أن أعلّل دوافع عودتي الطوعية في تلك الأيام العصيبة التي لم تكابد مصائبها بلد قط. ولكن، بعد كل ما قيل وكل ما عُمل، فقد شببنا، نحن أبناء مرحلة ما قبل الحرب، على إحساس واضح بالواجب، وبدا لي، ولاسيما في وقت الشدة، أن أواصر الأسرة، ومسقط الرأس، كانت تدعوني. فالتملص من الكارثة القادمة كان ضرباً من الجُبن، وشعرت، باعتباري كاتب مسرحية «إرميا»، بأنني أتحمل مسؤولية المساعدة على تجاوز الهزيمة بما يتيحه لي فني من وسائل. وبما أن الحرب كانت مستغنية عني، فقد اعتبرت موقفي الآن هو الموقف الصحيح بعد الهزيمة، وذلك لأن معارضتي إطالة أمد الصراع قد منحني موقعاً أخلاقياً ما، وخاصة بين الشباب. وحتى لو لم يسفر ذلك عن شيء، فهناك على الأقل ما يعقب المشاركة في المعاناة العامة المتوقعة من رضا وارتياح.

كانت الرحلة إلى النمسا آنذاك تقتضي استعدادات مماثلة لاستعدادات الرحلة إلى القطب الشمالي. فالملابس الصوفية الدافئة كانت لازمة لانعدام الفحم هناك، واقتراب فصل الشتاء. والأحذية كان ينبغي نعلها، لأن النعال الخشبية فقط هي التي كانت متوافرة فيها. ومن سويسرا كان يسمح للمسافرين أن يأخذوا كميات من المؤن تكفيهم حتى يتسلّموا بطاقات التموين الخاصة بالخبز والزبدة، وكان يجري عادة تأمين على الأمتعة بأعلى مبلغ مسموح به، بما أن سيارت الأمتعة كان تُنهب، والأحذية والملابس تعويضها متعذر. إن المرة الوحيدة التي قمت فيها باستعداد مماثل كانت عندما سافرت إلى روسيا بعد ذلك بعشر سنوات. ترددت لحظةً عند مركز Buchs الحدودي الذي غمرني الفرح عندما بلغته في العام السابق، وفكرت في أيهما قد يكون أكثر حكمة: متابعة الرحلة أم الرجوع في الطريق الذي جئت منه. شعرت بأن ذلك كان منعطفاً في حياتي. واخترت الطريق الصعب أخيراً، وركبت القطار ثانية.

لقد منحني مركز بوكس Buchs لحظة مثيرة منذ عام، وعند عودتي الآن، كانت تنتظرني في مركز فلدرك feldkirch الحدودي النمساوي لحظةٌ ليست أقل جدارة بالتذكر. فبعد أن نزلت، لاحظت قلقاً غريباً بين ضباط الجمارك ورجال الشرطة. لقد أولونا اهتماماً قليلاً، وكانوا متهاونين في التفتيش للغاية. كان واضحاً أن شيئاً مهماً يوشك أن يقع. وأخيراً سمعنا الجرس يعلن اقتراب القطار من الجانب النمساوي.

فاصطف رجال الشرطة، وتجمع الموظفون خارج مكاتبهم، واحتشدت على المنصة نساؤهم اللواتي كان واضحاً أنهن على علم بالأمر. ولفتت نظري على نحو خاص سيدة مسنّة تلبس السواد مع ابنتيها، ويُستْدلّ من عربتها وثيابها أنها أرستقراطية.

اقترب القطار بطيئاً ومهيباً. ولم يكن من النوع المعتاد الرثيث الحائل اللون، بل نوعاً من القطارات الخاصة التي لها عربات سوداء فسيحة. كان قطاراً من النوع الفاخر. توقفت القاطرة، ولوحظ اضطراب في صفوف المنتظرين، وأنا مازلت أخبط الظلام. ثم إنني تعرفت وراء زجاج نافذة العربة الإمبراطور شارل، آخر أباطرة النمسا، وقد وقف مع زوجته التي لبست السواد، الإمبراطورة زيتا. راعني ما رأيت: آخر أباطرة النمسا، سليل أسرة هبسبورغ التي حكمت سبعمئة سنة، كان يغادر مملكته! لقد رفض أن يتنازل عن عرشه رسمياً، ومع ذلك احتفت الجمهورية كل الاحتفاء بمغادرته التي لم تكن إذعاناً بل إرغاماً. كان الرجل الطويل الوقور ينظر من النافذة نظرة أخيرة إلى التلال والمنازل، إلى ناس بلاده. كانت صدمة اللحظة التاريخية مضاعفة الأثر في نفسي، أنا الذي نشأت في تراث الإمبراطورية، وأنشد أول ما أنشد في المدرسة «نشيد الإمبراطور»، وأقسم اليمين أن يطيع «على الأرض، وفي البحر، وفي الجو» هذا الرجلَ المتصف بالوقار والتفكير، واللابس الآن ثياباً مدنيّة. كنت قد شاهدت الإمبراطور العجوز في الأبهة الأسطورية القديمة للاحتفالات المتقنة مرات لا تحصى. شاهدته على درج شونبرون الكبير مع أفراد أسرته، وكبار ضباطه في بزّاتهم الفخمة، يتقبّل فروض الولاء من ثمانين ألف تلميذ من فيينا، احتشدوا في السهل الأخضر الفسيح، وأنشدوا معاً على نحو مؤثر نشيد هايدن «حماك الله»، وشاهدته في قاعة البلاط، وفي عروض مسرح باري pare لابساً حُللاً زاهية، وفي إيشل Ischl راكباً للصيد، معتمراً قبعة خضراء، وشاهدته وهو يسير خاشعاً محني الرأس في موكب عيد القربان، إلى كاتدرائية القديس إسطفان، ثم في النعش الذي حمله إلى مثواه الأخير في المدفن الكبوشي في ذلك اليوم المضبّ الرطب من أيام الشتاء.. «الإمبراطور!» هذه اللفظة تعلمنا منذ طفولتنا المبكرة أن نلفظها باحترام، لأنها تجسّد كل القوة والثروة اللتين ترمزان إلى النمسا الخالدة. وهاأنذا الآن أشاهد وريثه، الإمبراطور الأخير، مبعداً عن بلاده. لقد توارثت سلالة هبسبورغ المجيدة شارة الإمبراطورية وتاجها قروناً عديدة،

وكانت تلك اللحظة هي لحظة نهايتها. والذين وقفوا هناك، أحسّوا جميعهم بالتاريخ، تاريخ العالم، في هذا المشهد المأساوي. بُهت الجنود ورجال الشرطة، وبدوا مرتبكين لأنهم لم يكونوا متأكدين من استمرار التقدير القديم للإمبراطور على حاله، وكادت النساء لا تجرؤن على رفع أنظارهن. كان الجميع صامتين، ولذلك فإن التنهد الخافت للمرأة العجوز اللابسة ثياب الحداد، والتي لا يعلم إلا الله المسافة التي قطعتها من أجل أن ترى «إمبراطورها» مرة أخرى، كان مسموعاً بكل وضوح. وأخيراً أعطى قائد القطار الإشارة. ولما حانت اللحظة التي لا تستعاد، أصابت الجميع جفلة عفوية. تحركت القاطرة بارتجاج شديد وكأنما كان عليها هي أيضاً أن تتغلب على ما تكره، ثم انسحب القطار على مهله. حدّق إليه الموظفون باحترام، ثم عادوا بعد ذلك إلى مواقعهم وقد استحوذ عليهم الارتباك الذي يُلحظ في الجنائز. لقد انتهى حقاً في تلك اللحظة النظام الملكي الذي عاش نحو ألف عام. وعلمت أنني عائد إلى نمسا مختلفة، إلى عالم مختلف.

لم يكد القطار يغيب عن النظر حتى أُلزمنا بالانتقال من القطارات السويسرية الأنيقة النظيفة إلى القطارات النمساوية. وحَسْب المرء أن يدخل إليها حتى يدرك سلفاً ما حلّ بالبلاد. كان الحراس الذين أرشدونا إلى مقاعدنا منهكين، ممزقي الثياب، متضورين من الجوع. كانوا يمشون في تثاقل وقد تدلّت على أكتافهم المنحنية بزّاتهم الرثة المهلهلة. وفي العربة وجدنا قطع الجلد التي تُفتح بها النوافذ وتُغلق منزوعةً، وذلك لأن كل قطعة منها كانت مادة ثمينة. وفعلت السكاكين والحراب فعلها في المقاعد، فانُتزعت بها أقسام كاملة من الأغطية، إذ أن الحاجة إلى إصلاح الأحذية كانت تحمل الناس على نهب الجلد من أي مكان. وكذلك كانت المنافض مفقودة، فلقد سرقت من أجل ثمنها البخس. ومن خلال النوافذ المحطمة، كانت تهبّ ريح أواخر الخريف حاملة معها هباباً من فحم الليجنيت الرديء، وهو الوقود الذي كانت تُزوّد به القطارات. لقد لوّث الأرضية والجدران، غير أن رائحته الكريهة قد لطّفت على الأقل رائحة اليودوفورم الذي تُذكرّ بالمرضى والجرحى الذين نُقلوا في هياكل هذه القطارات خلال الحرب. كان مجرد تحرك القطار معجزة حتى لو كان قطاراً مضجراً. كنا نخشى أن

يلفظ المحرك المتهرّئ أنفاسه كلما خفّت حدة زعيق العجلات غير المشحّمة. فالمسافات التي كان يستغرق قطعها ساعة، أصبح يستغرق أربع ساعات أو خمساً. ولما دخلنا في الغسق بقينا في الظلام. كانت مصابيح الكهرباء إما محطمة أو مسروقة، لذلك كان على الباحث عن شيء أن يتلمّس طريقه في ضوء أعواد الثقاب. وإن لم نتجمد، فذلك مردّه إلى أن كل ستة أو سبعة منها قد حُشروا في مقصورة. وعند كل توقف كان مسافرون يزيدون الازدحام. وجميعهم أتعبتهم ساعات الانتظار. اكتظّت الممرات، وقضى بعض الأشخاص الليل البارد على درجات العربات. كان كل واحد يتمسك بأمتعته تمسك الحريص، ويضمّ صرّة الأغذية إلى صدره. وإن أحداً لم يجرؤ على الانفصال عن شيء مما يملك لحظة واحدة في الظلام. لقد كنت عائداً من وسط السلام إلى هول الحرب التي حسبت أنها قد انتهت.

وقبل أن نصل إلى إنزبروك، أخذت القاطرة تقعقع فجأة، وعلى الرغم من كثرة النفخ والصفير فقد أخفقت في قهر تلّه صغيرة. ركض عمال سكة الحديد هنا وهناك بانفعال حاملين مصابيحهم الداخنة. انقضت ساعة قبل أن تأتي قاطرة طوارئ لاهثة، ولم نصل إلى سالزبورغ إلا بعد سبع عشرة ساعة بدلاً من سبع. لم يقع بصرنا على حمّال، فعرض علينا بعض الجنود المرتدين أسمالاً أن يحملوا أمتعتنا. كان حصان عربتي هرماً وسيئ التغذية بحيث بدا كأن عموديْ العربة لم يكن القصد من شدّه إليهما جرّ العربة بقدر ما كان دعمه. إن الحيوان الشبحي لم يوحِ لي بالقدرة على جرّ العربة الملأى بالأمتعة، لذلك أودعت حقائبي في المحطة، رغم خوفي من فقدانها إلى الأبد.

كنت قد اشتريت منزلاً خلال الحرب في سالزبورغ، لأن الابتعاد عن أصدقائي القدامى نتيجة التعارض في الموقف من الحرب قد أثار رغبتي في العيش بعيداً عن المدن الكبرى وتجمعات الناس. وقد تبيّن لي أخيراً أن هذا الانسحاب كان مفيداً لعملي في ما بعد.

بدت لي سالزبورغ أكثر مدن النمسا مثالية، لا بسبب طبيعتها الجميلة فقط، بل بسبب موقعها الجغرافي. كنت أستطيع أن أصل إلى مونيخ في ساعتين ونصف الساعة بالقطار، وإلى فيينا في خمس، وإلى زوريخ أو البندقية في عشر، وإلى باريس في

عشرين، وهذا ما جعلها منصة الوثب المناسبة إلى أوروبا. والحق هو أنها لم تكن يومئذٍ قد أصبحت ملتقى «البارزين» في العالم (وإلا لما اخترتها للعمل فيها)، أو مشهورةً بالمهرجانات المسرحية، بل كانت مدينة صغيرة قديمة، هادئة، ورومانسية على آخر منحدر من منحدرات جمال الألب، حيث تسلم التلال نفسها في رفق للسهل الألماني. والتلة القليلة الأشجار التي سكنت عليها كانت آخر أمواج السلسلة الجبلية الهائلة، إن صحت العبارة، وكانت عصيّة على السيارات، ولا يمكن الوصول إليها إلا بارتقاء درجات «مراحل الصلب» التي تربو على المئة، والتي عمرها أكثر من ثلاثة قرون، ولكن الجهد كانت مكافأته منظراً ساحراً هو منظر السطوح المائلة للمدينة ذات الأبراج العديدة، وبانوراما سلسلة جبال الألب الرائعة (بما فيها سالزبيرغ، حيث عاش بعد مدة قصيرة هتلر المغمور آنذاك). وتبين لي أخيراً أن المنزل نفسه كان رومانسياً بقدر ما كان غير عملي. كان قائماً حذاء جدار قلعة عظيمة، وفي القرن السابع عشر كان يقيم فيه رئيس أساقفة في موسم الصيد، وفي أواخر القرن الثامن عشر، أضيف إليه غرفتان على الجانبين. ومن الأدلة الملموسة على ماضي المنزل العريق، مطّرزة قديمة رائعة، وواحدة من كرتين مزخرفتين دحرجهما عبر الممر الطويل الإمبراطور فرانسيس ذاته، عند زيارته سالزبورغ عام ١٨٠٧، إضافة إلى رَقّ قديم يوثّق سلسلة المالكين.

إن ذلك المنزل الإقطاعي الصغير الذي كانت واجهته العريضة تُشعر الناظر بالفخامة ـ كان قليل العمق، ولا يشتمل إلا على تسع غرف. كان تحفة قديمة تستحوذ على إعجاب الزوار، ولكن ماضيه التاريخي كان تجلّيه في ذلك الوقت غير سعيد. فلقد وجدنا أنه غير قابل للسكن تقريباً. فالمطر يَكِفُ في الغرف مرحاً، وبعد كل ثلجة تغمر المياهُ التلال. وكان الإصلاح الكامل للسطح مستحيلاً، لأن النجارين لا خشب عندهم للألواح، والسمكريون لا رقائق عندهم للمزاريب، وأسوأ الشقوق كان يواضب على تغطيتها بالورق المطلي بالقار. وعند سقوط ثلج جديد كان لا مناص من ارتقاء السطح من أجل إزالة الحِمْل في الوقت المناسب. أما الهاتف فقد كان يعاند بعد استخدام أسلاك الحديد بدلاً من أسلاك النحاس.وكان ينبغي حمل كل شيء إلى أعلى التلة، بما أن أحداً لم يكن يوصل الحوائج. والأدهى من كل ذلك كان البرد، إذ لم يكن هناك فحم على مسافة أميال حولنا، والأخشاب المقطعة في المنزل كانت غضّة، وتفحّ

مثل الأفعى بدلاً من أن تدفئ، وتفرقع بدلاً من أن تحترق. وحملتنا الحاجة إلى استخدام غثاء السيول الجافة الذي منحنا على الأقل ما يشبه الدفء، ولكنني كتبت ما كتبت طيلة ثلاثة شهور وأنا مستلقٍ في السرير، وكنت أدفئ أصابعي المزرقّة المتجمدة بعد الانتهاء من كل صفحة. ولكن حتى هذا المسكن الذي لا يفي بالحاجة لم يكن ليُستخف به، لأن في عام الكارثة هذا كان هناك نقص في المساكن مثلما كان هناك نقص في المؤن. فطوال أربع سنوات لم تجرِ أعمال بناء في النمسا، وانهارت منازل عديدة، وتدفقت فجأة آنذاك إلى البلاد أعداد لا تحصى من الجنود والأسرى المصروفين من الخدمة، لذلك وُزّعت الغرف المتوفرة عنوةً على الأسَر. وزارتنا لجان أربع مرات، ولكننا كنا قد تنازلنا عن غرفتين طوعاً منذ مدة طويلة، وثبت في النهاية أن عدم كفاية منزلنا التي كانت امتحاناً عسيراً لنا في البداية كانت مفيدة، إذ لا أحد رغب في صعود مئة درجة ليتجمد من البرد بعد أن يصل.

كانت كل نزلة إلى المدينة في تلك الفترة تجربة مثيرة، فأنا قد رأيت أول عيون المجاعة الصفراء الخطرة. كان الخبز فتائت سوداء طعمها مثل طعم القار والغراء، والقهوة نقيع شعير محمص، والبيرة مثل ماء أصفر، والشكولاتا مثل رمل ملون، والبطاطا متجمدة. وحتى لا ينسى الناس مذاق اللحم ربّوا أرانب، وكان أحد الأولاد يطلق النار على السناجيب في حديقتنا من أجل عشاء يوم الأحد، والكلاب أو القطط ذات التغذية الجيدة قلما كانت تعود من طوافها بحثاً عن فرائس. وما كان يباع من الأقمشة لم يكن أكثر من ورق عولج معالجة خاصة، وصار هذا بديلاً من ذاك، وارتدى الناس على الدوام تقريباً أزياء قديمة - حتى أزياء روسية - حصلوا عليها من هذا المستودع أو ذاك المستشفى، وكان قد مات وهو لابسها أكثر من واحد، كما كانت شائعة البناطيل المفصلة من أكياس قديمة. كانت تقلق الروح كلُّ خطوةٍ عبر الشارع، حيث تبدو مظاهر النهب على نوافذ الحوانيت، وحيث يتساقط الملاط من المنازل الخربة مثل قشر الشعر، وحيث الناس البادي عليهم نقص التغذية يجرّون خطاهم جراً إلى أعمالهم. وأما في الريف، فقد كان وضع الغذاء أفضل. فما من مزارع سمح لنفسه بأن يتأثر بانحطاط المعنويات العام حتى يبيع ما لديه من زبدة، أو بيض، أو حليب بالأسعار «العليا» التي حددها القانون. لقد خبّأ سلعه حيث استطاع، وانتظر في بيته

أعلى العروض. وهذا الإجراء أدى إلى قيام «السوق السوداء». كان أحدهم يحمل حقيبة أو حقيبتين، وينطلق من مزرعة إلى أخرى، وأحياناً كان يركب القطار إلى أماكن غير مشروعة تنتج أغذية خاصة، فيتبضّعها، ثم يبيعها بأربعة أضعاف سعر الكلفة، أو خمسة أضعافه. في البداية نظر الفلاحون نظرة راضية إلى وابل العملة الورقية التي باعوا بها زبدتهم وبيضهم، وجعلتهم من مستغلي ظروف الحرب. ولكن، عندما حملوا محافظ نقودهم المحشوة إلى المدينة للتسوق، اكتشفوا ما أسخطهم. ففي حين كانوا ضاعفوا الأسعار العادية خمس مرات، فإن المنجل والمطرقة والسطل التي جاؤوا لابتياعها قد ارتفعت أسعارها في أثناء ذلك عشرين ضعفاً، أو خمسين. ومنذ ذلك الوقت فصاعداً، سعوا إلى بيع المقايضة، فطلبوا مبادلة مادة بمادة، وسلعة بسلعة. لقد رضي الناس المتخندقون بالنكوص إلى أزمنة سكان الكهوف، فألغوا تقليد النقد الذي عمره ألف عام، وارتدّوا إلى المقايضة البدائية. وشهدت البلاد كلها حركة مقايضة غريبة. فأخذ سكان المدن إلى المزارع كل ما كانوا يستطيعون الاستغناء عنه ـ آنية خزف وسجاجيد صينية، سيوف وبنادق، كاميرات وكتب، مصابيح وزخارف ـ وبالتالي ربما اندهش الداخل إلى منزل فلاح سالزبورغ من رؤية بوذا هندي، أو خزانة كتب بالغة الزخرفة مع كتب فرنسية مجلّدة كانت موضع فخر خاص عند مالكيها الجدد. كان تباهيهم مؤثراً: «جلد حقيقي! فرنسا!» إن أي مادة باستثناء المال أصبحت كلمة السر. واضطر بعض الناس إلى نزع خواتم الخطبة من أصابعهم، أو الحزام الجلدي من حول أجسادهم، للإبقاء على الأجساد حية.

وأخيراً تدخلت السلطات لوقف التجارة الهدّامة، غير أن تنفيذ هذا الوقف لم يستفد منه إلا الميسورون. ففي كل منطقة أحيطت المواقع المهمة بالجند، والبضائع المحظورة الواصلة بالقطار أو الدرّاجة كانت تصادر لصالح مكاتب الغذاء البلدية. ورداً على هذا الإجراء نظّم المدخرون توزيعاً ليلياً للبضائع في شاحنات يرافقها مجرمون غريبون متهورون، أو تقديم الرُشَى للمفتشين الذين كانوا آباء للأطفال الجياع. كانت تنشب أحياناً معارك فعلية بالمسدسات والخناجر، فبعد أربع سنوات من الممارسة في الجبهة، كان أولئك الشباب يعرفون أيضاً الطريقة العسكرية المستحسنة في تغطية الفرار. وتفاقمت الفوضى مع مرور الوقت. وزاد هياج السكان، وأصبح انخفاض قيمة

العملة المتزايد أشد جلاء. وكانت الدول المجاورة قد أحلّت عملتها الجديدة محل الأوراق النقدية النمساوية الهنغارية القديمة، وبذلك ألقت على النمسا الصغيرة عبء إنقاذ الكرون kron القديم. كانت أولى علامات عدم الثقة اختفاء العملة المعدنية، فمال الناس إلى اعتبار قطع النحاس أو النيكل أثمن من الأوراق المطبوعة. وبذلت الحكومة جهدها للحصول على أغلى إنتاج للأوراق النقدية من المطابع متبعين وصفة ميفستوفليس، غير أنها لم تستطع مجاراة التضخم. ثم إن كل مدينة، وأخيراً كل قرية، بدأت تطبع عملتها الخاصة في «الأوضاع الطارئة»، والتي كانت ترفضها القرى المجاورة، وتعتبرها عديمة القيمة، وتنبذها في الغالب. ورجل الاقتصاد الذي عرف كيف يصف وصفاً حياً جميع أطوار التضخم الذي انتشر من النمسا إلى ألمانيا، ربما وجد ذلك مادة لا نظير لها لرواية مثيرة، لأن الفوضى قد اتخذت صوراً بالغة الغرابة. فالناس جهلوا قيمة الأشياء، وارتفعت الأسعار ارتفاعاً غير معقول، وكان التاجر المقتصد يرفع سعر علبة أعواد الثقاب عشرين مرة زيادة على سعر منافسه المستقيم الذي دفعته براءته إلى التزام مأثور الأمس: إن جزاء الصدق هو بيع البضاعة في غضون ساعة، لأن الأخبار كانت سريعة الانتشار، فاندفع الجميع إلى شراء أي شيء معروض للبيع سواء أكانوا في حاجة إليه أم لا. وحتى أسماك الحوض الذهبية صارت «بضائع»، فما أقبلت عليه الناس هو السلع بدلاً من الأوراق النقدية. ونشأ في مجال الإيجار أغرب تضارب، فالحكومة منعت أي ارتفاع، وهكذا حمت المستأجرين، وهم الأغلبية، أما أصحاب المنازل فقد كانوا الخاسرين. و بعد مدة قصيرة، أصبح المسكن المتوسط الحجم يكلّف مستأجره في عام كامل أقل مما يكلّف طعام غداء واحد. و خلال خمسة أعوام أو عشرة (لأن عقود الإيجار قد مُنع إلغاؤها حتى في ما بعد) تمتّع سكان النمسا بسكن مجاني تقريباً. وفي أعقاب هذه الفوضى المجنونة أخذ الوضع يتصف أكثر فأكثر بالمفارقة وانعدام الأخلاق. فمن اقتصد طيلة أربعين عاماً، ثم حملته وطنيته إلى توظيف كل أمواله في سندات الحرب، أصبح متسولاً، ومن كان مديوناً تخلص من ديونه. وجاع الذي احترم نظام توزيع الغذاء، ولم يشبع إلا من لم يكترث به. وتقدم من تمرس بالرشوة، وحين ضارب ربح. ومن اعتمد سعر الكلفة سُرق، ومن أجرى حسابات دقيقة، غُشّ رغم دقته. لقد اختفت المعايير والقيم خلال هذا التبخر، وهذا التلاشي

للنقد، ولم يبق إلا فضيلة واحدة، وهي أن تكون ذكياً، وفطناً، وغير مراعٍ للضمير، وأن تمتطي جواد السباق لا أن تجعله يرفسك.

وبغية وقف كل ذلك خلال الزوبعة المالية التي حرمت النمساويين من أي مقياس اقتصادي، عرف بعض الأجانب كيف يمكن جعل تعاستنا تخدم أغراضهم. كانت العملة الأجنبية هي الشيء الوحيد الذي بقي ثابتاً داخل البلاد في الأعوام الثلاثة التي اتخذ فيها التضخم وتيرة متسارعة. ولأن النقد النمساوي قد ذاب في الأيدي مثل الثلج فقد احتاج كل واحد إلى فرنكات سويسرية أو إلى دولارات أمريكية. واغتنم كثير من الأجانب الفرصة لكي يسمنوا من الجثة المرتجفة للكرون النمساوي. و «اكتُشفت» النمسا، وعانت «فصل سياحة» فاجعاً. فكل فندق في فيينا اكتظ بأولئك الجشعين الذين اشتروا كل شيء، من فراشي الأسنان إلى الأطيان، وقشّوا المجموعات الخاصة، ومحتويات محلات التحف قبل أن ينتبه أصحابها الواقعون في محنة للطريقة التي تمّ نهبهم بها. كان موظفو فنادق متواضعون من سويسرا، وكاتبو اختزال من هولندا، ينزلون في أفخر الفنادق. ويمكنني أن أجزم كشاهد عيان، وإن بدا الأمر غير قابل للتصديق، أن فندق أوروبا، وهو من فنادق الدرجة الأولى في سالزبورغ، قد شغله مدة من الزمن العاطلون عن العمل في إنكلترا، وذلك لأن سخاء الصدقات البريطانية قد جعل إقامتهم في ذلك الفندق المتميز أرخص من العيش في بلادهم. وكل ما لم يكن مثبتاً بالمسامير كان يختفي. وانتشرت أخبار المعيشة الرخيصة والبضائع الرخيصة في النمسا انتشاراً واسعاً،فجاء زوّار من السويد و فرنسا، وكانت اللغات الإيطالية والفرنسية والتركية والرومانية يجري التكلم بها في منطقة فيينا التجارية أكثر من الألمانية. وحتى ألمانيا التي كانت سرعة التضخم فيها أبطأ بكثير، وإن أصبحت في آخر الأمر أكبر مئة ألف مرة منها في النمسا، استغلت تضاؤل قيمة الكرون من أجل مصلحة سوقها. لقد منحتني سالزبورغ، المدينة الحدودية، فرصة مراقبة هذه الحملات اليومية. فالبافاريون تدفقوا بالمئات والآلاف من القرى والمدن المجاورة إلى المدينة الصغيرة، وعاملوا الخياطين باستعلاء، وأصلحوا سياراتهم، واستشاروا الأطباء، واشتروا أدوية. ورجال الأعمال القادمون من ميونخ بعثوا رسائلهم إلى الخارج. وأرسلوا برقياتهم من النمسا، لكي يضعوا في جيوبهم ما يوفرونه من الرسوم. وبعد تحريض من

الحكومة الألمانية، أقيمت مراكز رقابة على الحدود لمنع الألمان من شراء المؤن من سالزبورغ حيث كان المارك يساوي سبعين كروناً نمساوياً. صودرت السلع القادمة من النمسا في مركز الجمارك. غير أن مادة كانت مصادرتها غير ممكنة، فبقيت غير خاضعة للرسوم، وهي البيرة في البطون. كان شاربو البيرة البافاريون يراقبون أسعار الصرف يومياً ليقرروا إن كان هبوط الكرون يتيح لهم شراء خمس ليترات من البيرة في سالزبوغ،أم ستة،أم عشرة مقابل سعر الليتر الواحد عندهم. لم يكن ممكناً تخيّل إغراء أقوى من هذا الإغراء، لذلك توافدوا مع زوجاتهم وأولادهم من فرايلاسنغ ورايشينهول المجاورتين لكي يتجرعوا من البيرة ما وسعهم أن يتجرعوا، وفي كل ليلة كانت محطة القطار تعمّها فوضى السكارى الصاخبين المتجشئين الذين كان بعضهم يوهنهم السرفُ في الشرب، فيُحملون على عربات يدوية إلى القطار، ثم ينقلون إلى بلادهم وقد علا ضجيج عربدتهم. والحق هو أن البافاريين لم يتوقعوا الانتقام الفظيع المعّد لهم. فلما استقر الكرون، وانخفضت قيمة المارك انخفاضاً شديداً، اجتاز النمساويون هذه المرة امتداد السكة ذاته ليحصلوا على شراب رخيص، فتكرّر المشهد، ولكن في الجهة المقابلة هذه المرة. إن حرب البيرة هذه بين تضخمين تبقى إحدى أغرب ذكرياتي، لأنها كانت انعكاساً دقيقاً، وفي صورة مصغرة غريبة، للجنون الذي طبع تلك الأعوام.

إن أغرب شيء هو أنني لا أستطيع، مهما حاولت، أن أتذكر كيف احتفظنا بمنزلنا خلال تلك الفترة، أو كيف واصل النمساويون جمع الآلاف ,وعشرات الآلاف من الكرونات، وكيف واصِل الإلمان هم الآخرون جمع الملايين المطلوبة كل يوم للمحافظة على الحياة. لقد استطاعوا على نحو غامض أن يجمعوها، فالفوضى أصبحت حياة عادية، والعادات تُكتسب. وفي وقت أصبحت فيه البيضة تكلّف ما كانت تكلّفة سيارة فخمة (ارتفع سعر البيض في ألمانيا إلى أربعة بلايين مارك، وهذي هي القيمة التقريبية السابقة للعقارات في برلين الكبرى)، قد يتخيل من لم يرَ رأي العين أن النساء كن يندفعن في الشوارع راكضات مشعثات الشعر، وأن الحوانيت كانت مهجورة لانخفاض القوة الشرائية، وأن المسارح وأماكن اللهو كانت خالية تماماً، وهذا التخيل مما يقبله العقل. ولكن ما يدهش فعلاً هو أن الحالة قد كانت عكس ذلك تماماً. كانت إدارة الحياة

من القوة بحيث تغلبت على عدم استقرار العملة. فرغم أن الفوضى المالية قد انتشرت، فإن دورة الحياة اليومية لم يبدُ أنها تأثرت كثيراً. لقد حدثت تغيرات خاصة واسعة، كأولئك الذين كانت ثروتهم على شكل ودائع في المصارف، أو سندات حكومية وأصبحوا فقراء، والمضاربين الذين اغتنوا. ولكن عجلة الموازنة حافظت على إيقاعها غير مكترثة بالأقدار الخاصة. لم يتوقف شيء عن الحركة، فظل الخبازون يخبزون الخبز، والسكّافون يصنعون الأحذية ،والكتاب يؤلفون الكتب، والفلاحون يبذرون ويحصدون والقطارات تسير في موعدها، وصحف الصباح تصل في وقتها، وأماكن اللهو، والبارات، والمسارح تمتلىء بالناس. فالمال الذي مثّل ذات يوم أعظم استقرار ، كانت قيمته تتناقص يوماً بعد يوم، وهذا ما دعا الناس إلى تقدير قيم الحياة الصحيحة المتجسدة في الحب والصداقة والفن والطبيعة تقديراً أعلى، فعاشت الأمة كلها حياة فيها حدة وبهجة أكثر من أي وقت مضى على الرغم من الكارثة. فالشباب قصدوا الجبال سيراً على الأقدام، وعادوا مكتسبين سمرة العافية، وقاعات الرقص بقيت مفتوحة حتى وقت متأخر من الليل، وبرزت إلى الوجود مصانع ومشاريع تجارية جديدة. لا أعتقد أنني عشت وعملت فيما مضى بحماسة أشد من حماسة تلك الأعوام. فما كان يعنينا في الأيام الماضية عنانا الآن أكثر، إذ أننا لم نخلص للفن في النمسا قط كما أخلصنا في سنوات الفوضى تلك، وذلك لأن انهيار النقد جعلنا نشعر بأن الأشياء زائلة، ولاشيء يتصف بالديمومة إلا الخالد في أعماقنا.

لن أنسى ما عناه لي أداء أوبرا في تلك الأيام العجاف. فبسبب نقص الفحم، كانت الشوارع ضعيفة الإنارة، وكان على الناس أن يتلمسوا طريقهم تلمّساً. ومقاعد المسرح كان يُدفع من أجلها رزمة من فئات الأوراق النقدية التي كانت كافية فيما مضى لحجز أفضل مقصورة طيلة الموسم. لم يكن المسرح مدّفأ، لذلك لبس روّاده معاطفهم، والتزّ بعضهم ببعض طلباً للدفء. لكم كان كئيباً ورمادياً ذلك المبنى الذي كان ذات يوم تتلألأ فيه الأزياء، والأثواب النفيسة! لم يكن أحد على يقين من استمرار الأوبرا إلى الأسبوع التالي، فقد كان يبدو أن انخفاض قيمة العملة، والشكوك في توزيع الفحم، قد ضاعفت اليأس من هذا المجلى للترف، والوفرة الإمبراطورية. كان عازفو الجمعية الموسيقية مثل أطياف رمادية، وقد رثّت هيئاتهم، وأضنتهم الحرمانات

العديدة، وبدا الجمهور أيضاً كأنه أشباح في المسرح الذي أصبح شبحياً. ومع ذلك، فإن قائد الأوركسترا رفع عصاه، وانزاح الستار، وكانت حفلة رائعة مثل أي حفلة من حفلات الماضي. لقد بذل كل مغنٍ، وكل عازف، جهده، بل غاية جهده، لأن كل واحد قد خطر له أن تلك الحفلة قد تكون الأخيرة في ذلك المبنى العزيز. وتوتّرنا وأصغينا استعداداً للتلقي كما كنا نفعل فيما مضى، لأنها قد تكون آخر مرة بالفعل. تلك هي الروحية التي عاش بها الآلاف المؤلفة منا، مستنفدين كل طاقتنا على شفا الدمار في تلك الأسابيع والشهور والأعوام. لم أختبر قط في الناس وفي نفسي جيشان الحياة القوي كما اختبرته في تلك المرحلة التي كان فيها وجودنا وبقاؤنا بالذات مرتهنين بالأحداث.

قد يصعب عليّ أن أوضحّ كيف أفلحت النمسا المنهوبة الخربة في النجاة من التفكك. ففي بافاريا عن يميننا أُنشئت جمهورية العمال الشيوعية، وبلغاريا عن شمالنا تحولت إلى البلشفية تحت قيادة بيلاكون. ولا أستطيع حتى هذا اليوم أن أفهم كيف أفلتت النمسا من قبضة الثورة. لم يكن ثمة افتقار إلى المواد المتفجرة. فالجنود العائدون البادي عليهم سوء التغذية والرثاثة كانوا يتسكعون، ويلاحظون باستياء التبذير الفاضح لأولئك الذين استفادوا من الحرب والتضخم، وكانت كتيبة «حرس أحمر» متأهبة في ثكنتها، ولم يكن هناك أي تنظيم معارض.لذلك كان في مقدور مئتي رجل من أولي العزم أن يسيطروا على فيينا كلها آنذاك. ولكن شيئاً من هذا لم يحدث. لقد حاولت عصابة قليلة الخبرة أن تقوم بانقلاب، غير أن المحاولة أحبطها نحو ستين رجلاً من رجال الشرطة بكل سهولة. وحدثت معجزة بعد ذلك: فالأمة المنقطعة عن مصادر طاقتها، ومصانعها، ومناجم فحمها، وحقول نفطها، مع أكوام من العملة الورقية العديمة القيمة،هذه الأمة المنهوبة بكل معنى الكلمة قد حافظت على نفسها ،وأكدت و جودها. ولعل ذلك مردّه إلى ضعفها، وذلك لأن الشعب كان منهكاً وجائعاً إلى حد عجز معه عن النضال من أجل أي شيء، أو إلى قوى النمسا المتميزة الخاصة، أي نزوعها المتأصل إلى التصالح. ففي اللحظة الحاسمة شكل أكبر حزبين، الديمقراطي الاشتراكي، والاشتراكي المسيحي، حكومة اتحاد وطني على الرغم من

اختلافاتهما الجذرية. كان هناك تنازلات متبادلة بغية درء كارثة كان يمكن أن تجتاح أوروبا كلها. وفي الوقت الملائم، أصبحت الحياة منظمة ومتماسكة. وما كان مدعاة للدهشة هو انقضاء ما لا يصدق: فالدولة المعطلة لم تستمر فقط، بل كانت مستعدة للدفاع عن استقلالها عندما جاء هتلر لكي يسلب هذا الشعب روحه، هذا الشعب المؤمن الرائع الشجاعة في أوقات الشدة.

إن ما أعرضت عنه النمسا هو التغير الجذري بالمعنى الخارجي والسياسي فقط، إذ أن ثورة داخلية هائلة قد حدثت خلال تلك الأعوام التي أعقبت الحرب. لقد تحطم شيء إلى جانب الجيش في تلك الحرب، وهو عصمة السلطة التي آمنا بها في شبابنا، وتدرّبنا على المغالاة في الخضوع لها. أكان متوقعاً أن يبقى الألمان معجبين بإمبراطورهم الذي أقسم في البداية أن يقاتل «حتى آخر جواد وآخر رجل»، ثم هرب عبر الحدود متستراً بالليل والضباب؟ أكان متوقعاً منهم ذلك بالنسبة إلى قادتهم العسكريين، وساستهم، وشعرائهم القدامى الذين تكلّفوا الأشعار الوطنية المبتذلة؟ إن الدمار الفظيع الذي نجم عن الحرب لم يتضح إلا بعد أن ارتفع دخانها. كيف يمكن أن تبقى مقدسة تلك الوصية الأخلاقية التي قدّست القتل والسلب متقنّعةً بالوطنية، وطلب تسليم المجرمين، طيلة أربع سنوات طوال؟ كيف كان ممكناً أن يعتمد شعب على وعود دولته التي ألغت كل ما لم تستطع الوفاء به على نحو مناسب من التزامات نحو مواطنيها؟ والذين تجاوزوا الآن حماقة الحرب بإقامة السلام على نحو أخرق هم الأشخاص أنفسهم الذين يُعتبرون أصحاب خبرة. والكل يعرف الآن، وبعضنا عرف آنذاك،أن السلام يوفّر إحدى أعظم إمكانات التاريخ الأخلاقية، إن لم يكن أعظمها. وهذا ما أدركه ويلسون الذي أوجز في رؤياه الشاملة خطة لاتفاقية دولية صحيحة ودائمة. غير أن الجنرالات القدامى، ورجال الدولة القدامى، ورؤساء الصناعة القدامى، قد قطّعوا ذلك المفهوم العظيم قطعاً صغيرة، وحولوه إلى ورق لا قيمة له. إن الوعد المقدس بأن تكون هذه الحرب آخر الحروب قد شدّت أزر الجنود المنهكين المحبطين، ولكنه ضُحّي به في سبيل مصالح تجار الموت. وفي سبيل ولع الساسة بالمقامرة، الساسة الذين لعبوا لعبتهم القديمة المهلكة في المفاوضات والمعاهدات السرية، وراء ستار مطالب ويلسون الحكيمة والإنسانية. وأدرك العالم أنه قد خُدع إدراكاً يتناسب مع يقظته. لقد

خُدعت النسـاء اللواتي ضحـيّن بأبنائهن، و خُـدع الجنود الذين عـادوا إلى منازلهم كالمتسولين، وخُدع الذي اشتركوا في قروض الحرب تحمساً للوطن، وخُدع كل من وثق بأي وعد من وعود الدولة، وخُدع منا الذين حلموا بعالم جديد أفضل تنظيماً، والذين رأوا أن المقامرين القدماء ذاتهم كانوا يفعلون الفعل القديم ذاته الذي يجعل وجودنا، وسعادتنا، ووقتنا، وأقدارنا، في خطر. فلا عجب إذاً أن ينظر الجيل الجديد كله نظرة ساخطة وساخرة إلى آبائهم الذين سمحوا بأن يؤخذ منهم النصر الأول، ثم السلام، والذين لم يحسنوا شيئاً، إذ كانوا بلا بصيرة، وأساؤوا تقدير كل شيء. أليس مفهوماً ألا يحترم الجيل الجديد شيئاً؟ لقد شكّ في الآباء، والساسة، والمعلمين، وكان يقرأ بارتياب كل قرار وكل إعلان من الدولة. إن جيل ما بعد الحرب قد انعتق من النظام القائم، وتمرّد على كل تقليد، وعزم على صياغة قدره الخاص، والتخلي عن الماضي، والتحليق في المستقبل. كان ينبغي أن ينشأ عالم جديد تماماً تحكم فيه القوانين جميع وجوه الحياة، وكما كان متوقعاً، فإن الحياة الجديدة قد بدأت بداية متطرفة جداً.. فكل من كان، وما كان، قديماً وُضع على الرف. وانطلق الفتيان في فرق wandervogel المنظمة المطلعة على قضايا الجنس، وطافوا في البلاد حتى إيطاليا وبحر الشمال. واقتداء بالنموذج الروسي، أنشئت في المدارس «مجالس الطلاب» التي كانت تراقب المعلمين، وتفسد منهاج الدراسة، وذلك لأن الطلاب قصدوا وأرادوا دراسة ما يحلو لهم. لقد تمردوا على كل شيء مشروع حباً بالتمرد فقط، حتى ضد نظام الطبيعة، وضد قطبية الجنسين الأبدية. اتخذت الفتيات «قصات شعر الشبان» بحيث صار من الصعب تمييز بعضهم من بعض. وتقصد الشبان من جهتهم أن تظهرهم حلاقة الشعر أشبه بالفتيات، وشاع اللواط والسحاق لا استجابة للغريزة، بل احتجاجاً على أشكال التعبير التقليدية والعادية عن الحب. وبالطبع تجلّى الدافع العام إلى التطرف الثوري الجذري في الفن أيضاً. فقد أعلن الرسامون الجدد أن كل ما أبدعه رمبرانت، وهولباين، وفيلاسكويز قد انتهى أمره، وشرعوا في أكثر التجارب التكعيبية والسريالية إغراباً وخيالية. ففي كل شيء أُقصي العنصر المفهوم: اللحن في الموسيقا، والشَبَه في اللوحات والوضوح في اللغة. وجرى التحلل من النحو، ودُمِّرت بنية الجملة، وصار النثر يُقرأ كما تُقرأ برقية حافلة بالتعجب النزق، إلى جانب اعتبار الأدب غير الفعّال، أي

الأدب غير المشبع بالتنظير السياسي، كومة قمامة. وأصرّت الموسيقا على العثور على نغمية جديدة، وحرّفت القواعد، وقلبت العمارة المنازل ظهراً لبطن، وشهد الرقص إحلال الرقص الكوبي والزنجي محل الفالس. واتسمت الأزياء بالعري الشديد، وابتكرت سخافات متعددة الأشكال، وكشف المسرح عن هاملت وهو في ملابس السهرة، وحاول شجب فن التمثيل. لقد سعى كل واحد في تلك الفترة من التجريب الجامح في كل ميدان إلى أن يتجاوز في قفزة واحدة طائشة كل ما أُنجز في الماضي. وكلما كان الإنسان أصغر سناً، وأقل معرفة، كان أفضل تناسباً مع الوضع، لانعتاقه من كل التقاليد. وأخيراً ظفر الشباب المنتقمون من عالم الآباء بما أرادوا. لاشيء كان أفجع وأهزل في هذا الكرنفال الصاخب من موقف المثقفين الأكبر سناً، والذين اندفعوا خوفاً من اعتبارهم متخلفين عن الركب اندفاعاً متهوراً إلى غطاء التميز المصطنع، ودلفوا في دروب ملتوية أملاً في مجاراة الموكب. وهناك من كبار الأكاديميين المحترمين من أضاف إلى لوحاته الكاسدة مكعبات ومربعات رمزية، لأن قيمو المتاحف الشباب - لا بد أن يكونوا شباباً، فالأشبّ هو الأفضل - كانوا يعتبرون اللوحات الأخرى جميعاً «كلاسيكية» جداً، ولذلك نقلوها من المعارض إلى الأقبية. والكتاب الذين استعملوا لغة واضحة ومباشرة عقوداً من الزمن، قطّعوا جُمَلهم قطعة قطعة، وتفوّقوا في «مذهب الفعالية»، وشرح أعضاء مجلس الشورى البروسي اللطفاء كارل ماركس من على منابر الجامعة العالية، وأدت راقصات باليه قديمات دوراناً مؤسلباً على إيقاع قطعة بيتهوفن appassionata، وقطعة شونبرغ verklarte nacht. لقد سعى العالم القديم المرتبك وراء آخر المستجدات، وكان الطموح الأكبر هو أن تكون «شاباً»، وأن تكتشف في نزعة جديدة مغمورة أكثر راديكالية بديلاً من نزعة الأمس المهجورة.

كم كانت تلك الأعوام حافلة بالجموح والفوضى والبعد عن الواقع، تلك الأعوام التي بدأت فيها القيم في النمسا وألمانيا تنخفض مع انخفاض قيمة النقد! كان ذلك الزمن زمن الانتشاء العارم، والمكائد البشعة، كان مزيجاً من القلق والتعصب. إن كل فكرة متطرفة خارجة على النظام كانت تحصد غلة ذهبية: الثيوصوفية، والإيمان بالقوى الخفية، والروحانية، والسير في النوم، والأنثروبوصوفية، وقراءة الكف، ودراسة الخط، واليوغا، والباراسلسية paracelsism. كما راجت سوق المخدرات، وشكّل غشيان المحارم

وقتل أحد الأبوين أكثر الموضوعات تفضيلاً على خشبة المسرح، ومن جهة أخرى، كان تمثيل الحالات السوّية والمعتدلة محظوراً حظراً تاماً. ولكنني لا أبغي مقابل أي شيء أن أمحو فترة الفوضى تلك، لا من حياتي، ولا من الفن في حركته المتقدمة. فشأن كل الثورات الروحية، نظفت هذه الثورة، في سورة اندفاعها الأول، الهواء من التقاليد الفاسدة، ولطّفت توترات أعوام عديدة، وتركت تجاربها الجريئة حوافز قيمة، رغم كل ما يمكن أن يقال عنها. لقد أدهشنا كثير من إفراطها، كما أدهشنا بعضه، ولم نشعر بأي مسوّغ لأي رقابة أو رفض متعجرفين، لأن شباب هذه المرحلة الجديدة كانوا يسعون، في جوهر الأمر، إلى تصحيح ما أخفق في تصحيحه جيلنا الحذر المتحفظ - مع أن ذلك ربما اتسم بالكثير من الغضب ونفاد الصبر. إن ميلهم الفطري إلى ضرورة أن تكون مرحلة ما بعد الحرب مختلفة عن مرحلة ما قبلها كان صائباً في جوهره. ألم نتُق، نحن الأكبر سناً، إلى عالم جديد وأفضل قبل الحرب وخلالها؟ والحق أن الكبار قد كشفوا بعد الحرب عجزهم عن إقامة أي حماية دولية ناجحة من التوجه السياسي الجديد الذي هدد العالم بالخطر. وفي حين أن مفاوضات السلام كانت ما تزال جارية، حاول هنري باربوس المعروف في العالم بروايته «العدو» أن يوحّد جميع المثقفين الأوروبيين توحيداً توفيقياً، على أن يكون اسم هذه المجموعة Clarte (التفكير الواضح)، وكانت الغاية تعاهد جميع كتاب الأمم وفنانيها على معارضة أي شقاق بين الأمم في المستقبل. ودعاني باربوس، ودعا رينيه شيكيل، لتولي قيادة المجموعة الألمانية، ولم تكن هذه مهمة سهلة، إذ أن الغضب من معاهدة فرساي لم تكن ناره قد خمدت في ألمانيا، كان الأمل ضئيلاً في كسب ألمان ذوي مكانة للأممية الفكرية في الوقت الذي كانت فيه القوات الأجنبية تحتل راينلاند، وسار،وماينس. ومع ذلك، فإن منظمة مثل هذه كانت ممكنة لو لم يتخلَّ عنا باربوس، والدليل على ذلك تمكن غالزويرذي من إنشاء الجمعية الدولية للكتاب P.E.N في ما بعد. فبعد أن زار باربوس روسيا، وشهد حماسة الجمهور له هناك، أصبح لسوء الحظ مقتنعاً أن الدول البرجوازية والديمقراطيات غير قادرة على تحقيق أخوة صحيحة بين الشعوب، وأن عالم الأخوة هذا لا يمكن تحقيقه إلا في الشيوعية. وسعى بالتدريج إلى جعل منظمة Clarte أداة للصراع الطبقي، ولكننا اعترضنا على هذه الراديكالية التي كانت ستضعف مواقعنا بالضرورة. وهكذا انهار

قبل أوانه المشروع الذي كان شيئاً متميزاً في ذاته. ومرة أخرى أخفقنا في نضالنا من أجل الحرية الفكرية جراء تعلقنا الشديد بالاستقلال، والحرية الفردية.

لم يبقَ إلا الانسحاب من العمل انسحاباً هادئاً، والاعتزال. ومن وجهة نظر التعبيريين، أو المتطرفين، فإن أعوامي الستة والثلاثين قد جعلتني أهلاً للانضمام إلى الجيل القديم الذي تمّ التخلص منه، لأنني كنت أرفض الالتزام تقليداً للآخرين. إن أعمالي السابقة لم تعد مرضية حتى في نظري، ورفضت إعادة طبع أي كتاب من كتب مرحلتي «الجمالية». وهذا كان يعني بداية جديدة، وانتظار تراجع مدّ «المذاهب» العديدة النافدة الصبر. وتبيّن لي أن اختياري عدمَ الاهتمام بالتفضيل الشخصي كان مساعداً لي. فشرعت في سلسلة «البناة الكبار»، لأنني كنت على يقين أنها سوف تشغلني أعواماً. وكتبت قصصاً من مثل «أموك» و «رسالة من امرأة مجهولة» من غير اهتمام بـ «الفعالية» على الإطلاق. إن البلاد التي عشت فيها، والعالم المحيط بي، قد بدأا يتخذان شكلاً ونظاماً، وأيام ترددي قد انقضت،وانقضى معها الزمن الذي كنت أستطيع فيه أن أدّعي أن ما حاولته كان من أجل الوقت الراهن فقط. لقد بلغت منتصف العمر، وانقضى عمر الوعود البحتة، وحان الوقت لتأكيد الوعود، للخضوع للامتحان، أو التوقف إلى الأبد.

الفصل الثالث عشر
إلى العالم مرة أخرى

في الأعوام ١٩١٩ و١٩٢٠ و١٩٢١، وهي أقسى أعوام النمسا بعد الحرب، عشت متوارياً في سالزبورغ متخلياً عملياً عن أي أمل في رؤية العالم مرة أخرى. فالانهيار الذي أعقب الحرب، والكراهية لكل شيء ألماني، ولكل كتابة ألمانية، في الخارج، وانخفاض قيمة عملتنا، كل ذلك كان كارثياً بحيث وطّن المرء نفسه من البداية على ألا يبرح فضاء منزله الضيق. غير أن الأمور تبيّن أنها أفضل بكثير. فلقد أكلنا حتى الشبع مرة أخرى، وجلسنا مطمئنين إلى مكاتبنا، ولم تقع أحداث نهب، ولم تقع ثورة. لقد عشنا، وتحسسنا قدراتنا. لِمَ لا نختبر مرة أخرى مسرات الشباب، ونسافر؟

كانت الرحلات الطويلة مستحيلة. ولكن إيطاليا قريبة، لا تبعد أكثر من عشر ساعات. هل ينبغي القيام بالمحاولة؟ فمع أن النمساويين كانوا يُعتبرون «العدو الأكبر» هناك، فإنهم لم يعتبروا أنفسهم كذلك قط. هل ينبغي للمرء أن يقبل الزجر، ويغفل أصدقاءه القدامى حتى لا يضايقهم؟ اغتنمت الفرصة، وعبرت الحدود في ظهيرة أحد الأيام.

وصلت إلى فيرونا مساء، وقصدت الفندق. أُعطيت استمارة، فملأتها بالبيانات. نظر الموظف إلى الورقة، ثم رفع نظره مرتعباً عندما قرأ تحت «الجنسية» كلمة: نمساوي. سألني: أنت نمساوي؟ تساءلت: هل سأُرفض ياترى؟ ولكن عندما قلت: «نعم»، كاد يتلألأ وجهه من السرور، وهو يقول: «آه، السلام!أخيراً!» كانت هذه هي التحية الأولى، وكانت تأكيداً مجدداً لإحساس كان سائداً أثناء الحرب، وهو أن الكراهية التي خلقتها الدعاية والتحريض ليست إلا حمّى فكرية قصيرة الأمد لم تؤثر تأثيراً عميقاً في جماهير أوروبا الحقيقية. ولم تمضِ ربع ساعة حتى جاء الموظف الودود

إلى غرفتي للتأكد من ارتياحي. وقد أثنى على إيطاليتي أحسن الثناء، وتصافحنا مصافحة حارة عند الافتراق.

في اليوم التالي كنت في ميلان. رأيت الكاتدرائية ثانية، وتمشيت في البهو المعّمد. سرّني أن أسمع مرة أخرى اللغة الإيطالية ذات الموسيقا المحببة، وأن أجد سبيلي حيث توجهت، وأن أجد الغربة أمراً مألوفاً. وبينما أنا أسير في شارع، إذ لفتت نظري لافتة carriere della sera. وسرعان ما تذكرت أن صديقي القديم ج.آ، بورجيس كان عضواً مهماً في هيئة تحريرها. بورجيس الذي قضيت معه، ومع كونت كايزرلنغ، وبينو جيجر، كثيراً من الأماسي الفكرية الرائعة في برلين وفيينا. كان أحد أفضل كتاب إيطاليا وأشدّهم حماسة، وذا تأثير في شباب البلاد خاصة. ومع أنه ترجم «آلام فيرتر»، وكان شديد التحمس للفلسفة الألمانية، فقد اتخذ موقفا حاداً ضد ألمانيا والنمسا، وألحّ مع موسوليني (الذي تخاصم معه في ما بعد) في طلب الحرب. وخلال الحرب كنت أستغرب أن يكون رفيق قديم مشاركاً فعّالاً على الجانب الآخر، والآن أنا أشدّ رغبة في لقاء هذا «العدو». ومع ذلك لم أرغب في أن أُواجَه بالصدّ، فتركت بطاقتي له مع عنوان فندقي. ولم أنزل الدرج حتى ركض شخص خلفي متهلل الوجه. كان ذلك بورجيس. وفي غضون خمس دقائق كنا نتحدث حديثاً حميماً، كما كنا دائماً،وربما أكثر. لم يكن هو أيضاً غافلاً عن الحرب، وبعد أن اقترب واحدنا من الآخر من ضفته المقابلة، تقاربنا أكثر من أي وقت مضى. وفي فلورنسا اندفع نحوي صديقي القديم، الرسام ألبرت سترينيا، في الشارع، وعانقني بقوة، وعلى نحو غير متوقع، بحيث أن زوجتي التي كانت معي ولا تعرفه قد ظنّت أن هذا الرجل الغريب الملتحي ينوي مهاجمتي. ووجدتُ علاقتنا على حالها القديم، بل أكثر حميمية،فتنفست الصعداء. لقد اندفنت الحرب. لقد انتهت.

ولكنها لم تنتهِ. لم نفهمها حق الفهم. لقد خدعنا أنفسنا جميعاً بما اتصفنا به من بلاهة، وظننا أن استعدادنا الشخصي هو استعداد العالم أيضاً. ولكن يجب ألا نخجل من غلطتنا، لأن رجال الدولة، ورجال الاقتصاد، وأصحاب المصارف قد غَلِطوا هم أيضاً، واعتقدوا خلال تلك الأعوام أن الازدهار الخادع كان شفاءً، والإجهاد قناعة. فلقد ظهرت على جدران كثيرة عبارة «عاش لينين» مكتوبة على عجل بالفحم أو

بالطبشور. إضافة إلى ذلك، سمع الناس أن القائد الاشتراكي المدعوّ موسوليني قد انشق عن حزبه خلال الحرب، وشكّل مجموعة مضادة. ولكن أخباراً من هذا النوع كان المرء يتلقّاها بلا اكتراث. ما الأهمية التي يمكن أن يعلّقها المرء على كتلة أخرى صغيرة؟ إن مؤامرات صغيرة من هذا النوع كانت تقوم في كل البلدان. كان «فيلق الأحرار» ينظّم مسيرات في أقاليم البلطيق، والجماعات الانفصالية تشكل نفسها في بافاريا ورينلاند، وتجري مظاهرات وقلاقل في كل مكان، ولكنها كانت تُقمع إلى حد ما على الدوام. لم يفكر أحد في الاهتمام بأولئك «الفاشيون» الذين ارتدوا قمصاناً سوداً بدلاً من قمصان غاريبالدي الحمر باعتبارهم عاملاً مهماً في تطور أوروبا اللاحق.

أما في البندقية، فإن الكلمة أصبحت مكتسية بالمعنى فجأة. فلقد وصلتُ من ميلان إلى مدينة البحيرات المحبوبة ظهراً، ولم أجد فيها حمّالين ولا جندولات. كان العمال، وموظفو السكك الحديدية واقفين بلا عمل، وأيديهم في جيوبهم على نحو لافت للنظر. وبما أنني كنت أحمل حقيبتين ثقيلتين، فقد سألت رجلاً مسنّاً: أين يمكن أن أعثر على حمّال؟ فأجاب آسفاً: «لقد وصلتَ في يوم سيئ. وستمرّ علينا أيام مثله أيضاً. فالإضراب العام قد أُعلن مرة أخرى.» لم أعرف أسباب الإضراب، ولم أزعج نفسي بالاستفسار أكثر. فنحن كنا متعوّدين مثل هذه الأمور في النمسا، حيث كان الديمقراطيون الاجتماعيون يستخدمون مرة بعد أخرى هذا السلاح الفعّال من غير أن يواصلوا العمل حتى النهاية. فكانت عاقبة ذلك سوء السمعة، وخيبة الأمل. وهكذا حملت حقيبتي على مضض حتى رأيت أخيراً صاحب جندول يومئ لي خلسة من قناة جانبية، ثم تلقّاني أنا والحقيبتين. وصلنا إلى الفندق بعد نصف ساعة، بعد أن اجتزنا كثيراً من الأكف المطبقة التي رُفعت احتجاجاً على كاسر الإضراب. وانسياقاً مع العادة لم ألبث أن قصدت ساحة القديس مرقص. بدت مهجورة على نحو لافت للنظر، كانت أبواب معظم المتاجر مغلقة، والمقاهي خالية، ولم يكن هناك إلا عدد كبير من العمال الواقفين هنا وهناك تحت الممرات المقنطرة كأنهم ينتظرون حدوث شيء ما. انتظرت معهم، وفجأة جاء المنتظَر. تقدمتْ من طريق جانبي مجموعة من الشبان منظمة التشكيل، وسريعة الخطوات، مغنيةً أغنية واثقة لم أعرف كلماتها - في ما بعد عرفت أنها أغنية Giovanezza. وكانوا قد مرّوا راكضين، هازّين عصيّهم أمام الجمهور الأكثر

عدداً مئات المرات، قبل أن يتمكن ذلك الجمهور من الانقضاض عليهم. إن هذه المظاهرة الوقحة بالفعل، والتي قامت بها هذه المجموعة الصغيرة المنظّمة قد حدثت على عجل بحيث أن الجمهور لم يدرك ما فيها من استفزاز إلا بعد أن فاته اللحاق بالخصوم. كان جند العاصفة قد ابتعدوا كثيراً.

إن الانطباعات البصرية فيها شيء مقنع على الدوام. ولقد عرفت آنذاك أول مرة أن هذه الفاشية الغائمة، والتي كنت أجهلها تقريباً حتى ذلك الوقت، هي حالة واقعية، حالة حسنة التوجيه، تُحوّل الشباب المتصفين بالجرأة والتصميم إلى متعصبين. ولم أعد أستطيع الموافقة مع أصدقائي القدامى في فلورنسا وروما الذين يهزّون أكتافهم مستهجنين أمر أولئك الشباب، معتبرين إياهم «عصابة مأجورة»، ويسخرون من «أخيهم الشيطان». وحباً بالاطلاع، اشتريت عدة نسخ من «شعب إيطاليا»، وتبينت في أسلوب موسوليني اللاتيني الحاد الموجز المرن ذلك التصميم ذاته الذي لاحظته في مسيرة الشباب المتعجلة في ساحة القديس مرقص. وبالطبع لم أستطيع أن أتصور الأبعاد التي سوف يتخذها هذا الصراع خلال أقل من سنة. ولكنني أدركت منذ تلك الساعة أن صراعاً وشيك الوقوع هنا وفي كل مكان، وأن «سلامنا» لم يكن هو «السلام.»

كان هذا أول تحذير أتلقاه من التيارات الخطرة الكامنة تحت سطح أوروبا الهادئ المظهر. ولم أكن محتاجاً إلى انتظار التحذير الثاني طويلاً. وأغرتني متعة السفر مرة أخرى، فعزمت على الذهاب إلى ويسترلاند على الشاطئ الألماني الشمالي. كانت زيارة ألمانيا ما تزال مشجعة بالنسبة للنمساوي. فالمارك،مقارنة بالكرون البائس، قد حافظ على قيمته حتى الآن، وبدت عملية العودة إلى الوضع السويّ جارية على قدم وساق. فالقطارات كانت تسير في موعدها، والفنادق نظيفة ومتألقة، وعلى جانبي الطرق قامت منازل ومصانع جديدة، وفي كل مكان ساد النظام الهادئ الكامل الذي كان مكروهاً قبل الحرب، ثم تعلّم الناس تقديره مرة أخرى خلال الفوضى. والحق هو أن الجو كان فيه توتر ما، وذلك لأن البلاد كلها كانت تريد أن تعلم إن كانت المفاوضات في جنوا ورابالو (المرة الأولى التي أخذت فيها ألمانيا مقعداً يماثل مقاعد القوى المعادية

سابقاً) سوف تأتي بما تترجاه من تخفيفات من أعباء الحرب، أو على الأقل إشارة ضعيفة إلى تفاهم حقيقي. لم يكن قائد هذه المفاوضات غير صديقي القديم راثينو، الرجل الذي لا يُنسى في تاريخ أوروبا. إن ما جُبل عليه من ميل أصيل إلى التنظيم قد تأكد سلفاً أثناء الحرب، فمن البداية أدرك أضعف نقطة في الاقتصاد الألماني، والتي تلقت في ما بعد ضربة قاضية، وهي الحصول على المواد الخام، وفي وقت مبكر (وهنا أيضاً استبق الزمن) عمل على مركزة النظام الاقتصادي برمته. ولما انتهت الحرب، واحتاجت ألمانيا إلى وزير خارجية يستطيع مواجهة أدهى الدبلوماسيين وأكثرهم خبرة بين الخصوم السابقين على أرضهم، وقع الاختيار عليه أيضاً.

ترددت في الاتصال به في برلين.. لماذا أقاطع الرجل المنهمك في صياغة مصيرنا؟ قال لي على الهاتف: «نعم، اللقاء صعب. يجب أن أضحّي الآن حتى بالصداقة من أجل الواجب.» ولكنه ابتكر لقاء في الحال بما اتصف به من قدرة غير عادية على استغلال كل دقيقة من وقته. كان عليه أن يترك بطاقته في بعض السفارات، وبما أن الرحلة من غروفولد تستغرق نصف ساعة، فقد كان أيسر شيء بالنسبة لي هو أن أذهب إلى هناك، وأتبادل معه الأحاديث في السيارة التي تقلّه إلى قصده. والحقيقة هي أن قدرته على التركيز الذهني، والسهولة المدهشة التي ينتقل بها من موضوع إلى آخر، كانتا تتصفان بالكمال. كان يستطيع التحدث في أي وقت، في السيارة أو في القطار، بالدقة والعمق اللذين يتحدث بهما في البيت. لم أرغب في تفويت هذه الفرصة، وأعتقد أنه كان راضياً عنها لأنها أتاحت له التحدث إلى شخص غير مهتم بالسياسة، وتربطه به أواصر صداقة دامت أعواماً. تشعّب الحديث. وأنا على يقين أن راثينو غير البريء من الخيلاء لم يقبل منصب وزير الخارجية قبول خالي البال، فضلاً عن قبول المتحمس المتلهف. كان يعرف من البداية أن المشكلة في ذلك الوقت ما تزال غير قابلة للحل، وأنه يستطيع في أحسن الأحوال أن يحقق نجاحاً قليلاً، وبعض التنازلات غير المهمة، إذ كان من المبكر الأمل في سلام حقيقي، وتفاهم عميق. قال لي: «ربما بعد عشر سنوات، إذا ساءت الأمور عند الجميع، وليس عندنا فقط. لا بد أولاً من إزاحة الجيل القديم عن الدبلوماسية، وتحويل الجنرالات إلى تماثيل صامتة في الساحات العامة.» كان مدركاً كل الإدراك مسؤوليته المضاعفة الناجمة عن عبء كونه

يهودياً. ربما يندر في التاريخ أن تولّى رجل تساوره الشكوك والوساس مهمةً يعرف أن الزمن وحده يمكن أن يحلّها وليس هو ـ ويعرف أيضاً خطرها على شخصه. فمنذ مقتل إرتسبرغر الذي اضطلع بالمسؤولية المقيتة للهدنة التي تخلص منها لودندورف بالسفر إلى الخارج، كان لا بد أن يخطر له أن قَدَراً مماثلاً قد ينتظره أيضاً باعتباره ممهداً للتفاهم المتبادل. ولكن بما أنه غير متزوج، ولا أولاد له، ووحيد تماماً بالأصل، شعر بأن عليه ألا يتجنب الخطر، ولم أكن أنا جريئاً بما يكفي حتى أنبهّه لاتخاذ الحيطة. إن إنجاز راثينو مهمته في رابالو على أحسن وجه، وبقدر ما كان ممكناً في الظروف السائدة آنئذٍ، هو الآن حقيقة تاريخية. لقد تجلّت كما لم تتجلَّ من قبل مكانته العالمية، وهيبته الشخصية، وموهبته الرائعة في استيعاب أي وضع مواتٍ استيعاباً سريعاً. ولكن البلاد كان فيها جماعات تعرف أنها يمكن أن تكسب الأتباع بالتأكيد مرة بعد أخرى على أن الشعب المهزوم ليس مهزوماً، وأن المفاوضات أو التسويات خيانة للأمة. وكانت المنظمات السرية ـ الشديدة التأثر بالشذوذ الجنسي ـ ذات نفوذ أكثر مما ظنّ قادة الجمهورية الذين جعلهم مفهومهم للحرية يرخون العنان لأولئك الذين سعوا إلى التخلص من الحرية في ألمانيا تماماً.

ولقد ودعتُه في المدينة أمام الوزارة، من غير أن يهجس في نفسي أن هذا الوداع سيكون الأخير. وفي ما بعد رأيت في الصور أن الطريق الذي سرنا فيه معاً هو نفسه الذي كمن فيه القتلة للسيارة ذاتها بعد وقت قليل، والمصادفة وحدها هي التي حالت دون أن أشهد تلك الواقعة التاريخية المشؤومة. والانطباع الحسي الحي هو الذي جعلني أكثر تمكناً من تقدير الحادثة المأساوية حق تقديرها، تلك الحادثة التي ابتدأت بها نكبة ألمانيا، ونكبة أوروبا.

في ذلك اليوم كنت في فسترلاند، وكان مئات المتنزهين يستحمون مرحين على الشاطئ في يوم عطلتهم. وكما في اليوم الذي أعلن فيه اغتيال فرانز فرديناند، كانت فرقة موسيقية تعزف ترفيهاً للجماهير، عندما اجتاح باعة الصحف الممشى الخشبي كالنوارس البيض. «اغتيال فولتر راثينو.» عمّ الهلع، وسرت رجفة في الرايخ كله. وفجأة هبطت قيمة المارك، ولم تتوقف حتى بلغت حداً غير معقول تجاوز الملايين إلى البلايين فالتريليونات. ابتدأ حينئذٍ لقاء قوى التضخم الشريرة في ألمانيا، والذي كان

تضخمنا في النمسا البالغة نسبته غير المعقولة أيضاً ١٥٠٠٠ إلى ١ لعبة أطفالٍ سيئةً مقارنةً به. وقد يحتاج إلى كتاب كامل وصفُه بالتفصيل بكل وقائعه التي لا تصدق، وللقارئ المعاصر قد يبدو ذلك مثل حكاية من حكايات الجن. فأنا قد عرفت أياماً اضطررت فيها إلى دفع خمسين ألف مارك ثمن صحيفة الصباح، ومئة ألف مارك في المساء. ومن كان لديه عملة أجنبية للتحويل كان يفعل ذلك من ساعة إلى ساعة، لأنه قد يحصل في الرابعة على سعر تحويل أعلى منه في الثالثة، وفي الساعة الخامسة يمكن أن يحصل على سعر أعلى بكثير مما حصل عليه قبل ساعة. وعلى سبيل المثال، أرسلت إلى دار النشر التي أتعامل معها مخطوطاً عملت عليه عاماً كاملاً، وحتى أكون في مأمن طلبت أن يُدفع لي سلفاً مبلغ قدره عشرة آلاف نسخة. ولما أُودع الشيك في المصرف، لم يكد يساوي أجرة إرسال الطرد بالبريد قبل أسبوع. كان الناس يدفعون للترامات ملايين الماركات، وكانت الشاحنات تنقل النقد الورقي من مصرف الرايخ إلى مصارف الأخرى، وبعد أسبوعين كان يُعثر في قناة الشارع على أوراق من فئة المئة ألف مارك كان رماها متسول بازدراء. وسيور الحذاء كان ثمنها أكثر من ثمن حذاء سابقاً، بل أكثر من ثمن متجر حديث فيه ألف حذاء. وإصلاح نافذة محطمة أصبح يكلّف أكثر مما كان يكلّف منزل في الماضي، وكتاب واحد أكثر من أعمال عامل مطبعة مع مئة مطبعة. ومن امتلك عشرين جنيهاً، استطاع أن يشتري صفوفاً من المنازل المؤلفة من ستة طوابق في كورفورستندم، وكان يمكن امتلاك مصانع بما كان يكافئ عربةً يدوية قديماً. وذات يوم عثر بعض المراهقين على صندوق صابون منسيّ في البناء، فقضوا شهوراً من اللهو بالسيارات، وعاشوا عيشة الملوك من بيع قطعة كل يوم، في حين كان أهاليهم الميسورون سابقاً ينسلّون بين الناس خلسة كالمتسولين. واشتغل السعاة في تحويل العملة، وضاربوا في كل عملات العالم. والعملاق الذي تفوق عليهم جميعاً كان ستينز stinnes، أكبر أثرياء الحرب. فبعد أن وسّع رصيده، واستغل السوق، اشترى كل معروض للبيع: مناجم فحم، وسفناً، ومصانع، وبضائع مخزونة، وقلاعاً، وعقارات في الريف، مقابل لا شيء في واقع الأمر، لأن كل مبلغ مدفوع، وكل وعد كان يصير صفراً. وما لبث أن أصبح ربع ألمانيا في يده، وخلافاً للعقل، فإن الجماهير الألمانية التي يسكرها النجاح الذي تراه رأي العين قد هللت مشجعة عبقريته. وهنا وهناك، وقف

العاطلون عن العمل يهزوّن أيديهم احتجاجاً على أثرياء الحرب والأجانب الراكبين سيارات فاخرة، والذين ابتاعوا أقساماً كاملة من الشوارع ابتياع علبة أعواد ثقاب. وضارب كل الذين يحسنون القراءة والكتابة، وربحوا، وكان يستحوذ عليهم إحساس مبهم بأنهم يخدعون أنفسهم، وبأن قوة خفية تخدعهم، وهي التي أحدثت هذه الفوضى عمداً بغية تخليص الدولة من ديونها والتزاماتها. إنني مطّلع على التاريخ إطلاعاً وافياً، وبقدر ما أتذكر لم يحدث في التاريخ جنون مثل هذا الجنون ذي الأبعاد الهائلة. لقد تبدلت كل القيم، وليس القيم المادية فقط. فاستُهزئ من قوانين الدولة، ولم يُحترم أي تقليد، وأي قاعدة أخلاقية. إن برلين قد تحولت إلى بابل العالم. ظهرت فجأة بارات، وحدائق ملاهٍ، ومواخير، كالفطر. وما كنا رأيناه في النمسا تبيّن أنه مجرد مقدمة لطيفة وخجلة لانتشار الخراب هذا. فالألمان انكبّوا بكل حماستهم وتنظيمهم المنهج على الفساد والانحراف. فعلى طول كورفورستندوم كان شباب يهيمون على وجوههم متبرجين، ولم يكونوا كلهم محترفين، إذ أن كل طالب ثانوي أراد أن يكسب بعض المال. وفي البارات الضعيفة الإنارة كان يمكن رؤية موظفين كبار، ورجال مال محنكين يلاطفون البحارة السكارى بلا خجل. وحتى روما المؤرخ سويتونيوس لم تعرف حفلات راقصة معربدة مثل حفلات برلين المنحرفة، حيث كان يرقص مئات الرجال في لباس النساء، ومئات النساء في لباس الرجال، أمام رجال الشرطة المتسامحين. في هذا الانهيار للقيم جميعها ،تملك ضرب من الجنون دوائر البرجوازية التي بقيت ثابتة الاستقامة حتى ذلك الوقت. فالفتيات تباهين بانحرافهن، فمن بلغت منهن السادسة عشرة، ومازال هناك التباس في عذريتها، اعتُبر ذلك عاراً في أي مدرسة في برلين في ذلك الوقت، وأردن أن يكون في وسعهن التحدث عن مغامراتهن، والمغامرات الأغرب هي الأفضل. ولكن الشيء الأكثر تنفيراً في هذه الممارسات الجنسية المحزنة هو زيفها. ففي أعماق هذه المرحلة من العربدة التي انفجرت في ألمانيا متواقتة مع التضخم، كانت المحاكاة المحمومة ليس غير. كان واضحاً أن هؤلاء الفتيات المنتميات إلى عائلات بورجوازية صغيرة مهذبة كن يفضلن تصفيفاً بسيطاً للشعر على قصة الرجال الملساء، وأكل فطيرة تفاح بالقشطة المخفوقة على احتساء مسكر قوي. وكان واضحاً أيضاً في كل مكان أن هذا الانفعال المفرط قد ضاق الناس به، كما ضاقوا بالتضخم،

وأن الأمة قاطبة لا تتوق بالفعل بعد أن أنهكتها الحرب إلا إلى النظام، والسكينة، وقليل من أمن الحياة البرجوازية، وهي تضمر كراهية للجمهورية، لا لأنها قمعت هذه الحرية الطائشة، بل على العكس،لأنها أرخت العنان كثيراً.

إن من عاش في تلك الشهور والأعوام الرهيبة مشمئزاً مغتاظاً، قد أحسّ بالضربة المقابلة القادمة، بالفعل المعاكس الفظيع. فخلف المشهد، كان الرجال أنفسهم الذين دفعوا الأمة الألمانية إلى الفوضى، ينتظرون مبتسمين والساعات في أيديهم: «كلما ساءت أمور البلاد، سارت على ما يرام بالنسبة لنا.» كانوا يعرفون أن ساعتهم قريبة. فالثورة المضادة كانت قد أخذت بالتبلور علناً حول لودندورف أكثر منها حول هتلر الذي كان ما يزال مفتقراً إلى القوة آنذاك. والضباط الذين نزعت الزينات عن أكتافهم تنظّموا سراً، والتجار الصغار الذين أخذت منهم مدخراتهم بالخداع رصّوا صفوفهم في صمت، واستعدوا لأي شعار يَعِد بالنظام. لاشيء كان شؤماً للجمهورية الألمانية مثل المسعى المثالي إلى منح الحرية لا للشعب فقط، بل لأعدائه. وذلك لأن الشعب الألماني، وهو شعب منضبط، لم يعرف ماذا يفعل بالحرية، فأخذ يتطلع نافد الصبر إلى أولئك الذين ينوون أخذها منه.

كان يمكن أن يكون اليوم الذي انتهى فيه التضخم في ألمانيا (١٩٢٤) منعطفاً في التاريخ. فلقد وضع معيار حين أصبح من الممكن فجأة تحويل الماركات المصطنعة التضخم إلى مارك واحد جديد. والحق أن مدّ الوحول القذرة قد تراجع، فاختفت البارات والمواخير، وعادت الأوضاع السويّة، واستطاع كل واحد أن يحسب خسائره ومرابحه حساباً واضحاً. إن الأكثرية العظمى، الجماهير الجبارة، قد خسرت، ولكن اللوم لم يُلْقَ على الذين سبّبوا الحرب، بل على الذين تحملوا عبء إعادة البناء، وضحّوا من غير أن يُشكر لهم ما ضحّوا به. لا شيء أغاظ الشعب الألماني ـ من المهم تذكرّ هذا ـ لا شيء سعّر حقده و جعله يتقبل هتلر، مثل التضخم. فالحرب رغم جرائمها، قد منحتهم ساعات بهيجة بالأجراس التي قُرعت، والأبواق التي نُفخت احتفالاً بالنصر. وبما أن ألمانيا أمة ذات نزعة عسكرية لا برء منها، فقد زهاها الفخر بانتصاراتها المؤقتة، في حين أن التضخم لم يشعرها إلا بالتمرغ في التراب، والخديعة، والهوان، ولذلك فإن جيلاً كاملاً لم ينسَ ولم يغفر للجمهورية الألمانية تلك الأعوام، وآثر أن يعيد جزّاريه

إلى مناصبهم. وفي عام ١٩٢٤، تراءى على السطح أن أضغاث الأحلام قد مرّت مثل تراقص السراب. وكان نهار مرة أخرى، ورأى واحدنا سبيله في الدخول والخروج. وكنا حيّينا هيمنة النظام كبداية لسلام دائم. واعتقدنا مرة أخرى أننا قد ارتفعنا فوق الحرب، نحن الذين كنا حمقى على الدوام. ولكن هذا الوهم الخادع منحنا على الأقل عشرة أعوام من العمل، والأمل، و حتى الأمن.

إن العقد القصير بين عامي ١٩٢٤و١٩٣٣، منذ نهاية التضخم الألماني إلى استيلاء هتلر على السلطة، يمثل من وجهة نظرنا الآن ـ رغم كل شيء ـ انقطاعاً في سلسلة الأحداث الفاجعة التي كان جيلنا شاهداً عليها، وضحية لها منذ عام ١٩١٤. وهذا لا يعني أن المدة كانت خالية من التوتر، أو الإثارة، أو الأزمات ـ هناك الانهيار الاقتصادي في عام ١٩٣٩ـ ولكن هذا العقد بدا فيه على الأقل أن السلام مضمون في أوروبا، وهذا في حد ذاته كان يعني كثيراً. ضُمّت ألمانيا إلى عصبة الأمم بامتيازات كاملة، وتلقّت قروضاً تُيسّر عملية إعادة بنائها ـ وفي واقع الأمر إعادة تسليحها السريع وخفضت إنكلتر تسليحها، وتولّت إيطاليا موسوليني حماية النمسا. بدا العالم منكبّاً على إعادة البناء، فأصبحت باريس، وفيينا، وبرلين، ونيويورك، وروما أي مدن المنتصرين والمنهزمين، أجمل من أي وقت مضى، ومنحت الطائرات أجنحة للسفر، وتسهّل الحصول على جواز سفر، وتأشيرة. كما توقفت تذبذبات العملات، وصار كل واحد يعرف كم يكسب، وكم ينفق، ولم يعد الاهتمام يتركز على الأشياء الخارجية. واستطاع الجميع أن يعملوا ويركزوا على الدخل، وينكبّوا على أشياء الروح. وغدا ممكناً أن يحلم المرء، وأن يأمل في أوروبا متحدة. وبدت الحياة العادية في لحظة من تاريخ العالم ـ تلك الأعوام العشرة ـ أنها مخبأة لنا ثانية، نحن الجيل الذي امتحن امتحاناً عسيراً.

إن أبرز حدث في حياتي الشخصية في تلك الأعوام كان حضور ضيف أحسن بالإقامة معي غاية الإحسان، وهذا الضيف الذي لم أتوقعه قط هو النجاح. من المفهوم ألا أشعر بالارتياح إلى ذكر رواج كتبي، وفي الأوقات العادية كنت تلافيت حتى الإشارة العارضة التي كان يمكن أن تفسّر بأنها خيلاء أو تفاخر. ولكن لي حق خاص،

بل أنا ملزم ألا أتجاوز هذه الحقيقة في قصة حياتي، لأن هذا النجاح عند مجيء هتلر منذ تسعة أعوام قد أصبح جزءاً من التاريخ. فمن مئات الآلاف، وحتى الملايين من كتبي التي احتلت موضعها الآمن في المكاتب، وفي منازل لا تُحصى في ألمانيا، لا يمكن الحصول على واحد منها اليوم. ومن يمتلك نسخة الآن يحرص على إخفائها، وأما في المكاتب العامة، فإنها تظل في صندوق مقفل يسمّى «خزانة السموم» للذين يريدون استخدامها بعد إذن خاص من السلطات استخداماً «علمياً» ـ من أجل الافتراء وتشويه السمعة في الغالب .وإن أحداً من قرائي،أصدقائي الذين كانوا يكاتبونني،لم يجرؤ منذ وقت طويل على كتابة اسمي السيىء السمعة على ظرف. وليس هذا كل شيء، ففي فرنسا أيضا، وإيطاليا، وكل البلدان المستعبدة الآن، حظر هتلر كتبي المترجمة التي كانت من الكتب الأكثر رواجاً. واليوم أنا ككاتب «أسير وراء جثماني وأنا حيّ»، كما قال الشاعر النمساوي جريلبارتسر، فكل شيء، أو كل شي تقريباً، يمثّل عملي في العالم خلال الأربعين سنة قد دمّرته القبضة ذاتها. لذلك، فإذا أشرت إلى «نجاحي»، فإنني لا أشير إلى شيء يخصّني، بل إلى شيء كان لي في الماضي، من مثل منزلي، ومسقط رأسي، وأمني، وحريتي، وراحة بالي. وليس في وسعي أن أصف وصفاً ملائماً ذلك السقوط في الهاوية، والذي قاسيناه أنا وما لا يحصى من الأبرياء مثلي، إذا لم أشِر إلى الارتفاع الذي حدث منه، وإلى عاقبة هذا الدمار الذي أصاب جيلنا الأدبي كله، وهو حدث فريد في التاريخ.

إن هذا النجاح لم يطرق بابي بغتة، بل جاء بطيئاً متروّياً، إلا أنه أقام إقامة دائمة ومخلصة حتى الساعة التي طارده فيها هتلر بسوط القرارات. كان تأثيره يزداد عاماً بعد عام، فالكتاب الأول الذي نشرته بعد «إرميا»، وهو أول جزء من «البناة الكبار»، أي ثلاثية «ثلاثة معلمين» قد مهّد الطريق لي. كان التعبيريون وأتباع مذهب الفعّالية، والتجريبيون قد أصيبوا بالإرهاق، وانفتح الطريق إلى الجمهور مرة أخرى لكل من تحلّى بالصبر والمثابرة. وحققت قصتاي «أموك» و «رسالة من امرأة مجهولة» رواجاً تتميز به الروايات الطويلة عادة. فقد مُسْرحتا، وقُرئتا أمام الناس، وحُولّتا إلى فيلمين، وتبنّت المدارس كتاباً صغيراً سرعان ما بلغ عدد نسخه في «مكتبة الجزيرة» ٢٥٠٠٠٠ نسخة. لقد صنعت خلال بضع سنواتٍ نجاحاً هو الأنفس بالنسبة إلى الكاتب، أي

جمهوراً من القرّاء معوّلاً عليه، يترقب كل كتاب جديد، ويشتري كل كتاب جديد. ويثق بأنه لا يجرؤ على تخييب أمله. ومع مرور الوقت تكاثر هذا الجمهور، ففي يوم صدور أي من كتبي كان يُباع عشرون ألف نسخة في ألمانيا قبل أن يظهر أي إعلان في الصحف. وفي بعض الأحيان، كنت أحاول أن أتجنب النجاح، ولكنه كان يلحّ في ملاحقتي إلحاحاً مدهشاً. وهكذا كتبت من أجل متعتي الخاصة سيرة فوشيه Fouche، ولما أرسلتها إلى الناشر، كتب إليّ أن الطبعة الأولى ستكون عشرة آلاف نسخة. وفي الحال ناشدته ألا يطبع هذا العدد الكبير، مشيراً إلى أن فوشيه شخصية غير متعاطفة، وأن الكتاب لا يتضمن أي حادثة مع النساء، ومن الممكن ألا يجتذب دائرة واسعة من القراء. لذلك من الأفضل ألا يطبع إلا خمسة آلاف في البداية. وفي غضون سنة بيع خمسون ألف نسخة في ألمانيا، ألمانيا نفسها التي لا تسمح اليوم بأن يُقرأ سطر واحد مما كتبت. وافتقاري إلى الثقة بالنفس، والذي كاد يكون مَرَضياً، قد أدّى إلى حدوث الشيء ذاته مع طبعة «فوليون». نويت أن أكتبها شعراً، ولكني استخدمت النثر حين كتبت مسوّدة غير محكمة لمختلف مشاهدها خلال تسعة أيام في مرسيليا. وبما أنني كنت أشعر حيال القيّمين على مسرح البلاط في درسدن بالتزام أخلاقي لأنهم أخرجوا مسرحيتي الأولى، واتفق أنهم كانوا يسألون عن خططي الأخيرة، فقد أرسلت إليهم النسخة النثرية، معتذراً عن تقديم المسوّدة الأولى للمسرحية التي سأكتبها في آخر الأمر شعراً. ولكنهم أبرقوا لي في الحال طالبين مني ألا أغيرّ شيئاً حباً بالله، والمؤكد تماماً هو أن تلك النسخة من المسرحية قد أُخرجت في أنحاء العالم كافة. لقد بقي النجاح، وجمهور القراء الألمان المتزايد باستمرار، مخلصيْن لي مهما كان العمل الذي اضطلعت به.

وبما أنني كاتب سِيَر ومقالات، فقد كنت أشعر على الدوام بأنني مرغم على دراسة أسباب تأثير الكتب والشخصيات في زمنها أو افتقارها إلى التأثير. وما تمالكت أن تساءلت في ساعات التأمل عن المزايا الخاصة التي تدين لها كتبي بالنجاح غير المتوقع بالنسبة لي. وفي التحليل الأخير، أعتقد أن ذلك ناشئ من عادة شخصية سيئة من عاداتي، وهي أنني قارئ غير صبور، وذو مزاج خاص. فأنا تزعجني كل زيادة، وكل زخرفة، وأي شيء غامض النشوة، ومبهم، وكل ما يعيق نمو الرواية، أو السيرة، أو

المناقشة الفكرية. فالكتاب الذي يحافظ باستمرار على مستواه صفحة بعد صفحة، والذي يستحوذ على انتباه القارئ استحواذاً تاماً حتى السطر الأخير، إن هذا الكتاب فقط هو الذي يمنحني متعة كاملة. إن تسعة أعشار الكتب التي يتفق أن أقرأها تتصف بالتوسع الشديد، والوصف الزائد عن الحاجة، والحوار الكثير الكلام، والشخصيات الصغيرة التي لا ضرورة لها، ولذلك فهي تفتقر إلى القوة الجاذبة والقوة المحركة. وحتى في معظم الأعمال الشهيرة تزعجني الصفحات الرملية الرتيبة، وكثيراً ما اقترحت على الناشرين فكرة جريئة هي نشر سلسلة كاملة من أدب العالم من هوميروس مروراً بكل من بلزاك ودوستويفسكي حتى «الجبل السحري»، مع حذف تام لكل ما هو زائد فيها، عندئذ يمكن أن تكتسب كل تلك الأعمال التي لا يُشك في قيمتها الخالدة حياةً جديدة، وتأثيراً جديداً في حياتنا.

إن هذا النفور من كل زيادة، وكل إطالة مملّة كان لابد أن ينتقل بالضرورة من قراءة كتب الآخرين إلى كتابتي، وأن يكسبني حيطة خاصة. وأنا أكتب عادة في يسر وطلاقة، وفي المسوّدة الأولى لأي كتاب، أترك خيالي يفرّ معي، ولا أكبح قلمي. وفي السيرة، أستخدم بالمثل كلّ التفاصيل المتوفرة في الوثائق أولاً. ففي أثناء التحضير لكتابة «ماري أنطوانيت»، فحصت في واقع الأمر كل الوقائع المسرودة حتى أحدّد مقدار إنفاقها الشخصي، فانكببت على قراءة الصحف والكراريس المعاصرة، واستقصيت الوثائق القانونية حتى آخر نقطة. ولكن الكتاب المطبوع لا يبقى فيه سطر واحد من كل ذلك، إذ قلما يكون هناك مخطوط نظيف معدّ للطبع قبل أن أبدأ العمل الفعلي، وهو التكثيف والتنسيق، وهذه المهمة لا أستطيع القيام بها كما ينبغي تماماً من نسخة إلى أخرى. لا هوادة في رمي أثقال السفينة، وإحكام البنية الداخلية، وتوضيحها دائماً، حيث لا يستطيع كثيرون أن يحمْلوا أنفسهم على رفض شيء يعرفونه، فيسعون، حباً بالجمل المعقدة الكاملة، إلى إظهار ما ليس عندهم من عمق واتساع، وما أطمح إليه أنا على الدوام هو أن أعرف أكثر مما يكشف عنه السطح.

إن عملية التنسيق والمسرحة تتكرر مرة، ومرتين، وثلاث مرات في الطبعات التجريبية، وفي النهاية تصبح نوعاً من البحث البهيج عن جملة أخرى، أو حتى مجرد كلمة لن يقلل غيابها من الدقة، ومع ذلك قد يسرِّع الوتيرة في الوقت ذاته. والحق هو

أن الاختصار يمنحني أقصى بهجة. وأذكر أنني ذات يوم، عندما نهضت عن عملي متهلل الوجه، وقالت زوجتي: إنني قد أحسنت وصف شيء لا محالة، أجبت باعتزاز: «نعم. لقد استطعت أن أقضي على فقرة أخرى كاملة، وبالتالي أنجزت مزيداً من التواصل السريع.» وعلى هذا، فإذا أُطرِيت رشاقة كتبي أحياناً، فهذه الصفة لا تدين بشيء للحرارة الفطرية، أو الانفعال الداخلي، بل لذلك المنهج المنظم للحذف المطرد لكل التوقفات والاستهلالات الزائدة عن الحاجة، وإن كنت أعي فناً يخصّني، فهو قدرتي على الاستغناء، فأنا لا أتذمر إن شقّت طريقها إلى سلة المهملات ثمانمئة صفحة من أصل ألف صفحة مخطوطة، وبقي بعد الغربلة مئتا صفحة فقط هي الجوهر. وإن كان ثمة شيء يعلل تأثير كتبي جزئياً، فهو ما أحرص بالمواظبة عليه من تقيّد بأكثر صور التعبير تحديداً، وبالجوهري منها بلا ريب. ولقد أسعدني ذلك للغاية، أنا الذي فكرّ دائماً تفكير المنتمي إلى القارة، تفكير المتخطي للقوميات، أن يعلن اهتمامهم بي ناشرون من فرنسا، وبلغاريا، وأرمينيا، و البرتغال، والأرجنتين، والنرويج، ولاتفيا، وفنلندا، والصين. وسرعان ما اضطررت إلى ابتياع خزانة جديدة لكي أحفظ فيها الترجمات المتنوعة. وذات يوم قرأت في إحصاءات منظمة التعاون الثقافي التابعة لعصبة الأمم في جنيف أنني أكثر المؤلفين ترجمة في العالم (وانسجاماً مع طبعي شككت في صحت التقرير). وفي اليوم التالي وصلتني رسالة من ناشركتبي الروسي في لينينغراد أعرب فيها عن رغبته في طبع مجموعة أعمالي الكاملة باللغة الروسية، وسألني إن كان موافقاً لي أن يكتب مكسيم غوركي مقدمة لها. موافق لي! عندما كنت طالباً قرأت قصص غوركي التي كنت أخفيها تحت المقعد، ولقد أحببته وأعجبت به سنين عديدة، ولكنني ما أرضيت قط غروري بالظن أنه قد عرف اسمي، فضلاً عن قراءة شيء لي، أو أن كتابة مقدمة لأعمالي قد تبدو بالغة الأهمية بالنسبة إلى مثل هذا المعلم. وفي وقت آخر أيضاً، جاء ناشر أمريكي إلى منزلي في سالزبورغ حاملاً نص مقدمة ـ وكأن ذلك كان لازماً ـ مع اقتراح لتبني أعمالي الكاملة، ونشرها بانتظام في المستقبل. كان ذلك الرجل هو بنيامين هويش، صاحب دار نشر فايكنغ، والذي بقي الصديق و المرشد الأجدر بالثقة، والذي حفظ لي وطناً للتعبير، بعد أن حطّمت جزمة هتلر ذات المسامير كل شيء، وفقدت وطني القديم، والوطن الذي كان لي: ألمانيا، وأوروبا.

كان هذا النجاح الجليّ كفيلاً بأن يريك من كانت ثقته حتى ذلك الوقت بنواياه الطيبة أقوى من ثقته بقدرته وقدرة عمله على التأثير. فالشعبية في ذاتها، ومهما كانت طبيعتها، تنطوي على اضطراب في التوازن الطبيعي للإنسان. ففي الأحوال العادية لا يعني الاسم الذي يحمله الكائن البشري أكثر مما تعنيه العصابة للسيجار، وسيلة للتعرف، شيئاً سطحياً، ويكاد يكون غير مهم، لا يرتبط بالموضوع الواقعي، بالذات الحقيقة، إلا ارتباطاً واهياً. وعند النجاح يأخذ الاسم بالانتفاخ، إذا جازت العبارة. إنه يفكّ نفسه من الإنسان الذي يحمله، و يصبح قوة في ذاته، شيئاً مستقلاً، مادة من مواد التجارة، شيئاً عظيم النفع، ثم إنه من الناحية النفسية، يغدو قوة تجنح نحو التأثير في الشخص الذي يحمله، وتحويله، والهيمنة عليه. والناس السعداء، والواثقون بأنفسهم، يتماهون عادة عن غير وعي مع التأثير الذي يحدثونه. واللقب والمنصب والوسام، فضلاً عن الاسم، تصبح معروفة، وتميل إلى خلق مزيد من الثقة الشديدة، وتسوّل لهم الاقتناع بأن الأهمية الخاصة هي حقهم في المجتمع، والدولة والعصر، ومن تلقاء ذاتهم يضخّمون أنفسهم حتى يكتسب شخصهم حجم إنجازهم الخارجي. ولكن من يفتقر بالفطرة إلى الثقة بالنفس يعتبر كل أنوع النجاح الخارجي أكثر ما يعتبره التزاماً بالإبقاء على نفسه على حالها قدر الإمكان في مثل هذا الظرف العسير.

وأنا لا أقصد من هذا الكلام أن يوحي أنني لم أكن سعيداً بالنجاح، بل على العكس، فقد جعلني سعيداً للغاية، ولكن بقدر ما انطبق ذلك على ما أنتجت، على كتبي التي ارتبط بها ظل اسمي. وذات مرة دخلت إلى مكتبة في ألمانيا، وتأثرت للغاية عندما رأيت ـ من غير أن أعرَف ـ طالباً في الثانوية يدخل ويسأل عن «تقلب الأقدار»، ويدفع ثمنه من مصروف جيبه الزهيد. وازدهاني أن يبدي دليلُ عربة النوم احترامه عند رؤية اسمي على جواز السفر، وأن تأبى شهامة ضابط الجمارك الإيطالي تفتيش أمتعتي تقديراً منه لكتاب كان قرأه. إضافة إلى ذلك، هناك شيء فاتن في الناحية الكمية من التأليف. فقد اتفق لي أن وصلت إلى لايبزغ في اليوم الذي بدأ فيه شحن كتاب جديد لي. واعترتني هزة غريبة عندما رأيت كم من العمل البشري يحركه المرء من غير أن يدري، بما يدوّنه على ثلاثمئة صفحة من الورق في غضون ثلاثة أشهر

أو أربعة. وضع العمال الكتب في صناديق كبيرة وحزموها، وحملها بعضهم لاهثين إلى شاحنات أخذتها إلى عربات الشحن، ومنها إلى أربع جهات الأرض. وكانت عشرات الفتيات قد جمعن الأوراق المطويّة في معمل التجليد، وعمل منضدو الحروف، والطابعون، وعمال الشحن، والباعة من الصباح إلى المساء. ويمكن أن يتخيل المرء هذه الكتب مرصوفة جنباً إلى جنب مثل قطع الآجر في شارع رائع الأبعاد. كما أنني لم أترفع قط عن الجانب المادي. كنت خلال الأعوام الأولى لا أجرؤ على التفكير في كسب المال من كتبي، فضلاً عن القدرة على التماس العيش من إيرادها. وفجأة أخذت تجلب لي مبالغ كبيرة، ومتزايدة دائماً، بدت - من استطاع التنبؤ بزمن كهذا ؟- أنها ترفعني فوق الهموم المادية إلى الأبد. لقد كنت قادراً في شبابي أن أرخي العنان لشغفي بجمع المخطوطات، وبعض أجمل هذه الآثار وأنفسها أصبح موضوع عنايتي الدقيقة. لقد استطعت في مقابل كتاباتي الزائلة نسبياً، أن أحصل على مخطوطات أعمال خالدة لكل من موزارت وباخ وبيتهوفن وغوته وبلزاك. لذلك فإن التصريح بأن النجاح الشعبي غير المتوقع قد تركني غير مكترث، أو حتى معرضاً عنه ، سيكون موقفاً مثيراً للسخرية.

ومع ذلك فأنا صادق عندما أقول: إنني لم أستمتع بالنجاح إلا عندما انسحب على كتبي وعلى اسمي كمؤلف. وكان يزعجني حقاً عندما يتوجه اهتمام المستطلع إلى شخصي. ومنذ مطلع الشباب، كان أقوى ما جبلت عليه من ميل هو أن أبقى حراً مستقلاً. وشعرت بأن كثيراً من أفضل ما في حرية الإنسان الشخصية تكبته صور الدعاية وتشوّهه. إلى جانب ذلك، فإن ما كان ميلاً عندي في البداية أنذر بالتحول إلى حرفة، وحتى إلى شغل. كانت يصلني بالبريد أكوام من الرسائل، والدعوات، والطلبات، والاستفسارات التي تقتضي ردوداً، وكلما عدت بين الحين والآخر من غيبة شهر، كنت أقضي دائماً يومين أو ثلاثة في إزالة هذا الركام، وإعادة الحركة إلى «الشغل». وألفيت نفسي عن غير قصد، وبسبب رواج كتبي، منخرطاً في ما يشبه الأعمال التي تقتضي إدارتها الصحيحة نظاماً، ووضوحاً، ومهارة، ودقة في المواعيد، وكلها فضائل جديرة بالتقدير، ولكنها لا توافق طبيعتي مع الأسف، وكان من شأنها أن تعكرّ تأملاتي وأحلامي البسيطة البريئة. وهكذا كنت أنسحب كلما تكررت دعوتي

إلى إلقاء محاضرة، أو متابعة شؤون عامة، ولم أتمكن قط من تخطّى هذا العزوف المَرضَيّ تقريباً عن مواجهة الناس للحلول محل اسمي. ولا أزال حتى هذا اليوم أجنح في أي اجتماع عام، في المسارح وقاعات الموسيقا، إلى الانزواء في مقعد خلفي، فليس هناك أشقّ عليّ من عرض وجهي في وسط منصة، أو أي مكان خطر آخر. إن الغُفْلية في كل مظهر من مظاهر الحياة ضرورة لي. وحتى عندما كنت صبياً لم أستطع أن أفهم أولئك الكتاب والفنانين من الجيل الأقدم، والذين كانوا ينشدون التعرف السهل إليهم في الشارع عن طريق معاطف المخمل، والشعر المتموج، وعن طريق خصل الشعر المتمردة المتدلية على الجبين، كما كان يفعل صديقاي الجليلان آرثر شنتسلر، وهيرمان باهر، وعن طريق اللحى الرائعة التشذيب، أو ارتداء آخر ما استجد من ملابس. أنا مقتنع أن الإنسان، عندما يصبح مظهره الجسدي مألوفاً، يُغرى عن غير وعي بالعيش - إذا استخدمنا لقب فيرفل - مثل «الرجل المرآة» الذي يعكس ذاته، وباتخاذ طريقة معينة في كل إشاراته، ومع هذا التغير في الظاهر، يزول دفء الباطن، وحريته، وخلّوه من الهم. لذلك، لو استطعت أن أعيد الكرة اليوم، لحاولت أن أنال متعة مضاعفة، إذا صحت العبارة، من هاتين الحالتين: النجاح الأدبي، والغفْلية الشخصية، لأنه إذا كانت الحياة ذاتها مثيرة وحافلة بالمفاجآت، فكم ستكون أكثر إثارة، وأحفل بالمفاجآت، إذا كانت مضاعفة!

الفصل الرابع عشر

الغروب

إن هذا العقد الواقع بين عامي ١٩٢٤و١٩٣٣ـ سوف أذكره كثيراً بامتنان ـ قد نعمت فيه أوروبا بالسلام نسبياً، إلى أن أوقع الفوضى في العالم رجل واحد. ولأن جيلنا قد كابد ما كابد من الاضطرابات،فقد تقبّل السلام النسبي باعتباره هبة غير متوقعة. كنا جميعاً نشعر بأن علينا أن نتدارك ما سرقته من حياتنا الحرب وأعوام ما قبل الحرب: السعادة، والحرية، والتركيز الذهني. ومع أن العمل ازداد ، فقد شعرنا بأن العبء أقل، فجربنا ، واكتشفنا أوروبا والعالم مرة أخرى. لم يسافر الناس كما سافروا في هذه الأعوام ـ أكان ذلك تحرّقَ الشباب إلى الإسراع في تشرُّب ما فاتهم خلال انفصالهم الذي أرغموا عليه عن بعضهم بعضاً أم كان هاجساً مبهماً يدفع المرء إلى النجاة في الوقت المناسب قبل أن تُغلق الحواجز من جديد!

أنا أيضاً سافرت كثيراً في هذا الوقت، غير أنه كان سفراً مختلفاً عن سفري أيام الشباب. فالآن لم أعد غريباً في العالم. بل لي في كل مكان أصدقاء، وناشرون وجمهور. لقد دخلت كمؤلف لكتبي، وليس كغريب محب للاستطلاع كما في الماضي، وكان لذلك فوائد جمة. كنت قادراً على التحريض باندفاع أعظم، وتأثير أفضل من أجل الفكرة التي أصبحت طيلة أعوام الماضية محور حياتي، أي وحدة أوروبا الفكرية. وهذه الروحية هي التي حاضرت بها في سويسرا ، وفي هولندا ، وتكلمت بالفرنسية في قصر الفنون في بروكسل، وبالإيطالية في قاعة Duencenti في فلورنسا ، حيث كان يجلس مايكل أنجلو وليوناردو، وبالإنكليزية في أمريكا خلال جولة محاضرات من الأطلسي إلى الهادي. كان ذلك ضرباً من السفر المختلف، ففي كل مكان اتصلت مع خيرة العقول على أساس الأخوّة. فالرجال الذين كنت في شبابي أنظر إليهم نظرة

المتهيّب، ولم أكن لأجرؤ على أن أوجّه سطراً إليهم، أصبحوا أصدقائي. ودخلت إلى دوائر كانت موصدة تماماً في وجه الغرباء. فرأيت قصر ضاحية سان جيرمان، ومتاحف إيطاليا، والمجموعات الخاصة. وفي المكاتب العامة لم أعد أقف ملتمساً تسلّم الكتاب عند منضدة المحاسب، بل كان المدراء أنفسهم يطلعونني على كنوزهم المخبأة، وكنت ضيفاً عند باعة الكتب النفيسة من مثل د.روزنباخ في فيلادليفيا، والذي مرّ على حوانيته ذات يوم جامع التحف المتواضع مسترقاً إليها النظر. لقد رأيت أول مرة العالم «الأعلى»، وفي ظروف مواتية أغنتني عن التوددات، والطلبات. ولكن هل جعلني هذا السفر أرى العالم أفضل؟ لقد تقت كثيراً إلى أسفار شبابي، عندما كانت حركاتي غير ملحوظة، وعزلتي تسهم في جعل الأشياء تبدو مكتنفة بالغموض، لذلك لم أرغب في التخلّي عن طريقة تجوالي القديمة. ولما أتيت باريس، أحجمت عن إعلام حتى صفوة أصدقائي من مثل روجر مارتن دو جار، وجول رومان، ودوهامل، وماسريل. أردت أولاً أن أهيم على وجهي في الشوارع، كما كنت وأنا طالب، لا يعترضني شيء، ولا ينتظرني أحد. تأملت المقاهي القديمة، والفنادق الصغيرة، وتظاهرت بالعودة إلى الشباب. ولما أردت العمل، اخترت بالمثل أقل الأمكنة تميزاً، أمكنة صغيرة في الضواحي مثل بولونيا ،أو تيرانو، أو ديجون. رائع أن تكون مجهولاً، أن تقيم في فنادق صغيرة بعد الإقامة في فنادق تثير فخامتها الاشمئزاز، أن تتقدم أو تتراجع، أن تختار الضوء أو الظل، من غير أن يوجّهك أحد. وعلى كثرة ما سلبني إياه هتلر في ما بعد، فقد عجز حتى هو عن أن يصادر أو يدمر مسرّة عيشي حياةَ أوروبيٍ قرابة عقد من الزمن حرّ الإرادة وكامل الحرية الداخلية.

ومن بين كل تلك الرحلات، كانت الرحلة إلى روسيا الجديدة مثيرة ومثقّفة على نحو خاص. ففي عام ١٩١٤، وقبيل الحرب، عندما كنت منكبّاً على كتابي عن دوستويفسكي، كنت قد تهيأت للرحلة، ولكن منجل الحرب الدموي حال دون ذلك، ومنذ ذلك الوقت أعاقتني الشكوك والوساوس. لقد أصبحت روسيا بعد تجربتها البلشفية أكثر البلدان اجتذاباً للمفكرين في فترة ما بعد الحرب. أصبحت موضع إعجاب متحمس، وهجوم متعصب لانعدام المعلومات الدقيقة عنها. لم يعلم أحد ماذا

كان يجري على وجه الدقة، وسبب ذلك كانت الدعاية والدعاية المضادة اللتان لم تتورّعا عن شيء. ولكن ما عُرف هو أن شيئاً ما جديداً كل الجدة كان يجري هناك، شيئاً قد يكون له ـ في مختلف الأحوال ـ تأثير حاسم في شكل عالمنا. ولقد ذهب إلى هناك برنارد شو، وويلز، وباربوس، وإستراتي، وأندريه جيد، وكثيرون غيرهم، فعاد بعضهم متحمساً، وبعضهم خائب الأمل. وأُغريت أنا بأن أرى رأي العين، ولو لم يحدث ذلك، لكانت صلتي الروحية بالتقدم واهية. إن كتبي قد اكتسبت رواجاً غير عادي هناك، ولم يقتصر ذلك على طبعة الأعمال الكاملة التي قدّم لها مكسيم غوركي، بل تجاوزه إلى كتب صغيرة ورخيصة ثمنها بضعة كوبيات، انتشرت بين أوسع جمهور ممكن، لذلك كانت ثقتي أكيدة باستقبال يسرّ الخاطر. ولكن ما جعلني أتردد هو أن رحلة روسيا كانت تتضمن في ذاتها نوعاً من التحزب الذي كان يؤدي إما إلى تقبّل الناس لك، أو إلى تبرّؤهم منك، وأنا الذي كنت شديد الكره لكل ما يخصّ السياسة والعقائد، لم أرغب في إصدار حكم رغماً عني على بلد لا نهاية له، ومشكلة لم تحلّ، بعد رحلة استكشاف مدتها أسابيع قليلة. لذلك لم أستطيع أن أقرر السفر إلى روسيا، على الرغم من فضولي المتحرق إلى ذلك.

ولكنني دعيت في ربيع عام ١٩٢٨ إلى المشاركة في مئوية تولستوي في موسكو نيابة عن الكتاب النمساويين، وإلقاء كلمة في ليلة الاحتفال. لم يكن ثمة مسوّغ لتفويت هذه الفرصة، بما أن موضوع الزيارة غير الحزبي قد أبعدها عن الجو السياسي. وتولستوي، داعية اللاعنف، لا علاقة له بالبلشفية، ومناقشة إبداعه حق بيّن لي، لأن كتابي عنه قد انتشر انتشاراً واسعاً. وبدا لي أيضاً، من وجهة النظر الأوروبية، أن المناسبة ستكون مظاهرة ذات دلالة يتحد فيها كتاب البلدان جميعاً في تكريم مشترك لأعظمهم. لذلك قبلت الدعوة، ولا داعي للندم على القرار السريع. كانت الرحلة عبر بولندا ذاتها تجربة. فلقد رأيت كم يعجّل الزمن في شفاء الجروح التي أحدثها هو نفسه. فلقد بدت متألقة وجديدة مدن غاليشيا ذاتها التي رأيتها عام ١٩١٥ مدمرة. وأدركت مرة أخرى أن عشرة أعوام في حياة الإنسان تعني مدة طويلة من عمره، ولكنها ليست إلا طرفة عين في حياة الأمم. وفي وراسو لا شيء كان يشير إلى أن الجيوش المنتصرة والجيوش المنهزمة قد اجتاحتها مراراً. كانت المقاهي تتألق بالنساء الأنيقات، والضباط

المشوقون الأنيقون الذين كانوا يتمشون في الشوارع بدوا أشبه بالممثلين المدربين على تشخيص الجنود منهم بالمقاتلين. وفي كل مكان كان يشعر المرء بالنشاط والثقة، والاعتزاز المسوّغ بالجمهورية الجديدة التي انبعثت في بولندا انبعاثاً قوياً من رماد القرون. ومن وراسو واصلنا سيرنا إلى الحدود الروسية، ووصلنا إلى ريف منبسط ورمليّ، وعند كل موقف، كان سكان القرية يتجمعون كلهم في المحطة في أزيائهم الريفية الملونة، لأن قطار ركاب واحداً كان يعبر إلى البلاد المحظورة المختومة، وكان حدثاً كبيراً أن ينظروا إلى العربات اللامعة لذلك القطار السريع الذي كان يربط بين عالم الشرق وعالم الغرب. وأخيراً، وصلنا إلى مركز الحدود Negoreloe، ورأينا فوق خطوط السكة لافتة حمراء مكتوباً عليها بالأحرف السلافية عبارة لم أستطيع قراءتها. عرفت بعد الترجمة أنها: «يا عمال العالم اتحدوا!» وبعد أن عبرنا من تحت هذه الشريطة الحمراء الملتهبة، دخلنا إلى إمبراطورية البروليتاريا، إلى عالم جديد هو الجمهورية السوفييتية.

والقطار الذي سافرنا فيه لم يكن بالطبع بروليتارياً. واتضح لنا أنه قطار نوم من العهد القيصري يفوق القطارات الأوروبية في أسباب الراحة لأنه أوسع وأبطأ. كانت تلك أول مرة أجتاز فيها الأراضي الروسية، والأمر المستغرب تماماً هو أنها لم تبدو لي غريبة. لقد بدا كل شيء مألوفاً إلى حد بعيد: السهوب الخالية المترامية بكآبتها الهادئة، والأكواخ والقرى الصغيرة بأقسامها المرتفعة البصلية الشكل، والرجال الطوال اللحى الذين هم نصف فلاحين، ونصف أنبياء، بابتساماتهم العريضة المرحبة اللطيفة، والنساء بمناديلهن الملونة، وأرديتهن البيض السابغة، واللواتي كن يعرضن شراب الكفاس، والبيض والقثّاء للبيع. كيف تسنّى لي أن أعرف كل هذا؟ لقد عرفته من خلال كبار الأدباء الروس، من خلال تولستوي، ودوستويفسكي، وأكسانوف، وغوركي اللذين صوروا لنا تصويراً واقعياً رائعاً حياة الشعب. ومع أنني لم أكن أعرف اللغة، خِلتُ أني أفهم المتكلمين بها، أولئك البسطاء بساطة مؤثّرة، أولئك العراض القصار الأقوياء اللابسين سُتَراً بيضاء، أو العمال الشباب الذين لعبوا الشطرنج، أو قرؤوا، أو تحاوروا في القطار، مظهرين ذلك النشاط العقلي القلق العنيد الذي سرّعته المناشدة من أجل بذل كل جهد ممكن. أكانت تفعل فعلها ذكرى حب تولستوي و دوستويفسكي لـ

«الشعب»؟ على أي حال، كان استحوذ عليّ في القطار شعور بالتعاطف مع أولئك الناس البسطاء المثيرين للمشاعر، والمتصفين بالحكمة والافتقار إلى الثقافة في آن معاً.

مرّ الأسبوعان اللذان قضيتهما في روسيا السوفييتية في حالة من التوتر المتواصل. فلقد رأيت وسمعت، وأُعجبت ونفرت، وفُتنت وانزعجت، فالتيار كان دائم التبدل بين الحار والبارد. كانت موسكو ذاتها مزدوجة المظهر ـ فالساحة الحمراء ذات الجدران، والأبراج البصلية الشكل، شيء تتري،شرقي،بيزنطي عجيب، وبالتالي روسي خالص ـ وإلى جانبها قامت ناطحات سحاب حديثة، بل فائقة الحداثة، مثل مجموعة غريبة من أبنية أمريكا العملاقة. كان الانسجام مفتقداً، ففي الكنائس كانت الأيقونات القديمة التي سوّدها الدخان، والمذابح المرصعة بالجواهر ما تزال تومض وميضاً خفيفاً، وعلى بعد مئة خطوة، كان جثمان لينين يستلقي في تابوت من الزجاج صُبغ حديثاً بالحمرة (لا أدري أن صُبغ تكريماً لنا) و قد أُلبس ثياباً سوداء. وإزاء بعض السيارات اللامعة، كان رجال ملتحون متسخون يضربون خيولهم الصغيرة النحيلة بالسياط ضربات ملاطفةٍ وتدليل، ودار الأوبرا الكبيرة التي ألقينا كلماتنا فيها كانت تتألق في أبهتها القيصرية الرائعة أمام جمهور البروليتاريا. وفي الضواحي بدت المنازل القديمة المتداعبة متساندة حتى لا تنهار مثل شيوخ متسخين مهملين. كان كل شيء قديماً منذ وقت طويل، ومتوانياً، وصديئاً، وهو يريد أن يصبح الآن حديثاً، فائق الحداثة، وفائق التقنية دفعة واحدة. وهذه العجلة جعلت موسكو تبدو بالغة الاكتظاظ، وكثيفة السكان، وواقعة في اضطرب شديد. احتشد الناس في كل مكان، في المتاجر، وأمام المسارح، وأرغموا على الانتظار، فكل شيء بولغ في تنظيمه، وبالتالي لم يؤدِ وظيفته أداء صحيحاً. فالبيروقراطية الجديدة التي خُلقت من أجل بسط «النظام» كانت ما تزال تجد متعة في إصدار المذكرات والتصريحات، ونحو ذلك مما لم ينتج منه إلا التأخير. فالحفلة، وهي الحدث الأهم، أُعلن أنها في الساعة السادسة، ولكنها لم تبدأ إلا في التاسعة والنصف. ولما غادرت دار الأوبرا منهكاً في الثالثة صباحاً، لم يكن المتكلمون قد انتهوا بعد. كان الأوروبي يأتي إلى أي موعد أو استقبال قبل ساعة. لقد انحلّ الزمن، ومع ذلك كانت كل ثانية ملأى تماماً بالبحث، والمراقبة، والمناقشة. إن ضرباً من

الحمى قد أصاب كل شيء، ومن غير أن يشعر المرء، استحوذت عليه هذه المشاعر الروسية الغامضة الملتهبة، وهذا الدافع الجامح إلى طرح الأفكار، ونفث المشاعر بانفعال شديد. كان من السهل بلوغ حالة النشوة، ومن دون السؤال عن الأسباب، فإنها كانت كامنة في المناخ القلق الجديد. من يدري؟ ربما كان ذلك إشارات خفية إلى أن الروح الروسية كانت تتطور نحو الوحدة.

كان هناك كثير من الفخامة، ولاسيما في لينينغراد، هذه المدينة التي خططتها عبقرية أمراء جريئون بشوارعها العريضة، وقصورها العظيمة، ومع ذلك هناك في الوقت ذاته مدينة بطرسبورغ، مدينة «الليالي البيض»، وراسكولنيكوف. وهناك متحف الإرميتاج الرائع، ومشهد لا يُنسى هو مشهد العمال والفلاحين والجنود الذين خلعوا قبعاتهم، كما كانوا يفعلون احتراماً لأيقوناتهم القديمة، وساروا متثاقلين بجزماتهم الكبيرة عبر القاعات الملكية السابقة، محدقين إلى اللوحات باعتزاز خفّي: لقد أصبحت هذه الأشياء ملكاً لنا، ولسوف نتعلم فهمها. ورأيت معلمين يقودون أطفالاً خدودهم مدوّرة عبر صالات العرض، ومفوّضي فنون يوضحون لوحات رمبرانت وتيسان للمزارعين الذين كانوا يصغون بارتباك، وتشخص أبصارهم ذات الأجفان الكثيفة عند توضيح تفصيل ما. وكما في كل مكان، كان ههنا أيضاً شيء مضحك في هذا المسعى الصادق الحسن النية إلى الارتقاء بـ «الشعب» بين ليلة وضحاها من الأمية إلى فهم بيتهوفن وفرمير. ولكن هذا المسعى إلى توضيح القيم الرفيعة من جهة، ومن جهة أخرى إلى فهمها من المحاولة الأولى، قد أخضع صبر الطرفين إلى تجربة قاسية. وفي المدارس،كان الأولاد يرسمون موضوعات بالغة الطيش والتطرف، وعلى مقاعد طالبات في الثانية عشرة، وُضعت أعمال هيجل وسوريل (لم أكن أنا نفسي أعرفهما آنذاك)، وكان سائقو العربات الذين تصعب عليهم القراءة يحملون كتباً، وذلك لأن الكتاب يعني «التعليم» ليس غير، وهذا هو فخر البروليتاريا الجديدة وواجبها. وكثيراً ما حُملت على الابتسام عندما أرونا مصانع عادية، وتوقعوا أن تشدهنا المفاجأة وكأننا لم نرَ مثل هذه الأشياء في أوروبا أو أمريكا. قال عامل: «كهربائي»، وأشار بكل افتخار إلى آلة خياطة ناظراً إليّ متوقعاً مني الاندهاش والإعجاب. ولأن الشعب لم يرَ من قبل هذه المخترعات، فقد كان راسخ الاعتقاد أن

الأبوين القصيري القامة، لينين وتروتسكي، قد فكّرا فيها واخترعاها. لذلك كان المرء يبتسم إعجاباً، ويعجب وقد داخله السرور، واستحوذ عليه التفكير في روسيا، هذه الطفلة الكبيرة العجيبة الموهوبة اللطيفة، ويتساءل: هل ستتعلم حقاً درسها الهائل بالسرعة التي عزمت على تعلمه بها؟ هل ستمضي هذه الخطة قُدُماً، أم ستتحطم على صخر الأناة الروسية الموروثة؟ كان ينتابني اليقين حيناً، والشك حيناً آخر، وكلما رأيت، قلّت قدرتي على اتخاذ قرار.

هل كانت هذه الازدواجية فيّ، أم هي بالأحرى قائمة في طبيعة الإنسان الروسي؟ أليست مستقرة في روح تولستوي الذي أتينا للاحتفاء به؟ ونحن ماضون بالقطار إلى ياسنايا بوليانا، ناقشت هذا الأمر مع لوناتشارسكي. قال لي: «هل كان تولستوي ثورياً أم رجعياً؟ هل كان يعرف أيهما هو؟ بما أنه كان روسياً أصيلاً، فقد كان يصبو إلى نتائج تغيير العالم كله فجأة بعد آلاف السنين، كما نفعل نحن الآن تماماً.» وأضاف مبتسماً: «وعلى صيغة واحدة مثلنا بالضبط. إنهم يسيئون فهمنا، نحن الروس، إذا اعتبروا أننا من ذوي الصبر والأناة. إن أجسادنا، وحتى أرواحنا، هي المتصفة بالجلد، ولكننا في التفكير أقل الشعوب صبراً وتأنياً، فنحن نريد أن نعرف الحقائق كلها، «الحقيقة» الممْرضة. ولكم عذّب هذا الشيخ العظيم نفسه من أجلها!» والحق هو أن الشعور بالعذاب الذي أوقعه «هذا الشيخ العظيم بنفسه» لم يفارقني وأنا أجول في منزل تولستوي في ياسنايا بوليانا. رأينا الطاولة التي كتب عليها أعماله الخالدة، والتي تركها ليصلح الأحذية في غرفة وضيعة محاذية. ورأينا الباب والدرج اللذين أراد عبرهما الفرار من منزله، ومن حياته المزدوجة. وكان في المنزل البندقية التي قتل بها أعداءً أثناء الحرب، هو الذي كان عدواً للحروب جميعاً. إن مشكلة حياته قد مثلت أمامي واضحة في ذلك المنزل الريفي الواطئ، غير أن كل ما كان فاجعاً في حياته لطّفته تلطيفاً جميلاً زيارتي مكان إقامته الأخيرة.

أنا لم أر في روسيا شيئاً أروع وأكثر تحريكاً للمشاعر من قبر تولستوي. فذلك الضريح المهيب يقع بعيداً عن الطريق، ووحيداً في الغابة الظليلة. إن ممراً صغيراً يفضي إلى ربوة مستطيلة من تراب لا يحرسها أحد، ولا يشاهدها أحد، إنما تظللها بعض الأشجار الكبيرة وحسب. أخبرتني حفيدته قرب القبر أن تلك الأشجار السامقة قد

غرسها هو نفسه. لقد سمع هو وأخوه نيقولاي، وهما صبيان، مثلاً من إحدى عجائز القرى، وهو أن السعادة تعمّ حيث تزرع الأشجار. لذلك غرسا، فيما يشبه اللعب، عدداً من الفروع. وبعد وقت طويل تذكر الشيخ هذه النبوءة الجميلة، فعبّر عن رغبته في أن يدفن تحت الأشجار التي غرسها. وقد دفن وفق رغبته، وتبيّن أن بساطة قبره البالغة قد جعلته أكثر قبور العالم تأثيراً في النفس. ربوة مستطيلة صغيرة وسط غابة تشكل أشجارها فوقه قبة ـ بلا صليب ولا شاخصة، ولا كلام منقوش. يرقد الرجل العظيم في مثواه الأخير، والذي لا أحد مثله عانى من اسمه وشهرته، يرقد مثل أي شريد، مثل أي جندي مجهول. قد يدنو من مثواه أي واحد، فالسياج الخشبي الخفيف ليس مغلقاً. لا شيء يحرس الراحة الأخيرة للذي لم يعرف الراحة إلا احترامُ البشر الذين يتزاحمون حول أبهة القبر مستطلعين، ولكن البساطة التي تفرض نفسها بالقوة تنفي أي فضول. الريح تلهو مثل كلمة الله فوق قبر الرجل المجهول، ولا صوت آخر. وقد يمرّ أحدهم من غير أن ينتبه له، ومن غير أن يدري سوى أن جسداً يستلقي هناك،جسد أي روسي في أرض روسيا. إن مدفن نابليون تحت أقواس الرخام في Invalides، أو تابوت غوته في Furstengruft، أو الأضرحة في Westminster Abbey، لا يثير أي منها عاطفة عميقة كالتي يثيرها هذا الضريح في سكينته المهيبة، وانزوائه المشجي في موضع في الغابة لا يُسمع فيه إلا همسات الريح التي لا تحمل كلمة ولا رسالة.

قضيت أسبوعين في روسيا، ولا أزال أشعر بذلك التوتر، ذلك السديم الدافئ للنشوة الروحية. ما الذي أثاره على وجه الدقة؟ سرعان ما عثرت عليه. إنه الشعب الروسي، وحرارة عواطفه المندفعة. لقد كانوا جميعاً من أولهم إلى آخرهم مقتنعين بأنهم يشاركون في قضية خطيرة تهمّ الإنسانية جمعاء، ومتشربين فكرةً هي أن ما ينبغي عليهم تحمله من عوز وتقييد، إنما هو من أجل رسالة أسمى. إن عقدة الدونية القديمة حيال أوروبا قد تحولت إلى فخر نشوان بالقيادة، إلى رغبة في تقدّم الجميع. «من الشرق يأتي النور» ـ كانوا صادقين ومخلصين في إيمانهم بأن الخلاص سيأتي منهم. فهم الذين أدركوا «الحقيقة»، أعطيت لهم ليحققوا ما حلم به الآخرون فقط. كان يزدهيهم عرض شيء عديم القيمة.«هذا ما فعلناه نحن»، و «نحن» نفذنا إلى الحياة كلها. كان

سائق العربة يشير للراكب بسوطه إلى أي مبنى جديد متهلل الوجه: نحن بنينا هذا. ويُظهر التتار والمغول في غرف الصف كتبهم ممتلئين بالفخر، فيقول أحدهم: «داروين»، ويقول آخر «ماركس»، بالسيماء ذاتها وكأنهم هم أنفسهم قد ألّفوا الكتب. كان يلحّون بلا انقطاع في العرض والتوضيح، ويشكرون كثيراً لأي واحد مجيئه لرؤية «عملهم». قبل أعوام ستالين، كان الجميع يثقون ثقة لا حد لها بالأوروبيين، فإذا التقوا أحدهم، أنِسوا به، وصافحوه مصافحة حارة. ولكن قلة منهم أظهرت أنها، رغم محبتها للشخص، لا تكنّ له «الاحترام»، وذلك لأنه ليس أخاً، وليس رفيقاً. ولم يختلف الحال بين الكتاب. كنا جالسين معاً في منزل كان ذات يوم لألكساندر هيرزن، لم نكن من أوروبا و روسيا فقط، بل من تونغوسكا، وجورجيا، والقوقاز أيضاً، لأن كل جمهورية سوفييتية قد أرسلت وفداً من أجل تولستوي. إن أحداً منهم لم يستطع أن يكون مفهوماً من معظمهم، ومع ذلك كان هناك تفاهم عام. وبين الفنية والفنية، كان أحدهم ينهض، ويدنو، ويسمّي أحد كتبي. مشيراً إلى قلبه وكأنه يقول:«لقد أعجبني كثيراً»، ثم يقبض بيده على يدي، ويهزّها وكأنه كان يبغي تكسير عظامها تعبيراً عن الحب. وما كان أكثر تأثيراً عندي هو أنه كل واحد جلب هدية. كانت الأوقات ما تزال عصيبة، ومع أنهم كانوا يفتقرون إلى أي شيء ذي قيمة، فقد وجدوا شيئاً من مثل منقوشة قديمة عديمة القيمة، وكتاب لم أستطع قراءته، ومحفورة غير مصقولة. وكنت أفوقهم بالقدرة على إهدائهم بالمقابل نفائس غير معروفة في روسيا منذ سنين، من مثل شفرة جيليت للحلاقة، وقلم حبر، وورق ممتاز للكتابة، وخفّ طريّ الجلد، ولذلك عدت إلى البيت بمتاع قليل. ولكن هذه المودة الصامتة، والمندفعة مع ذلك، قد غمرتنا بدفئها وإخلاصها غير المألوفين، وأثّرت في مشاعرنا، لأن أحداً منا لم يتصل قط بالفئات الدنيا في مجتمعه. لذلك أصبح كل اتصال بأولئك الناس إغراء خطراً استسلم له عدد غير قليل من الكتاب الأجانب خلال زيارتهم إلى روسيا. كان احتفاء الجماهير بهم، ومحبتها لهم، غير مسبوقين، لذلك اعتبروا أن الواجب يقضي بأن يمدحوا النظام الذي جعل الجماهير تُقْبل على قراءتهم، وتحبّهم. والأمر لا يعدو كونه رغبة طبيعية في مقابلة الكرم بالكرم، والنشوة بالنشوة. وعليّ أن أعترف بأنني أنا نفسي كدت في لحظات عديدة أن أهلّل، وأغدو نشوان من النشوة.

إن عدم استسلامي لهذه النشوة السحرية لا يرجع إلى أي قوة في داخلي بقدر ما يرجع إلى شخص لا أعرف اسمه، ولن أعرفه أبداً. حدث ذلك بعد احتفال مع بعض الطلاب. تزاحموا حولي، وجرت عناقات ومصافحات حارة. ومازلت أحسّ دفء حماستهم، وأرى وجوههم المبتهجة المفعمة بالحيوية. رافقني إلى مسكني أربعة أو خمسة منهم، مجموعة كاملة، في حين أن المترجمة المخصصة لي، وهي طالبة أيضاً، كانت تترجم كل الأقوال. ولم أصبح وحيداً حقاً إلا بعد إغلاق باب غرفتي في الفندق ورائي، وحيداً بالفعل أول مرة في الاثني عشر يوماً، لأنني كنت مصحوباً دوماً، ومحروساً دوماً، و محمولاً على أمواج الدفء. شرعت في خلع ملابسي مبتدأً بالمعطف. سمعت شيئاً يخشخش. مددت يدي إلى الجيب، فوجدت رسالة، رسالة بالفرنسية لم تصلني بالبريد. لا بد أن أحداً قد دسَّها في جيبي خلال تلك المعانقات والاحتكاكات.

كانت رسالة بلا توقيع، رسالة تنمّ على ثقافة واسعة، وعاطفة إنسانية، وهي ليست من روسي أبيض، إذ كانت مترعة بالمرارة من التضييق المتزايد على الحرية خلال الأعوام الأخيرة. «لا تنسَ أنك لم تشاهد أشياء كثيرة رغم كل ما أروك إياه. تذكّرْ أن معظم الذين يتحدثون إليك لا يقولون ما يرغبون في قوله، بل ما يمكن أن يقولوه. نحن كلنا مراقَبون، وكذلك أنت. إن مترجمتك تنقل كل شيء، وهاتفك مراقب، وكل خطواتك مراقبة.» وأورد كاتب الرسالة تفاصيل وأمثلة لم أقدر على التحقق منها. ولكنني أحرقت الرسالة كما أوصى - «لا تمزقها فقط، لأنهم سيجمعون قطعها من سلة مهملاتك» - ثم إنني أخذت أول مرة أعيد النظر فيما حدث. أليس حقيقة أنني، وسط كل هذا الدفء المخلص، وهذه الرفقة العجيبة، لم تتح لي فرصة واحدة للتحدث مع أي شخص على حدة؟ وحال جهلي للغة دون الاتصال الحميم مع الإنسان في الشارع. علاوة على ذلك. ما أقلّ ما رأيت خلال أسبوعين من هذه البلاد التي لا حد لها! والصدق مع نفسي ومع الآخرين يملي علي الاعتراف بأن انطباعي يفتقر إلى الموضوعية رغم العديد من التفاصيل المثيرة المنبهة للحواس. ولذلك لم أكتب بعد عودتي من روسيا إلا بضع مقالات، مع أن الكتاب الأوروبيين كلهم تقريباً قد أصدروا بعد عودتهم كتباً تضمنت إما تأييداً متحمساً و إما رفضاً ساخطاً. وقد أحسنت صنعاً في هذا الإحجام، لأن

أموراً كثيرة قد اختلقت عما كانت عليه حتى بضعة أشهر، وأما بعد عام، وبسبب التحولات السريعة، فقد كان من شأن كل كلمة أن تُلبس الأكاذيب لباس الحقائق. وعلى أي حال، فإن إحساسي بالتيارات التحتية لعصرنا قد كان حاداً في روسيا، كما كان في أيما وقت في حياتي .

عندما غادرت موسكو، كانت حقائبي خالية إلى حد ما. فلقد وزعت ما استطعت توزيعه، ولم أجلب معي إلا أيقونتين زيّنتا غرفتي زمناً طويلاً. ولكن أنفس ما عدت به كان صداقة مكسيم غوركي الذي التقيته أول مرة في موسكو. رأيته بعد عام أو عامين في سورنتو التي قدم إليها لاعتلال صحته، وأمضى فيها ثلاثة أيام لا تُنسى ضيفاً في منزلي .

لم تخلُ المناسبة من بعض الغرابة. فغوركي لم يكن يعرف أي لغة أجنبية، وأنا لم أكن أعرف الروسية. وبحسب كل قواعد المنطق، تعيّن علينا نتيجة ذلك أن يواجه أحدنا الآخر مواجهة صامتة، أو أن نتحادث من خلال ترجمة صديقتنا ماري، بارونة بودبرغ. ولكن لم تكن مجرد مصادفة أن يكون غوركي أحد أبرع الرواة في الأدب العالمي، فالقصّ لم يكن يعني له شكلاً من أشكال التعبير، بل فيضَ وجوده الفعّالَ كله. كان مفعماً بالحيوية، وقد توحّد مع مادة قصصه، ومن البداية فهمته من دون أن أفهم لغته. و ذلك من خلال حركات وجهه. كان يبدو «روسياً» تماماً،ولا كلمة أخرى تصفه. لاشيء في ملامحه يلفت النظر، فكان باستطاعة المرء أن يتخيل الرجل الطويل النحيل بشعره الأشقر كالقش، وعظميْ وجنتيْه العريضين، أن يتخيله فلاحاً في الحقول، سائق عربة، إسكافاً متواضعاً، متشرداً أشعث ـ لم يكن أكثر من واحد من «الشعب»، النموذج الأصلي للشعب الروسي. قد تجتازه في الشارع بلا اكتراث، ومن غير أن تلحظ شيئاً غير مألوف. ولكن حين تجلس قبالته، ويبدأ بالكلام، تدرك ما هو، إذ أنه يتحول رغماً عنه إلى الشخصية التي صوّرها. أذكر كيف وصف رجلاً مسنّاً متعباً أحدب كان التقاه في أسفاره ـ استوعبتُ الوصف قبل أن يترجم. غرق رأسه من تلقاء ذاته بين كتفيه المتهدّلين، وأصبحت عيناه الزرقاوان، المشرقتان عندما ابتدأ، غائمتين ومتعبتين، وتهدّج صوته، ومن غير أن يدري تحوّل إلى كهل أحدب. ولما روى شيئاً مضحكاً، استغرق في الضحك، و أسند ظهره إلى المقعد متراخياً متوهج الوجه. كان

بهجةً لا توصف أن تستمع إليه و هو يعيد خلق الريف والناس على نحو يكاد يكون مجسّماً. كان كل ما يتعلق به بسيطاً وطبيعياً: مشيته، وجلسته، وانتباهه، ومرحه. وذات مساء، لبس لباس نبيل روسي وتقلّد سيف المبارزة، وفي الحال شمخ بأنفه، وقطّب حاجبيه تقطيب الآمر، ثم خطا في الغرفة خطوات قوية، وكأنه يفكر في مرسوم صارم، وبعد قليل، خلع القناع، وضحك كما يضحك ولد ريفي. كانت حيويته معجزة، وقد عاش مع رئتيْه المعتلّتين خلافاً لكل أصول الطب، غير أن عزماً مذهلاً على العيش، وإحساساً شديداً بالواجب، قد جعلاه يواصل سيره. كان كل صباح يكتب بخط يده الواضح روايته الأخيرة، ويردّ على مئات الأسئلة التي يوجهها إليه من الوطن عمال، وكتاب ناشئون. إن صحبته كانت تعني بالنسبة لي اكتشاف روسيا، لا روسيا البلشفية، ولا روسيا السابقة، ولا روسيا الحالية، بل الروح الرحبة القوية المبهمة للشعب الروسي كله. وفي تلك الأعوام، لم يكن قد توصل بعد إلى قرار. وبما أنه كان ثورياً قديماً، فقد تاق إلى الثورة، وكان صديق لينين الشخصي، غير أنه بقي متردداً في الانحياز تماماً إلى الحزب، وأن «يصبح كاهنا أو بابا»، كما قال. ومع ذلك كان يضايقه البعد عن شعبه في تلك الأعوام التي توالت فيها الأزمات.

واتفق أن وقفت على مشهد تميزت به روسيا الجديدة بكل ما في الكلمة من معنى، وكشف لي ازدواجية غوركي الباطنة كلها. رست في نابولي أول مرة سفينة حربية روسية أثناء رحلة تدريب. والبحارة الشبان الذين لم يروا العالم الغربي قط، تجوّلوا في المدينة في بزاتهم الأنيقة، ولم يستطيعوا أن يشاهدوا ما يكفي من الأشياء غير المألوفة بعيونهم الفلاحية الكبيرة الجائعة. وفي اليوم التالي، قررت مجموعة منهم أن تذهب إلى سورنتو لزيارة «كاتبهم». لم يعلنوا عن قدومهم، فقد بدا أمراً عادياً تماماً، بحسب فكرة الأخوّة الروسية، أن يستقبلهم «كاتبهم» في أي وقت يأتون فيه. ثم أنهم قصدوا المدينة، وكان حدسهم صحيحاً، إذ أن غوركي قد استقبلهم في الحال، ودعاهم إلى الدخول - روى غوركي ذلك في اليوم التالي وهو يضحك. ولكن أولئك الشبان الذين لا يعلو «القضية» عندهم شيء، أخذوا يوبّخونه، فما أن دخلوا إلى الفيلا المريحة البهيجة حتى قالوا له: «ما هذه الحياة التي تعيشها هنا؟ إنها حياة بورجوازية تماماً. على أي حال، لِمَ لا تعود إلى روسيا؟» واضطر غوركي إلى التوضيح بالتفصيل قدر المستطاع.

ولكن أولئك الشبان الطيبين لم يكونوا في جوهر الأمر صارمين كما بدوا. لقد أرادوا أن يظهروا عدم «احترامهم» للشهرة ليس غير، وأنهم لايقيمون وزناً إلا للمعتقدات الحزبية. أراحتهم الزيارة، فشربوا الشاي، واسترسلوا في الكلام، وعند الافتراق عانقوه مودعين واحداً بعد الآخر. كانت رواية غوركي للمشهد رائعة، فقد سحرته لا مبالاة هذا الجيل الجديد، ولم يكن منزعجاً من افتقارهم إلى الكياسة على الإطلاق. كرّر القول: «كم نحن مختلفون! نحن إما وجلون وأما مندفعون، ولكن من غير ثقة بالنفس أبداً.» تألقت عيناه طيلة المساء. ولما قلت له: «أظن أن أكثر ما تتمناه هو العودة معهم إلى روسيا»، توقف، ونظر إليّ نظرة حادة. «كيف عرفت ذلك؟ كنت حتى اللحظة الأخيرة أفكر بالفعل أينبغي أن أتخلّى عن كل شيء، عن الأوراق والكتب والعمل، وأركب البحر مع هؤلاء الشبان مدة أسبوعين، أم لا. ولو تخليت لتعلمت ثانية ما هي روسيا. فالمرء ينسى أفضل الأشياء وهو بعيد، و إن أحداً منا لم ينتج شيئاً ذا قيمة في المنفى.»

ولكن غوركي كان مخطئاً في اعتبار سورنتو منفى. فقد كان يستطيع العودة إلى بلاده في أي يوم، ولقد عاد في واقع الأمر. لم يُمنع، ولم تُحظر كتبه مثل ميريجكوفسكي الذي لقيته في باريس يعاني الأمرّين، ولم يكن مثلنا اليوم: «نجد مواضع للهجرة ولا نجد وطناً» كما قال جريلْبارتسر، مشردين في لغات مستعارة، تتقاذف بنا الرياح. وفي مقابل ذلك، ألفيت نفسي بعد بضعة أيام أزور منفياً حقيقياً في نابولي، منفياً من نوع غير عادي، هو بنيديتو كروتشي. لقد اعتبره شباب البلاد قائداً فكرياً لهم عقوداً من الزمن، وحظي وهو عضو في مجلس الشيوخ، ووزير، بكل تكريم شعبي، إلى أن قادته معارضة الفاشية إلى نزاع مع موسوليني. استقال من مناصبه، واعتزل، وهذا الموقف لم يُرضِ المتصلبين الذين أرادوا تحطيم مقاومته، وحتى معاقبته إذا اقتضى الأمر. وطلابه بالأمس، والذين انضموا إلى قوات العاصفة الرجعية، هاجموا منزله، وحطّموا نوافذه. و لكن الرجل القصير البدين الذي كانت عيناه الصغيرتان الذكيتان، ولحيته الصغيرة المستدقة توحي بأنه مواطن مرتاح، لم يخضع للتهديد. لم يغادر البلد، بل مكث في منزله خلف متاريس كتبه رغم الدعوات العديدة من الجامعات الأمريكية وغيرها من الجامعات الأجنبية. واصل إصدار دوريته Critica

من دون تغيير نبرتها وأسلوبها، واستمر في إنتاج الكتب. ثم إن اتساع نفوذه جعل موسوليني يصدر أمراً للرقابة المتصلبة بالتوقف، في حين قُضي على طلابه، وزملائه المتوافقين معه في الموقف. كانت زيارته تقتضي من الإيطالي أو حتى الأجنبي، كثيراً من الجسارة، وذلك لأن السلطات كانت تعرف حق المعرفة أنه لا يتردد في التعبير عن رأيه في قلعة غرفه المزدحمة بالكتب. لذلك أقام في غرفة محكمة السد، مختومة، إذا جازت العبارة، مثل زجاجة وسط أربعين مليوناً من أبناء بلده. وهذه العزلة الكتيمة التي عاشها فرد واحد في مدينة يقطنها ملايين، في بلد يقطنه ملايين، كانت عزلة غريبة ومهيبة في آن معاً. ومع أنني لم أدرك آنذاك أن هذا السلب للحيوية الفكرية يشكل حالة ألطف بكثير من الحالة التي قُدّر علينا أن نعيشها في ما بعد، فإنني ما تمالكت أن أُعجبت بالجدة والمرونة الذهنية اللتين احتفظ بهما الشيخ في نضاله اليومي. ولكنه ضحك وقال: «إنها معارضة تجدد الشباب ليس غير. لو بقيت في مجلس الشيوخ، لكانت المعارضة سهلة للغاية، ولأصبحت من الناحية الفكرية كسولاً ومفتقراً إلى الاتساق منذ وقت طويل. لا شيء يضرّ المفكر أكثر من عدم اتخاذه موقفاً معارضاً. أنا لم أُرغم على تجديد شبابي إلا بعد أن ألفيت نفسي وحيداً غير محاط بالشباب.»

كان لا بد أن تمرّ بضعة أعوام قبل أن أفهم أن المحن تتحدّى الإنسان، والاضطهاد يقوّيه، والاعتزال يرفعه، شريطة ألا تحطمه. وشأن جميع الأشياء المهمة في الحياة، فإن هذه المعرفة لا يستمدها المرء من تجارب الآخرين، بل من قَدَره الخاص فقط.

لم ألتق موسوليني، الرجل الأهم في إيطاليا، ويمكن أن أعزو ذلك إلى نفوري من مقاربة كبار رجال السياسة. وحتى في النمسا، بلدي المتواضع، حيث كانت مقاربتهم تعتبر مأثرة تقريباً، لم ألتقِ أحداً من رجال الدولة البارزين، لا سايبل، ولا دولفوس ولا شوشنيغ. ربما كان من واجبي أن أشكر موسوليني الذي لبّى من تلقاء ذاته أول طلب أقدمه إلى رجل دولة.

وهذا ما حدث. تلقيت ذات يوم رسالة خاصة من صديق في باريس يقول فيها: إن سيدة إيطالية تريد أن تراني في سالزبورغ من أجل أمر بالغ الأهمية، ويطلب مني أن

أستقبلها بلا إبطاء. جاءتني في اليوم التالي، وقصتها كانت مؤثرة حقاً. كان زوجها، وهو طبيب بارز، قد انحدر من أسرة فقيرة، وتعلّم على حساب الزعيم الاشتراكي ماتيوني الذي لقي مصرعه على أيدي الفاشيين القساة. ثارت على إثر ذلك ثائرة أوروبا كلها، وكانت تلك آخر مرة يعبّر فيها ضمير العالم المجْهد عن جريمة مفردة. كان زوجها، الصديق المخلص، أحد ستة رجال شجعان تجرؤوا على حمل التابوت في شوارع روما. وبعد ذلك قوطع وهُدّد، فقصد المنفى. ولكن مصير أسرة ماتيوني بقي شغله الشاغل. وفي ذكرى الرجل الذي أحسن إليه، أراد أن يهرّب أولاده من إيطاليا. وفي أثناء القيام بهذه المحاولة، وقع في أيدي الجواسيس، أو العملاء المحرضين، وأُلقي القبض عليه. وبما أن كل ما يذكرّ بالزعيم الاشتراكي كان مربكاً للإيطاليين، وكان من الممكن ألا تكون المحاكمة بالغة السوء بالنسبة إليه، فقد اتهمه المدعي بالتورط في خطة مدبرة لاغتيال موسوليني. وهكذا فإن الطبيب الشاب الذي نال أرفع الأوسمة في الحرب، قد حُكم عليه بالأشغال الشاقة عدة سنوات.

كانت المرأة الشابة منفعلة جداً بالطبع. لا بد من فعل شيء رداً على الحكم الذي يهدد حياة زوجها بالخطر، والمطلوب فعله هو توحيد الأسماء الأدبية الكبيرة في أوروبا في حركة احتجاج كبيرة، وأرادتني أن أساعدها على بلوغ هذه الغاية. وفي الحال نصحتها ألا تلجأ إلى الاحتجاجات، فقد كنت أعلم كم أصبحت مبتذلة مثل هذه التظاهرات منذ قيام الحرب. وذكّرتها بأن الكبرياء القومية وحدها سوف تمنع أي بلد من السماح بأن تصحح عدالته من الخارج، وأن الاحتجاج الأوروبي على محاكمة ساكو وفانزيتي لم يكن وقعه في أمريكا حسناً بقدر ماكان سيئاً. طلبت منها بكل جدية ألا تفعل شيئاً من هذا النوع، فهي سوف تزيد حالة زوجها ألماً وخطراً، لأن موسوليني لن يأمر، ولن يستطيع، ولو أراد، أن يأمر بتخفيض الحكم إن مورس عليه ضغط من الخارج. وبما أنني تعاطفت حقاً مع المرأة، فقد وعدتها أن أبذل جهدي. واتفق أن كنت عازماً على الذهاب إلى إيطاليا في الأسبوع التالي، ولي هناك أصدقاء كرماء في مواقع ذات تأثير ربما يستطيعون أن يفعلوا شيئاً من أجل الطبيب.

حاولت في اليوم الأول، ولكنني اكتشفت كم تآكلت أرواح الناس من الخوف. فما أن ذكرت الاسم أمام بعض الناس حتى ارتبكوا. آسف، لا أستطيع مساعدتك في هذا

الأمر. هذا مستحيل تماماً. هذا ما قاله لي واحد بعد آخر، فعدت شاعراً بالخجل. ألا يمكن أن تشكّ المرأة البائسة في ما بذلت من جهد؟ وبما أنني لم أبذل غاية الجهد، فكرت في أمر واحد ممكن، وهو السبيل المباشر الصريح، أي أن أكتب إلى الرجل الذي يملك القرار، أي موسوليني نفسه.

وفعلتها. كتبت رسالة بسيطة قلت فيها: إنني لا أحب الابتداء بالعبارات المتملقة، وأود أن أوضح في الخارج أنني لم أعرف الرجل، ولا نوع الذنب الذي ارتكبه. غير أنني رأيت زوجته التي هي بلا شك بريئة، والتي ستتحمل هي تبعات الحكم الكاملة إذا تعيّن على زوجها قضاء عشرة أعوام في السجن. لم يكن هدفي نقد الحكم بأي حال من الأحوال، إنما تخيلت أن حياة امرأة يمكن إنقاذها إن أُرسل زوجها إلى جزر العقاب حيث يتاح للأولاد والزوجات أن يعشن مع المنفيين بدلاً من إيداعه في السجن.

أخذت الرسالة الموجهة إلى سيادة بنيتو موسوليني، وأسقطتها في صندوق بريد سالزبورغ العادي. وبعد أربعة أيام، أبلغتني المفوضية الإيطالية في فيينا أن سيادته رجاهم أن يشكروني، وأن يعلموني أنه قد وافق على طلبي، وأمر أن تخفّض مدة الحكم.وفي الوقت ذاته جاءت برقية من إيطاليا تؤكد الترحيل المطلوب. وفي واقع الأمر، عفي عن السجين تماماً بعد وقت قصير. لم أكتب رسالة في حياتي منحتني فرحاً وارتياحاً أكثر من تلك الرسالة، وإذا فكرت في أي نجاح أدبي، فإن هذا النجاح هو الذي أتذكره باعتراف خاص بالجميل.

في تلك الأعوام الأخيرة من مرحلة الهدوء كان السفر ممتعاً، ولكن العودة إلى الوطن كانت ممتعة أيضاً. إن شيئاً لافتاً للنظر قد حدث في صمت تام. فمدينة سالزبورغ الصغيرة التي يقطنها أربعون ألف نسمة، والتي اخترتها لانزوائها الرومانسي قد جرى فيها تحول مدهش، إذ أصبحت عاصمة الفن الصيفية، لا لأوروبا فقط، بل للعالم كله. فمن أجل تخفيف أزمة الممثلين و الموسيقيين العاطلين عن العمل خلال أشهر الصيف الذي أعقب أعوام الحرب القاسية،نظّم ماكس راينهارت وهوجو فون هوفمونزثال بعض العروض،ولاسيما الإخراج الشهير لمسرحية Everyman في ساحة الكاتدرائية، والذي اجتذب زواراً من المناطق المجاورة أولاً، ثم أضافا عروضاً أوبرالية

تدرجت إلى الكمال باستمرار. وأخذ العالم يتنبّه لما يجري شيئاً فشيئاً. فتسابق خيرة قادة الأوركسترا، والمغنين، والممثلين، طامحين إلى تجاوز حدود بلدانهم، وعرض مواهبهم أمام جمهور عالمي. ولم يلبث مهرجان سالزبورغ أن أصبح يجتذب اهتمام العالم كأنه أوليمبياد حديث للفن تتنافس الأمم جميعها على عرض أفضل ما عندها فيه. وإن أحداً لم يرغب في أن تفوته هذه العروض غير العادية. كان الملوك والأمراء، والأثرياء الأمريكيون ونجوم السينما، وعشاق الموسيقا، والفنانون، والشعراء، والنفّاجون، يجتمعون كلهم في سالزبورغ. لم يوجد في أوروبا تركيز للأعمال المسرحية والموسيقية المتقنة كالذي وجد في مدينة صغيرة في النمسا الصغيرة المهملة منذ وقت طويل. وازدهرت سالزبورغ، ففي الصيف كان المرء يلتقي في الشارع أمريكيين وأوروبيين يبحثون عن أرفع عروض الفن، وقد ارتدوا أزياء المدينة: سُتَراً وبناطيل قصيرة مصنوعة من الكتان الأبيض للرجال، وأثواباً بهيجة ملتصقة بالجسد للنساء. وفجأة أصبحت سالزبورغ الصغرى مبتكرة أزياء العالم! كان القادمون يتعاركون لاحتجاز الغرف في الفنادق، ويتباهون في صف سياراتهم عند موضع الاحتفال كما كان يجري في حفلات البلاط الملكي الراقصة، ومحطة القطار تزدحم بالناس ليل نهار. حاولت مدن أخرى أن تحوّل مجرى هذا التيار المثقل بالذهب إليها، ولكنها أخفقت كلها. لقد كانت سالزبورغ، وبقيت طيلة عقد من الزمن، مكة أوروبا الفنية.

هكذا وجدت نفسي، وأنا في مدينتي، في مركز أوروبا. لقد لبّى القدر مرة أخرى رغبة لي كدت لا أجرؤ على الحلم بها، فأصبح منزلي على كابوتْسِنربرغ منزلاً أوروبياً. كم كان زوارنا متنوعين! إن سجل ضيوفنا أجدر بالثقة من الذاكرة، ولكن الاشتراكيين القوميين قد استولوا عليه مع المنزل وأشياء أخرى. ما أسعد الساعات التي قضيناها هناك مطلّين من المصطبة على الريف الجميل الوديع من دون أن يخطر لنا أن الرجل الذي سيدمر كل هذا يقيم قبالتنا على جبل بيرشتسنجادن. أقام معنا رومان رولان، وتوماس مان. ونزل ضيفاً عندنا من الكتاب: هـ.ج. ويلز، وهوفمنزثال، وجاكوب واسرمان، وفان لون، وجيمس جويس، وإميل لودفيج، وفرانز فيرفل، وجورج براندز، وبول فاليري، وجين آدمز، وشالوم آش، وآرثر شنتسلر، ومن الموسيقيين: رافل وريتشارد شتراوس، وألبان بيرغ، وبرونو فولتر، وبارتوك، وغيرهم من الفنانين

والممثلين والعلماء والأساتذة من أربع أركان العالم. يا للساعات العديدة الرائعة من الحوار الفكري، والتي كان كل ضيف يحملها إلينا! ذات يوم تسلق أرتورو توسكانيني منحدر منزلنا، ومنذ تلك الساعة نشأت صداقة مكنتني من تفهم الموسيقا، وحبها، والتمتع بها أكثر من أي وقت مضى. وفي الأعوام التالية واظبت على حضور تدريباته، واكتشفت مرة بعد أخرى مقدار الجهد الذي كان يبذله من أجل بلوغ ذلك الإتقان الخالي من الخطأ، والذي كان في الحفلات العامة اللاحقة يبدو معجزة، في حين أنه لم يكن يدرك منه إلا المتوقع. (حاولت في إحدى مقالاتي أن أصف هذه التدريبات التي تشكل في نظر الفنان النشاط المحفزّ الأمثل الذي ينبغي ألا يكفّ عنه حتى بلوغ الكمال.) إن قولة شكسبير: «الموسيقا هي غذاء الروح» قد تأكدت عندي على نحو رائع، فبعد أن شاهدت المنافسات الفنية، باركت القدر الذي وحّدني بها أخيراً. كم كانت أيام الصيف تلك غنيّة ومتنوعة الألوان عندما كان الفن، والريف السعيد، يعزز أحدهما الآخر! وكلما تذكرت كيف كانت المدينة الصغيرة في أعقاب الحرب رثة ومهملة ورمادية ومُغمّة، وكيف كنا نكافح في منزلنا، ونحن متجمدون من البرد، تسرّبَ المطر من السطح، أحسست بما عنته لحياتي سنوات السلام السعيدة تلك. إن الإيمان بالعالم وبالإنسانية قد غدا مرة أخرى أمراً ممكناً.

جاء إلى منزلنا في تلك الأعوام كثير من الضيوف المشهورين والمرغوب فيهم، وأما في أوقات الوحدة، فقد كان يحْدق بي أيضاً كوكبة ساحرة من الأعلام الذين نجحت في استرجاع ظلالهم وآثارهم في مجموعة المخطوطات السابق ذكرها. إن أعظم معلمي العصور قد اجتمعوا عندي فيما خطّته أيديهم. فما ابتدء على سبيل الهواية، وأنا في الخامسة عشرة، تطور مع مرور الأعوام - بفضل ازدياد التجربة والوسائل والشغف - من مجرد تكديس إلى بنية عضوية، ولا أتحرّج من القول: إلى عمل فني حقيقي. ففي البداية، سعيت كأي مبتدئ إلى جمع الأسماء المشهورة ليس غير، وفي ما بعد بحثت، مدفوعاً بالفضول النفسي، عن المخطوطات فقط - النصوص الأصلية للأعمال، أو أجزاء منها. وهذه المخطوطات أتاحت لي الاطلاع على المنهج الإبداعي الذي اتخذه هذا المبدع المحبوب أو ذاك. وذلك لأننا إذا نظرنا إلى هذا العالم بكل

ألغازه المعمّاة التي لا حصر لها، فإننا سنجد أن لغز الإبداع هو اللغز الأبعد غوراً، والأشد غموضاً. إن الطبيعة لا تسمح ههنا باستراق السمع، ولن تسمح بأن يتحرى جوهر اللعبة أحد. كيف نشأت الأرض؟ وكيف أبدعت الزهرة الصغيرة؟ وكيف تمّ خلق القصيدة، والإنسان؟ إن الطبيعة القاسية العنيدة تسدل الستار على هذا كله. وحتى الشاعر الذي ينجز الإبداع الشعري، وحتى الموسيقي، لا يستطيع أن يصف ويفسّر لحظة الإلهام. فما أن يأخذ إبداعه صورته الكاملة حتى يستبهم عليه أصله، ونموّه، وصيرورته. ولن يقدر،أو يكاد لا يقدر أن يوضح كيف ترابطت، وهو في حالة النشوى، الكلمات في القصيدة، والنغمات المفردة في ألحان، هذه الكلمات والألحان التي يظل يُسمع رجع صداها عبر العصور. والشيء الوحيد الذي يمكن أن يعطينا فكرة بسيطة عن هذه العملية الغامضة هو الصفحات المخطوطة باليد، ولاسيما غير المعدّة للطبع منها، المسوّدات الأولى المؤقتة التي يتبلور منها الشكل الأخير الصحيح على التدريج. إن مثل هذا الصفحات لكبار الشعراء مع ما تحمله من دليل على الصراع قد قمت بجمعها في المرحلة الثانية التي ازدادت فيها معرفتي. كان يطيب لي أن أبحث عنها في المزادات. من الممتع أن تتتبع رائحة حتى أخفى أماكنها، وهذا نوع من العلم أيضاً. وإضافة إلى جمع المخطوطات، تطورت عندي في بطء هواية أخرى هي جمع كل ما كُتب عن المخطوطات، وكل ما طُبع من فهارس، حتى بلغ عددها أكثر من أربعة آلاف، وهذه مكتبة مراجع لا نظير لها، ولا منافس، لأن التجار أنفسهم لم يكن في وسعهم تكريس هذا القدر من الوقت والحب من أجل جمع هذا النوع من السلع. ولي الحق أن أقول ما لن أجرؤ على قوله فيما يتعلق بالأدب، أو أي مجال آخر من مجالات الحياة، وهو أنني أصبحت في أعوام الجمع الثلاثين أو الأربعين مرجعاً في مجال المخطوطات. كنت أعرف كل الكتابات اليدوية المهمة، وأعرف أين توجد، ومن صاحبها، وكيف وصلت إلى مالكها، وبالتالي أصبحت خبيراً يحكم على أصالة المخطوط من النظرة الأولى، بل أكثر خبرة، عند الموازنة، من معظم المحترفين.

ولكن طموحي إلى الجمع أخذ يذهب إلى أبعد من ذلك. لم يرضني أن يكون عندي قائمة تضمّ مخطوطات الأدب والموسيقا العالميْن، أي مرآة تعكس آلاف المناهج الإبداعية. لم يعد يغريني الإكثار من الجمع، فما باشرته في السنوات العشر الأخيرة هو

التنقية المنسّقة. فلئن رضيت في البداية بامتلاك صفحات مخطوطة لشاعر أو مؤلف موسيقي تكشف عن لحظة إبداعية، فإن جهدي قد توفرّ شيئاً فشيئاً على معرفة أسعد لحظة إبداعية لكل واحد، لحظة إنجازه الأرفع. لذلك لم أبحث عن مخطوطة إحدى قصائد شاعر، بل عن مخطوطة أجمل قصائده، أو، إذا تمكنت، عن مخطوطات القصائد التي سلكت طريق الأبدية من اللحظة التي وجد فيها الإلهام تحققه الدنيوي الأول. لقد أردت من الخالدين - وهذا افتراض جسور- ما تضمنته كتاباتهم اليدوية الباقية من أشياء جعلتهم خالدين في العالم.

وعلى هذا، أصبحت المجموعة في حالة تغير دائم، فأي ورقة غير مناسبة للغرض المحدد، استُبعدت، أو بيعت، أو بُدّلت، حالما نجحت في العثور على الأوراق الأكثر جوهرية، والأكثر تميزاً، والأكثر احتواء على الأبدية - إذا جازت هذه العبارة. والأمر العجيب هو أنني نجحت في حالات عديدة، لأن قلة قليلة كانت تجمع مثلي أهمّ أعمال الفن، وتتحلى بالتجربة ذاتها، والقدرة على التذكر ذاتها، وفي نفس الوقت، بالمعرفة ذاتها. وأخيراً فإن مخطوطات الأعمال، أو أجزاء الأعمال التي تنتمي إلى أدوم تجليات الإبداع الإنسان قد ملأت حقيبة في البداية، ثم صندوقاً كاملاً. وفهرس هذه المجموعة التي تبعثرت منذ عهد بعيد قد فقدته بعد أن أُرغمتُ على حياة التنقل، وأستطيع فقط أن أعدد كيفما اتفق بعض الأشياء لأوضح كيف تجسدت العبقرية الدنيوية في لحظة الأبدية.

كان عندي ورقة من دفتر عمل ليوناردو علّق فيها على مخططات، وتبدو فيها كتابته المتعجلة التي لا تكاد تقرأ كأنها منعكسة في مرآة، وبيان نابليون إلى الجنود في ريفولي، و رواية كاملة لبلزاك قبل دفعها إلى الطبع حافلة صفحاتها بالتصحيحات التي يتجلّى فيها تجلياً يفوق الوصف ما كان يبذله من جهد هائل في الطبعات التجريبية (من حسن الحظ أن طبعة مصورة قد حُفظت في جامعة أمريكية). وكان هناك نسخة أولى غير معروفة من كتاب نيتشه «مولد المأساة»، والتي كان كتبها قبل أن ينشرها للحبيبة كوسيما فاجنر، وقصة مغنّاة Cantata لباخ، ولحن «آلسيست» لغلوك، وآخر لهاندل الذي كانت مخطوطاته الموسيقية أندر المخطوطات. كنت أبحث دائماً عن الأكثر تميزاً، وكنت أجده في معظم الأحوال. وجدت Zigeunerlieder لبرامز،

و Barcarolle لشوبان، و An die Musik الخالدة لشوبيرت، ولا أكثر ولا أقل من لحن هايدن الخالد Gott erhalte من رباعية الإمبراطور. وفي بعض الحالات نجحت أيضاً في توسيع التجلّي الفريد للإبداع إلى صورة كاملة عن حياة الفرد المبدع. ولذلك فمن أعمال موزارت لم يكن عندي صفحة فجة كتبها وهو في الحادية عشر فقط، بل أغنية Veilchen (البنفسجة)، - بيّنةٌ فنه في الغناء - وقطع الموسيقا الراقصة Minuets نفسها التي تعيد صياغة لحن Non Piu Andrai من أوبرا «فيجارو»، ولحن Cherubino من الأوبرا نفسها، - بيّنةٌ موسيقاه الراقصة - إضافة إلى رسائل عجيبة الفحش (لم تُنشر كاملة قط) إلى «das basle»، وهو كاهن فاحش، وأخيراً صفحة مكتوبة قبل وفاته، وهي لحن من «تيطُس». وكان قوس غوته كاملاً أيضاً. فالورقة الأولى ترجمة من اللاتينية و هو في التاسعة، والأخيرة قصيدته كتبها وهو في الثانية والثمانين، قبيل وفاته. وما بين هاتين الورقتين صفحة كبيرة من قمة أعماله، وورقة مطويّة ذات أربع صفحات من «فاوست»، ومخطوط عن العلوم الطبيعية، وعدد من القصائد والرسوم العائدة إلى أطوار حياته المتباينة جداً. إن هذه الصفحات الخمس عشرة كان تمكّن المرء من إلقاء نظرة عامة على حياته كلها. أما بيتهوفن المبجل فوق الجميع، فلم أقدر على إنجاز صورة مكتملة له إلى هذا الحد. وكما أن ناشر كتبي، الأستاذ كيبنبرغ نافسني في آثار غوته، كذلك عارضني وزايدني أحد أغنى أغنياء سويسرا، صاحب مجموعة لا نظير لها لبيتهوفن. ولكن إذا وضعنا جانباً الدفتر القديم جداً، وأغنية «القبلة»، وأجزاء من موسيقا Egmont، فإنني نجحت في أن أقدّم أفجع لحظات حياته تقديماً ملموساً وكاملاً على نحو لا يستطيعه أي متحف. أسعفني الحظ فجأة، فحصلت على كل ما تبقىّ من أثاث غرفته، والذي طُرح للمزاد بعد وفاته، واشتراه عضو مجلس الشورى، بروننغ. حصلت على المكتب الكبير الذي أُخفيت في أحد أدراجه صورتان للحبيبتين: الكونتيسة Guilietta Guicciardi، والكونتيسة Erdody، والصندوق المتين الذي انتصب حذاء سريره حتى اللحظة الأخيرة، والمكتب الصغير المتنّقل الذي كتب عليه وهو في السرير آخر المؤلفات والرسائل، وخصلة بيضاء من شعره قُصّت وهو على سرير الموت، والدعوة إلى جنازته، وآخر قائمة ملابس معدّة للغسل كتبتها يده المرتجفة، وقائمة ممتلكاته المطروحة للبيع، وقائمة أسماء جميع أصدقائه الذين تبرعوا للطاهية

سالي التي تُركت معدمة. وبعد أن ابتعت كل هذه الأشياء من الغرفة الذي مات فيها سرعان ما أتيحت لي فرصة للحصول على ثلاثة رسوم له وهو على فراش الموت، وكأن ذلك كان برهاناً على أن المصادفة تعطي جامع التحف الصادق أحسن أوراق اللعب. فبحسب تقارير جديدة، حاول أحد أصدقاء شوبيرت، وهو الرسام الشاب جوزيف تلتشر أن يرسم الرجل المحتضر في ذلك اليوم، السابع والعشرين من شهر تشرين الثاني، غير أن برونتغ اعتبر ذلك عملاً وقحاً، فأمر بإخراجه من الغرفة. وبقيت تلك الرسوم المجملة نحو مئة سنة مفقودة إلى أن بيعت بضع عشرات من كراريس هذا الفنان المغمور بسعر زهيد في مزاد صغير في برون، واكتُشفت الرسوم الحالية ضمنها. وبما أن المصادفة تعقبها مصادفة، فقد اتصل بي ذات يوم تاجر، وسألني إن كنت أرغب في الحصول على الصورة الأصلية لبيتهوفن وهو على فراش الموت. قلت له: إن الرسوم كلها عندي، ولكن تبيّن لي أن ما كان يعرضه هو الليثوغراف الأصلي للفنان دان هاوسر. وهكذا اتفق أن جمعت كل ما تبقّى من أشياء ملموسة لاستعادة تلك اللحظة المشهودة الخالدة.

غني عن القول: إنني لم أعتبر نفسي قط مالك هذه الأشياء، بل مجرد مؤتمن مؤقت عليها. لم يغْرني الشعور بامتلاك المجموعة، بل فتنتني فكرة ضم أجزائها، وصياغة عمل فني منها. كنت مدركاً إنني قد صنعت منها شيئاً متكاملاً أجدر بالبقاء من أعمالي. وعلى الرغم من الاقتراحات العديدة، عزفت عن وضع فهرس، لأن البنية كانت ما تزال قيد الإنشاء، وينقصها بعض الأسماء، وكثير من النماذج الأحسن حالة. وما كنت أرمي إليه بعد طول التروّي هو أن أورّث إحدى المؤسسات هذه المجموعة الفريدة على أن تحقق شرطي الخاص، وهو أن تنفق مبلغاً محدداً كل سنة من أجل تطوير هذه المجموعة بالحماسة التي دفعتني إلى العمل. وبذلك لن تبقى شيئاً جامداً، بل عضوية حية يمكن بعد خمسين عاماً أو مئة عام أن تتحسن وتتكامل حتى تبلغ جمالاً أكمل.

ولكن التفكير فيما يتعدّى الذات كان أمراً محروماً منه جيلنا المرهق. فلما جاء عهد هتلر، وغادرت وطني، ذهبت متعة الجمع، وذهب معها التيقن من القدرة على المحافظة على شيء أمداً طويلاً. حفظت أجزاء من المجموعة في خزائن، وعند الأصدقاء، ولكن بعد أن تذكرت تحذير غوته من سريان الخدر في المتاحف،

والمجموعات، والمخازن إذا لم تُطَّور باستمرار، آثرت أن أودّع المجموعة التي لم أعد قادراً على تكريس جهدي الخلاّق لها. وعلى سبيل الوداع، أعطيت مكتبة فيينا قسماً منها، ولاسيما تلك الهدايا التي تلقيتها من أصدقائي المعاصرين، وبعت قسماً آخر، و ما حدث للباقي، أو ما يحدث له لم يعد يشغل بالي. كان فرحي على الدوام في فعل الإبداع، وما كان قط فيما أبدعه الآخرون. لذلك أنا غير آسف على ما ملكته ذات يوم. لقد طُردنا وطورُدنا في هذه الأوقات المعادية لكل فن ولكل مجموعة، ولئن أكرهنا على تعلم فن جديد، فهذا الفن هو التخلي عن كل ما كنا سابقاً نفخر به ونحبه.

ومرت الأعوام بالعمل والسفر، بالدراسة والقراءة، بالجمع والتمتع بالحياة. وغداة أحد أيام شهر تشرين الثاني، استيقظت، فوجدت نفسي في الخمسين من العمر. وهذا التاريخ كان سيئ الطالع بالنسبة إلى ساعي بريد سالزبوغ الطيب الأشيب. لقد كان عليه أن يرتقي الدرج المنحدر حاملاً رزمة ثقيلة من الرسائل و البرقيات، وذلك لأن عيد الميلاد الخمسين للكاتب كان الاحتفال به على نطاق واسع في الصحف تقليداً راسخاً في ألمانيا. وقبل أن أفضّ الظروف وأقرأ، توقفت للتأمل في مغزى ذلك اليوم بالنسبة لي. إن خمسين عاماً تعني منعطفاً، وإن المرء ليضطرب حين ينظر إلى الوراء لكي يرى كم قطع من الدرب، ويسأل نفسه في صمت: هل سيمضي ذلك الدرب صُعُداً؟ راجعت الزمن الذي عشته. وعلى نحوِ ما كنت أنظر إلى سلسلة جبال الألب، والوادي الخفيف الانحدار، استعدت تلك الأعوام الخمسين، وعليّ أن أعترف أن الجاحد شرير. لقد أُعطيت أكثر بما لا يقاس مما توقعت، أو فكرت في أنني أستحقه. والوسيلة التي أردت أن أَطورها وأعبرّ من خلالها وجودي، وهي وسيلة الأدب، قد كان فعلها مؤثّراً إلى حد تعدّى أجرأ أحلام صباي ـ لقد أهدتني «دار الجزيرة» قائمة كتبي المنشورة بكل اللغات، والقائمة في ذاتها كتاب. لم تغب أي لغة، لا البلغارية ولا الفنلندية، لا البرتغالية ولا الأرمينية، لا الصينية ولا المراثية الهندية. لقد انتشرت بين الناس أفكاري وكلماتي بالاختزال، وطريقة بريل الخاصة بالعميان، والأبجديات واللهجات الغريبة كلها، فتوسع وجودي إلى ما وراء فضاء كينونتي توسعاً لا حدّ له، كما أقمت علاقات صداقة مع كثير من خيرة أهل عصرنا، وتمتعت بأفضل العروض، وأتيح لي أن أرى المدن الخالدة، واللوحات الخالدة، وأجمل مناظر الأرض. وقد استبقيت حريتي، فلم أعتمد على مكتب

أو حرفة. كان عملي هو فرحي، إضافة إلى أنه جلب الفرح للآخرين. ما الشر الذي يمكن أن يقع؟ هاهي ذي كتبي، فهل يمكن أن تُتلف؟ (فكرت في تلك الساعة دون أن أرتاب في شيء) منزلي - هل يمكن أن يُنتزع مني؟ أصدقائي - هل يمكن أن أفقدهم؟ فكرت بلا خوف في الموت، والمرض، ولكن الصورة القصوى لما سأكابده بعد لم تخطر على بالي. لم يخطر لي أن أغدو مشرّداً ومطارداً، وأن أضطر إلى التنقل كلاجئ من بلد إلى بلد، و أن أجتاز محيطاً إلى المحيط، وأن تُحرق كتبي، وتُحظر، وتُصادر، وأن يُدرج اسمي في ألمانيا في قائمة مثل أسماء المجرمين، وأن يشحب لون أولئك الأصدقاء الذين تستلقي رسائلهم أمامي على الطاولة إذا التقوني بالمصادفة. لم يخطر لي أن منجزات نحو أربعين سنة من المثابرة يمكن أن تنطمس آثارها، وأن بنية الحياة الصلبة الآمنة، كما قدّرت، يمكن أن تنهار، وأنني قد أُرغم، وأنا دانٍ من القمة، على أن أبدأ بداية جديدة، والطاقات متضائلة، والروح مضطربة. حقاً إن مثل هذه الصور المنافية للعقل لم تكن لتستحضر في ذلك اليوم. كان لديّ سبب للرضا. فلقد أحببت عملي، وبالتالي أحببت الحياة. وكنت محمياً من الشواغل المادية، فحتى لو لم أكتب سطراً آخر، فإن كتبي كانت تغنيني عن سواها وخُيّل لي أنه لم يعد هناك ما يُنجز، وأن القدر قد رُوّض. فالأمان الذي عرفته في منزل أبواي قديماً، والذي اختفى أثناء الحرب، قد استعادته الجهود التي بذلتها. ما الذي كان يمكن أن أتمناه أكثر من ذلك؟

ولكن الأمر المستغرب هو أن انعدام الرغبة عندي في هذه الساعة قد أورثني قلقاً خاصاً. شيء في داخلي - ليس أنا بالذات - سألني: هل من المرغوب فيه فعلاً أن تستمر الحياة على هذا المنوال الهادئ المنظّم المربح المريح الخالي من المشقات والمحن تماماً؟ ألم تكن الامتيازات والأمان التام في حياتي غريبة عن جوهر ذاتي؟ تمشيت في المنزل متفكراً. لقد أصبح منزلي جميلاً في هذه الأعوام، وغدا كما كنت أتمناه. ومع ذلك، هل سأعيش هنا على الدوام؟ هل سأجلس دوماً إلى المكتب ذاته، وأصنّف الكتب، واحداً بعد الآخر، وأتلقّى المكافآت، ثم مزيداً من المكافآت، وبالتالي أصبح سيداً مبجّلاً تتصف حياته بالكياسة واللياقة المتناسبتين مع اسمه وعمله، بعيداً عن لعبة الحظ، وكل الأخطار والترقبات؟ هل ستبقى الأمور ثابتة على هذه الشاكلة حتى سن الستين فالسبعين؟ أليس من الأفضل لي - استمر حلمي - إذا دخل حياتي شيء ما، وجعلها

أكثر اضطراباً وتشوقاً وشباباً باستنهاضي إلى صراع جديد، وربما أخطر؟ إن كل فنان يضمر ازدواجية غامضة: فإذا تقاذفت به الحياة تاق إلى السلام، ولكن ما أن يُمنح السلام حتى يشتاق إلى الاضطراب القديم. لذلك فقد اختلجت في صدري في عيد ميلادي الخمسين رغبة شريرة واحدة ـ رغبة في شيء ينتزعني مرة أخرى من كل هذه الضمانات والأوضاع المريحة، ولا يحتّم علي الاستمرار فقط، بل الابتداء من جديد. أكان ذلك هو الخوف من الشيخوخة، والوهن، والتكاسل؟ أم كان هاجساً مبهماً ذاك الذي جعلني أتمنى حياة أخرى أصعب من أجل روحي؟

لا أدري. وذلك لأن ما انبثق من غسق الباطن في هذه الساعة الغريبة لم يكن رغبة واضحة، ومن المؤكد أنه لا يرتبط بالإرادة الواعية. لم يكن أكثر من فكرة عابرة حملتها الريح إليّ، وربما لم تكن فكرتي أنا، بل فكرة جاءت من الأعماق التي لا أعرف عنها شيئاً. ولكن القوة الغامضة الخفيّة التي تهيمن على حياتي، والتي حققت لي أكثر مما تجرأت على تمنيه، لا بد أنها قد فزعت من هذه الحياة، وارتفعت يدها طائعة لكي تقوّضها حتى قواعدها، وتجعلني أبني من أنقاضها حياة مختلفة تماماً من أسفلها إلى أعلاها، حياة أشقّ وأصعب.

الفصل الخامس عشر
هتلر «المبتدئ»

سيبقى قانوناً ثابتاً في التاريخ أن يُحرم المعاصرون من معرفة البداية المبكرة للحركات الكبيرة التي تحدد عصرهم. لذلك فأنا بصراحة غير قادر على تذكر متى سمعت أول مرة باسم أدولف هتلر، ذلك الاسم الذي أرغمنا أعواماً على التفكير فيه، ولفظه كل يوم، بل كل دقيقة في هذا الصدد أو ذاك، اسم الرجل الذي أحدث في العالم من الشر ما لم يحدثه رجل آخر عبر العصور. ومع ذلك، فلا بد أن يكون ذلك قد حدث في وقت مبكر بعض الشيء، لأن ميونخ التي لا تبعد عن سالزبورغ إلا ساعتين ونصف الساعة بالقطار هي جارة قريبة بحيث أن شؤونها المحلية قد أصبحت موضوع أحاديثنا العادية. وما أذكره فقط هو أن أحد معارفي قد زارني ذات يوم - لا أذكر التاريخ - وأعرب عن أسفه من عودة الاضطراب إلى ميونخ، ولاسيما أن محرضاً عنيفاً يدعى هتلر أخذ يعقد اجتماعات تقع فيها نزاعات، ويحرّض الناس على الجمهورية واليهود تحريضاً مبتذلاً للغاية.

لم يترك الاسم أي أثر في نفسي، ولم ألقِ إليه بالاً. ففي ألمانيا المضطربة يومئذٍ، كانت أسماء المحرضين والعصاة كثيرة، وهي منسية الآن، إذ لم تكن تبرز حتى تختفي. ومن تلك الأسماء، اسم الكابتن إرهارت مع قواته البلطقية، والجنرال كاب، ومجرمي فام vehm ، وبارفاريا ، وانفصاليي الراين، وقادة الفيالق الحرة. كانت مئات من هذه الفقاقيع الصغيرة تطفو في الاهتياج العام، ثم تنفجر من غير أن تخلّف شيئاً إلا رائحة كريهة تدلّ دلالة واضحة على التعفن في جرح ألمانيا الذي مازال منفتحاً. واتفق أن وقعت في يدي صحيفة Miesbacher Anzeiger الصغيرة، لسان حال الحركة الاشتراكية القومية الجديدة (صار في ما بعد Volkische Beobachter). ولكن Mieshach كانت مجرد قرية صغيرة. وإصدار الصحف ممارسة شائعة. من كان يبالي؟

ولكن المدينتين الحدوديتين بيرشتسجادن Berchtesgaden ورايشنهول Reichenhall اللتين كنت أزورهما كل أسبوع تقريباً، قد ظهرت فيهما فجأة زمر صغيرة متزايدة باستمرار من الشبان المتنعلين جزمات الخيالة، و اللابسين قمصاناً بنية على أكمامها صلبان معقوفة فاقعة اللون. نظم هؤلاء اجتماعات، ومسيرات، وساروا في مواكب عبر الشوارع منشدين صائحين، وغطّوا الجدران بالملصقات الكبيرة، ولوّثوها بالصلبان المعقوفة. وفي ذلك الوقت فقط، أدركت أن قوى مالية، وذات نفوذ، تقف لا محالة وراء هؤلاء الرعاع الذين ظهروا فجأة. إن هتلر الذي كانت خُطبه حينئذ منحصرة في أقبية البيرة في بافاريا، لم يكن ليستطيع وحده أن يشغّل هذه الآلاف من الصبيان في جهاز باهظ النفقات إلى هذا الحد. لاشك في أن لاعبين أقوى منه كانوا يستخدمون هذه «الحركة» الجديدة واجهةً لهم.

كانت قوات العاصفة المتنقلة من مدينة إلى أخرى ترتدي بزّات جديدة في وقت ضيقٍ لم يكن فيه عند جنود الجيش إلا بزّات رثّة، وتسيطر على أسطول من السيارات والدراجات والشاحنات الجديدة الفخمة. إضافة إلى ذلك، شاع بين الناس أن هؤلاء الشبان كانوا يتعلمون التكتيك من بعض الضباط، ويُلقّنون ما كان معروفاً بالانضباط «شبه العسكري»، ولا بد أن تكون منظمة Reichswehr التي كان هتلر جاسوساً منذ البداية في فرعهاالسري، هي التي تولّت تدريب القوة البشرية المسؤولة عنها تدريباً تقنياً منتظماً. وسنحت لي فرصة مبكرة أن أراقب إحدى هذه المناورات الحسنة التدريب. ففي قرية حدودية، حيث كان الديمقراطيون الاشتراكيون يديرون اجتماعاً سلمياً تماماً، اقتحمت المكان فجأة أربع شاحنات تحمل شباباً من الحزب الاشتراكي القومي، مسلحين بالهراوات المطاطية، وكما رأيت قبلاً في ساحة القديس مرقص في البندقية، استسلم خصومهم لتكتيك المفاجأة السريع. كان طريقتهم نسخة من طريقة الفاشيين، إلا أن التدريب عليها أكثر دقة من الناحية العسكرية، وهي معدّة باتساق حتى أصغر التفاصيل على الأسلوب الألماني. ومثل ومضة برق،خرج رجال العاصفة من سياراتهم عند سماع صوت الصفارة، ونحّوا كل من اعترض سبيلهم بالهراوات. وقبل أن يتمكن رجال الشرطة من التدخل، أو يتمكن العمال من التجمع، كانوا قد ركبوا شاحناتهم، وانطلقوا بالسرعة القصوى. وما أذهلني هو طريقة الوثب من الشاحنات،

والوثب إليها بعد الصفرة الحادة الوحيدة من قائد المجموعة. كان واضحاً أن كل واحد يعرف، وتستشعر عضلاته وأعصابه، كل مقبض عليه أن يقبض عليه، وعند أي عجلة، وأين عليه أن يثب حتى لا يعيق تاليه، وبحيث لا يضيّع لحظة. إن هذه المهارة لم تكن شخصية، بل إن كل هذه المناورات لا بد أن يكون التدرب عليها قد جرى عشرات المرات، وربما مئات المرات في الثكنات وأماكن التدريب. ولم يلبث أن اتضح أن هذه القوات قد دُربت منذ البداية على الهجوم، واستخدام القوة، والإرهاب.

وبعد قليل سمعت أخبار أخرى عن هذه المناورات السرية في بارفاريا. ففي هدأة الليل كان هؤلاء الشبان ينسلّون من منازلهم، ويتجمعون من أجل مثل هذه «التمارين الميدانية» الليلية، وكان يدربهم ضباط من منظمة Reichswehr، متقاعدون وفي الخدمة، يتلقون أجرهم من الدولة أو من مناصري الحزب السريين، ولم تكن السلطات تولي هذه الأحداث الليلية إلا قليلاً من الاهتمام. أكانوا نائمين حقاً، أم أغمضوا عيونهم فقط؟ هل ظنوا أن الحركة لا أهمية لها، أم كانوا يعززون توسعها سراً؟

وعلى أي حال، فحتى الذين دعموا الحركة سراً، روّعتهم أخيراً سرعة نضجها ووحشيتها. وفي صباح أحد الأيام من عام ١٩٢٣، فوجئت السلطات بوقوع ميونخ في يد هتلر الذي احتل المباني العامة كلها، وأرغم الصحف بالتهديد على إعلان انتصار الثورة. وكما يأتي حسم الصراع في مسرح الإغريق من السماء التي ينظر إليها الجمهور المطمئن حالماً، ظهر لودندورف الذي كان أول المعتقدين الكُثُر أن باستطاعتهم إفشال خطة هتلر، ولكنهم، بدلاً من ذلك خُدعوا به في ما بعد. بدأ الانقلاب الذي كان يرمي إلى الاستيلاء على ألمانيا صباحاً، وعند الظهر (ليس لي أن أسرد تاريخ العالم هنا) انتهى، كما هو معروف. و فرّ هتلر، ثم ألقي القبض عليه،وبدابعد ذلك أن الحركة قد قُضي عليها تماماً. اختفت الصلبان المعقوفة خلال عام ١٩٢٣، وطوى النسيان قوات العاصفة، واسم أدولف هتلر، ولم يعد أحد يفكر في احتمال عودته إلى السياسة.

مرّ عامان قبل أن يطفوا مرة أخرى على السطح، ولكن طفوّه هذه المرة كان على موجة الاستياء المتصاعدة التي سرعان ما رفعته إلى الأعلى. إن التضخم، والبطالة، والأزمات السياسية، إضافة إلى حماقة البلدان الأخرى، قد جعلت الشعب الألماني قلقاً، وحركت كل فئاته رغبةٌ عارمة في النظام الذي كان في نظرها على الدوام أهم من الحرية

والعدالة. كان في وسع أي واحد يَعِد بالنظام أن يعتمد على مئات آلاف المؤيدين من البداية ـ حتى غوته قال: إنه يمقت الفوضى أكثر مما يمقت حتى الجور.

وحتى في ذلك الوقت لم نلحظ الخطر. والكتاب القليلون الذين كلّفوا أنفسهم عناء قراءة كتاب هتلر، سخروا من غلوّ أسلوبه المتكلّف، بدلاً من الانكباب على دراسة برنامجه. وبدلاً من تحذير القراء، دأبت الصحف الديمقراطية الكبرى على طمأنتهم أن الحركة تلاقي في الحقيقة مصاعب مواصلة نشاطاتها الضخمة المقتصر تمويلها على مساهمات كبار التجار، والاستقراض الجريء، وأن هذه الحركة آيلة إلى الانهيار قريباً. ولكن ربما لم يفهم العالم قط لماذا استخفت ألمانيا طيلة تلك الأعوام هذا الاستخفاف بالرجل، وقلّلت من شأنه هذا الإقلال. إن ألمانيا لم تكن دائماً بلد الوعي الطبقي فقط، بل كانت تحمل إلى جانب مثُلها الطبقية عبء المبالغة في تقدير «التعليم»، وتعظيمه إلى حد التأليه. فسوى بعض الجنرالات، فإن المناصب العليا في الحكومة كانت امتيازاً خاصاً بمن كانوا يسمّون «ذوي التعليم الأكاديمي»، وفي حين أن رجالاً من مثل لويد جورج في إنكلترا، وموسوليني وغاريبالدي في إيطاليا، وبريان في فرنسا، قد ارتقوا بالفعل من الشعب إلى المناصب بالحق الممنوح لهم من الدولة، فإن الألماني الذي لم يكمل دراسته في المدرسة الثانوية، فضلاً عن الكلية، وسكن في غرف مستأجرة، ولا يُعرَف شيء عن نمط حياته في الأعوام السابقة، لا يُتَصوَّر أن يشغل المناصب التي شغلها ذات يوم شخص مثل بيسمارك، أو ستاين، أو الأمير بولو. ولا شيء ضلّل المثقفين الألمان مثل هذه الخيلاء الثقافية حين اعتقدوا أن هتلر مازال مجرد محرض في ملاهي البيرة، ولا يمكن أن يصبح خطراً حقيقياً، مع أنه في ذلك الوقت كان قد اكتسب مؤيدين أقوياء في أكثر الدوائر تبايناً بفضل محركي الخيوط المتوارين. وحتى حين صار مستشاراً في ذلك اليوم من كانون الثاني في عام ١٩٣٣، فإن الجماهير، إضافة إلى الذين دعموا ارتقاءه إلى المنصب، قد اعتبروا هذا الارتقاء مؤقتاً، وسيطرة الحزب الاشتراكي القومي مجرّد حادثة.

وما وقع هو أن عبقرية هتلر الساخرة قد تكشّف أسلوبها أول مرة على نطاق واسع. كان قد وزّع في الأعوام السابقة وعوده يميناً وشمالاً، وصار له في كل الأحزاب أنصار مهمّون، وكل واحد منهم اعتقد أنه يستغل طاقات «الجندي المجهول» الغامضة

من أجل أغراضه الخاصة. ولكن الأسلوب الذي استخدمه هتلر في ما بعد على نطاق العالم، عندما عقد الاتفاقات المشفوعة بالقسم، والصراحة الألمانية، مع أولئك الذين كان ينوي تدميرهم وخِصاءهم، قد احتفل آنذاك بأول انتصاراته. لقد أحسن توزيع وعوده بحيث أن يوم تولّيه السلطة كان يوم ابتهاج في شتى المعسكرات. فالملكيون في دورن Doorn ظنّوا أنه ممثل الإمبراطور الأكثر إخلاصاً، والأعلى مقاماً، والبافاريون، ملكيو ويتلزباخ، احتفلوا بالمثل في ميونخ باعتبار الرجل «رجلهم». وكان القوميون الألمان يأملون أن يملأ معلفهم، ولكن زعيمهم هوجنبرغ الذي تعاقد على أهم منصب في وزارة هتلر. وبالتالي وضع رجله في المهماز، أُخرج منها في الأسابيع الأولى طبعاً، على الرغم من الاتفاق المبرم. وشعرت الصناعة الثقيلة بالارتياح من تهديد البولشيفيك، إذ شهدت الرجل الذي موّلته سراً طيلة أعوام يتولّى السلطة. وفي الوقت ذاته، تنفس المواطن الصغير المفقر الصعداء، وهو الذي وُعد في مئات الاجتماعات بالتحرر من عبودية الفائدة. وتذكّر التجار الصغار وعدهَ بإلغاء المتاجر الضخمة، أكبر منافسيهم (وهو وعد لم يتحقق قط). ولقي هتلر ترحيباً من قادة الجيش، لأنه كان يتبنّى وجهة نظر عسكرية، ويطعن في النزعة السلمية ويعيبها. وحتى الديمقراطيون الاجتماعيون لم يستاؤوا من صعوده كما كان متوقعاً، لأنهم أملوا أن يتخلص من أكبر أعدائهم، أي الشيوعيين الذين كانوا يزاحمونهم مزاحمة مقلقة. إن أكثر الأحزاب تبايناً، وأشدها تناقضاً قد اعتبرت هذا «الجندي المجهول» الذي وعد كل طبقة، وكل حزب ،وكل حركة بكل شيء، وأكدّ وعده بالقسم، قد اعتبرته صديقاً ـ حتى اليهود لم يكونوا قلقين جداً. لقد علّلوا أنفسهم بأن الوزير المتطرف لم يعد متطرفاً. وأن المحرض المعادي للسامية الذي صار مستشاراً سوف يتخلص في واقع الأمر من مثل هذه الفظاظات. وأخيراً. ما الذي يمكن أن ينجزه بالقوة في دولة استقر فيها القانون، والأغلبية في برلمانها معارضة له، وكل مواطنيها مؤمنون بأن حريتهم وحقوقهم المتساوية يضمنها الدستور المقرر المحترم؟

ثم حدث حريق الرايخستاغ، واختفى البرلمان، وأطلق غورينغ عصابته، وسُحقت العدالة في ألمانيا دفعة واحدة. كان المرء يرتعد عند سماع الأخبار عن معسكرات الاعتقال في زمن السلم، والغرف السرية المبنية في الثكنات حيث كان الأبرياء يهلكون

بلا محاكمة ولا التزام بالأعراف. وأسرّ كل واحد إلى نفسه أن ذلك ليس إلا ثورة غضب أولية لا معنى لها، وهي ظاهرة لا يمكن أن تدوم في القرن العشرين. ولكن ذلك لم يكن إلا بداية. ارتاع العالم، ورفض في بداية الأمر أن يصدق ما لا يُصدّق. ولكنني شاهدت اللاجئين الأوائل في تلك الأيام. ارتقوا في الليل جبال سالزبورغ، وسبحوا عبر النهر الحدودي. كانوا يحدقون في المرء متضورين، مضطربين، رثاثاً. كانوا طليعة الفارين المذعورين من الوحشية التي ما لبثت أن انتشرت في أصقاع العالم. ولكنني لم يخطر لي حتى في ذلك الوقت الذي رأيت فيه الهاربين أن أتبيّن في وجوههم الشاحبة، كما في المرآة، حياتي أنا، وأننا جميعاً سوف نغدو ضحايا شهوة هذا الرجل الفرد للسلطة.

يصعب على المرء أن يتخلص في بضعة أسابيع من ثقة عميقة بالعالم دامت نحو أربعين سنة. لقد اعتقدنا، ونحن في قبضة مفهوم العدالة، أن هناك ضميراً ألمانياً، وضميراً أوروبياً، وضميراً عالمياً، واقتنعنا أن هناك قدراً من البربرية سوف يجهز على نفسه مرة وإلى الأبد، بسبب الجنس البشري. وبما أنني أحاول هنا أن التزم الحقيقة قدر المستطاع، عليّ أن أعترف أن أحداً منا في ألمانيا وفي النمسا لم يخطر له في عام ١٩٣٣ وحتى في عام ١٩٣٤ أن جزءاً من المئة، أو من الألف مما انصبَّ علينا كان ممكناً. ومع ذلك كان واضحاً من البداية أن علينا ،نحن الكتاب الأحرار المستقلين، أن نتوقع مصاعب ومتاعب وعداءات معينة. وفي الحال، نبّهت ناشر كتبي بعد حريق الرايخستاغ إلى أن كتبي سوف تُحظر في ألمانيا قريباً. ولن أنسى دهشته: «من الذي سيمنع كتبك؟» ثم قال آنذاك، أي عام ١٩٣٣، ولا يزال مرتبكاً: «لم تكتب قط كلمة ضد ألمانيا، أو تتدخل في السياسة.» ولاحظْ أن أشياء من مثل حرق الكتب، والتشهير، والتي أصبحت بعد بضعة أشهر حقائق، كانت، بعد شهر من استيلاء هتلر على السلطة، ما تزال تبدو مستغلقة حتى على أصحاب العقول الراجحة نوعاً ما. وذلك لأن الاشتراكية القومية قد أصبحت متمرسة في أسلوب خداعها عديم الضمير، وحرصها على ألا تكشف كل ما ترمي إليه للعالم. وهكذا مارس ممثلوها طريقتهم ممارسة حذرة: جريمة صغيرة فقط في البداية، ثم توقف قصير، حبة واحدة كل حين، ثم

لحظة انتظار يُراقَب خلالها مفعول قوتها، وقدرة ضمير العالم على هضمها. وبما أن الضمير الأوروبي ـ وهذا ما يؤذي ويعيب حضارتنا ـ قد انبرى إلى تأكيد عدم علاقته بما يحدث لأن الفظاعات كانت تجري رغم كل شيء «خارج الحدود»، فإن الجرعات أصبحت متزايدة القوة إلى أن أهلكت أوروبا كلها أخيراً. إن هتلر لم ينجز شيئاً أبرع من هذه الطريقة في تلمس طريقه على مهله، والضغط المتواصل، مع تزايد القوة، على أوروبا التي كانت متضائلة أخلاقياً، ثم عسكرياً أيضاً. وبحسب هذه الخطة أيضاً، نُفّذ أيضاً في ألمانيا مشروع القضاء على حرية التعبير، والتأليف المستقل، والذي أُعدّ منذ عهد بعيد. فما كان أمراً صدر من ساعته بأي حال من الأحوال أن يُغلق على كتبنا ـ وقع ذلك بعد عامين ـ، بل سبقه تلمس للطريق، ومعرفة المدى الذي يمكن يذهبوا إليه، وذلك بانتداب مجموعة غير مسؤولة رسمياً للقيام بالهجوم الأول على كتبنا، أي الطلاب الاشتراكيين القوميين. أشاروا إلي الطلاب بلا ضجيج أن يظهروا «سخطهم» على كتبنا علانية، مستخدمين الأسلوب ذاته الذين أخرجوا به «الغضب الشعبي» من أجل مقاطعة اليهود المقررة من زمن بعيد. والطلاب الألمان الذين كان تسرّهم فرصة إظهار مشاعرهم الرجعية، تجمعوا طائعين في الجامعات حاملين نُسخاً من كتبنا أخذوها من المكتبات، وساروا إلى ساحة العامة بالغنائم ملوّحين بالرايات. وهناك كانوا يثبّتون الكتب بالمسامير على آلة التشهير الخشبية على عادة الألمان القدماء ـ أصبحت تقاليد العصر الوسيط فجأة ورقة اللعب القوية عندهم ـ وقد حصلت أنا على نسخة أحد كتبي مثقبة بالمسامير هديةً من طالب صديق كان قد استردها بعد تنفيذ حكم الإعدام بها ـ أو يحولونها إلى رماد وسط ألعاب نارية هائلة مصحوبة بالمشاعر الوطنية، بما أن حرق البشر لم يكن مباحاً لهم. ومع أن وزير الدعاية غوبلز قد قرر، بعد تردد طويل، وفي اللحظة الأخيرة، أن يبارك حرق الكتب، فإن الإجراء قد بقي شبه رسمي. ولا شيء يدل دلالة أوضح على عدم اكتراث ألمانيا بمثل هذه الأعمال من إخفاق الجمهور في الرد على حرائق طلاب الجامعة وتحريماتهم. حُذّر باعة الكتب من عرض كتبنا، وتجاهلتها الصحف، ورغم ذلك بقي الجمهور لا مبالياً. ولما لم يكن هناك تهديد بالعقاب في السجن أو معسكرات الاعتقال، كانت سوق كتبي رائجة في عامي ١٩٣٣و١٩٣٤ كما كانت في السابق، على الرغم من كل المصاعب والحيل القانونية. وبعد أن صدر الأمر

المعظّم «حمايةً للشعب الألماني»، معلناً أن طبع كتبنا، وبيعها، وتوزيعها من أعمال الإجرام، وأصبح قانوناً، أُبعدنا بالقوة عن ملايين الألمان الذين يؤْثرون قراءتنا حتى اليوم على الكتاب المتكاثرين كالفطر «الرخو»، ويؤيدون ما نمثّل.

كان شرفاً لي أكثر منه إهانةَ أن أشاطر معاصرين بارزين قدرَ التدمير الكامل للوجود الأدبي في ألمانيا، معاصرين مثل توماس مان، وهانيريك مان، و ويرفل، وفرويد، وأينشتاين، وآخرون غيرهم أعتبر عملهم أهم من عملي أهمية لا تقبل المقارنة، وبما أنني أكره أي إشارة إلى عذاب الاستشهاد، فأنا لم أضمّ نفسي إلى القدر العام إلا مكرهاً. ولكن مصادفة عجيبة أن يكون من نصيبي أن أقحم الاشتراكيين القوميين، وحتى هتلر بالذات، في وضع مربك للغاية. فمن بين الأدباء المحرومين من حماية القانون، كانت حصتي أن أصبح موضوعاً متكرراً للجدال الطويل الحالي في الدوائر العليا في فيلا بيرشتسجادن، والنتيجة هي أنني قادر على أن أسجل بين الأشياء السارّة في حياتي رضاي المتواضع بأنني أزعجت أدولف هتلر، أقوى رجل في عصرنا الحديث.

وفي الأيام الأولى من عمر النظام الجديد كنت عن غير قصد سبباً في حدوث ما يشبه الضجة. عرض في أنحاء ألمانيا كافة فيلم يقوم على قصة قصيرة لي هي «السر المحترق»، ويحمل هذا العنوان. لم يعترض أحد على ذلك. ولكن بعد يوم على حريق الرايخستاغ الذي حاول الاشتراكيون القوميون بلا جدوى إلقاء المسؤولية عنه على الشيوعيين، لوحظ أن الناس تجمعوا أمام إعلانات المسرح، يتغامزون، ويضحكون، وينكز بعضهم بعضاً بالمرافق. ولم يلبث أن فهم الجستابو ما يُضحِك في العنوان. فجالت مساء دراجات الشرطة، ومُنعت العروض، وفي اليوم التالي اختفى عنوان قصتي من كل إعلانات الصحف، ومن كل الملصقات. كان من السهل جداً أن يمنعوا الكلمة التي تزعجهم، وحتى أن يحرقوا ويتلفوا الكتب التي لا يعجبهم مؤلفوها. ومع ذلك، فإنهم لم يستطيعوا في حالة خاصة واحدة أن يلمسوني من غير أن يؤذوا في الوقت ذاته رجلاً كانوا محتاجين إليه أكثر من أي شخص آخر في تلك اللحظة الحرجة من أجل مكانتهم في العالم ،وهو أشهر مؤلف موسيقي في ألمانيا، أعني ريتشارد شتراوس الذي كنت أنهيت بالتعاون معه تأليف أوبرا.

كان ذلك تعاوني الأول مع شتراوس. فمنذ Electra و Rosenkavalier كان هوجو فون هوفمنزثال هو الذي كتب كل نصوص أوبراته، ولم أكن قد التقيته شخصياً. وبعد وفاة هوفمنزثال، أعلم ناشر كتبي أنه يرغب في القيام بعمل جديد، و سأله إن كنت مستعداً لكتابة نص أوبرا له. كنت مدركاً تماماً شرف مثل هذا الطلب. فقد كنت عشت على الدوام في الموسيقا ومع الموسيقيين منذ أن لحّن ماكس ريجر قصائدي الأولى. وكان لي أواصر صداقة حميمة مع بوسوني، وتوسكانيني، وبرونو فولتر، وألبان بيرغ. ولكن الموسيقي المنتج الوحيد الذي كنت أميل إلى خدمته هو شتراوس، آخر السلالة العظيمة من الموسيقيين الأصلاء التي تبدأ من هاندل وباخ ثم بيتهوفن وبرامز حتى يومنا هذا. وافقت في الحال، واقترحت في لقائنا الأول «المرأة الصامتة» للشاعر الإنكليزي بن جونسون موضوعاً لأوبرا، وكانت مفاجأة سارّة أن أرى سرعة استجابة شتراوس لاقتراحاتي، وجلاء بصره. لم يخطر لي أن يكون متنبه الفهم للفن، ومدهش المعرفة بالمسرح إلى هذا الحد. ففي حين كان يجري توضيح المادة له كان يصوغها مسرحياً، ويكيّفها على نحو مذهل مع حدود قدراته التي كان على علم غير عادي بها. لقد التقيت في حياتي كثيراً من الفنانين العظام، ولكنني لم ألتقِ أحداً كان يعرف مثله كيف يحافظ على موضوعية خالصة وسديدة نحو نفسه. وهكذا صارحني شتراوس من الساعة الأولى من لقائنا أنه يعرف حق المعرفة أن إلهام المؤلف الموسيقي يفقد في السبعين طاقته الأصلية، لذلك قلما يحالفه النجاح في تأليف أعمال سيمفونية لأن الموسيقا الخالصة تقتضي درجة عالية من النضارة الإبداعية، وأما الكلمة فما يزال إلهامها ممكناً. لقد استهوته فكرة التحقيق الدرامي الكامل لشيء ملموس، شيء معدّ سلفاً، لأن الموضوعات الموسيقية كانت تنبع من تلقاء ذاتها من الأوضاع و الكلمات، لذلك كرّس نفسه في الأعوام الأخيرة للأوبرا حصراً. قال: إنه يعرف بالفعل أن الأوبرا كشكل فني قد ولّى عهدها، وأن فاجنر قد كان قمة شاهقة لم يستطع أحد أن يعلوها. وأضاف بابتسامة بافارية عريضة: «ولكنني حللت المسألة بالالتفاف عليها».

بعد أن اتفقنا على الخطوط العامة، أعطاني بعض التوجيهات البسيطة. كانت رغبته أن أكتب من غير تقييد، لأنه لم يلهمه قط أي كتاب جاهز على غرار نص فيردي، بل ألهمه العمل الشعري التصور. كان يناسبه كثيراً أن أقدّم بعض المؤثرات

المعقدة التي توفّر إمكانات خاصة لاستخدام اللون. قال: «أنا لا أؤلف ألحاناً طويلة مثل موزارت. وليس في وسعي تجاوز الموضوعات القصيرة، ولكن ما أقدر عليه هو استخدام هذه الموضوعات، وإعادة صياغتها، واستخراج كل ما فيها. وأنا لا أظن أن أحداً يستطيع اليوم أن يضاهيني في ذلك.» ولكن صراحته أذهلتني مرة أخرى، لأنه لم يكن هناك بالفعل لحن من ألحانه يتجاوز طوله بضع مقاطع، ولكن يا لتلك المقاطع القليلة ـ خذْ فالس Rosenkavalier ـ كيف تعززت وتتابعت في إنجاز غني!

إن اللقاءات التالية قد أكدت إعجابي بالثقة والموضوعية اللتين كان الفنان المسنّ يُقوّم بهما عمله. وذات مرة جلست معه وحدي في أثناء تدريب خاص على «هيلينا المصرية» في مسرح مهرجان سالزبورغ. كنا وحيدين في مكان مظلم تماماً. أرهف شتراوس سمعه، وفجأة أخذ ينقر بأصابعه ذراع الكرسي نقراً مسموعاً وملحّاً. ثم همس إليّ بالقول: «سيء، سيء جداً تلك البقعة خالية.» وبعد بضع دقائق أضاف: «ليتني استطيع حذفها! يا إلهي، يا إلهي، هذا مجرد خواء، طويل جداً، أطول مما ينبغي!» وبعد قليل قال: «انظرْ، هذا جيد!» كان يقومّ عمله تقويماً محايداً وموضوعياً وكأنه كان يسمع الموسيقا أول مرة، وكأن مؤلفاً يجهله قد كتبها، وهذا الشعور المذهل بحجمه لم يفارقه قط. كان دائماً يعي على وجه الدقة أهميته ومقدرته، وقلما كان يهتم بما يسجله الآخرون مقارنة به، كثيراً كان أم قليلاً، ولكن ما سجله بالنسبة إلى الآخرين كان قليلاً أيضاً، فما كان يغبطه هو العمل في ذاته.

كانت مزاولة شتراوس للعمل نهجاً بالغ الروعة، لا يلابسه شيء شيطاني، ولا نشوة مجنونة، ولا حالة اليأس والاكتئاب التي نعرفها مما كُتب عن بيتهوفن وفاجنر. إن شتراوس يعمل في صميم الموضوع، ويؤلف مثل باخ، ومثل جميع المحترفين الكبار، باتساق وهدوء. يجلس في التاسعة صباحاً لاستئناف العمل من حيث انتهى في اليوم السابق، كاتباً على الدوام مسوّدة التأليف الأولى بقلم الرصاص، ونوتة البيانو بالحبر، ويستمر على هذا المنوال بلا توقف حتى الثانية عشرة أو الواحدة. وبعد الظهر يلعب Skat. وهي لعبة ورق ألمانية، وينقل صفحتين أو ثلاثاً إلى النوتة النهائية، وقد يدير الأوبرا مساءً. هو لا يعرف العصبية، وعقله الفني متنبّه وواضح ليل نهار. وحين يطرق خادمه الباب حاملاً ملابس المساء، ينهض عن عمله، ويرتدي ثيابه، ويمضي إلى

المسرح، و هناك يدير العمل، كما يلعب الورق بعد الظهر بكل هدوء وثقة بالنفس، وفي الصباح اليوم التالي يهبط الإلهام مرة أخرى في مهبِطه. وذلك لأن شتراوس، كما يقول غوته، «يتحكم» في خيالاته، والفن عنده يعني المعرفة، وحتى معرفة كل شيء، كما يفهم من قوله المازح:«من شاء أن يكون موسيقياً حقيقياً عليه أن يكون قادراً على وضع قائمة تتضمن ألوان الموسيقا.» إن المشاق لا تزعجه بل تسلّي براعته الخلاقة. أذكر كيف التمعت عيناه الزرقاوان حين قال لي عن مقطع معين بابتهاج المنتصر:«لقد أعطيت المغنية جوزة قاسية كي تكسرها هنا. دعها تصارع ما وسعها الصراع حتى تستخرج ما فيها.» في تلك اللحظات النادرة التي كانت عيناه تشرقان فيها، كنت أشعر بأن شيئاً شيطانياً يستقر في أعماق هذا الرجل غير العادي الذي يثير أول ما يثير الريبة بما يتصف به من دقة في المواعيد، و طرائق منهجية، ووقار، وحِرَفيّة، وأعصاب هادئة في ظاهر الأمر عند العمل، تماماً مثلما يبدو وجهه عادياً أول وهلة، بخدّيْه المكتنزين كخدّيْ طفل، وملامحه المستديرة المألوفة إلى حد ما، وجبهته المتحيرة في ارتدادها إلى الخلف. ولكن من النظرة الأولى إلى عينيه الزرقاوين المشرقتين المتألقتين تألقاً شديداً يشعر المرء بنوع من الطاقة السحرية الخاصة وراء هذا القناع البورجوازي. لعلهما أكثر العيون التي رأيتها في موسيقيّ تيقظاً، فهما ليستا شيطانيتين، بل متبصّرتين على نحو ما، إنهما عينا رجل مدرك مغزى مهمته الكامل.

بعد هذا اللقاء المثير، عدت إلى عملي في سالزبورغ. ولكي أعرف إن كانت أشعاري تتفق مع رغباته، أرسلت إليه الفصل الأول في غضون أسبوعين. وما لبث أن كتب إليّ على بطاقة بريد جملةً مقتبسة من Die Meistersinger: «المقطع الأول ناجح». وفي ردّه على الفصل الثاني كتب شيئاً أكثر تعبيراً عما يكنّه لي من مودة، وهو مطلع أغنيته: «ما أغرب أن ألقاك، يا طفلي الغالي الحبيب!» وإن فرحه هذا، وحماسته هذه، قد أسبغا على عملي المتواصل مسرّة لا تُوصف. لم يغير شتراوس سطراً واحداً من نصي الكامل، ولم يطلب مني سوى إضافة ثلاثة أسطر أو أربعة من أجل التتمة. وهكذا نشأت بيننا أعمق علاقة يمكن تصورها. جاء إلى منزلنا، وزرته في جارمش Garmisch، حيث كان يعزف لي بأصابعه النحيلة الطويلة على البيانو مقاطع من مسوّدة الأوبرا الكاملة. ومن دون عقد أو التزام، كان من المسلم به، والمقبول، أن أضع

مسوَّدة أوبرا أخرى بعد الانتهاء من هذه الأوبرا ، وكان هو قد وافق كل الموافقة على هذه الخطة سلفاً.

في كانون الثاني من سنة ١٩٣٣، عندما تسلّم هتلر السلطة، كانت قطعة البيانو من أوبرا «المرأة الصامتة» قد انتهت في الواقع، والفصل الأول قد تمّ توزيع ألحانه على الأوركسترا. وبعد بضعة أسابيع، صدر أمر صارم للمسارح الألمانية بأن تمتنع عن إخراج أي عمل كاتبه غير آري، أو أي عمل شارك فيه يهودي مجرد مشاركة. وشمل هذا الحظر الشامل حتى الموتى. وما أسخط عشاق الموسيقا في كل مكان، هو أن تمثال مندلسون قد أزيل من أمام Gewandhaus في لايبزغ. أما بالنسبة لي، فإن هذا الأمر قد بدا ضربة قاضية للأوبرا التي كنا نعدّها، وكان واضحاً أن ريتشارد شتراوس سوف يستنكف عن مواصلة العمل عليها، ويبدأ العمل على أوبرا أخرى مع شخص آخر. وبدلاً من ذلك، كتب لي رسائل متتابعة يسأل فيها عما يساورني، وقال: إنه يريدني، على العكس تماماً، أن أعمل على نص الأوبرا التالية، بما أنه قد ألّف ألحان الأولى. كان عازماً على ألا يدع أحداً يحول دون تعاونه معي. وعليّ أن أعترف أنه قد حافظ على العهد ما أمكنه ذلك. والحق هو أنه اتخذ في الوقت ذاته خطوات لم تعجبني كثيراً، إذ تقرّب من أهل السلطة، والتقى هتلر، وغورينغ، وغوبلز مراراً، وحتى عندما كان فورتفانجر ما يزال متمرداً، أجاز لنفسه أن يترأس حجرة الموسيقا النازية.

كانت مشاركة شتراوس العلنية ذات أهمية هائلة للاشتراكيين القوميين حينئذٍ. والمزعج في هذا الموقف هو أن خيرة الكتاب قد صدّوهم، وكذلك فعل معظم الموسيقيين المهمّين أيضاً، والقلة التي وافقتهم، أو اتخذت موقفاً متحفظاً، كانت غير معروفة من الجمهور الواسع. وأن ينحاز لهم أشهر موسيقي في ألمانيا في تلك اللحظة المربكة كان مكسباً كبيراً لغوبلز وهتلر، ولو كان مجرد زينة. وكما أخبرني شتراوس، فإن هتلر الذي جمع خلال أعوام التشرد في فيينا من المال ما يكفي للسفر إلى غراتس لكي يحضر عرض «سالومي» الأول، كان يكرّمه بلا تحفظ، ففي بيرشتسجادن، لم تكن تُغنّى في أماسي الأعياد إلا أغانيه، وأغاني فاجنر. ومع ذلك فإن تعاون شتراوس قد تعدّى مغزاه. فرغم أنانيته الفنية التي كان يعترف بها علانية وبلا خجل على الدوام،

كان غير مبالٍ بالنظام مهما كان. فلقد خدم إمبراطور النمسا كقائد أوركستر ملكية في فيينا، وكان شخصاً مَرْضيّاً عنه أيضاً في جمهورتي النمسا وألمانيا. وأن يكون متعاوناً مع الاشتراكيين القوميين خاصة، كان، علاوة على ذلك، مصلحة حيوية له، لأنه كان واقعاً في الخسران بالمعنى الاشتراكي القومي. كان ابنه قد تزوّج امرأة يهودية، وبالتالي خشي أن يُطرد أحفاده الذين يحبهم أكثر من أي شيء آخر طرد الحثالة من المدارس، وتلّوثت أوبراه بي، وأعماله السابقة تلوثت بالكاتب نصف اليهودي هوجو فون هوفمنزثال، وكان ناشر أعماله يهودياً. لذلك شعر بالحاجة الماسة إلى بعض الدعم والأمان، ومن أجل ذلك لم يفتر له سعي. كان يقود الاوركستر كلما شاء السادة الجدد ذلك، ولحّن أنشودة للألعاب الأولمبية، وفي الوقت ذاته كان يكتب لي عن هذه المهمة في رسائله المدهشة الصراحة بحماسة أقل. إن أنانية الفنان المقدسة قد جعلته في الحقيقة لا يبالي إلا بأمر واحد هو استمرار عمله، وفي المقام الأول، إخراج الأوبرا الجديدة التي شُغف بها قلبه.

وبالطبع فإن هذه التنازلات للاشتراكية القومية كانت مربكة لي أشد الإرباك. فلكم كان من السهل أن يتشكل انطباع عن تعاون سري، أو موافقة على أن أكون المستثنى الوحيد من تلك المقاطعة المخْزية. حثّني الأصدقاء من كل الجهات على الاحتجاج علناً على أي عرض في ألمانيا النازية، ولكنني كنت أمقت الحركات العامة المثيرة للمشاعر، إضافة إلى أنني كنت عازفاً عن خلق مصاعب لعبقرية بمنزلته. فرغم كل شيء، كان شتراوس أعظم موسيقي على قيد الحياة، وفي السبعين من العمر، وكان قد أمضى ثلاث سنوات في هذا العمل، وخلال الفترة كلها، قدّم الدليل تلو الدليل على صدق مودته، ولياقته، وحتى شجاعته. لذلك اعتبرت أن سبيلي هو أن أنتظر في صمت، وأدع الأمور تتطور كما يمكن أن تتطور. إلى جانب ذلك كنت أدري أنني سببت لحماة الثقافة الألمانية الجدد مصاعب بالسلبية التامة أكثر مني بأي شيء آخر، وذلك لأن المجلس الاشتراكي القومي للكتاب، ووزارة الدعاية، كانا يفتشان عن سبب وجيه، أو ذريعة تمكّنهم من تغطية أي إجراء ضد أعظم موسيقييهم على نحو لا يثير الشكوك. لذلك فإن نص الأوبرا، مثلاً، قد طلبه أشخاص ومكاتب من كل صنف ولون لعلهم يجدون ذريعة. ولكم كان ملائماً لو تضمنت «المرأة الصامتة» وصفاً شبيهاً

بالوضع الذي في Rosenkavalier، حيث ينبعث شاب من سرير امرأة متزوجة! لو حدث ذلك، لادّعو إذاً حماية الأخلاق الألمانية. ولكن ما خيّب أملهم هو أن كتابي لم يتضمن شيئاً غير أخلاقي. ثم جرى بعد ذلك تمشيط دقيق لكل ملفات الجستابو، ولكل كتبي السابقة. ولكن حتى هنا أيضاً لم يُعثر على شيء يبيّن أنني قد قلت كلمة مؤذية عن ألمانيا (أو عن أمة أخرى من أمم الأرض)، أو أنني اشتغلت بالسياسة. ومع ذلك ناوروا، وبقي قرارهم الثابت في أيديهم: هل يحرمون على مرأى من العالم شيخ الموسيقا الاشتراكية القومية، وهم الذين سلّموه الراية، حقّه في عرض الأوبرا، أم - و يا للعار القومي - يلّوث اسمُ ستيفان زفايج مرة أخرى برنامجَ المسرح الألماني، وهو ما أصرّ ريتشارد شتراوس بكل صراحة على أن يظهر على النص؟ كتمت في نفسي مسرّتي بما عانوه من ضيق كبير، وصداع أليم، وشعرت بأن عملي الكوميدي الموسيقي سيتحول لا محالة إلى موضوع للشجار بين الأحزاب السياسية من دون أن أفعل شيئاً، أو لأني لم أفعل شيئاً من أجله أو ضده. تلافى الحزب اتخاذ القرار ما دام تلافيه ممكناً. و لكن في بداية سنة ١٩٣٤، كان عليه أن يتخذ موقفاً إما ضد القانون الخاص، وإما ضد أعظم موسيقيي العصر. كان من الصعب تأجيل الموعد مدة أطول، إذ أن موسيقا الأوبرا، وقطعة البيانو المعدَّلة، والنصوص، قد طُبعت كلها منذ وقت طويل، والأزياء أعدّها مسرح البلاط في درسدن، والأدوار وُزّعت، ودُرست أيضاً، ولم توافق بعد مختلف السلطات: غورينغ، وغوبلز، ومجلس الكتاب، ومجلس الثقافة، و وزارة التربية، والحرس الضارب. (قد يبدو هذا بالغ السخف، إذ تحوّلت قضية «المرأة الصامتة» في آخر الأمر إلى مسألة مقلقة للدولة). وإن واحدة من هذه السلطات لم تجرؤ على تحمل المسؤولية الكاملة للقول: نعم أو لا، وبالتالي لم يبقَ إلا ترك الموضوع للقرار الشخصي لسيد ألمانيا، وسيد الحزب، أدولف هتلر.كانت كتبي قد نالت شرف القراءة الواسعة من الاشتراكيين القوميين، ولاسيما سيرة فوشيه Fouche، العمل الذي دُرس ونُوقش مراراً وتكراراً، وهذا كان مثالاً على انعدام الضمير السياسي. والحق هو أنني لم أتوقع قط أن أزعج هتلر نفسه بدراسة الفصول الثلاثة من نصي الغنائي بعد أن أزعجت غوبلز وغورينغ. ولم يكن القرار سهلاً عليه. وكما علمت في ما بعد عن طريق غير مباشر، كان هناك كثير من المؤتمرات والاجتماعات. وأخيراً دُعي ريتشارد شتراوس

إلى المثول بين يدي صاحب الكلمة العليا، وأخبره هتلر نفسه أنه سيجيز العرض كاستثناء على الرغم من أنه خرق لكل قوانين ألمانيا الجديدة، ولعل هذا القرار كان مخادعاً ومكرهاً عليه شأن توقيع المعاهدة مع ستالين ومولوتوف.

هكذا طلعت شمس اليوم الأسود على ألمانيا الاشتراكية القومية عندما تقرر عرض أوبرا مرة أخرى يظهر على كل ملصقاتها اسم ستيفان زفايج المجرد من حقوقه القانونية. وبالطبع لم أحضر العرض لأنني علمت أن الجمهور سيأتي بالزي البني الموحد، و أن هتلر نفسه قد يحضر أحد العروض. وحققت الأوبرا نجاحاً عظيماً، ولا بد لي من القول: إن تسعة أعشار النقاد الموسيقيين ـ وهذه مفخرة لهم ـ قد اغتنموا الفرصة السانحة بحماسة لكي يقدموا الدليل ثانية، ولآخره مرة، على مقاومتهم النظرية العرقية بكتابة أكثر الكلمات الممكنة مودة عن النص الذي أعددته للأوبرا. وسرعان ما أعلنت جميع المسارح الألمانية في برلين وهامبورغ وفرانكفورت ومونيخ تقديم الأوبرا في الموسم القادم.

وفجأة اشتعلت السماء بالبروق بعد العرض الثاني، وأُلغي كل شيء بين ليلة وضحاها، ومُنعت الأوبرا في درسدن، وفي أنحاء ألمانيا كافة. والأهم من ذلك هو أننا قرأنا باندهاش أن ريتشارد شتراوس قد قدّم استقالته من رئاسة حجرة موسيقا الرايخ. وأدرك كل واحد أن شيئاً ما غير عادي قد وقع. ولكنني لم أعرف الحقيقة إلا بعد مدة. كان شتراوس قد كتب لي رسالة مرة أخرى يحثّني فيها على الشروع في كتابة نص لأوبرا جديدة، ولكنه عبرّ فيها عن موقفه الشخصي تعبيراً بالغ الصراحة، وهذه الرسالة وقعت في أيدي الجستابو. وواجهوا شتراوس بها، وطُلب منه أن يستقيل في الحال، ثم حُظرت الأوبرا. لم تُعرض باللغة الألمانية إلا في سويسرا الحرة، وبراغ، وفي ما بعد في ميلان بعد إذن خاص من موسوليني الذي لم يكن قد طُلب منه بعد أن يخضع لأفكار هتلر العنصرية. وأما الشعب الألماني، فلم يسمح له بالاستماع إلى نغمة واحدة من هذه الأوبرا الساحرة إلى حد ما. هذا العمل الذي أنجزه في سن الشيخوخة أعظم موسيقي حي عندهم. وهذه ليست غلطتي.

أقمت خارج البلاد أثناء وقوع الضجة الشديدة، وذلك لأنني شعرت بأن الاضطراب في النمسا سوف يجعل العمل الهادئ مستحيلاً. كان منزلي في سالزبورغ يقع على

مقربة من الحدود بحيث يمكن بالعين المجردة رؤية جبل بيرشتسجادن الذي يقوم عليه منزل هتلر، وهي جيرة غير مغْرية ومقلقة. ومع ذلك، فإن هذا القرب من الحدود الألمانية قد أتاح لي أن أقدّر الأخطار التي تهدد الوضع النمساوي تقديراً أفضل من تقدير أصدقائي في فيينا: ففي تلك المدينة، اعتبر روّاد المقاهي، وحتى رجال الحكومة، الاشتراكيةَ القومية شيئاً يجري «هناك»، ولا يمكن أن يؤثر في النمسا. ألم يكن الحزب الديمقراطي الاجتماعي يضمّ عملياً في تنظيمه المتين نصف السكان الثابتي الإقامة؟ ألم يكن حزب الإكليروس متحداً معه في دفاع عنيف منذ أن اضطهد «مسيحيو» هتلر المسيحيين، وأعلنوا بلا مواربة أن قائدهم «أعظم من المسيح»؟ ألم تكن إنكلترا، وفرنسا، وعصبة الأمم حاميات للنمسا؟ أما تبنّى موسوليني بكل صراحة حماية الاستقلال النمساوي، وحتى ضمان هذا الاستقلال؟ حتى اليهود لم يقلقوا، وتصرفوا وكأن إلغاء حقوق الأطباء والمحامين والأساتذة والممثلين كان يجري في الصين وليس وراء الحدود التي تبعد ثلاث ساعات، وحيث لغتهم هي المنطوق بها. أقاموا في بيوتهم مطمئنين، وتنقلوا بالسيارات هنا وهناك.إضافة إلى ذلك، كانوا جميعاً يرددون عبارة جاهزة: «لن يدوم هذا طويلاً.» ولكنني تذكرت حديثاً مع ناشر كتبي في لينينغراد أثناء رحلتي القصيرة إلى روسيا. كان يخبرني كم كان غنياً، وكم كانت اللوحات التي امتلكتها جميلة، فسألته: لماذا لم يغادر روسيا بعد اندلاع الثورة كما فعل آخرون؟ فأجاب: «آه، من كان يصدق أن دولة للعمال والجنود سوف تدوم أكثر من أسبوعين؟» لقد مارسنا خداع الذات لأننا كنا كارهين التخلّي عن حياتنا المعتادة.

ولا شك في أن الأمور كانت أوضح في سالزبورغ القريبة من الحدود. كانت حركة سير متواصلة عبر المدخل الحدودي الضيق قد بدأت، فانسلّ شباب في الليل للتدريب، ووصل محرضون بالسيارات، أو سيراً على الأقدام، حاملين عصيّ تسلق الجبال مثل سائحين عاديين، ونظموا «خلاياهم» بين جميع الطبقات. بلّغوا بشارتهم مع التهديد بأن من لا ينضمّ إليهم من فوره سيدفع ثمن غلطته في ما بعد. كان هذا الترهيب مؤثراً في رجال الشرطة وموظفي الحكومة. وما في سلوك الناس من قلق، قد جعلني ألاحظ على نحو متزايد ترددهم بين الخوف والأمل. إن التجارب الشخصية الصغيرة في الحياة هي الأكثر إقناعاً. كان لي في سالزبورغ صديق من أصدقاء الصبا، وهو كاتب معروف إلى

حد ما، ربطتني به أواصر صداقة حميمة قرابة ثلاثين عاماً كنا خلالها نتهادى الكتب، ونتلاقى كل أسبوع. وذات يوم رأيت ذلك الصديق في الشارع مع شخص غريب، ولاحظت أنه توقف بغتة أمام واجهة دكان لم تكن تعني شيئاً له، ودلّ صاحبه باندفاع ظاهر على شيء وهو مُولٍّ ظهره إليّ. فكرت: «أمر غريب! لا بد أنه قد رآني. ولكن ربما كان تصرفه عادياً.» وفي اليوم التالي اتصل بي ليسأل إن كان يمكنه أن يزورني مساء. وافقت، وكنت مندهشاً بعض الشيء، لأننا كنا نلتقي في المقهى عادة. ورغم إلحاحه في طلب الزيارة، فإنه لم يقل شيئاً خاصاً خلالها. ولم ألبث أن أدركت أنه، على رغبته في المحافظة على صداقتنا، لم يرد أن تنكشف علاقته الحميمة بي في المدينة الصغيرة كيلا يتعرض لاشتباه الصداقة مع يهود. تنبّهت للأمر. وسرعان ما أصبح واضحاً أن عدداً من أصدقائي الذين كانوا يزورونني باستمرار قد كفّوا عن زيارتي. كان الوضع خطراً.

لم أفكر حتى هذا الوقت في مغادرة سالزبورغ إلى غير رجعة، غير أنني عزمت باستعداد أكثر من المعتاد على قضاء الشتاء خارج البلاد حتى لا تشغلني كل هذه التنافرات الصغيرة. ومع ذلك لم أشك في أن مغادرتي منزلي الجميل في تشرين الثاني سنة ١٩٣٣قد كان ضرباً من الوداع.

كانت خطتي أن أقضي شهريْ كانون الثاني وشباط مكبّاً على العمل في فرنسا. لقد أحببت ذلك البلد المثقف كوطن ثانٍ لا أشعر فيه بالغربة. كان فاليري، ورومان رولان، وأندريه جيد، وروجيه مارتان دو جار، و دوهاميل، وفيلدراك، وجان ريشار بلوك، أعلام الأدب هؤلاء جميعاً أصدقاء قدماء لي، وكانت دائرة قرائي هناك واسعة سعتها في ألمانيا تقريباً، ولم أكن أُعدُّ كاتباً أجنبياً. لقد أحببت الشعب، وأحببت البلد، وأحببت مدينة باريس، وكنت أشعر هناك وكأنني في بيتي، وكلما اقترب القطار من Gare du Nord شعرت كأنني «عائد». و لكن ظروفاً خاصة دعتني هذه المرة إلى التعجيل في المغادرة أكثر من المعتاد، ونويت ألا أذهب إلى باريس إلا بعد عيد الميلاد. فإلى أين أتوجه في غضون ذلك؟ ثم تذكرت أنني لم أذهب إلى إنكلترا منذ أيام الدراسة، أي منذ ربع قرن ونيّف. وتساءلت:«لماذا باريس دائماً؟ لماذا لا أقضي

أسبوعاً أو أسبوعين مرة أخرى في لندن، وأرى المدينة والبلاد، وأدرس المتاحف من وجهة نظر جديدة، بعد هذه الأعوام العديدة؟» لذلك ركبت القطار الذاهب إلى كاليه بدلاً من القطار السريع الذاهب إلى باريس. وفي أحد أيام كانون الأول ذات الضباب الموصوف نزلت مرة أخرى في محطة فكتوريا بعد ثلاثين سنة، والمفاجأة الوحيدة هي أن ما أقلّني إلى الفندق ليس عربة بل سيارة. ما لم يتغير هو الضباب، تلك الرمادية الناعمة الباردة بعض الشيء. وقبل أن أنظر إلى المدينة، تعرفت حاسة الشم عندي بعد ثلاثة عقود على ذلك الهواء الغريب اللاذع الكثيف الرطب الذي يكاد يخْفيك تماماً.

كان متاعي قليلاً، وكذلك كانت توقعاتي. لم يكن لي في واقع الأمر صداقات في لندن، إذ كانت الصلات قليلة بين كتاب القارة والكتاب الإنكليز. لقد عاشوا حياة محددة غريبة يمارسون فيها نشاطهم داخل تقاليدهم التي تعذّر علينا اكتناهها تماماً. فمن بين الكتب العديدة التي وصلت إلى منضدة مكتبتي من كل أنحاء العالم لا أذكر أنني عثرت على واحد أهداني إياه كاتب إنكليزي. لقد التقيت برنارد شو مرة في هيليرو، وكان ويلز قد زارني في سالزبورغ. ومع أن كتبي كلها كانت مترجمة إلى الإنكليزية، فإنها لم تكن معروفة على نطاق واسع، وإنكلترا هي البلد الوحيد الذي كنت فيه أقل تأثيرا. وفي حين أن ناشري كتبي في إيطاليا، وأمريكا، وفرنسا، وروسيا، قد كانوا أصدقائي الشخصيين، فإنني لم أرَ قط واحداً من المؤسسة التي كانت تنشر كتبي في إنكلترا. وهكذا تهيأت للشعور بالغربة كما شعرت منذ ثلاثين سنة مضت.

ولكن ما حدث كان مختلفاً. فبعد بضعة أيام، شعرت بارتياح لا يوصف في لندن، لا لأنها تغيرت مادياً، بل لأنني أنا تغيرت. لقد كبرت ثلاثين سنة، وامتلأت شوقاً، بعد أعوام التوتر، وفرط التوتر في أثناء الحرب وبعدها، إلى العيش الهادئ، والابتعاد عن حديث السياسة. بالطبع كان في إنكلترا أحزاب هي حزب العمال، وحزب المحافظين، والحزب الليبرالي، إلا أن مجادلاتهم لم تكن تعنيني. وفي الأدب كان هناك بلاشك نقاشات، وتيارات، وصراع، ومنافسات خفيّة، ولكنني ابتعدت عنها. فما كان مفيداً حقاً هو الإحساس مرة أخرى بأنني في جو مدني لطيف، لا هياج فيه ولا كراهية. ففي الأعوام السابقة، لا شيء سمّم حياتي أكثر من الشدة والبغضاء اللتين أحدقتا بي في

البلاد وفي المدينة، ومن اضطراري دائماً إلى تلافي الانجرار إلى تلك المجادلات. لم يكن السكان هنا مشوّشين إلى الحد نفسه، فالحياة العامة كان يسودها قدر من العدالة واللياقة أكثر من الحياة العامة في بلداننا التي أفسد أخلاقها التضخم الغادر وحده. كانوا يعيشون حياة أهدأ، و أكثر اطمئناناً، وكانوا أشد اهتماماً بالحدائق، والهوايات الصغيرة من جيرانهم. ههنا كان في وسع الإنسان أن يتنفس، ويتأمل، ويمعن النظر في الأشياء.

وهذا ما حدث. كان كتابي عن ماري أنطوانيت قد نُشر، وكنت أراجع طبعة كتاب آخر لي عن إرازموس حاولت فيه أن أرسم صورة روحية للإنساني الذي كان عاجزاً عجزاً مأساوياً عن معارضة ما يتنافى مع العقل رغم فهمه جنون العصر فهماً أوضح من فهم مصلحي العالم المحترفين، ورغم ما تحلّى به من عقل سديد. وبعد أن أنهيت هذه الصورة الذاتية المقنّعة، نويت كتابة رواية خططت لها منذ زمن بعيد. لقد كتبت ما يكفي من السِيَر. ولكن اتفق أن جذبني في اليوم الثالث شغفي بالمخطوطات. كنت أتفرّج على معرض عام في المتحف البريطاني. وكان بين المعروضات تقرير مكتوب باليد عن إعدام ماري ستيورات. وألفيت نفسي أتساءل: «ما حقيقة ما رُوي عن ماري ستيورات؟ هل كانت متورطة حقاً في جريمة قتل زوجها الثاني أم لا؟» وبما أنه لم يكن عندي ما أقرأه في تلك الليلة، فقد اشتريت كتاباً عنها. كان كتاباً سخيفاً ومسطّحاً يكيل لها المدائح، ويدافع عنها كقدّيسة. ودفعني فضولي العضال إلى شراء كتاب آخر في اليوم التالي يعبّر عن وجهة نظر معاكسة تقريباً. وما لبثت الحالة أن أخذت تسترعي اهتمامي. سألت عن كتاب موثوق، ولم يستطع أحد أن يسمّي كتاباً واحداً، ولكن من خلال السؤال والاستفسار، ومن غير إرادة واعية، وجدت نفسي أعمل على كتاب عن ماري ستيورات أبقاني آنذاك أسابيع في المكاتب. وبعد أن عدت إلى النمسا في مطلع سنة ١٩٣٤، عزمت على العودة إلى لندن التي نالت محبتي ابتغاء إكمال الكتاب هناك بلا متاعب.

كان قضاء يومين أو ثلاثة في النمسا كافياً حتى يلحظ المرء مدى التدهور الذي وصلت إليه الأوضاع في غضون الأشهر الأولى من عام ١٩٣٤ كان مجيئي من جو إنكلترا الرائق الآمن إلى هذه النمسا المنفعلة المضطربة مثل انتقال مفاجئ في أحد أيام

تموز الخانقة في نيويورك من غرفة مكيّفة إلى الشارع المشبع بالبخار. بدأ الضغط الاشتراكي القومي يتلف في بطء أعصاب الطبقة الوسطى ورجال الإكليروس، وتزايد الشعور، مع اشتداد وطأة الاقتصاد، بالضغط المدمر الذي تمارسه ألمانيا النافدة الصبر. فإرادة دولفوس التي سعت إلى المحافظة على استقلال النمسا، وإنقاذها من هتلر، أخذت تبحث بحثاً مستميتاً عن دعم ثابت. كانت فرنسا وإنكلترا نائيتين، إضافة إلى انعدام الاهتمام، وتشيكوسلوفاكيا ما زالت تتذكر حرارة المنافسة مع فيينا، لذلك لم يكن هناك إلا إيطاليا التي كانت تتطلع آنذاك إلى بسط حمايتها الاقتصادية والسياسية على النمسا بغية ضمان الممرات الألبية إلى أراضيها، وإلى منطقة تريستا. ومقابل هذه الحماية طلب موسوليني ثمناً باهظاً، على كل حال. كان على النمسا أن تتكيف مع المبادئ الفاشية، فتلغي البرلمان، والديمقراطية معه. وهذا كان مستحيلاً من دون التعاون مع الحزب الديمقراطي الاجتماعي أو إضعافه، وهو أقوى الأحزاب في النمسا وأفضلها تنظيماً، ولا سبيل آخر إلى تحطيمه إلا بالقوة الفظة.

ومن أجل هذا الإرهاب، كانت قد أنشئت منظمة Heimwehr، وهي من إبداع إغناس سيبل، سلف دولفوس. كانت في ظاهر الأمر منظمة ضئيلة الشأن، ضمّت محامين صغاراً من الأَقاليم، وضباطاً مسرّحين. وأشخاصاً تافهين، ومهندسين متعطلين، وكلهم، أشخاص عاديون محبطون، وكلهم منطوون على أحقاد. وأخيراً عُثر على قائد هو الأمير الشاب ستارهمبرغ الذي أخذ ينظم مسيرات مع جنوده المأجورين، ووعد أن «يجعل الرؤوس تتدحرج»، مع أنه كان جثا عند قدميْ هتلر في الماضي، وعارض الجمهورية والديمقراطية معارضة شديدة. كان هدف المنظمة مبهماً تماماً. والحقيقة هي أن هدفها لم يكن إلا الوصول إلى المعلف العام، وأن قوتها كامنة في قبضة موسوليني التي كانت تدفعها إلى الأمام. ولم يلاحظ أولئك النمساويون من أدعياء الوطنية أنهم كانوا ينشرون فرع الشجرة الذي جلسوا عليه بأدواتهم «المصنوعة في إيطاليا.»

أصبح الحزب الديمقراطي الاجتماعي أفضل فهماً لمكامن الخطر الحقيقي، ولم يكن هناك ما يجعله يخشى الصراع المفتوح. كان لديه أسلحته، إذ كان من شأن إضراب عام يدعو إليه أن يشلّ السكك الحديدية، والمنشآت المائية، وكل محطات الطاقة. ولكنه كان يعرف أن هتلر ينتظر ما كان يسمّى «الثورة الحمراء» لكي يتذرّع بها للدخول إلى النمسا دخول «المنقذ». لذلك بدا من الأفضل له أن يضحّي بأكبر قدر من حقوقه،

وحتى بالبرلمان بغية الوصول إلى تسوية مقبولة. وأيّد معظم العقلاء مثل هذه التسوية نظراً إلى الوضع المزعزع الذي وجدت فيه النمسا نفسها في ظل الهتلرية المنذر بالخطر. وحتى دولفوس نفسه، وهو داهية طموح، ولكنه واقعي تماماً، بدا ميّالاً إلى اتفاق. غير أن الشاب ستارهمبرغ، ورفيقه ميجور فاي الذي أدّى فيما بعد دوراً خاصاً في جريمة قتل دولفوس، طالبا بأن تسلّم رابطة Schutzbund أسلحتها، وأن تُزال جميع آثار الحرية المدنية والديمقراطية. قاوم الديمقراطيون الاجتماعيون هذه المطالبة، وتبادل الطرفان التهديدات. وشعرت بأن قراراً يوشك أن يُتخذ، وفي حالة التوتر العام هذه، خطرت لي كلمات شكسبير: «إن سماء مكفهرة إلى هذا الحد، لا تصحو من دون عاصفة.»

لم أقضِ في سالزبورغ إلا بضعة أيام قصدت بعدها فيينا. وانفجرت العاصفة في تلك الأيام الأولى من شباط. أغارت منظمة Heimwehr على مجلس العمال من أجل مصادرة الأسلحة التي زعمت أنها مخبأة هناك. كان رد فعل العمال إضراباً عاماً، أمر بعده دولفوس أن تقمع القوات المسلحة هذه «الثورة» البارعة التعجيل. وعلى إثر ذلك تقدم الجيش النظامي بالبنادق والمدافع نحو مجالس عمال فيينا. ونشب قتال ضارٍ من منزل إلى منزل طيلة ثلاثة أيام، وكانت تلك آخر مرة دافعت فيها الديمقراطية عن نفسها ضد الفاشية في أوروبا. وصمد العمال ثلاثة أيام قبل أن يستسلموا للتفوق التقني.

كنت في فيينا خلال هذه الأيام الثلاثة، وبالتالي كنت شاهداً على تلك المعركة الحاسمة التي لم تكن إلا انتحاراً للاستقلال النمساوي. و الشهادة الصادقة تقتضي مني أن أعترف بالمفارقة، وهي أنني لم أرَ شيئاً من تلك الثورة التي وقعت بالفعل خلال وجودي هناك. والذي يبغي تصوير زمنه تصويراً صادقاً وواضحاً قدر الإمكان، عليه أن يجسر على إحباط التصورات الرومانسية. ويبدو لي أن أكثر ما يميّز منهج الثورات الحديثة وخصوصيتها هو أنها لم تنتشر إلا في بقع قليلة جداً من المناطق الواسعة للرأسمال الحديث، ولذلك بقيت بعيدة كل البعد عن أنظار السكان. وقد يبدو مستغرباً أن أكون في فيينا خلال تلك الأيام التاريخية من شهر شباط سنة ١٩٣٤ من غير أن أشاهد شيئاً من الأحداث التاريخية التي كانت تجري، ومن غير أن أعرف شيئاً عن وقوعها. كانت المدافع ترعد، والمباني تُحتل، ومئات الجثث تنقل إلى أماكن بعيدة،

ولم أرَ شيئاً من ذلك. إن كل قارئ صحف في نيويورك أو لندن أو باريس كان يعرف عما كان يجري أكثر منا، نحن الشهود المفترضين عليها. وفي وقت لاحق، سمعت تأكيدات متكررة للظاهرة، وهي أن الناس الذين يبعدون آلاف الأميال عن مسرح القرارات الخطيرة أعلم بما يحدث من الذين تفصلهم عنه عشر بنايات. وبعد بضعة أشهر، عندما لقي دولفوس مصرعه في فيينا ظُهْر أحد أيام، قرأت الخبر في ملصقات الشوارع في لندن في الساعة الخامسة والنصف ظهراً. أجريت اتصالاً مع فيينا، ودُهشت من السرعة التي تمّ بها، وزادني دهشة أن القاطنين على بعد خمسة شوارع من وزارة الخارجية في فيينا كانوا يعرفون أقل مما عُرف عند كل منعطف شارع في لندن. لذلك فإن معايشتي ثورة فيينا تقتصر قيمتها على إثبات قلة ما يراه المعاصر من الأحداث التي تغيّر وجه البسيطة، وتغير قدره أيضاً ما لم يتفق له أن يقف في موقع الحدث. وها هو ذا ما عرفته عن الثورة: كنت على موعد مع معدّة رقصات الأوبرا، مارجريت وولمان، في أحد مقاهي الشارع الدائري. مضيت إلى الموعد، و أوشكت أن أعبر الشارع بلا تفكير. وفجأة اعترضني بعض الرجال المسلحين المرتدين بزات رثة غير كاملة، وسألوني عن الجهة التي أقصدها، ولما أوضحت لهم أنني ذاهب إلى مقهى J، أخلو سبيلي في هدوء. لم أعرف لماذا انتشر الجنود في الشوارع فجأة، ولا الهدف الذي كانوا يبتغونه. وفي واقع الأمر، كان إطلاق نار، وقتال عنيف، يجريان على أطراف المدينة منذ ساعات، وأما في الوسط المدينة فلم يشعر بهما أحد. وفي تلك الليلة، عندما عدت إلى الفندق، وطلبت الفاتورة لأنني سأغادر إلى سالزبورغ صباح اليوم التالي، في تلك الليلة فقط قال لي الموظف: إنه يخشى ألا أتمكن من السفر بما أن القطارات متوقفة. كان عمال السكك الحديد مضربين، إضافة إلى أن شيئاً ما كان يجري في الضواحي.

ونشرت صحف اليوم التالي تقارير غير واضحة عن انتفاضة الديمقراطيين الاجتماعيين التي كانت قد قمعت إلى حد ما. والحقيقة هي أن الصراع لم يبلغ ذروته إلا في هذا اليوم، وقررت الحكومة مواصلة إطلاق الرصاص والقذائف على منازل العمال. ولكنني لم أعرف شيئاً عن ذلك أيضاً. ولو استولى يومئذ على فيينا الاشتراكيون، أو الاشتراكيون القوميون، أو الشيوعيون، لما علمت به إلا كما علم مواطنو ميونخ الذين استيقظوا ذات صباح، وعلموا من صحيفة «أخبار ميونخ» أن مدينتهم قد سقطت في يد هتلر. كانت الحياة في مركز المدينة تواصل مجراها المنتظم،

في حين أن المعركة في الضواحي كانت مشتدة، وكنا نحن من السذاجة بحيث صدّقنا البيانات الرسمية التي أعلنت أن القلاقل قد انتهت. وفي المكتبة الوطنية حيث ذهبت للبحث عن شيء، كان الطلاب مكبّين على كتبهم كالعادة، والدكاكين مفتوحة، ولا أحد كان مستثاراً. ولم تتكشف لنا الحقيقة شيئاً فشيئاً إلا في اليوم الثالث، عندما انتهى كل شيء. وفي اليوم الرابع سُيرّت القطارات مرة أخرى، وفي الصباح عدت إلى سالزبورغ، حيث أمطرني بعض معارفي الذين التقيتهم في الشارع بالأسئلة عما حدث في فيينا حقاً. وأنا الذي كنت شاهد عيان على الثورة كان لا بد لي أن أصدقهم القول: «لا تسألوني. من الأفضل أن تشتروا صحيفة.»

والأمر الغريب هو أن اليوم التالي كان منعطفاً في حياتي الخاصة فيما يتعلق بالأحداث هذه. وصلت إلى سالزبورغ من فيينا بعد الظهر، و وجدت أكواماً منتظرة من الطبعات التجريبية والرسائل، فعملت حتى وقت متأخر للانتهاء من الأعمال المعلقة. وفي صباح اليوم التالي، بينما أنا نائم في السرير، إذ سمعت طرقاً على الباب. رأيت الخادمة المسنّة المخلصة بادية القلق، وهي التي لم توقظني قط ما لم أحدد لها الساعة تحديداً واضحاً. طلبت مني أن أنزل لأن عدة رجال من الشرطة يطلبون مقابلتي. فوجئت بعض الشيء بما سمعت، فارتديت جلباباً، ونزلت إلى الطابق السفلي. كان هناك ثلاث من رجال الشرطة في لباس مدني. قالوا: إنهم يريدون تفتيش المنزل، والاستيلاء على أي أسلحة تخص منظمة Schutzbund الجمهورية مخبأة فيه.

وعليّ أن أعترف أنني ذهلت في اللحظة الأولى عن أي جواب. أسلحة للمنظمة الجمهورية في منزلي؟ كلام بالغ السخف. فأنا لم أنتسب قط إلى أي حزب، ولم أزعج نفسي قط بالسياسة. كما أنني لم آتِ إلى سالزبورغ منذ عدة أشهر، إلى جانب أن تخزين أسلحة في هذا المنزل الواقع على تلة خارج المدينة أمر غير معقول، لأن من يحمل بندقيته أو أي سلاح آخر يمكن أن يشاهد على الطريق. لذلك أجبت في برود: «فتشوا بأنفسكم من فضلكم.» دخل الرجال إلى المنزل، وفتحوا بعض الخزائن، وضربوا بأيديهم على بعض الجدران، وسرعان ما اتضح لي من حركاتهم البطيئة أن التفتيش لم يكن إلا مسألة شكلية، وأن أحداً منهم لم يكن معتقداً أن في منزلي أسلحة. وبعد نصف ساعة، أعلنوا انتهاء التفتيش، ثم اختفوا.

إن سبب شعوري بالمرارة من هذه المهزلة يستدعي تفسيراً تاريخياً. كانت أوروبا والعالم قد نسيا في العقود السابقة القداسة القديمة للحقوق الشخصية، والحريات المدنية. ومنذ سنة ١٩٣٣أصبح أمراً عادياً إلى حد ما أن تجري حملات تفتيش، واعتقالات عشوائية، ومصادرة أملاك، وترحيل، وكل ما يمكن تخيله من أشكال الإذلال. وقد عانى جميع أصدقائي الأوروبيين تقريباً من أحد هذه الإجراءات. ولكن تفتيش منزل في النمسا في بداية سنة ١٩٣٤، كان ما يزال إساءة بالغة. وأن يفتش منزل واحد مثلي، أنا الذي ابتعدت على السياسة بالكلية، ولم أمارس حتى حقي في الانتخاب، أمر يقتضي سبباً خاصاً، وكان في واقع الأمر قضية نمساوية نموذجية. لقد أرغم رئيس الشرطة في سالزبورغ على اتخاذ تدابير حادة ضد الاشتراكيين القوميين الذين أرهبوا الناس ليلة بعد ليلة بالقنابل والمتفجرات، وكان مهمته خطرة وشجاعة، وذلك لأن الحزب قد سبق له أن مارس الإرهاب. كانت السلطات تتلقى كل يوم رسائل تهدد بالانتقام إن واصلت «اضطهادها» للاشتراكيين القوميين. والحق هو أنهم أنجزوا وعيدهم تماماً، وفي اليوم الأول من غزو هتلر جُرّ معظم موظفي النمسا المخلصين إلى معسكرات الاعتقال. لذلك كان تفتيش منزلي فكرة جيدة على سبيل الإعلان الواضح أن أحداً غير مستثنى من إجراءات الأمن. وهذه الحادثة غير المهمة في ذاتها، جعلتني أشعر بالخطورة التي آلت إليها الأوضاع في النمسا، وبضغط ألمانيا الطاغي عليها. لم أعد أكترث بمنزلي بعد تلك الزيارة الرسمية، وهجس في صدري أن حادثة من ذلك النوع لا يمكن أن تكون إلا مقدمة لانتهاكات أكثر تمادياً. وشرعت في تلك الليلة في حزم أهم أوراقي عازماً على الإقامة الدائمة في الخارج منذ ذلك الوقت فصاعداً، و كان هذا يعني أكثر من التخلي عن منزل و بلاد، لأن أسرتي كانت متعلقة بالمنزل والبلاد. أما بالنسبة لي، فإن الحرية الشخصية هي أهمّ شيء على وجه البسيطة. ومن غير أن أعلم أياً من أصدقائي، أو معارفي، بما عقدت العزم عليه، عدت إلى لندن بعد يومين، وأول ما فعلته بعد وصولي هو إبلاغ السلطات في سالزبورغ أنني تخليت من مسكني هناك تماماً. كانت تلك أول خطوة نحو الابتعاد عن وطني. ولكنني قد أدركت أن النمسا قد ضاعت منذ تلك الأيام التي قضيتها في فيينا. ويقيناً، لم يخطر لي مقدار ما فقدته نتيجة لذلك.

الفصل السادس عشر

عذابات السلام

ها هي ذي شمس روما تغيب، ويومنا ينقضي. فتعالي أيتها السحب والأنداء والأخطار، فإن أعمالنا قد أنجزت.

يوليوس قيصر

لم أشعر بأنني منفيّ خلال أعوامي الأولى في إنكلترا إلا بقدر ما شعر غوركي بذلك وهو في سورينتو. فالنمسا بقيت موجودة حتى بعد ما سُمّي «ثورة»، وبعد محاولة الاشتراكيين القوميين التي أعقبتها للاستيلاء على البلاد بانقلاب، وبعد مقتل دولفوس. وتعيّن على بلدي أن يتعذب أربعة أعوام أخرى. كان في وسعي العودة إلى البلد في أي وقت، إذ لم يُحظر عليّ ذلك، ولم أُجرّد من حقوقي القانونية. وكتبي في سالزبورغ لم يتحرّش بها أحد بعد، وأنا مازالت أحمل جواز سفر نمساوياً، والبلد ما زال بلدي، وأنا مواطناً هناك، مواطناً كامل الحقوق. لم تكن قد بدأت بعد حالة التشرد الفظيعة التي يتعذّر توضيحها لمن لم يجرّبها، ذلك الإحساس المضني بالدوار، والتنبّه التام، والتحديق في الفراغ، وأنت على علم بأنك قد تدفع دفعاً عنيفاً في أي لحظة حيث وجدت موطئ قدم. ولكن الأمور كانت يومئذٍ في أولها. ولما وصلت إلى محطة فكتوريا في شهر شباط سنة ١٩٣٤، شعرت بالفرق، فالمدينة التي تأتيها للإقامة الدائمة فيها تراها رؤية مختلفة عن المدينة التي تحلّ بها زائراً ليس غير. لم يكن عندي فكرة عن طول إقامتي في لندن. كان هناك أمر واحد مهم بالنسبة لي، وهو العودة إلى عملي، و المحافظة على حريتي في التفكير والحركة. وبما أن التملك يتضمن روابط جديدة، فلم أشترِ منزلاً، بل استأجرت شقة صغيرة تَسَع حقيبتيْ الكتب الحريص على

استبقائها، ومنضدة الكتابة. وبذلك كان لديّ في الحقيقة كل ما يحتاجه المشتغل بالثقافة. لم يكن هناك متسع للحياة الاجتماعية بالتأكيد. ولكنني آثرت السكن المتواضع حتى أتمكن من السفر بين الحين والحين، فحياتي كانت تتكيّف من تلقاء ذاتها مع المؤقت وليس مع الدائم.

كان الظلام قد حلّ في الأمسية الأولى، وأخذت معالم الجدران تتلاشى في عتمة أول الليل، عندما دخلت إلى الشقة الصغيرة التي جُهّزت أخيراً، واعترتني هزة. لقد شعرت في تلك اللحظة وكأنني قد دخلت تلك الشقة الصغيرة الأخرى التي أصلحتها منذ قرابة ثلاثين عاماً في فيينا. كانت صغيرة الغرف مثلها، وعلى جدارها بشّت لي الكتب ذاتها، وعيْنا «الملك جون» الهاذيتان في لوحة بليك، والتي رافقتني حيث ذهبت. لم أعاود التحكم في انفعالاتي إلا بعد وقت في حقيقة الأمر، لأن تلك الشقة القديمة لم تخطر لي منذ أعوام عديدة. هل كان ذلك يعني أن حياتي كانت تتقلص بعد توسعها الطويل إلى كينونة قديمة، وأنني كنت أتحوّل إلى ظلي؟ قبل ثلاثين سنة، كان اختياري تلك الشقة في فيينا يمثل بداية. لم أكن قد أبدعت شيئاً بعد، أو شيئاً مهماً على الأقل، ولم يكن بلدي قد عرف بعد كتبي أو أسمي. وها هي كتبي قد اختفت مرة أخرى عن لغته اختفاءً غريب التشابه، أو كادت، فعملي الأخير بقي مجهولاً في ألمانيا. لقد ابتعد أصدقائي، وقُضي على الحلقة القديمة، وضاع المنزل بكل مجموعاته، ولوحاته، وكتبه، و وقفت وحيداً في بلد غريب، تماماً كما في الماضي. وبدا لي أن كل ما حاولته، وأنجزته، وتعلمته، وتمتعت به،قد ذهب أباديد، وواجهت، وأنا في الخمسين من العمر، بدايةً، وعدت مرة أخرى طالباً على مقعد دراسة، أو في مكتبة، ولكن ليس سريع التصديقِ، وشديد الحماسة كما كنت قبلاً، بل طالباً وَخَطه الشيب، وأخذ اليأس يخيمّ على روحه المتعبة.

لست راغباً في التحدث كثيراً عن الأعوام الواقعة بين عامي ١٩٣٤و١٩٤٠ في إنكلترا، لأن ذلك يقربني من زماننا الذي خضنا فيه جميعاً تجارب متماثلة تقريباً، متماثلة في قلقها التي غذّته الإذاعات والصحف، وفي آمالها وهمومها. إننا نفكر فيه بقليل من الفخر بما ارتكب من حماقات سياسية، وبكثير من الرعب مما انتهى بنا إليه.

ومن يرغب في التفسير، عليه أن يتهم، ومن منه جميعاً له الحق في ذلك؟ والأهم من هذا هو أن حياتي في إنكلترا كان تحفظاً مديداً. ورغم إدراكي حماقة هذا الإحجام المفرط، فقد قضيت أعوام النفي وشبه النفي تلك منعزلاً عن الاختلاط المفيد، متوهماً أن التعبير عن رأيي في الموضوعات الراهنة في بلد غريب أمر سيئ. فإن لم أستطع أن أناوئ حماقة الدوائر النافذة في النمسا، فكيف أفعل ذلك هنا؟ هنا، حيث اعتبرت نفسي ضيف هذا البلد المضياف، وكنت أعرف حق المعرفة،وأرى الرأي الأوضح والأسدّ، لو أنني أشرت إلى ما يمثله هتلر من خطر على العالم، لاعتُبر ذلك رأياً شخصياً منحازاً. وأحياناً كان يصعب عليّ بالفعل أن أُطْبق فمي في وجه الأخطاء الفاحشة. كان يؤلمني أن أقف متفرجاً عندما كانت الدعاية البارعة الإدارة تسيء إلى أعظم مناقب الإنكليز، أي إخلاصهم، وميلهم الصادق إلى تصديق أي واحد حتى يثبت أنه كاذب. كان يتكرر الإعلان المتزلف أن هتلر لا يريد أكثر من استيعاب ألمان الولايات الحدودية، وبعدها سوف يرضى، واعترافاً بالجميل سوف يستأصل البلشفية، وهذا الطعم كان شديد المفعول. لم يكن على هتلر إلا أن يلفظ كلمة «سلام» في إحدى خطبه، حتى يثير حماسة الصحف، ويجعلها تنسى كل أفعاله السابقة، وتكفّ عن السؤال عما جعل ألمانيا تتسلح على هذا النحو المجنون. والسائحون العائدون من برلين، حيث أحيطوا بالمرافقين والمتملقين، كانوا يثنون على إدارة الأمور، وعلى المدير الجديد، وأخذ المرء يسمع شيئاً فشيئاً موافقة مطمئنة في إنكلترا على عدالة «مطالبته» بالتوسع من غير أن يستوعب أحد أن النمسا كانت الحجر الذي ستؤدي إزاحته من الجدار إلى انهيار أوروبا. وعلى كل حال، عرفتُ السذاجة، والإيمان الصادق، اللذين أربكا الإنكليز وقادتهم، معرفة من شاهد جند العاصفة عن كثب في بلاده، وسمعهم ينشدون: «اليوم نستولي على ألمانيا، وغدا نستولي على العالم.» وكلما زاد التوتر السياسي حدة، انسحبتُ من المناقشات ومن المشاركة العامة. كانت إنكلترا البلد الوحيد في العالم القديم، والذي لم أنشر فيه مقالة في صحيفة، ولم أتكلم في إذاعة، ولم أشارك في جدال عام. كانت حياتي في الشقة الصغيرة هناك مغمورة أكثر من حياتي وأنا طالب في فيينا منذ ثلاثين سنة. لذلك لست مؤهلاً لوصف إنكلترا، ولا للادعاء في ما بعد أنني قد تعرفت قبل الحرب طاقة إنكلترا الغامضة الكامنة التي لا تكشف عن نفسها إلا في أشد ساعات الخطر.

ولم ألتقِ عدداً كبيراً من أدباء هذا البلد أيضاً. فالأديبان الذي بدأت أعرفهما جيداً، أي جون درنكو وتروهيو والبول، قد أزالهما موت مبكر، و أما الأدباء الشباب فلم ألتقِ بهم إلا نادراً، لأنني كنت أتجنب النوادي والعشاءات، والمناسبات العامة - لاستحواذ الشعور المؤسف عليّ بأنني «أجنبي» - و مع ذلك، أتيحت لي مرة متعة استماع خاصة لا تنسى حقاً إلى أذكى رجلين هما برنارد شو، و هـ . ج. ويلز، وهما منخرطان في محاورة رائعة كانت في ظاهرها بالغة الدماثة، إلا أنها كانت منطوية على تيّار مستتر من الآراء. كان ذلك في أثناء وجبة غداء حميمة في منزل برنارد شو، وألفيت نفسي في وضع مثير للاهتمام، ومع ذلك مربك، وضع من لا يعرف سبب هذا التوتر العالي الخفيّ الذي أمكن استنتاجه من الطريقة التي تبادل بها هذا الكهلان تحية حميمة شابها شيء من التهكم. لا بد أن أمراً مهماً قد حُسم بينهما، أو كان ينبغي أن يُحسم في أثناء ذلك الغداء. كان هذان الرجلان العظيمان اللذان يمثّل كل واحد منهما جزءاً من عظمة إنكلترا قد كافحا منذ نصف قرن جنباً إلى جنب من أجل الاشتراكية من خلال الجمعية الفابية. ومنذ ذلك الوقت، باعد بينهما تطور كل منهما انسجاماً مع شخصيته الصريحة، فأصر ويلز على المثالية العملية، مستكملاً بلا كلل رؤياه للمستقبل البشري،أما شو فعلى العكس، فقد بقي ينظر إلى المستقبل، كما الحاضر، نظرة متشككة متهكمة، ويستمد منهما مادة مسرحه الفكري المسلّي الفائق. كانت الأعوام قد قوّت التباين بينهما في المظهر: شو في العقد التاسع من العمر، رشيق الحركة على نحو لا يصدق، وغداؤه جوز وفاكهة فقط، طويل، نحيل، متنبه على الدوام، مع ابتسامة دائمة على شفتيه المتحركتين، وأشد تعلقاً من أي وقت مضى بالألعاب النارية لمفارقاته: وويلز، فرح بالحياة وهو في السبعين من العمر، وأكثر تعلّقاً باللذات الحسيّة، وهادئ أكثر من ذي قبل، قصير القامة، أحمر الوجنتين، ووراء ابتهاجه العارض جديّة متصلّبة. كان شو، المخاصم الرائع، حاذقاً وسريعاً في تغيير مواقع الهجوم، وكان ويلز الثابت الاعتقاد والاقتناع يستخدم تكتيكات صحيحة في الدفاع. وسرعان ما تشكّل عندي انطباع أن ويلز لم يكن حاضراً من أجل تبادل أحاديث ودية أثناء الغداء، بل من أجل مناقشة بالغة الأهمية. وبما أنني لم أكن على علم بما وراء الصراع الفكري، فقد كنت سريع التأثر بجوه. كل إشارة، وكل التفاته،

وكل كلمة تفوّها بها، كان فيها ما يشي بالابتهاج، وما يشي أكثر بالمشاكسة. كانا مثل متبارزين يختبر أحدهما الآخر بسلسلة من الهجمات المخادعة قبل أن ينصرفا إلى العمل الجدي. كان شو أسرع خاطراً، وكانت عيناه تومضان تحت حاجبيه الكثّين كلما أجاب أو تلافى الإجابة. إن ابتهاجه بالبديهة الحاضرة، والتلاعب بالألفاظ، اللذين هذبّهما طيلة ستين سنة حتى اكتسب براعة لا نظير لها فيهما، قد تحوّل إلى ضرب من العجرفة. كانت لحيته البيضاء الكثّة ترتجف أحياناً حين يضحك ضحكة خافتة كالحة، ويميل رأسه ويردّه إلى الوراء قليلاً، وتبدو عيناه على الدوام أنهما تتابعا السهم لتريا إن كان صائباً حقاً. أما ويلز ذو الوجنتين المتوردتين، والعينين المتواريتين الوديعتين، فقد كان أقسى وأكثر مباشرة، وعقله كان يعمل بالسرعة القصوى أيضاً، غير أنه لم يتعمد إطلاق شرارات، بل أن يطعن باستهتار طعنات رشيقة وأكيدة. تواصلت هذه المبارزة العاجلة كراً وفراً، طعناً وتحاشياً، و تحاشياً وطعناً، وكانت على الدوام ضمن حدود المزاح بحيث أن المشاهد لا يسعه إلا أن يعجب بالمسايفة، والوميض، والأخذ والرد. ولكن هذا الحوار السريع الذي بقي على سويّة رفيعة كان ينطوي على نوع من الإثارة الفكرية التي تنتظم في المنطق المدني انتظاماً رائعاً على الطريقة الإنكليزية. وما جعل هذه المحاورة مثيرة على نحو غير عادي، هو الهزل الجاد، والجدية الهازلة في تعارض هذين القطبين الذي أشعله في الظاهر أمر ذو صلة بالموضوع، والحق هو أن التعارض قد احتدم لأن ذلك الأمر كان غير قابل للتغيير. ومهما كان، فقد رأيت خير رجلين في إنكلترا في أحد أفضل أوقاتهما. وتتمة ذلك الحوار، كما طُبعت في دورية Nation خلال الأسابيع التالية، لم تقدم لي بعضاً من المتعة التي نلتها من ذلك الحوار الحي، لأن المجادلات قد مالت إلى التجريد، ولأن الرجلين المتحاورين، وهما جوهر الموضوع، لم يعودا حاضرين. قلما وجدت متعة فاقت متعتي بالوميض الفوسفوري المنبعث من إحتكاك روحين، كما أنني لم أرَ من قبل أو من بعد مسرحية مورس فيها فن الحوار ممارسة فنية بارعة كما في تلك المناسبة التي تحققت فيها تلك المسرحية عن غير قصد، ومن دون مسرح، وعلى أبدع وجه.

كانت إنكلترا خلال تلك الأعوام مجرد مقام لا تربطني به أي عاطفة. كان القلق على أوروبا، ذلك القلق الذي كان ضغطه على أعصابنا مؤلماً طيلة تلك السنوات، هو

ما جعلني أسافر كثيراً في الأعوام الواقعة بين تقلد هتلر السلطة واندلاع الحرب العالمية الثانية. لقد عبرت المحيط مرتين، لعل هاجساً دفعني إلى اختزان ما يستطيع القلب أن يختزنه للأيام السود من انطباعات وتجارب ما دام العالم مفتوحاً، والسفن تعبر البحار آمنة، ولعله التوق أيضاً إلى الاطلاع على عالم آخر يُبنى هناك في الوقت الذي كان العالم القديم يدمّر فيه نفسه بالارتياب والصراع، ولعله التنبؤ الغامض بأن مستقبلنا، وحتى مستقبلي الخاص، لن يكون داخل أوروبا. إن جولة محاضرات في الولايات المتحدة قد كانت مناسبة سارة رأيت فيها تلك البلاد العظيمة بكل تنوعها، ووحدتها الداخلية، من الشرق إلى الغرب، ومن الشمال إلى الجنوب. وربما كان التأثير الأعمق في نفسي هو تأثير أمريكا الجنوبية التي قبلت دعوة منها إلى حضور مؤتمر الجمعية الدولية للكتّاب P.E.N، وهناك أدركت أكثر من أي وقت مضى أهمية دعم فكرة التضامن الفكري الذي يتعدى الحدود واللغات القومية.

إن الساعات الأخيرة التي سبقت مغادرتي أوروبا قد أنذرتني بأمر حملني على التأمل أثناء الرحلة. كانت الحرب الأهلية الإسبانية قد بدأت في صيف ١٩٣٦. وهذه الحرب كانت من وجهة نظر سطحية مجرد صراع داخلي في ذلك البلد الجميل المفجوع، والحقيقة أنها كانت مناورة تمهّد للمواجهة التالية بين القوتين الإيديولوجيتين. غادرت ساوثمبتون على مركب إنكليزي، وكنت أعتقد أن المركب لن يرسو في فيجو Vigo، مرساه الأول المعتاد. وما أدهشني هو أنه دخل المرفأ، بل سُمح للمسافرين بالنزول إلى الشاطئ بضع ساعات. كانت مدينة فيجو آنذاك تحت سيطرة فرانكو، وتقع بعيداً عن ساحة المعركة. ومع ذلك شاهدت أشياء خلال إقامتي القصيرة سوّغت الخواطر المحزنة. فأمام دار البلدية التي كان يرفرف فوقها علم فرانكو، اصطف فتيان، وفلاحون يتقدمهم كهان في الغالب، وكان واضحاً أنهم قد جُمعوا من القرى المجاورة. لم أعرف في البداية سبب وجودهم هناك. هل كانوا عمالاً أُتيَ بهم من أجل عمل طارئ، أم متعطلين تجمعوا للحصول على طعام؟ وبعد ربع ساعة، رأيت أولئك الشباب يخرجون من دار البلدية أشخاصاً مختلفين تماماً. لقد ارتدوا لباساً موحداً، جديداً ونظيفاً، وحملوا بنادق ذات حراب، ثم أشرف ضباط على تحميلهم في سيارات جديدة ونظيفة انطلقت عبر الشوارع خارج المدينة. ارتعتُ من ذلك. أين شاهدت هذا قبلاً؟ رأيته أولاً في إيطاليا، ثم في

ألمانيا! هذه البزات الجديدة الكاملة، هذه السيارات الجديدة، والبنادق، قد ظهرت فجأة هنا وهناك، وتساءلت: من يزوّدهم بذلك؟ من يدفع أثمان هذه البزات الجديدة؟ من ينظّم هؤلاء الشباب الفقراء؟ من يحرّضهم على السلطات القائمة، وعلى البرلمان المنتخب، على ممثليهم الشرعيين؟ كنت أعرف أن خزينة الدولة تتحكم فيها حكومة مشكّلة كما ينبغي، فأين كانت مستودعات الأسلحة؟ لا شك في أن السيارات والأسلحة قد وصلت من الخارج، وجاءت عبر الحدود من البرتغال بالتأكيد، فمن زوّد ومن موّل؟ إن قوة جديدة كانت تسعى للاستيلاء على السلطة، القوة الوحيدة ذاتها كانت تعمل هنا وهناك، وفي كل مكان، قوة ميّالة إلى العنف، وتحتاج إليه، وكل تلك الأفكار التي اعتنقناها وعشنا من أجلها ـ السلام والوفاق والإنسانية ـ كانت تبدو لها من نقائص الأيام الغابرة. كانت مجموعات سرية متسترة بالمكاتب والتجارات تحوّل مثالية الشباب الساذجة إلى شواغلها ورغبتها الشديدة في السلطة. إنها إرادة العنف التي لجأت إلى وسائل جديدة وحاذقة في سعيها إلى إيقاع أوروبا السيئة الحظ في بربرية الحرب القديمة. وإن انطباعاً بصرياً واحداً يؤثر في النفس أكثر من آلاف المقالات الصحفية والكراريس. وفي تلك الساعة التي راقبت فيها كيف يُزوّد أولئك الشبان الأبرياء بالأسلحة التي سوف تستخدم ضد شبان من أبناء وطنهم أبرياء مثلهم، كما يشاء محركوا الخيوط المستترون، أثرّ فيّ كما لم يؤثر من قبل علمي بما يخبئه الغيب لنا ولأوروبا. ولما أبحرت السفينة ثانية، هبطتُ بعد بضع ساعات إلى حجرتي الخاصة. آلمني جداً أن ألقي نظرة أخرى على البلد الجميل الذي وقع فريسة تخريب رهيب من غير أن يقترف هو أي ذنب. بدا لي أن أوروبا يحكم عليها جنونها بالموت، أوروبا، موطننا المقدس، مهد حضارتنا العارضة وهيكل آلهتها.

كان منظر الأرجنتين مبهجاً للغاية، فهناك كانت إسبانيا أيضاً، فثقافتها قد حَوفظ عليها، ورُعيت في أرض جديدة رحبة، لم تخصّب بالدماء، ولم تسمّم بالكراهية بعد. كان الغذاء وافراً، والثروة زائدة، والمكان شاسعاً للمستقبل. أفعمتني بالحيوية سعادة لا حد لها، وشيء أشبه بالثقة الجديدة. أما كانت الثقافات تنتقل من بلد إلى بلد منذ آلاف السنين؟ أما كانت البذور تصان، ثم تزهر وتثمر على الدوام حتى بعد أن تقطع الفأس الشجرة؟ إن ما أبدعه أي جيل قبل جيلنا لم يختفِ بالكلية. كان لا بد من

تعلم التفكير على صعيد أسمى في أدوار الزمن الكبرى. حدثت نفسي قائلاً: على المرء ألا يقصر تفكيره على أوروبا، بل أن يتجاوزها، ألا يدفن نفسه في ماضيها المحتضر، بل أن يشارك في ولادته الجديدة. ففي الدفء الذي شارك به في مؤتمرنا كل سكان بوينس آيرس، مدينة الملايين الجديدة، أدركت أن هذه التربة ليست أجنبية، وأن الإيمان بالوحدة الفكرية التي كرّسنا أفضل ماعندنا لها ما يزال حياً، وصالحاً، ومؤثراً، وذلك لأن السرعات الجديدة في عصرنا قد جعلت حتى المحيطات لا تشكل حاجزاً. إن مهمة جديدة قد حلّت محل القديمة: أن نبني أحلامنا على نطاق أوسع، وفهم أجرأ. ولئن شعرت بأنني افتقدت أوروبا بذلك الاستشراف للحرب القادمة، فقد عاودني الأمل والإيمان تحت مجموعة نجوم صليب الجنوب.

إن البرازيل التي أغدقت عليها الطبيعة هباتها، مع أجمل مدينة على الأرض، هذا البلد الشاسع الذي لم تقدر بعد السكك الحديدية، ولا الطرقات، و لا حتى الطائرات على تغطيته، قد ترك في نفسي أثراً لا يقل قوة ولا وعداً. كان موقف الناس في هذا البلد من الماضي أرفق من موقف أوروبا ذاتها. وبما أن الوحشية التي أتت بها الحرب العالمية الأولى لم تتغلل في تقاليد الأمة وروحها، فقد عاش الناس حياة أكثر مسالمة، وكان التواصل حتى بين أشد الأجناس تنوعاً أكثر تهذيباً وأقل تعادياً منه في أوروبا. ههنا لم تفصل بين الإنسان والإنسان نظريات الدم والعرق والأصل السخيفة، ههنا يدرك المرء بالحدس أن الحياة السعيدة ممكنة، ههنا يوجد متسع غير متناهٍ لأصغر ذرة تحاربت الأمم، وتشاجر قادة الدول من أجلها. ههنا لا تزال الأرض الجاهزة للمستقبل تنتظر الإنسان لكي يستغلها، ويملؤها بحضوره. ومساهمة أوروبا في الحضارة يمكن أن تتكيف من جديد هنا، فتتوسع وتتطور على نحو رائع. لقد أسعدتني رؤية الجمال المتنوع في هذه الطبيعة الجديدة المعطاء، فأتيح لي أن ألمح المستقبل لمحاً.

ولكن أوروبا والقلق على أوروبا لم يكن ممكناً التهرب منهما بالسفر، ولا حتى بالرحلات إلى أماكن نائية، وعوالم مختلفة، تحت مجموعات أخرى من النجوم. إن الطبيعة تبدو كأنها تنتقم انتقاماً غامضاً من الإنسان، حين تربك روحَه منجزاتُ العلم التي سخّر بها معظم قواها الخفية. فالعلم لم ينزل بنا لعنة أسوأ من الحيلولة دون هروبنا

من الحاضر ولو لحظة واحدة. كانت الأجيال السابقة تستطيع في وقت الكارثة أن ترتدّ إلى اعتزالها القديم، أما نحن قد أُرجئت لنا معرفةُ كل شر يقع على الأرض في لحظة حدوثه، والإحساس المشترك به. إن قدر أوروبا يلازمني مهما ابتعدت. فبعد أن حطّت بي الطائرة ذات ليلة في برنمبوكو الواقعة تحت مجموعة نجوم صليب الجنوب، وسرت في شوارعها المزدحمة بالزنوج، قرأت خبراً عن قصف برشلونة، وعن إعدام صديق إسباني كنت قد قضيت معه قبل أشهر بعض الساعات الممتعة. وكنت ذات مرة في حافلة مريحة بين هيوستون ومدينة أخرى في تكساس، إذ سمعت فجأة عياطاً بالألمانية، كان أحد المسافرين قد أدار مذياع القطار على إذاعة ألمانية، وبالتالي ترتب عليّ أن أستمع إلى إحدى خطب هتلر النارية بينما كان القطار يخترق سهوب تكساس. وهكذا لازمني القلق المعذب على أوروبا، وعلى النمسا داخل أوروبا، ليل نهار. إن هذا الانشغال بمصير النمسا خاصة قد يبدو وطنية ضيقة مع انتشار الأخطار الهائلة من الصين إلى إبرو و منزاناريس. ولكن كنت أعرف أن مصير أوروبا كلها مرتبط بهذا البلد الصغير الذي اتفق أن كان بلدي. وإذا التفت المرء إلى الماضي، وحاول أن يبين أخطاء الساسة بعد الحرب العالمية الأولى، فإنه سوف يكتشف أن أجسم تلك الأخطاء كان تشويه الساسة الأوروبيين والأمريكيين على السواء خطة ويلسون الواضحة والبسيطة بدلاً من تنفيذها. كانت فكرته هي منح الأمم الصغيرة حريتها واستقلالها، على أنه كان يعرف أن الحرية والاستقلال لايمكن أن يدوما إلا ضمن رابطة تجمع الدول كلها، صغيرها وكبيرها، في كيان ذي سلطة. وعدم إنشاء مثل هذه المنظمة العليا، أي عصبة أمم شاملة وحقيقية، وعدم تطبيق إلا ذلك البند من البرنامج، والذي دعا إلى استقلال الدول الصغيرة، قد أديا إلى توتر دائم بدلاً من السلام. فلا شيء أخطر من طموح الصغير إلى التشبه بالكبار. وأول ما فعلته الدول الصغيرة بعيْد إنشائها هي تنازعها قطعاً صغيرة من الأرض، و تآمرها على بعضها بعضاً ـ بولندا على تشيكيا، وهنغاريا على رومانيا، وبلغاريا على صربيا ـ وأضعف هؤلاء المتنافسين جميعاً كانت النمسا الصغيرة التي واجهت ألمانيا الكاسحة. هذا البلد المفكك المشوّه الذي بسط حكامه سلطتهم على أوروبا كلها ذات يوم ـ يجب أن أكرر ـ قد كان حجراً في الجدار. وأدركت ما لم يستطع الناس الذين عشت بينهم في العاصمة الإنكليزية إدراكه، وهو أن

تشيكوسلوفاكيا سوف تستسلم مع النمسا، وبعد ذلك تقع دول البلقان فريسة سهلة لهتلر، وبالاستيلاء على فيينا ذات التركيب المتميز، سوف تتمكن الاشتراكية القومية من الإمساك بالرافعة، وخلخلة أوروبا، ثم رفعها عن مفاصلها. ونحن النمساويين نعرف وحدنا أن اندفاع هتلر إلى فيينا يحركه شوق المُضام، فهذه المدينة شهدت أشدّ أيام بؤسه. وقد أراد أن يدخلها منتصراً: لذلك فكلما ذهبت إلى النمسا في زيارة سريعة، ثم رجعت أدراجي، تنفست الصعداء وقلت: «لم يحدث شيء حتى الآن»، وألتفت إلى الوراء كأنني ألتفت آخر مرة. كنت أرى الكارثة قادمة لا محالة. وفي مئات الصباحات خلال هذه الأعوام، حين كان كل واحد يتناول الصحف واثقاً، كان يستبد بي خوف من عنوان «نهاية النمسا». آه كم خدعت نفسي عندما عللتها بالتخلص من قدري! فمن بعيد كنت أكابد عذابها الشديد المديد أكثر من أصدقائي الذين لم يغادروها، لأنهم خدعوا أنفسهم بالمظاهرات الوطنية، وطمأن بعضهم بعضاً «أن فرنسا وإنكلترا لا يمكن أن تخذلانا، وقبل أي شيء لن يؤيد موسوليني ذلك.» كانوا مؤمنين بعصبة الأمم، ومعاهدات السلام، كما يؤمن المرضى بالأدوية الأنيقة المظهر. لقد واصلوا حياتهم خليّين سعداء، في حين كنت، أنا الأوضح رؤية، أُضني قلبي بالقلق.

إن آخر رحلة إلى النمسا لم يكن لها من سبب إلا تعاظم الخوف الباطن من الكارثة الوشيكة. ذهبت إلى فيينا في خريف ١٩٣٧ لأزور أمي العجوز، وكان قد مر زمن لم يحدث فيه ما اقتضى استدعائي إلى هناك. وبعد بضعة أسابيع، في ظهر أحد الأيام الأخيرة من شهر تشرين الثاني، اشتريت صحيفة Evening Standard وأنا ماضٍ إلى منزلي عبر شارع ريجنت. في ذلك اليوم، طار اللورد هاليفاكس إلى برلين للتفاوض مع هتلر شخصياً أول مرة. كانت النقاط التي يسعى للتفاهم مع هتلر حولها مكتوبة بالخط العريض على الصفحة الأولى - ما يزال النص ماثلاً أمام عينيّ في الجهة اليمنى من الصحيفة. كانت هناك فقرة عن النمسا. وقرأت بين الأسطر استسلام النمسا، أو أجزت لنفسي أن أستخلص ذلك. أكان الحوار مع هتلر يمكن أن يعني ذلك؟ كنا نحن النمساويين نعرف حق معرفة أن هتلر لن يتنازل عن ذلك أبداً. ومما له دلالته، أن قائمة موضوعات الحوار لم تظهر إلا في طبعة منتصف النهار من الصحيفة، ثم أنها لم تظهر بعد ذلك في طبعة لاحقة. (أشيع في وقت لاحق أن هذه المعلومة قد سرّبتها المفوضية

الإيطالية إلى الصحيفة، وذلك لأن إيطاليا لم تكن تخشى شيئاً سنة ١٩٣٧ أكثر من أن تعقد ألمانيا وإنكلترا اتفاقاً خلف ظهرها.) لا أستطيع أن أحكم على صحة ما جاء في المقالة التي لم ينتبه لها الجمهور العام، ولكنني أعرف كم أرعبتني فكرة التفاوض بين هتلر وأنكلترا حول النمسا، ولا أخجل من القول: إن الصحيفة قد ارتجفت بين يديّ. وسواء أكان خطأً أم صواباً، فإن القصة قد أثارتني كما لم تثرني قصة منذ سنين، لأنني كنت أعلم أنه لو صحّ جزء منها. لكان بداية النهاية، لسقط الحجر ومعه الجدار. قفلت راجعاً في الحال، واتجهت إلى مكتب الخطوط الجوية الإمبراطورية لكي أحجز مقعداً في رحلة الصباح التالي. أردت أن أرى أمي العجوز، وأسرتي، وبلدي مرة أخرى. ومن حسن الحظ أنني حصلت على تذكرة، وسرعان ما ألقيت بضعة أشياء في حقيبة، وطرت إلى فيينا.

دُهش أصدقائي من عودتي السريعة غير المتوقعة، ولكن كم سخروا مني عندما أشرت إلى ما يشغلني. قالوا هازئين: إنني ما أزال «إرميا» القديم ذاته. ألم أعرف بعد أن سكان النمسا كلهم يقفون الآن مئة بالمئة خلف شوشنيك؟ أثنوا بالتفصيل على المظاهرات الرائعة التي قامت بها جبهة، Waterlandische التي كنت أعرف منذ أيام سالزبورغ الخوالي أن معظم المشاركين فيها كانوا يلبسون شارة الوحدة المفروضة على ياقات سترهم لكي لا يعرّضوا وظائفهم للخطر فقط، وفي الوقت ذاته كانوا قد سجلوا أسماءهم منذ وقت طويل مع الاشتراكيين القوميين في ميونخ. أنا لم أتوفر على دراسة التاريخ والكتابة عنه لكي أعرف أن الجماهير الغفيرة تنجذب دائماً وسريعاً إلى اتجاه السلطة القائمة. كنت أعرف أن الأصوات ذاتها التي تصيح الآن: «سلاماً، يا شوشنيك» ستجأر غداً: «سلاماً، يا هتلر». ولكن كل من تحدثت إليه في فيينا أظهر اطمئناناً صادقاً. كانوا يتداعون إلى حفلات حافلة (قلما فكروا في أنهم سيرتدون ثياب السجن في معسكرات الاعتقال قريباً)، وكانوا مبذرين في حفلات عيد الميلاد التي يقيمونها في منازلهم الجميلة (قلما فكروا في أنها سوف تُصادر وتُنهب في غضون بضعة أشهر). وهذا الاطمئنان المرح الدائم الذي اتصفت به فيينا القديمة، وأحببته قديماً حباً جماً، ويعاودني الحلم به دائماً في واقع الأمر، هذا الاطمئنان المرح الذي التقطه باختصار ذات مرة شاعر البلاط أنزنجروبر في إحدى قصائده - قد آلمني

أول مرة. وربما يبدو أن أصدقائي في فيينا قد كانوا أحكم مني، لأنهم لا يعانون الشيء إلا عندما يقع بالفعل، وأما أنا فقد عانيت الكارثة مقدَّماً في خيالي، ثم عانيتها عندما وقعت. وعلى كل حال، فأنا لم أعد أفهمهم، ولم أستطيع أن أجعل نفسي مفهوماً عندهم. توقفت عن تحذير الناس في اليوم الثالث. لماذا أزعج الناس الذين لا يحبون أن ينزعجوا ؟

وليست فكرة تالية أوْردها للزخرفة، بل أكشف حقيقة رصينة حين أقول: إنني في ذينك اليومين الآخرين في فيينا قد نظرت إلى كل الشوارع المألوفة، وكل كنيسة، وكل حديقة، وكل ركن مستتر في مدينتي الأم. وأنا أردد في نفسي كلمة «هيهات!» اليائسة. عانقت أمي مسراً فكرة «المرة الأخيرة». وما وصلت إلى موضع في المدينة، وفي البلاد إلا رددت في نفسي «لن أعود ثانية». اجتزت سالزبورغ حيث يقوم المنزل الذي عملت فيه عشرين عاماً من غير حتى أن أنزل إلى المحطة. كنت أستطيع أن أرى منزلي على التلة من نافذة القطار مع كل ذكريات السنين المتلاشية، ولكنني لم أنظر إليه. ما جدوى ذلك؟ لن أشغله مرة أخرى أبداً. ولما اجتاز القطار حدود النمسا، عرفت، كما عرف لوط في الكتاب المقدس، أن كل ماخلفته ورائي كان غباراً ورماداً، ماضياً تحول إلى عمود من الملح.

ظننت أنني قد توقعت كل الرعب القادم عندما يتحقق حلم هتلر باحتلال فيينا، المدينة التي طردته فقيراً مخفقاً في شبابه. ولكن كم كانت مخيلتي والمخيلة الإنسانية كلها، وجلة وضيقة الأفق وداعية إلى الرثاء في ضوء الوحشية التي أطلقت نفسها في ١٣آذار سنة ١٩٣٨، ذلك اليوم الذي وقعت فيه النمسا، ومعها أوروبا، فريسة العنف المطلق! سقط القناع. بعد أن أبدت الدول الأخرى خوفها بكل وضوح، انتفت الحاجة إلى تفحص الموانع الأخلاقية، أو إلى استخدام ذرائع منافقة من أجل تصفية «الماركسيين» سياسياً! من اهتم بإنكلترا وفرنسا و بالعالم أجمع؟ لم يعد الأمر مجرد نهب و سلب، بل إن كل رغبة خاصة في الانتقام قد أرخي لها العنان. أُرغم أساتذة الجامعات على تنظيف الشوارع بأيديهم العارية، وجُرّ متديّنون يهود بيض اللحى إلى المعبد وسط صيحات الاستهزاء، وأجبروا على ممارسة تمارين الركبة، وعلا الهتاف معاً «سلاماً، يا

هتلر». وفي الشوارع أوقع الناس الأبرياء في الأشراك مثل الأرانب، وسِيقوا كالقطيع لتنظيف مراحيض ثكنات وحدات العاصفة. إن كل النزوات القذرة الباعثة على الغثيان، والتي خُطّط لها في كثير من ليالي العربدة قد وجدت تعبيرها الجامح العنيف في وضح النهار. وربما حدث في حروب العصر الوسيط الذي كانت تُنتهب فيها المدن منذ مئات السنين اقتحامٌ للمنازل، وانتزاع للأقراط من النسوة المرتعدات، ولكن الجديد في الأمر كان الاستمتاع الصفيق بالتنكيل العام، والتعذيب الروحي، والتفنن بالإذلال. وهذا لم يدوّنه واحد فقط، بل المئات ممن عانوه. وفي يوم أهدأ ـ ليس مثل يومنا المنهك أخلاقياً ـ سوف يرتجف من يقرأ ما ارتكبه رجل واحد أفسدت عقله الكراهية في مدينة الثقافة في القرن العشرين. إن أكثر انتصارات هتلر العسكرية والسياسية شراً قد كان نجاحه في جعل الناس متبلّدي الإحساس بالقانون والنظام من خلال تجاوزاته المتدرجة لهما. وقبل هذا «النظام الجديد» كان قتلُ إنسان من دون محاكمة، ومن دون سبب واضح، من شأنه أن يهزّ العالم، ومجرد التفكير في التعذيب أمراً غير وارد في القرن العشرين، والتجريد من الملكية معروفاً بأسماء قديمة من مثل السرقة والسطو. وأما الآن، وبعد ليالٍ متوترة متوالية، وتعذيب يومّي مهلك في سجون قوات العاصفة، ووراء القضبان الشائكة، ما الذي كانت تعنيه المظالم المفردة، وعناء الحياة؟ كان العالم سنة ١٩٣٨ قد تعوّد اللاإنسانية، بعد النمسا، وتعود الفوضى والوحشية كما لم يتعودها منذ قرون. كان من شأن الأحداث في فيينا التعيسة وحدها أن تؤدي في وقت سابق إلى تحريم دولي، أما في سنة ١٩٣٨، فإن ضمير العالم قد لزم الصمت، أو غمغم غمغمة مكفهرة فقط قبل أن ينسى ويغفر.

إن تلك الأيام التي شهدت صيحات استغاثة من الوطن، وكان المرء يعرف فيها أن أصدقاء حميمين قد خُطفوا و أهينوا، ويقلق قلق العاجز على كل حبيب، قد كانت أفظع أيام حياتي. لقد أفسدت تلك الأوقات قلوبنا إلى حد لا أرى معه غضاضة في القول: إنني لم أُصدم ولم أتفجع عندما بلغني خبر وفاة أمي في فيينا، بل على العكس، شعرت بما يشبه السكينة لأنها أصبحت في مأمن من المعاناة والخطر. كانت تشغل الغرف في منزلنا القديم، وهي في الرابعة والثمانين، وطرشاء تماماً، وبالتالي لم يتيسر

إخلاؤها في البداية، وأملنا أن نخرجها من البلد بعد مدة على نحو ما. إن أحد قوانين فيينا المحلية الأولى قد ضايقها كثيراً. ففي سنها المتقدمة كانت مضطربة السير، ومعتادة في تمشّيها اليومي المجهد أن ترتاح على مقعد في الشارع أو في الحديقة كل بضع دقائق. كان هتلر غائباً عن المدينة عندما صدر الأمر الذي يمنع اليهود من الجلوس على المقاعد العامة - أحد تلك الأوامر التي كان واضحاً أنها لا ترمي إلا إلى التعذيب الساديّ الخبيث. ولئن كان مسوّغاً نهب اليهود، لأن ما غُنم من المصانع، وأثاث المنازل، والفيلات، والوظائف التي أُخليت عَنوة، استطاعوا به أن يكسوا أعشاش أنصارهم بالريش، ويكافئوا أتباعهم - إن معرض غورينغ مدين رغم كل شيء بما يتصف به من فخامة للتدابير المشددة هذه - فما الذي سوّغ حرمان عجوز أو شيخ التقاط الأنفاس بضع دقائق على مقعد حديقة؟ لقد بقي هذا الموقف محتَفظاً به للقرن العشرين، وللرجل الذي عبدته الملايين كأعظم رجل في عصرنا.

من حسن الحظ أن أمي قد جنّبت معاناة هذه القسوة والهوان إلى الأبد. لقد ماتت بعد بضعة أشهر على احتلال فيينا، ولا يسعني إلا أن أكتب عن حادثة لها علاقة بموتها، إذ يبدو لي مهماً أن أسجل مثل هذه التفاصيل للزمن الذي ستبدو فيه هذه الأشياء ضرباً من المستحيل مرة أخرى.

ذات صباح، فقدت المرأة العجوز وعيها فجأة. والطبيب الذي استُدعي أعلن أنها لن تعيش حتى الصباح، وطلب من ممرضة، وكانت امرأة في الأربعين، أن تلازمها في احتضارها. لم أكن أنا و لا أخي حاضرين. ولم نستطيع أن نعود، لأن العودة في مثل هذه الحالة كان ممثلو الثقافة الألمانية يعتبرونها جريمة. أحد أقربائنا تكلّف قضاء الليل في الشقة بحيث يكون واحد من العائلة على الأقل حاضراً موتها. كان هذا القريب في الستين من العمر آنذاك، ومعتل الصحة، وقد مات في الحقيقة بعد نحو سنة. دخلت عليه الممرضة وهو يكشف الغطاء عن سريره في الغرفة، وأعربت عن أسفها لأن القوانين الاشتراكية القومية الجديدة تمنعها من الإقامة طوال الليل مع المرأة المحتضرة. ولنقل: إن مفخرة هذه المرأة هو أنها شعرت بالخجل من ذلك. فبما أن قريبي كان يهودياً، وهي امرأة دون الخمسين، لم يسمح لها أن تقضي الليل تحت سقف واحد معه، حتى من أجل ملازمة امرأة محتضرة، لأن أول فكرة تخطر لليهودي، بحسب ذهنية

جوليوس سترايكر، هي تدنيس عرقها. وبالطبع كان القانون مربكاً للغاية، غير أنها كانت مرغمة على الانصياع له. لذلك كان على قريبي أن يغادر المنزل مساء بحيث تتمكن الممرضة من المكوث مع أمي المحتضرة. ولسوف يكون مفهوماً، إذاً، لماذا اعتبرت أن أمي تكاد تكون محظوظة ألا تعيش بين أولئك الناس.

إن سقوط النمسا قد جلب معه تغيراً في حياتي الشخصية اعتقدت في أول الأمر أنه إجراء شكلي غير مهم: أصبح جواز سفري فارغاً، وعليّ أن أطلب ورقة بيضاء للحالة الطارئة من السلطات الإنكليزية، جواز سفر للذين لا دولة لهم. وكثيراً ماتخيلت في أحلام اليقظة كم سيكون رائعاً ومتفقاً حقاً مع ما أضمر من أفكار ألا يكون لي دولة، وألا أرتبط ببلد واحد، فأكون بالتالي. مرتبطاً بالكل بلا تمييز. ولكن ترتّب عليّ مرة أخرى أن أتعرف مواطن ضعف الخيال البشري، وأن المرء لا يستطيع أن يتفهم في الحقيقة الأحاسيس الهامة إلا بعد أن يعانيها هو نفسه. فقبل عشرة أعوام، التقيت ديمتري ميرجكوفسكي، وكان يتأسف على حظر كتبه في روسيا، وأنا الذي لم أخض التجربة، حاولت بلا تفكير أن أواسيه بالقول: إن ذلك قليل الأهمية عندما يقاس بالتوزيع العالمي. ولكن، حين اختفت كتبي من اللغة الألمانية، استوعبت على نحو أوضح أسفه على عدم قدرته على تقديم إبداعه إلا من خلال الترجمة، من خلال واسطة مخففّة ومعدّلة. ولم أفهم أيضاً ماذا كان يعني أن أستبدل بجواز سفري وثيقة غريبة إلا في اللحظة التي سُمح لي بالدخول على الموظفين الإنكليز بعد انتظار طويل على مقعد مقدمي العرائض في غرفة الانتظار. إن جواز السفر النمساوي كان يرمز إلى حقوقي. كان كل قنصل، أو ضابط، أو ضابط شرطة نمساوي ملزم أن يصدر واحداً لي عند الطلب كمواطن حسن السمعة. ولكنني اضطررت إلى التماس الوثيقة الإنكليزية. كان ذلك فضلاً تعين عليّ أن أطلبه، والأهم من ذلك هو أن هذا الفضل كان يمكن أن يُسترد في أي لحظة. و ألفيت نفسي بين ليلة وضحاها رجلاً منخفض المنزلة. كنت البارحة فقط ما أزال زائراً من الخارج، ورجلاً محترماً، إذا صحت العبارة،ينفق دخله الأممي، ويدفع الضرائب، والآن أصبحت مهاجراً،«لاجئاً». لقد انحدرت إلى فئة أقل من غيرها، إن لم تكن شائنة. إلى جانب ذلك، كان ينبغي منذ ذلك الوقت فصاعداً أن يُقدّم طلب خاص

للحصول على أي تأشيرة أجنبية، لأن كل البلدان كانت تشتبه بتلك «الفئة» من الناس الذين غدوت فجأة واحداً منهم، أولئك الخارجون عن القانون، والذين لا بلد لهم، ولا في وسع أحدهم أن يحزم أمتعته عند الضيق، و يرحل إلى بلده كما يَفعل الآخرون إن أصبحوا غير مرغوب فيهم، أو أطالوا الإقامة. ووجدت نفسي أفكر على الدوام فيما قاله لي أحد المنفيين الروس منذ عام خلا: «كان الإنسان في الماضي له جسد وروح فقط، أما الآن فهو يحتاج إلى جواز سفر أيضاً، وإلا لن يعامل معاملة الكائن البشري.»

و بالفعل لا شيء يجعلنا أكثر إحساساً بالارتداد الهائل الذي هوى فيه العالم بعد الحرب العالمية الأولى أكثر من تقييد حركة الإنسان، وتناقص حقوقه المدنية. كانت الأرض قبل عام ١٩١٤ تخصّ الجميع، فكان الناس يذهبون حيث شاؤوا، ويقيمون ما طاب لهم المقام. لم يكن هناك إذْن ولا تأشيرة، ويسرّني دائماً أن أروي للشباب المندهشين أنني سافرت قبل عام ١٩١٤ من أوروبا إلى الهند، ثم إلى أمريكا بلا جواز سفر، ومن دون أن أرى أحداً. كان المرء يركب وينزل من دون ارتياب ولا مساءلة، ولا يضطر إلى تعبئة ورقة واحدة من الأوراق العديدة المطلوبة في هذا الأوقات. والحدود، بما عليها من موظفي جمارك وشرطة وميليشيا، والتي جعلها الارتياب المَرَضيّ لكل واحد بالآخر حواجز شائكة، لم تكن إلا خطوطاً رمزية يعبرها المرء باهتمام قليل كما يعبر ميريدان غرينتش. لقد بُعث الوعي القومي لكي يهزّ العالم بعد الحرب فقط، وأول ظاهرة محسوسة خلقها هذا الوباء الفكري المعاصر كان رهاب الأجانب، الكراهية المَرَضية للأجنبي، أو الخوف منه على الأقل. بات العالم يقف موقف المتوقّي من الغرباء، وفي كل مكان يمنحون عفواً قصيراً. والإذلال الذي كان يبتكر للمجرمين فقط، أصبح يُفرض الآن على المسافرين، قبل الرحلة وبعدها. لا بد من توفر صور من الجهة اليمنى ومن الجهة اليسرى، ومن جانبٍ، ووجاهاً، ولا بد من قص الشعر بحيث تظهر الأذنان ، وأخذ بصمات الأصابع، الإبهام أولاً، ثم الأصابع العشر كلها في ما بعد، إضافة إلى إبراز شهادة صحية، وشهادة تلقيح، والحصول على وثيقة حسن سلوك من الشرطة، ورسائل توصية، ودعوات إلى زيارة البلد، والإبلاغ عن عناوين الأقرباء من أجل الضمانات المالية والأخلاقية، وملء ثلاث أو أربع نسخ من الاستبيانات

والاستمارات، ولو فُقدت واحدة فقط من هذه الأوراق لأصبح المسافر في عداد المفقودين.

يحسب المرء أنها تفاصيل تافهة. وقد يبدو أول وهلة أن ذكري لها تافه أيضاً. ولكن جيلنا قد بدد وقتاً ثميناً لا يستعاد على هذه التفاهات. وإذا أحصيت الاستمارات الكثيرة التي ملأتها خلال هذه الأعوام، البيانات عند كل رحلة، بيانات الضريبة، وبيانات التحويل الخارجي، وجوازات عبور الحدود، وإجازات الدخول والخروج، وتسجيلات الذهاب والإياب، والساعات الطويلة التي قضيتها في غرف انتظار القناصل والموظفين، والمفتشين الكثار، المعوانين وغير المعوانين، الضجرين والمجهدين الذي جلست أمامهم، والاستجوابات والاستنطاقات الكثيرة التي خضعت لها على الحدود، إذا عددت كل ذلك فإنني أشعر عندها شعوراً حاداً بما هدرنا من كرامة إنسانية في هذا القرن الذي حلمنا به في شبابنا الساذج قرناً للحرية وفيدرالية العالم. إن الخسارة في الإبداع وفي الفكر جراء هذه التدابير التي تسحق الروح جسيمة جداً. أما قضى كثيرون منا وقتاً في دراسة القواعد والأنظمة الرسمية أكثر من الوقت الذي قضوه في أعمال الفكر! لم تعد الرحلة الأولى في بلد أجنبي إلى متحف أو إلى مشهد معروف، بل إلى قنصلية، وإلى دائرة شرطة للحصول على«إذْن».

وكلما التقينا، نحن الذين تحدثنا ذات يوم عن شعر بودلير، وناقشنا بكل حماسة قضايا فكرية، وجدنا أنفسنا نتحدث عن الإذن، والتصريح المشفوع باليمين، والتأشيرة التي ينبغي طلبها، هجرة أم سياحة، وكاتب الاختزال في القنصلية الذي كان يستطيع أن يختصر لك زمن الانتظار، وبالتالي كان التعرف إليه أهم من صداقة توسكانيني ورولان. لقد حُمل الناس على الشعور بأنهم أشياء لا ذوات، وأن كل شيء هو مجرد فضل من أفضال الحكومة وليس حقاً لهم. لقد صُنّعوا وسُجّلوا، وأُحصوا، ودُمغوا. وبما أنني كائن متحجر من عصر الحرية، ومواطن جمهورية أحلامي العالمية، فأنا حتى الآن، أعتبر كل ختم على جواز سفري وصمة عار، وكل واحد من تلك التحقيقات والتفتيشات إهانة. إنها أمور تافهة، و أنا أدرك تماماً أنها دائماً مجرد تفاهات، تفاهات في زمن كان هبوط القيم الإنسانية فيه أسرع من هبوط العملات. ولكن تدوين هذه الأعراض سيمكّن الأجيال التالية من تشخيص الحالة الذهنية، والاضطرابات التي استحوذت على عالمنا بين الحربين العالميتين تشخيصاً صحيحاً.

لعلني دُلّلت كثيراً، وربما فقدت حساسيتي توترها على التدريج أيضاً خلال النكبات القاسية التي حلّت بي في الأعوام الماضية. فالهجرة في ذاتها، مهما كان سببها، تُخلّ بالتوازن لا محالة. وعلى الأرض الغريبة يأخذ احترام الذات بالتضاؤل، وكذلك الثقة بالنفس، ولكن ذلك لا يُفهم ما لم يُجرّب. وأنا لا أندم على الاعتراف بأنني لم أعد أشعر بالانتماء إلى نفسي تماماً منذ اضطررت إلى الاعتماد على بطاقات الهوية أو جوزات السفر التي كانت غريبة بالفعل. لقد دُمّر إلى الأبد تطابقي الطبيعي مع أصل ذاتي وجوهرها. واكتسبت على التدريج نوعاً من التحفظ الذي لا ينسجم مع نزعتي الحقيقية ـ أنا الذي ظننت نفسي مواطن العالم ذات يوم ـ واستحوذ عليّ شعور بأن عليّ أن أعبر عن امتنان خاص لكل نسمة أحرم منها شعباً أجنبياً. وبالطبع أنا أدرك، عند التفكير الرصين، عبثية هذه النزوات، ولكن ما نفع العقل قبالة العاطفة؟ فعلى الرغم من توطيني قلبي زهاء نصف قرن على أن ينبض كقلب مواطن للعالم، فما أجداني ذلك شيئاً. وفي اليوم الذي خسرت فيه جواز سفري وأنا في الثامنة والخمسين اكتشفت أن خسارة الإنسان موطنه تعني أكثر من الافتراق عن مساحة محددة من الأرض.

لم أكن وحيداً في استشعار الخطر. فالقلق بدأ ينتشر شيئاً فشيئاً في كل أنحاء أوروبا. بقي الجو السياسي غامضاً منذ أن غزا هتلر النمسا، والذين مهّدوا له الطريق سراً في إنكلترا أملاً في شراء السلام لبلادهم، أخذوا يُعملون الخاطر في الأمر. ومنذ سنة ١٩٣٨ فصاعداً لم يجرِ حديث في لندن وباريس وروما وبروكسل ـ مهما كان موضوعه بعيداً ـ إلا انتهى لا محالة بالسؤال: كيف يمكن تحاشي الحرب، أو تأجيلها على الأقل؟ وعندما ألتفت إلى تلك الأشهر من الخوف المتواصل والمتصاعد في أوروبا لا أتذكر إلا يومين أو ثلاثة شعر فيهما المرء آخر مرة بأن الغيوم سوف تنقشع، وأن التنفس في جو السلام والحرية سيغدو ممكناً مرة أخرى. وخلافاً للمعقول، فإن تلك الأيام الثلاثة هي التي تعتبر الأشأم الآن في التاريخ الحديث. إنها الأيام التي التقى فيها شامبرلين مع هتلر في ميونخ.

أعرف أن الناس يمقتون كل ما يذكرهم بذلك اللقاء الذي استند فيه شامبرلين ودالاديه إلى الجدار، وخضعا لكل شروط هتلر وموسوليني. غير أن رغبتي في خدمة

الحقيقة الموضوعية يستدعي الاعتراف بأن كل الذين عاشوا تلك الأيام الثلاثة في إنكلترا شعروا بأنها أيام رائعة. كانت الأوضاع متردية في تلك الأيام من أواخر أيلول سنة ١٩٣٨ كان شامبرلين قد عاد تواً من رحلته الثانية بالطائرة إلى هتلر، ولم تلبث الحقائق أن عرفت كلها بعد بضعة أيام. لقد ذهب إلى جودسبرغ لكي يمنح هتلر بلا تحفظ ما كان قد طلبه هتلر سابقاً في بيرشتسجادن. ومع ذلك، فما كان يعتبره هتلر كافياً منذ أسابيع قليلة لم يعد يرضي هستيريا القوة عنده. كانت سياسة «حاول وكرّر المحاولة» قد أخفقت إخفاقاً مخزياً، وانتهى عهد الثقة في إنكلترا بين عشية وضحاها. كان على إنكلترا وفرنسا وتشيكوسلوفاكيا ـ وكل أوروبا ـ أن تختار أحد الأمرين، إما الخضوع في وجه إرادة القوة المتعجرفة، وإما تحدّيها بالحرب. وبدا أن إنكلترا مصممة على المخاطرة. لم يعد هناك إخفاء للأسلحة، بل عرض واضح لها. وفجأة شوهد عمال يحفرون ملاجئ قبالة الأماكن المهددة بالقصف في لندن مثل هايد بارك، وريجنت بارك، ولاسيما قبالة السفارة الألمانية. وتمّت تعبئة الأسطول، وتنقّلَ ضباط الأركان بين لندن وباريس من أجل استكمال ترتيباتهما المشتركة. واقتحم الأجانب السفن الأمريكية طلباً للنجاة. ومنذ ١٩١٤، لم يحدث أن تيقظت إنكلترا هذا التيقظ الشامل. أصبح كل واحد أكثر جدية وتفكيراً. ولم يكن في وسع من ينظر إلى المباني والشوارع المزدحمة إلا أن يفكر في القنابل التي يمكن أن تسقط هناك في اليوم التالي. وفي داخل المباني وقف الناس أو جلسوا حول أجهزة الراديو يتسقّطون الأخبار. و مع أن التوتر الشديد الذي استحوذ على البلاد كلها لم يكن محسوساً، إلا أنه كان يمكن تبينه في كل شخص وفي كل ثانية.

ثم عُقدت جلسة مجلس العموم التاريخية التي أعلن فيها شامبرلين مسعى آخر للاتفاق مع هتلر، اقتراحاً آخر، هو الثالث، للالتقاء به في أي مكان يختاره في ألمانيا للحفاظ على السلام الذي تهدده أخطار جديّة. ولم يكن قد وصل أي رد على الاقتراح. وفي أثناء الجلسة ـ كانت بالغة الإثارة في تصور الناس ـ وصلت برقية من هتلر وموسوليني يعلنان فيها موافقتهما على عقد مؤتمر مشترك في ميونخ، وربما كانت إشارة إلى حدث فريد في تاريخ إنكلترا ـ فقد المجلس تماسكه. فهبّ أعضاؤه واقفين. وصفقوا وأطلقوا الصيحات، واحتدمت الحماسة في الأروقة. إن هذه البهجة الغامرة لم

يشهدها المجلس الموقّر منذ سنين عديدة. ومن وجهة النظر الإنسانية، كان المشهد رائعاً، إذ أن هذا الانفجار الصادق للفرح باحتمال المحافظة على السلام تسامى على خبرة الإنكليز في ممارسة التكتم والتحفظ. ومن الناحية السياسية، فإن هذا الغليان قد مثّل مع ذلك خطأً جسيماً، وذلك لأن البلاد كلها قد كشفت، بابتهاج برلمانها الشديد، مقدار كرهها للحرب، ومقدار استعدادها لأي تضحية، ولأي تنازل عن مصالحها وحتى مكانتها من أجل السلام. وهكذا اتضح منذ البداية أن شامبرلين لم يذهب إلى ميونخ للقتال من أجل السلام بل من أجل التماسه. ولكن أحداً لم يستطيع أن يقدر حجم الاستسلام الوشيك. لقد اعتقد الجميع (وأنا أحدهم) أن شامبرلين قد ذهب إلى ميونخ للتفاوض لا للاستسلام. وأعقب ذلك يومان أو ثلاثة أيام من التوقع المحموم بدا العالم خلالها كأنه محتبس الأنفاس. تواصل الحفر في الحدائق العامة، والعمل في مصانع الذخيرة، ونصبت المدافع المضادة للطائرات، ووُزّعت كمامات الغاز، وفُكرّ في خطط لإخلاء الأطفال من لندن، وجرت استعدادات غامضة لم يفهمها أحد، ولكن الجميع كانوا يعرفون الغاية منها. كان انتظار الصحيفة، والاستماع إلى الإذاعة يشغل أوقات الصباح والظهر والمساء والليل. لقد أعيدت تلك اللحظات من تموز سنة ١٩١٤ بانتظارها الرهيب المنهك إحدى كلمتين: نعم أو لا.

ثم أن السحب المتلبدة تفرقت فجأة كأن ريحاً شديدة هبّت عليها، فاطمأنت القلوب، وتحررت الأرواح. أُعلن أن هتلر وشامبرلين ودالاديه وموسوليني قد توصلوا إلى تفاهم تام، إضافة إلى أن شامبرلين قد عقد اتفاقاً يضمن التسوية السلمية لكل النزاعات الممكنة في المستقبل بين إنكلترا وألمانيا. وبدا الأمر كأنه انتصار لإرادة السلام العنيدة عند رجل دولة كان من ناحية أخرى فظاً وغير مهمّ. ونقلت الإذاعة «رسالة السلام في عصرنا» مؤكدة لجيلنا المنهك فرصة أخرى للعيش الراضي، والتحرر من القلق، والمساهمة في بناء عالم جديد وأفضل، وأن أي إنكار تالٍ للانتشاء بالصيغة السحرية هو باطل. من كان يستطيع أن يتصور استعداداً عاماً مألوفاً للعودة الظافرة؟ لو عرفت لندن موعد مجيء شامبرلين الدقيق لتوجه لاستقباله مئات الآلاف إلى مطار كرويدون، وهتفوا للرجل الذي أنقذ، بحسب الاعتقاد العام، سلام أوروبا، وشرف إنكلترا. ونشرت الصحف صورة شامبرلين الذي كان وجهه يشبه مقدّم رأس طائر

مستشار. بدا مزهواً ومبتسماً عند باب الطائرة، وهو يلوّح بالوثيقة التاريخية التي أعلنت «السلام في عصرنا»، والتي عاد بها إلى شعبه كأنفس هدية. وعُرض المشهد في السينما مساء، ونهض المشاهدون عن مقاعدهم، وابتهجوا واصطخبوا ـ تعانقوا جميعاً في فورة الأخوّة التي كان استحواذها على العالم وشيكاً. لقد كان ذلك اليوم في نظر الذين كانوا في لندن، وفي إنكلترا في واقع الأمر، يوماً منقطع النظير، ومحركاً للروح.

في مثل هذا الأيام التاريخية، أحبّ أن أتجول في الشوارع، وأتحسس الجو من كثب، وأتنشق هواء الوقت بكل معنى الكلمة. توقف حفر الملاجئ، وتحلق الناس حولها يتفاكهون، لأن وثيقة «السلام في عصرنا» قد جعلت ملاجئ الغارات الجوية غير ذات قيمة. سمعت شابين من أحياء لندن الفقيرة يتمازحان حول الأمل في تحويل الملاجئ إلى محطات استراحة تحت الأرض، وهي محطات لم يكن يوجد منها إلا عدد قليل في لندن. ضحك الجميع معهم ضحكاً من القلب، وبدوا كلهم منتعشين، مفعمين بالحيوية مثل النباتات بعد وابل من المطر. وحين ساروا كانت قاماتهم أكثر انتصاباً منها في اليوم السابق، وأقل تثاقلاً، وكانت البهجة تأتلق في عيونهم الإنكليزية الفاترة عادةً. وبما أن خطر القنابل قد زال، فقد بدت المباني مشرقة، و الباصات أنيقة، والشمس دافئة، أكثر من ذي قبل. إن هذه الكلمة المسكرة الوحيدة قد نبّهت حياة آلاف الناس وقوّتها. وكنت أنا نفسي أشعر باكتساب طاقة جديدة. وجدت نفسي أسير سيراً أسرع وأسهل من غير أن أتعب. كانت موجة الثقة الجديدة تدفعني بقوة وفرح جديدين. وعند أحد منعطفات البيكاديلي بادرني أحدهم بالكلام. كان ذلك موظفاً متقاعداً، عديم الانفعال، ومعرفتي به سطحية، وفي الظروف العادية كنا نتبادل التحية عادة بكل تهذيب، ولم يحدث مرة أن كالمني. وفي هذه المرة دنا مني وعيناه متلألئتان، ثم قال مبتسماً: «ما رأيك في شامبرلين؟ لم يصدقه أحد، ومع ذلك فعل الشيء الصحيح. ما كان ليستسلم، فأنقذ الوضع.»

هكذا شعروا جميعاً، وأنا كذلك، في ذلك اليوم. وحتى اليوم التالي كان يوماً سعيداً. ابتهجت الصحف كلها بلا استثناء، وارتفعت أسعار الأسهم في البورصة ارتفاعاً شديداً، وترددت في ألمانيا أصداء ودية أول مرة منذ سنين، وفي فرنسا قُدّم

اقتراح لبناء نصب لشامبرلين. ولكن من المؤسف أن ذلك لم يكن إلا توهج اللهب قبل أن ينطفئ إلى الأبد. فما مرّ إلا بضعة أيام حتى أخذت التفاصيل الشيطانية تتقطّر: الخضوع التام لشروط هتلر، الخيانة المخزية لتشيكوسلوفاكيا التي تكفلّوا لها بالمساعدة، وفي الأسبوع التالي أشيع أن المعاهدة لم تُرْضِ هتلر تماماً، لذلك خرق شروطها بالجملة قبل أن يجفّ حبرها. ولم يعد غوبلز يمسك نفسه عن الجأر إلى السماء أن إنكلترا قد كُبحت في ميونخ. و انطفأ منار الأمل، بعد أن أضاء يوماً أو يومين، وأدفأ قلوبنا. وأنا لا أستطيع، ولا أتمنى أن أنسى تلك الأيام.

والمفارقة هي أنني لم ألتقِ إلا قلة من الإنكليز في إنكلترا بعد أن عُلم ما حدث في ميونخ بالفعل. كنت أنا المخطئ، لأنني تحاشيتهم، أو تحاشيت محادثتهم، كان عليّ أن أعجب بهم أكثر من أي وقت مضى. لقد كانوا كرماء مع اللاجئين الذين جاؤوا أرتالاً، وأبدوا أنبل مشاعر التعاطف والتفهم. ولكن جداراً غير مرئي أخذ يعلو بيننا وبينهم. وفهمنا نحن ما الذي حدث، وما الذي سيحدث، غير أنهم رفضوا هم أن يفهموا ـ على عكس ما أضمروه إلى حد ما. فرغم كل شي حاولوا التمسك بما توهموه وعوداً ومعاهدات، وأن هتلر يمكن التفاوض معه إذا كان التفاوض صريحاً تماماً. والتزاماً بحكم القانون الذي كرّسته قرون من التقاليد الديمقراطية، فإن القادة الإنكليز لم يستطيعوا، أو لم يريدوا أن يلاحظوا أن أسلوباً جديداً تنتهجه الأخلاقية الساخرة عن وعي، وأن ألمانيا الجديدة قد أتت على كل قواعد لعبة التعامل بين الأمم في ظل القانون الدولي كلما ناسب ذلك هدفها. وأصحاب الرؤية الواضحة البعيدة من الإنكليز الذين لم يخاطروا بالتفكير منذ وقت بعيد في أن ذلك الرجل الذي كان صعوده سريعاً ويسيراً يمكن أن يشتطّ في مغامراته، وظلوا يعتقدون ويأملون أن يتجه جهة أخرى ـ وروسيا كانت الجهة المفضلة!ـ وفي غضون ذلك يمكن إصلاح الأمور معه. وخلافاً لذلك، عرفنا نحن أنه مهما كانت الأحداث القادمة بالغة الفظاعة، فهي الشيء الطبيعي المتوقع. وبما أن كل واحد منا رأى بعين الخيال صديقاً مقتولاً، أو رفيقاً معذّباً، فقد كانت نظرته أشدّ، وأحدّ، وأقسى. والمجردون من الحقوق القانونية، والمطاردون، والمصادرة أملاكهم قد علموا أن الذرائع لا تكون مفرطة الزيف والسخف عندما يتعلق

الأمر بالسلطة والنهب. وهكذا فإن الذين أُخضعوا للامتحان، والذين لم يخضعوا له بعد، من المهاجرين والإنكليز، تكلموا لغتين مختلفتين. وليس مبالغة أن أقول: لقد انفردنا نحن وحدنا آنذاك، إلى جانب قلة من الإنكليز، في عدم إيهام أنفسنا فيما يتعلق بالحد الأقصى للخطر. فهنا في إنكلترا، قُدّر لي كما في النمسا، أن أتنبأ بالمحتوم تنبؤاً واضحاً بقلب معذَّب وبصيرة معذَّبة، غير أنني في إنكلترا كنت غريباً، وضيفاً مقبولاً، ولم أجرؤ على التحذير من العواقب.

لذلك لم يكن لنا، نحن الذين وسَمَنَا القدر، إلا أن نتعاضد عندما تآكلت شفاهنا من المرارة المتوقعة، وعذّبنا مصير البلد الذي عاملنا معاملة أخوية. ومهما كانت النظرة متجهمة، فإن حديثاً مع مفكر كبير رفيع المستوى الأخلاقي يمكن أن يواسيك مواساة لا حد لها، ويكسب روحك نوعاً من الجَلَد. وهذا ما أوضحته لي على نحو لا ينسى ساعات أنيسة أتيح لها قضاؤها مع سيغموند فرويد خلال الأشهر الأخيرة التي سبقت الكارثة. إن بقاء الرجل العاجز الذي تجاوز الثمانين من العمر في فيينا هتلر قد أثقلني عدة أشهر إلى أن أفلحت أخيراً تلميذته المخلصة، الأميرة المدهشة ماريا بونابرت، في إخراج هذا الرجل البارز من فيينا المستعبدة إلى لندن. كان يوماً سعيداً في حياتي عندما قرأت في صحيفة أنه قد وصل، ورأيت أجلّ صديق لي مستعاداً من الجحيم بعد أن ظننت أنني قد فقدته.

لقد عرفت سيغموند فرويد، ذلك الرجل العظيم البسيط الذي عمّق ووسّع معرفتنا بالنفس الإنسانية أكثر من أي واحد آخر، حين كان مايزال في فيينا يتلقّى التقدير، ويواجه المعارضة كناسك عنيد وعسير من نسّاك الفكر. كان متعصباً للحقيقة، مدركاً مع ذلك حدود الحقائق جميعها (قال لي ذات مرة:إن بلوغ الحقيقة المطلقة مستحيل استحالة بلوغ الحرارة درجة الصفر المطلق) ، وقد أقصى نفسه عن الجامعة، والترددات الأكاديمية باقتحامه الهادئ مناطق لم يجرؤ أحد على استكشافها حتى ذلك الوقت من عالم الغرائز العليا والدنيا، وهو المجال ذاته الذي اعتبرته المرحلة من المحرمات المقدسة. وأحسّ العالم الليبرالي المتفائل نفسه بأن السيكلولوجيا التي يفيض بها هذا العقل العنيد يقوّض تماماً أطروحته عن الكبت المتدرج للغرائز عن طريق«العقل» و«التقدم»، ويهدد طريقته التي تتجاهل كل ما يضايقها باستخدام أسلوب الفضح الذي لا رحمة

فيه. وعلى كل حال، فإن هذا «الدخيل» المزعج لم تقاومه الجامعةُ، و زمرةُ أطباء الأمراض العصبية المنتمين إلى المدرسة القديمة فقط، بل العالم كله، وعقل يوم آخر، و«آداب المجتمع». لقد كانت الفترة كلها هي التي أفزعها هذا الهاتك للأستار. ثم أخذت تتشكل مقاطعة للرجل، فتضاءلت ممارسته الطبية، ولكن بما أن أطروحاته، وحتى أجرأ نظرياته، لم يدحضها العلم، فقد حاولوا، كالعادة في فيينا، أن يتخلصوا من نظريته في الأحلام بالتهكم، وتحويلها باستخفاف إلى لعبة مضحكة من ألعاب المجالس. وذات أسبوع زارت مجموعةٌ مخلصة الرجلَ المنعزل، وفي تلك المناقشات المسائية تمت صياغة علم التحليل النفسي الجديد. وقبل أن أستوعب مضامين هذه الثورة الفكرية التي تشكلت من أعمال فرويد الأساسية الأولى، أقررت بما تحلّى به هذا الرجل غير العادي من قوة وثبات أخلاقيين. ها هوذا أخيراً رجل علم، مثال الشاب الحالم الذي يتروّى في عرض القضايا حتى يجد البرهان القاطع، ولكنه لا تزعزعه معارضة العالم حين يطمئن إلى تحوّل فرضيته إلى يقين لا شك فيه. هوذا رجل مطالبه الشخصية بالغة التواضع، ولكنه كان مستعداً للقتال من أجل كل مبادئ مذهبه، ومخلصاً حتى الموت للحقيقة المتضمنة في نظرياته التي أثبتها. كان من الصعب تخيل مفكر أبسل، فقد تجرأ فرويد على التعبير دوماً عن أفكاره حتى لو علم أن المجاهرة الصريحة القاطعة بها قد توجع وتضايق، ولم يبحث قط عن مخرج سهل حتى بتقديم تنازلات سطحية. وأنا واثق أن فرويد لو كان ميّالاً إلى المساترة، فقال eroticism (الرغبة الجنسية) بدلاً من sexuality (النشاط الجنسي)، وeros (الحب) بدلاً من Libido (الدافع الجنسي)، واكتفى بالإشارة إلى استنتاجاته الأخيرة بدلاً من الإصرار المتشدد عليها دائماً، لكان من الممكن أن يعبر بلا عائق عن أربعة أخماس نظرياته أمام أي هيئة أكاديمية. ولكنه كان يتصلب عندما كان الأمر يتعلق بالمعتقد والحقيقة، وكلما اشتدت المقاومة، صار أشدّ تصميماً. وحين أبحث عن رمز للشجاعة الأدبية ـ البطولة الوحيدة التي يمكن أن يقوم بها الإنسان منفرداً على هذه الأرض ـ يمثل أمامي دائماً وجه فرويد الرجولي الوسيم الصريح ذو العينين الداكنتين، والنظرة المحدقة الوادعة.

إن الرجل الذي فرّ إلى لندن من وطنه الذي أكسبه شهرة خالدة في العالم، كان طاعناً في السن إضافة إلى كونه مريضاً، ولكنه لم يكن مرهقاً ولا منحنياً. خشيت في سري أن أجده مغتاظاً ومتألماً بعد ساعات العذاب التي لابد أن يكون قد عاناها في

فينا، غير أنني وجدته أكثر انطلاقاً وحتى أسعد حالاً من أي وقت مضى. قادني إلى حديقة منزله في ضواحي لندن. سألني وقد افترّ بعد تجهم: «هل كان لي منزل أفخم من هذا؟» أراني تماثيله المصرية الأثيرة التي أنقذتها ماريا بونابرت. قال: «ألست في بيتي مرة أخرى؟» على المنضدة استلقت أوراق مخطوطه الذي كتبه وهو في الثالثة والثمانين بالخط القديم الدقيق الواضح الحروف. كان دوماً واضح التفكير، ولا يعتريه التعب، كما في أفضل أيام حياته، فلقد تسامت إرادته القوية على المرض، والشيخوخة، والمنفى، وانسابت منه أول مرة انسياباً حراً تلك الطيبة التي تحلّى بها، والتي أدينت طيلة أعوام النضال الطويلة. إن تقدمه في السن قد زاده نضجاً، والمحن التي كابدها زادته جَلَداً. وبعد أن كان شديد التحفظ، أصبح الآن يبتدر حركات حميمة كأن يضع ذراعه على كتفي، ويزداد ألق عينيه دفئاً خلف نضارته الملتمعة. كان الحديث مع فرويد طوال سنين عديدة يمنحني أعظم المتع الفكرية. كنت أتعلم وأتعجب في آن معاً. إن كل كلمة كان يتفهمها تماماً هذا الرجل الرائع المحايد الذي لا يفاجئه اعتراف، ولا يثيره تصريح، وكان الدافع إلى جعل الآخرين يرون ويشعرون بوضوح قد أصبح منذ وقت طويل أشبه بالفطرة في حياته. وعلى كل حال، فأنا لم أكن قط مدركاً ومقدراً قيمة تلك الأحاديث الطويلة التي لا تعوّض أكثر مني في ذلك العام المظلم الذي قُدّر له أن يكون آخر أعوامه. كنت أنعزل عن جنون العالم في اللحظة التي أدخل فيها إلى غرفته. كانت الفظائع تتحول إلى مجردات، والاضطرابات تتبدد، وما يتعلق باللحظة الراهنة يتخذ مكانه المتواضع في دورات الزمن الكبرى. لقد عشت أول مرة مع حكيم حقيقي تجاوز ذاته، فلم يعد يعتبر الألم والموت تجربة شخصية، بل موضوعاً للملاحظة والتأمل يتخطى شخصه، وكان احتضاره لا يقل اتصافاً بالبطولة الأخلاقية عن حياته.
كان فرويد قد عانى كثيراً من المرض الذي لم يلبث أن أخذه منا. وكنا نلاحظ أن سقف حلقه الاصطناعي قد جعل الكلام شاقاً عليه، ولذلك كنا نعتذر عن كل كلمة يمنحنا إياها. ولكنه لم يدع كلمة تفلت. كانت كبرياء روحه الصلبة تحمله على أن يظهر للأصدقاء أن إرادته ستبقى أقوى من أوجاع الجسد المبتذلة. تقبّض فمه من الألم، وبقي يكتب حتى الأيام الأخيرة، وحتى حين كان الألم يحرمه من النوم ليلاً - ذلك النوم العميق المتعافي الذي كان مصدر قوته الأول طيلة ثمانين سنة - فإنه لم يقبل تناول جرعات منوّمة أو أي نوع من المخدرات. لقد أبى أن تغشّي هذه المهدئات صفاء ذهنه ساعةً

واحدة. آثر أن يكابد الألم ويبقى متيقظاً، آثر التفكير وهو يتألم على عدم التفكير، وبقي بطل الروح حتى النهاية. كان الصراع رهيباً، وكلما طال ازداد مهابة. ومن يوم إلى آخر، كان شبح الموت يتضح أكثر على وجهه. لقد غارت وجنتاه، وبرزت عظام صدغيه، والتوى فمه، وانعقد لسانه عن الكلام، ولم تُعجز «حاصدَ الأرواح الكالح» إلا عيناه، المَرْقب المنيع الذي أحدّ منه العقل الباسل النظر إلى العالم: لقد بقي العقل والعين واضحين حتى اللحظة الأخيرة. وفي إحدى زياراتي الأخيرة اصطحبت معي سلفادور دالي، أكثر رسامي الجيل الشاب موهبة في رأيي، وكان يجلّ فرويد إجلالاً عظيماً. وبينما كنت أتحدث مع فرويد، انهمك دالي في تخطيط صورة له. لم أجرؤ على إطلاع فرويد عليها، لأن دالي قد أدخل الموت باستبصار فيها.

إن صراع هذه الإرادة القوية، هذا العقل المتعمق النظر في عصرنا، ضد الفناء قد ازداد ضراوة، وعندما أدرك هو نفسه بكل وضوح - هو الذي كان دائماً يعتبر الوضوح أسمى صفات التفكير - أنه لن يستطيع مواصلة الكتابة والعمل، عند ذاك فقط سمح، مثل بطل روماني، أن يضع الطبيب حداً لما يعانيه من ألم. لقد كانت نهاية نبيلة لحياة نبيلة، موتاً مشهوداً حتى وسط مجازر ذلك الزمن القاتل. ولما أنزلنا، نحن الأصدقاء، تابوته في ثرى إنكلترا، علمنا أننا قد أعطيناها خير الرجال في بلادنا.

وفي تلك الساعات كثيراً ما تحدثت إلى فرويد عن الحرب، ورعب عالم هتلر. وقد صدمه انفجار الوحشية صدمة شديدة كإنساني، ولكنه لم يفاجئه كمفكر على الإطلاق. قال: إنه كان دائماً يُلام على تشاؤمه، ولأنه أنكر تفوق الثقافة على الغرائز، غير أن قوله: إن الغريزة البربرية، غريزة التدمير المتأصلة في نفس الإنسان، غير قابلة للاستئصال، قد تأكد بأشد الصورة هولاً. وهذا لا يعني أنه كان مرتاحاً إلى صواب رأيه. ربما تعثر القرون القادمة على صيغة للتحكم في الغرائز، على الأقل فيما يتعلق بما يهمّ الناس عامة، على أنها ستبقى في الحياة اليومية، وفي أعماق الإنسان، غير قابلة للاستئصال، وربما ستبقى عوامل منشطة مفيدة. ومع أنه ازداد انشغالاً بمشكلة اليهود المعاصرين في تلك الأيام، فإن علمه لم يقدم أي صيغة، وعقله الصافي لم يعثر على أي حل. وقبيل ذلك الوقت كان قد أصدر كتابه عن موسى الذي يقدمه لنا مصرياً وليس يهودياً، وبالتالي فإن هذا التحديد المشكوك في قيمته العلمية قد أساء به إلى المتدينين والقوميين من اليهود. وكان أن أسف على نشر الكتاب في أسوأ أوقاتهم،

وقال:«الآن، وقد انُتزع منهم كل شيء، أتناول أنا أفضل رجل عندهم.» ولم يكن لي إلا الموافقة معه على أن حساسيتهم قد تضاعفت الآن، لأنها واقعون في وسط كارثة العالم في كل مكان، ولأنهم كانوا يعلمون، بعد أن تفرقوا قبل الضربة، أن الشر، مهما كان، سيمسّهم أولاً، وسيكون مضاعفاً، وأن أشدّ مجانين العصور كراهية كان يريد أن يذلّهم هم خاصة، وأن يمحقهم أينما كانوا. كانت أعداد اللاجئين الواصلين تتزايد كل أسبوع وكل شهر، وكانت كل مجموعة تبدو تعيسة ومذعورة أكثر من سابقتها. فالمجموعات الأولى التي أسرعت في مغادرة ألمانيا والنمسا أفلحت في إنقاذ الملابس، والأمتعة، وأثاث المنزل، بل أن بعضها كان معه بعض المال. وأما الذين وضعوا ثقتهم في ألمانيا، وصعب عليهم انتزاع أنفسهم من وطنهم الحبيب، فقد عوقبوا أشدّ العقاب. جُرّد اليهود أولاً من وظائفهم، ومُنعوا من ارتياد المسارح ودور السينما والمتاحف، وحُرم الأساتذة من استعمال المكاتب، ومع ذلك لم يغادروا البلد إما إخلاصاً أو تراخياً، وإما جبناً أو كبرياء. لقد آثروا الذل في الوطن على ذل التسول خارجه. ومُنعوا من استخدام أحد، وأُخذت أجهزة الراديو والهواتف من منازلهم، ثم أُخذت المنازل ذاتها، وفُرضت عليهم نجمة داود كعلامة يعرفون بها. وجرى تجنّبهم و الهزء منهم كالمجذومين، ثم طُردوا وجُرّدوا من حقوقهم القانونية. لقد سُحبت منهم الحقوق جميعها، ومورس عليهم كل أنواع القسوة الروحية والجسدية بكل ساديّة عابثة، ولم يلبث أن أصبح المثل الروسي القديم حقيقة عند كل يهودي:«لا ينجو أحد من صرّة المتسول أو من السجن.» فمن لم يغادر، أُلقي به في معسكر اعتقال حيث كان الانضباط الألماني يسحق حتى أشد الناس إباء. ثم كان يُدفع إلى الحدود بعد سلبه كل شيء سوى حقيبة ظهره، وعشرة ماركات في جيبه. كانت مناشدات القنصليات تذهب سدى في الغالب، فأي بلد كان مستعداً لاستقبال قادمين جدداً حوّلهم النهب إلى متسولين؟ لن أنسى مشهداً رأيته ذات مرة في مكتب سفر لندن. كان مزدحماً بلاجئين معظمهم من اليهود، وكل واحد منهم كان يريد أن يذهب إلى أي مكان، إلى أي بلد آخر، إلى أي بقعة في القطب المتجمد، أو في رمال الصحراء الحارقة. ولأن التأشيرات قد انقضت مدتها، كان عليهم أن يقصدوا مع الزوجات والأولاد عالم لغة آخر، قوماً لا يعرفونهم، ولا يريدون استقبالهم. وهناك التقيت رجل صناعة ثرياً جداً من فيينا كان أحد أذكى جامعي اللوحات الفنية عندنا. كان طاعناً في السن، وأشيب، ومنهكاً بحيث لم أتعرّفه في

البداية. تشبثت يداه الضعيفتان كلتاهما بالطاولة. سألته عن قصده فقال: «لا أدري. من يسأل عن الرغبات هذه الأيام؟ فأنت تقصد المكان الذي يُسمح لك بالدخول إليه». وقال لي أحدهم: «إنني قد أتمكن من الحصول على تأشيرة دخول إلى هايتي أو سان دومنغو.» واضطرب نبض قلبي حين رأيت رجلاً منهكاً مع أطفاله وأحفاده وقد أصابته رعشة الأمل في الذهاب إلى بلد لم يتمكن حتى ذلك الوقت من معرفة موقعه على الخريطة، وهناك عليه أن يلتمس طريقه، ويكون غريباً وبلا هدف مرة أخرى! وسأل رجل واقف إلى جانبه سؤال اليائس الملهوف: كيف يمكن أن يصل المرء إلى شنغهاي؟ فلقد سمع أن الصين ما تزال تأذن للاجئين بالدخول إليها. لقد احتشدوا هناك، أساتذة جامعات، وأصحاب مصارف، وتجار، وملاكون، وموسيقيون سابقاً، وكل واحد منهم مستعد لكي يجرّ أنقاض حياته البائسة إلى أي مكان في المعمورة والمحيطات، بغية العمل والمعاناة بعيداً فقط، بعيداً عنها ليس غير! كان جمعاً من الأشباح، ولكن الفكرة التي آلمتني أكثر من أي شيء آخر هي أن أولئك الخمسين إنساناً معذباً لم يكونوا إلا مجموعة مناوشة تتقدم جيشاً تعداده خمسة ملايين، أو ثمانية، أو عشرة، وهو يقوّض الخيام في المؤخرة، ويتقدم. إن هذه الملايين التي نُهبت أولاً، ثم داستها الحرب، كانت تنتظر المساعدة في المؤسسات الخيرية، وتنتظر أوراق الإذن الرسمية، والمال الكافي للانطلاق. كان حشداً هائلاً استفزه الإجرام، ففرّ مذعوراً أمام نار الغابة الهتلرية، وحاصر محطات القطارات على حدود الدول الأوروبية كلها، وملأ السجون. لقد طرد شعب كامل حُرم الانتماء إلى أمة، ومع ذلك كان شعباً لم يسْعَ إلى شيء منذ ألفي سنة سعيه إلى وقف التجوال، و وضع أقدامه على أرض فيها اطمئنان وسلام.

إن أفجع ما في مأساة اليهود في القرن العشرين هو أن الذين عانوها عرفوا أنها بلا معنى، وأنهم بلا ذنب. كان أسلافهم في العصور الوسطى يعرفون على الأقل أنهم كانوا يعانون من أجل اعتقادهم، ومن أجل شريعتهم. وكان عندهم أيضاً طلسم الروح الذي افتقده جيل اليوم منذ عهد بعيد، أي الإيمان بالله. ولقد عاشوا وعانوا الوهم المتفاخر بأن الخالق قد جعلهم شعباً مختاراً من أجل قدر خاص، ورسالة خاصة، وكان وعد الكتاب المقدس عندهم وصية وناموساً. عندما كانوا يُرموْن في النار، كانوا يضمّون الكتاب المقدس إلى صدروهم، وكانت النار التي في داخلهم تجعلهم أقل إحساساً بألسنة اللهب المهلكة. ورغم إقصائهم من بلد إلى آخر، فقد بقي لهم وطن

أخـيـر، وطنهم في الله الذي لا تسـتطيع أن تطردهم منه سلطة على الأرض، لا إمبراطور، ولا ملك، ولا محكمة تفتيش. و ظلوا جماعة، وبالتالي قوة طالما جمع شملهم الدين. وحين كانوا يُعزلون ويُطردون، كانوا يكفّرون عما ارتكبوا من أخطاء بالانعزال عمداً عن سائر أمم الأرض داخل دينهم وعاداتهم. ولكن اليهود في القرن العشرين لم يعودوا جماعة متجانسة منذ وقت بعيد، إذ ليس لهم إيمان مشترك، ولا يعتبرون يهوديتهم مفخرة بل عبئاً، ولا يؤمنون بأي رسالة. إنهم يعيشون في معزل عن وصايا كتبهم التي كانت ذات يوم مقدسة، ولا يتكلمون اللغة القديمة المشتركة. لقد كان الاندماج في الشعب الذي يعايشونه، والتفاهم معه، والذوبان في الحياة العامة، هو الهدف الذي كافحوا من أجله، من أجل الارتياح من التعذيب، والكفّ عن الفرار الأبدي. وهكذا انتفى التفاهم بين مجموعة وأخرى، وانصهرت كلها في سائر الشعوب كما هي، فأصبحت فرنسية، وألمانية، وإنكليزية، وروسية أكثر منها يهودية. و الآن فقط، ومنذ أن جُرفوا مثل القمامة في الشوارع، و وكوّموا معاً: أصحاب المصارف من مباني برلين والسدنة من معابد الطوائف الشرقية، أساتذة الفلسفة من باريس وسائقو العربات الرومانيون، مساعدو أصحاب الحوانيت وحاملو جائزة نوبل، مغنو الحفلات الموسيقية والنائحات بالأجرة، المؤلّفون والمقطّرون، المالكون وغير المالكين، الكبار والصغار، الأتقياء والليبراليون، والمرابون والحكماء، الصهاينة والمندمجون، الأشكنازيم (يهود بولندا وألمانيا) والسفارديم (يهود إسبانيا والبرتغال)، المنصفون وغير المنصفين، إلى جانب خليط من الذين اعتقدوا أنهم قد تملّصوا من اللعنة، المعمّدون وأشباه اليهود - الآن فقط أرغم اليهود أول مرة منذ مئات السنين على أن يسكنوا جماعة موحّدة المصلحة، وهو ما فقدوا الإحساس به منذ زمن بعيد، جماعة تكرر إخراجها من مواطنها منذ أول عهدها في مصر. ولكن لِمَ قُدّر عليهم هذا؟ ولماذا قُدّر عليهم وحدهم دائماً؟ ما السبب، وما المغزى، وما غاية هذا الاضطهاد الذي لا معنى له؟ لقد طُردوا من البلدان، ولكن لم يعرفوا إلى أي بلد يذهبون، ولا أي بلد يمكن أن يقبلهم. وأُنحيَ عليهم باللائمة من غير أن يُسمح لهم بالتفكير. وهكذا تبادلوا أثناء الفرار نظرات حادة: لِمَ أنا؟ لِمَ أنت؟ وكيف اتفق أن اجتمعنا هنا، أنا وأنت اللذان لا يعرف أحدنا الآخر، ولا نتكلم لغة واحدة، ولا يجمعنا شيء؟ لِمَ أي واحد منا؟ ولا أحد استطاع أن يجيب. وحتى فرويد، الأوضح رؤية في عصرنا، والذي تحدثت معه كثيراً في تلك الأيام، بُهت

ولم يستطع أن يجد معنى فيما لا معنى له. من يدري؟ ربما تكون الديانة اليهودية ذات الديمومة الغامضة تمثل في جوهر دلالتها مناداة أيوب للرب، والتي تتكرر دائماً حتى لا تُنسى على الأرض.

ليس هناك تجربة في الحياة أكثر شبحيّة من تلك التي يظن فيها الإنسان أن شيئاً ما قد مات واندفن، ثم يُفاجأ به ماثلاً أمامه بالصورة ذاتها والهيئة ذاتها. جاء صيف ١٩٣٩، وكان وهم ميونخ عن «السلام في عصرنا» قد تبدد منذ وقت طويل. كان هتلر قد غزا تشيكوسلوفاكيا المقسمة واستولى عليها خلافاً لكل وعد وعهد، واحتل ميمل، أما دانسغ والممر البولندي فقد كانت الصحف الألمانية تطالب بهما بانفعالها البارع في خلقه. وكانت إنكلترا قد استفاقت حزينة من غفلتها الطويلة. وحتى السذّج غير المتعلمين الذي كان مقتهم للحرب مجرد غريزة أخذوا يعبرون عن نزقهم الناقم. ودُفع إلى الكلام جميع الإنكليز المتحفظين عادة: بواب شقتنا الكبيرة، وعامل المصعد، والخادمة وهي ترتب الغرفة. إن أحداً لم يفهم تماماً حقيقة الوضع، ولكنهم تذكروا جميعاً شيئاً واحداً، الحقيقة التي لا تُنكر، وهي أن شامبرلين، رئيس وزراء إنكلترا، قد طار إلى ألمانيا ثلاث مرات للمحافظة على السلام، وأن هتلر لم يرْضِه أي تنازل. سُمعت أصوات حازمة في البرلمان الإنكليزي تصرخ: «أوقفوا العدوان!» وشوهدت استعدادات من كل ناحية للحرب القادمة (أو ضدها في الحقيقة). وعاودت البالونات المضادة للطائرات تحليقها في سماء لندن مثل دمى أفيال ربداء بريئة، وحُفرت مرة أخرى ملاجئ، ووُزّعت كمامات الغاز، وفُحصت بكل عناية. كان الترقب يماثل ترقب العام الفائت، وربما كان أشد لأن الشعب الذي وقف الآن خلف الحكومة لم يعد ساذجاً وصادقاً، بل مُغْضَباً ومصمماً.

كنت قد غادرت لندن خلال ذلك الفصل، والتجأت إلى بات Bath في الريف. استحوذ عليّ شعور بالغ القسوة بعجز الإنسان حيال أحداث العالم لم أشعر به في حياتي. هاهنا يقف المرء متنبهاً، متفكراً في وجوده، وينشغل بأشياء بعيدة عن السياسة، وينكبّ على عمله، ويواظب في جو هادئ على مهمة تحويل أعوامه إلى منجزات. وهناك في أماكن غير مرئية عدد من الأشخاص لم يعرفهم ولم يرهم أحد قط، موزّعون بين شارع ويلهلم في برلين، ووزارة الخارجية الفرنسية في باريس، وقصر

البندقية في روما، وداوننغ ستريت في لندن، وهؤلاء العشرة أو العشرون الذين لم يُظهر إلا قلة منهم أي حكمة خاصة، أو ذكاء خاص، كانوا يتحدثون، ويكتبون، ويتهاتفون، ويعقدون معاهدات حول أشياء لم يُعرف عنها شيء. كانوا يتخذون وحدهم قرارات مجهولة التفاصيل، ومع ذلك كانوا يضعون الخطط الأخيرة المتعلقة بحياتي، وحياة كل إنسان في أوروبا. لم يعد مصيري في يدي، بل في يدهم. كان في وسعهم أن يدمرونا، نحن العاجزين، أو ينقذونا، أن يمنحوا الحرية أو يفرضوا العبودية، أن يقرروا الحرب أو السلام للملايين. وهناك في غرفتي جلست مثل أي واحد آخر أعزلَ مثل ذبابة، ضعيفاً مثل حلزون، في حين أن الموت والحياة، ومستقبلي، وذاتي الباطنة، كانت مرتهنة بالأحداث، وكذلك تشكُّلُ الأفكارِ في ذهني، والخطط الوليدة والتي لم تولد بعد، وانتباهي ورقادي، وإرادتي، وأملاكي، وكل وجودي. هناك جلست أنتظر وأحدّق في الفراغ مثل محكوم في زنزانة، محتبس، وواقع في شرك هذا الانتظار الذي لا معنى له، ولا عون عليه، ورفاق سجني عن يميني وشمالي يسألون، ويتكهنون، ويتفاكهون، وكأن واحدنا كان يعلم، أو يستطيع أن يعلم ما سيصير إليه أمرنا وكيف. كان جرس الهاتف يرنّ، ويسألني أحد الأصدقاء عن خططي. كانت الصحف تزيد الارتباك، والإذاعة تبثّ بيانات متناقضة. كنت أخرج للتمشي، ويسألني أول من التقيه، وأنا الجاهل مثله، إن كانت الحرب آتية أم لا. القلق كان يدفع المرء إلى طرح السؤال ذاته وإلى الثرثرة، والمناقشة، وهو يعلم تماماً أن المعرفة والتجربة والحكمة والبصيرة التي كدستها السنون، وثقّف نفسه بها، كانت عديمة القيمة إزاء حكم ذلك العدد القليل من الرجال الغرباء. كان عاجزاً وعديم الإرادة في وجه القدر، كما كان في باديء الأمر، وبقيت الأفكار الخالية من المعنى تقرع الصدغين قرعاً موجعاً. وأخيراً لم أعد أحتمل العاصمة، لأن الكلمات الصاخبة على مشاجب الصحف القائمة عند كل منعطف كانت تثب إليّ مثل كلاب مقيتة، ولأنني كنت أجدني أحاول أن أقرأ الأفكار خلف آلاف الوجوه التي تمرّ بي. كانت تلك الأفكار، أفكارهم وأفكاري، متطابقة، ومنحصرة في نعم أو لا، في «الأسود» و«الأحمر» في اللعبة الحاسمة التي كانت حياتي جزءاً من مجازفتها، أعوامي المدخرة الأخيرة، كتبي التي لم تؤلف بعد، وكل ما شكّل حتى الآن معنى حياتي وغايتها.

ولكن الكرة تدحرجت هنا وهناك على طاولة قمار الدبلوماسية مترددةً، وبطيئة بطأ يثير السخط. إلى الأمام وإلى الوراء، أسود وأحمر، أحمر وأسود، أمل وخيبة، أخبار طيبة وأخبار سيئة، ولكنها لم تكن الفاصلة والأخيرة. وأمرت نفسي: انسَ! اهربْ، التجئْ إلى أغوار ذاتك، إلى عملك، اهربْ إلى حيث لا تكون إلا كينونتك، لا مواطن دولة، ولا ألعوبة في هذه اللعبة الجهنمية، وحيث يستطيع بعضك العقلي أن يواصل عمله العقلاني في عالم أُصيب بالجنون.

لم أكن محتاجاً إلى مهمة. فأنا كنت منذ سنين أجمع موادَّ تحضيراً لدراسة عن بلزاك وعمله في كتابين كبيرين، ولكنني لم أملك الشجاعة قط للشروع في مثل هذا العمل الشامل الذي كان يحتاج إلى وقت طويل. وما أمدّني بالشجاعة هو كآبتي بالذات. انسحبت إلى باث، وإلى باث خاصة لأن قرناً أكثر طمأنينة - القرن الثامن عشر - ينعكس فيها للنظر الساجي انعكاساً أصدق وأقوى تأثيراً من أي مدينة أخرى في إنكلترا. إنها المدينة التي أنجز فيها أيضاً أفضل أعمالهم كثير من رجال الأدب الإنكليز اللامعين، وعلى رأسهم فيلدنغ. و لكم كان التباين مؤلماً بين هذا الريف اللطيف الذي وُهب جمالاً ناعماً والاضطراب الذي يتعاظم في العالم وفي تأملاتي! وكما كان شهر تموز من سنة ١٩١٤ أجمل الشهور التي أذكرها في النمسا، كذلك كان شهر آب من سنة ١٩٣٩جميلاً جمالاً متحدّياً. ها هي ذي مرة أخرى السماء الزرقاء الناعمة تبدو مثل خيمة علويّة، وأشعة الشمس المعتدلة تغمر المروج والغابات، إضافة إلى روعة الأزهار التي تعزّ على الوصف - أنفاس السلام العظيمة المستمرة على الأرض في حين كان البشر يتأهبون للحرب. وبدا الجنون غير قابل للتصديق، كما في ذلك الزمان الغابر، قبالة هذا الإزهار الوافر المتواصل الهادئ، وهذه السكينة المتناغمة التي بدت فَرِحة بذاتها في وديان باث التي ذكرتني جمالها على نحو غريب بجمال ريف بادن عام ١٩١٤.

كنت غير ميّال إلى التصديق مرة أخرى. وفي هذه المرة أيضاً قمت باستعدادات لرحلة صيف. كان مؤتمر الجمعية الدولية للكتاب P.E.N قد خُطّط له في ستوكهولم في الأسبوع الأول من أيلول ١٩٣٩، وقد دعتني المجموعة السويدية كضيف شرف بما أنني لم أعد أمثّل في حالتي البرمائية أي أمة، وتلطّف المضيفون في وضع برنامج لكل ساعة من أسابيع الإقامة. وكنت قد حجزت للعبور منذ وقت طويل، ثم توالت التقارير

المهددة المتزايدة الحدة عن التعبئة الوشيكة. و بحسب قواعد العقل، توّجب عليّ أن أحزم كتبي ومخطوطاتي على عجل، وأغادر الجزر البريطانية التي كانت مسرحاً محتملاً للحرب، لأنني أجنبي في إنكلترا، وفي الحرب يصبح الأجنبي عدواً تهدده كل أنواع التضييق الممكنة على الحرية الشخصية. ولكن شيئاً في داخلي لا يُفسَّر عارض فكرة الفرار طلباً للأمان. كان ذلك أَنَفاً من الهرب مرة أخرى، وشيئاً من الإجهاد، بما أن القدر يقتفي أثري أينما ذهبت على كل حال. حدثت نفسي مع شكسبير: «دعنا نلاقي الزمن عندما يبحث عنا.» وإذا بحث عنك وأنت تناهز الستين، فلا تبدِ مزيداً من المقاومة. فأفضل ما عندك، الحياة التي عشتها، تبقى غير متأثرة. وهكذا لم أغادر. ومع ذلك، أردت أن أرتب أموري الخاصة على أفضل وجه بما أنني كنت أنوي الزواج ثانية، ولم أرغب في تبديد أي لحظة، وذلك لكي لا يفصلني فترة طويلة عن شريكة حياتي المقبلة اعتقالٌ، أو إجراءات أخرى غير منظورة. لذلك ذهبت في صباح ذلك اليوم ـ الأربعاء، الأول من أيلول ـ إلى مكتب الزواج في باث للحصول على رخصة زواج. أخذ الموظف أوراقنا، وكان ودوداً ومتحمساً على نحو غير مألوف. ومثل أي واحد آخر في ذلك الوقت، تفهم رغبتنا في التعجيل. كان موعد الزفاف محدداً في اليوم التالي، فأخذ القلم، وبدأ يكتب بكل دقة اسمينْا في سجلّه.

وفي تلك اللحظة بالذات ـ كانت الساعة الحادية عشرة تقريباً ـ انفتح باب الغرفة المجاورة، واندفع منه موظف شاب وهو يرتدي معطفه، وصاح في الغرفة الهادئة: «الألمان غزوا بولندا. ها هي ذي الحرب!» وقعت الكلمة مثل ضربة مطرقة على قلبي. غير أن قلوب جيلنا تعودت كل أنواع الضربات الشديدة. قلت باقتناع صادق: «هذا لا يعني الحرب بالضرورة.» ولكن الرجل كاد يلتهب غيظاً، وصاح بكل قوته: «لا! كفانا! لا يمكن أن يسمح لهم بأن يفعلوا هذا الأمر كل ستة أشهر! علينا أن نضع حداً لذلك!»

وفي تلك الأثناء ألقى الموظفُ الذي كان بدأ يملأ وثيقتنا قلمه على الطاولة وأطرق. خطر له أننا رغم كل شيء أجنبيان، وفي الحرب يصبح الأجنبي عدواً. لم يعرف إن كان الزواج في مثل تلك الأحوال ما يزال مسموحاً به. كان شديد الأسف، وعلى أي حال، تعيّن عليه أن يطلب التوجيهات من لندن. تلا ذلك يومان من الانتظار، والأمل، والخوف، يومان من الترقب الفظيع. وفي صباح يوم أحدٍ بثّ الراديو خبر إعلان إنكلترا الحرب ألمانيا.

كان صباحاً غريباً. تراجعنا في صمت عن الراديو الذي قذف رسالة في الغرفة لن يأتي عليها الزمن، رسالة قُدّر لها أن تغيّر عالمنا بالكلية، وتغيرّ كل فرد منا، رسالة كانت تعني الموت للآلاف من أولئك الذين استمعوا إليها في صمت، وتعني الأسى، والتعاسة، واليأس، والتهديد، لنا جميعاً، وربما ستعني دلالةً مبدعة، ولكن بعد سنين وسنين. ها هي ذي الحرب مرة أخرى، الحرب الأفظع والأوسع نطاقاً من أي حرب على الأرض من قبل. ها هي ذي مرحلة تنتهي، ومرحلة جديدة تبدأ ثانية. وقفنا صامتيْن في الغرفة التي ران عليها سكون الموت متحاشييْن تبادل النظرات. ومن خارج الغرفة جاء تغريد الطيور غير المكترثة، العابثة في غزلها، المستسلمة للنسيم الرخيّ، وتمايلت الأشجار ذهبية اللمعان كأن أوراقها شفاهاً تودّ لو تتلامس. لم يكن من شأن الطبيعة، أمنا القديمة، أن تعرف ما يشغل مخلوقاتها.

دخلت إلى غرفتي، وحزمت حقيبة صغيرة. فبحسب تكهن صديق رفيع المقام، فإن النمساويين في إنكلترا سيعاملون كألمان، وسيخضعون للتقييدات ذاتها، لذلك كان من المستبعد أن يسمح لي بالنوم في غرفتي في تلك الليلة. وهكذا انخفضتُ درجةً مرة أخرى، ففي غضون ساعة لم أعد مجرد غريب في البلاد، بل «أجنبياً عدواً»، غريباً معادياً، وهذا القرار فرض عليّ أن أكون في وضع لا علاقة لنبض قلبي به. أيمكن تخيل وضع أكثر عبثية من وضع إنسان يُرغم ـ بناء على شهادة ميلاد شاحبة ـ على الانحياز إلى ألمانيا التي طردته منذ وقت طويل لأن عرقه وفكره قد وسماه بالعداء لألمانيا، وهو النمساوي الذي لم ينتسب إليها قط؟ إن جرة قلم حوّلت مغزى حياة كاملة إلى مفارقة، فأنا كتبت وفكرت باللغة الألمانية ولكن كل ما فكرت فيه وتمنيته كان ينتمي إلى البلدان التي كافحت من أجل حرية العالم. إن كل ولاء، وكل ما مرّ وانقضى، قد تمزق وتحطم، وعلمت أن كل شيء سوف يبدأ بداية جديدة بعد هذه الحرب لا محالة. لقد دُنّس أعزّ الأهداف عليّ، الهدف الذي كرّست له كل طاقة إيماني طيلة أربعين عاماً، أي اتحاد أوروبا. وما كنت أخشاه أكثر من الموت، أي حرب الكل ضد الكل، قد أُطلق لها العنان الآن مرة أخرى. والذي أجهد قلبه وروحه طيلة حياته من أجل الوحدة الإنسانية والروحية ألفى نفسه، بعد هذا الإفراد المفاجىء في هذا الوقت المنافي لأي وحدة منيعة مطلوبة، فائضاً ووحيداً كما لم يلْفها في أي وقت مضى.

تجولت مرة أخرى في المدينة لأَلقي نظرة أخيرة على السلام. بدت المدينة مستكينة

في شمس الظهيرة تماماً كما في أيام أخرى. كان الناس ماضين في الطرقات على جاري عادتهم. لم تظهر عليهم علامات العجلة، ولم يتجمعوا للثرثرة. كانوا يتصرفون كأنهم في يوم عطلة، وفي لحظة ما تساءلت: «هل يمكن ألا يكونوا قد علموا بالأمر بعد؟» ولكن أولئك هم الإنكليز المتمرسون في ضبط مشاعرهم. لم يكونوا محتاجين إلى رايات وطبول، وصخب وموسيقا، من أجل تقوية أنفسهم، وهم أهل عزيمة ماضية غير عاطفية. كم كانت هذه الأيام مختلفة عن أيام تموز ١٩١٤ في النمسا! وكم كنت أنا مختلفاً أيضاً عن ذلك الشاب العزيز آنذاك! كم كنت مثقلاً بالذكريات! لقد ذقت طعم الحرب، وحين كنت أنظر إلى المتاجر المرتبة الممتلئة بالسلع، تخيّلت المتاجر المفرغة من محتوياتها عام ١٩١٨ كأنها عيوْن جاحظة. وكما في حلم يقظة، رأيت الطوابير الطويلة من النساء المهمومات أمام متاجر الأغذية، والأمهات اللابسات الحداد، والجرحى، والمقعدين، وعاودني كابوس يوم آخر بكل أطيافه في الظهيرة الساطعة الضوء. تذكرت جنودنا القدماء المتعبين ذوي الهيئات الرثة، وكيف عادوا من ساحة القتال. تحسس قلبي النابض كل الحرب الماضية في الحرب الداهمة في ذلك اليوم، والتي مازال رعبها محتجباً عنا. وأدركت مرة أخرى أن الماضي قد انقضى، وأن المنجزات قد دُمّرت، وأوروبا، موطننا الذي نذرنا أنفسنا من أجله، قد أصابها خراب يتخطى حياتنا. إن شيئاً جديداً، عالماً جديداً قد بدأ، ولكن كم جحيم وكم مطهر ينبغي عبوره قبل بلوغ ذلك العالم!

كانت الشمس قوية السطوع. وبينما أنا ماضٍ إلى المنزل، إذ رأيت ظلي أمامي، كما رأيت الحرب السابقة خلف الحرب الراهنة. وخلال هذا الوقت كله لم يتزحزح ذلك الظل الثابت من أمامي، وبقي يحوم فوق كل فكرة من أفكاري ليل نهار، وربما استلقى شكله المظلم على بعض صفحات هذا الكتاب أيضاً. لكن الظلال ذاتها تنشأ من الضوء. رغم كل شيء. ومن لم يعش تجربة الفجر والغسق، والحرب والسلام، والارتقاء والانخفاض، فإنه في واقع الأمر لم يعش.

تعقيب الناشر

انتحر ستيفان زفايج. وزوجته إليزابث شارلوت زفايج في مدينة بتروبوليس البرازيلية في ٢٣ شباط ١٩٤٢. وها هي ذي رسالة زفايج الأخيرة:

قبل مفارقتي الحياة بإرادتي الحرة، وفي صحة من عقلي، أنا مرغم على الوفاء بالتزام أخير: أن أقدّم شكري الصادر من القلب إلى البرازيل، هذا البلد الرائع الذي وفرّ كرمه لي ولعملي كل أسباب الراحة. لقد تعاظم حبي للبلاد يوماً بعد يوم، ولم أكن لأوثر بناء حياة جديدة إلا فيها بعد أن توارى عالم لغتي عني، ودمّرت أوروبا، موطني الروحي، نفسَها.

ولكن الذي بلغ الستين من العمر يحتاج إلى طاقات غير عادية حتى يبدأ بداية جديدة كل الجدة، وما لديّ من طاقات قد استنزفتها أعوام التشرد المديدة. لذلك من الأفضل في اعتقادي أن أختم في الوقت المناسب، وأنا منتصب القامة، حياةً كان العمل الفكري فيها يعني الفرح الأصفى، والحرية الشخصية الأنقى، والخير الأسمى على الأرض.

تحياتي إلى كل أصدقائي! عسى أن تتسنى لهم رؤية الفجر بعد هذا الليل الطويل! وها أنذا أتقدمهم، وقد فرغ صبري تماماً.

ستيفان زفايج

متروبوليس ١٩٤٢/٢/٢٢

كان ستيفان زفايج يشجع على الدوام أصدقاءه على تدوين مذكراتهم، لا من أجل نشرها بالضرورة، بل من أجل أن يستمتع بها ويستفيد منها أبناؤهم، وأسرهم. لقد كان يرى أن كل حياة تتضمن تجارب نفسية واجتماعية جديرة بالتدوين. ولعل افتتانه طيلة حياته باليوميات المخطوطة، والمذكرات الشخصية، وكل الآثار المكتوبة باليد، وبراعته في تفسير تلك البقايا، قد ساقاه إلى المغالاة في تقويم أهمية سير الناس البسطاء. ولقد انتظر طويلاً قبل أن يكتب هو مذكراته، وربما كان سبب ذلك نفوره من بريق الشهرة. من المؤكد أن ستيفان زفايج لم يكتب هذا الكتاب كرسالة وداع، لأنه كان مشروعاً قديماً أشار إليه أحياناً في أوقات أسعد. وفي آخر زيارة له إلى الولايات المتحدة، أقبل على كتابته بكل حيوية. وإن قسماً منه سوّده خلال إقامته في فندق Wyndham في نيويورك، وقسماً آخر في فندق Taft في نيوهيفن، حيث أقام مدة من الزمن تعلله فكرة الاستقرار في ظل جامعة Yale، ثم أنجز القسم الأعظم في مطلع صيف ١٩٤١ في Ossining في نيويورك، حيث استأجر منزلاً. والفصل الوحيد الذي كتبه في البرازيل هو فصل «أول الشباب»، وهو لم يستدرك في هذا الفصل ما فات بأي حال من الأحوال، فالتأخير سببه الرغبة في التفكير في الصورة الصحيحة التي ينبغي أن يتخذها مثل هذا الموضوع الحسّاس المهم الذي يتحاشاه كتّاب السير الذاتية عامةً، إما استحياءً، و إما مخافة الفضيحة.

أبحر ستيفان زفايج وزوجته إلى البرازيل على متن سفينة S.S.Uruguay في ١٥ آب ١٩٤١. لقد أحب تلك البلاد، وكان على يقين أنها ستعيد إليه راحة باله، وتوفّر له الجو الهادئ لمساعيه الأدبية. والرسائل المبكرة من هناك أظهرت أن الحزن الذي سببته أحداث العالم قد زال، وانخرط في العمل. والعمل كان صورة أي عطلة عنده. كان على الدوام يكتب، أو ينشغل بدراسات تحضيرية للكتابة، وكان يطيب له أن ينكبّ على عدة مخطوطات في وقت واحد.

أغرته الكتابة عن مونتين في تلك الأيام (كان قد عثر بالمصادفة على كتاب «المقالات» في محل إقامته في بتروبوليس) فتوفّر على أعمال الكاتب الفرنسي، ومجموعة الكتب الغنية التي كتبت عنه، والتي وجدها في مكتبة خاصة فخمة أُذن له باستعمالها. ويبدو أن المخطوط المنجز لم يكتمل حتى يُنشر كله. شرع في كتابة رواية أيضاً، ثم إنه نحّاها جانباً، وكان شديد الرغبة في استئناف سيرة بلزاك التي استغرقته في مدينة باث حتى غادر إنكلترا عام ١٩٤٠. وهذه السيرة قد نشرت سنة ١٩٤٧.

انتهى

الفهرس